



حكايات من ضيعة الأرامل

ووقائع من أرض الرجال



ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

جيمس كانيون

حكايات
من ضيعة الأرامل
ووقائع من أرض الرجال

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

جيمس كانيون: حكايات من ضيعة الأرامل ووقائع من أرض الرجال

ولد جيمس كانيون في كولومبيا ونشأ فيها، انتقل إلى نيويورك لدراسة اللغة الإنكليزية، وحصل على الماجستير في الكتابة الإبداعية من جامعة كولومبيا. وقد منح كانيون جائزة هينفيلد للتميّز في الرواية لعام ٢٠٠١. وقد نشرت هذه الرواية في أكثر من عشرين دولة. وفازت بالجائزة الأولى لأفضل رواية أجنبية في عام ٢٠٠٨. ووصلت إلى التصفية النهائية لجائزة إدموند وايت لعام ٢٠٠٨ للرواية، وجائزة لامبدا الأدبية لعام ٢٠٠٨ لأفضل رواية أولى.

ولد خالد الجبيلي في مدينة حلب (١٩٥٤)، وحصل على الإجازة في اللغة الإنكليزية من جامعة حلب. يقيم حالياً في نيويورك بالولايات المتحدة، وقد ترجم أكثر من أربعين عملاً أدبياً وتاريخياً.

العنوان الأصلي للكتاب:

© James Canon:Tales from the Town of Widows
& Chronicles From the Land of Men

جيمس كانيون: **حكايات من ضيعة الأرامل ووقائع من أرض الرجال**، رواية
ترجمة: خالد الجبيلي
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت، ٢٠١٢
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٢٢٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

© *Al-Kamel Verlag* 2013
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل الأول

اليوم الذي اختفى فيه الرجال

ماريكيتا، ١٥ تشرين الثاني
(نوفمبر) ١٩٩٢

كانت بداية صباح اليوم الذي اختفى فيه الرجال تشبه بداية صباح أي يوم أحد عادي في ماريكيتا: فقد نسيت الديكة أن تصيح معلنة بزوغ الفجر، وأطال القندلفت نومه، فلم يقرع جرس الكنيسة لمناداة المؤمنين لحضور الصلاة في وقت مبكّر، (وكما جرت العادة في صباح كلّ يوم أحد خلال السنوات العشر الماضية) لم يكن يحضر صلاة القداس عند الساعة السادسة صباحاً إلا شخص واحد وهو دونا فيكتوريا أرملة موارليس. فقد دأبت الأرملة على حضور الصلاة، كما كان دأب الخوري رافاييل. في البدء، لم يكن أي منهما يشعر بالارتياح: فقد كان الخوري الضئيل البنية، يكاد يختفي وراء المنبر وهو يلقي موعظته، والأرملة الطويلة القامة، العامرة الصدر، تجلس وحدها في الصف الأول دون أن تأتي بأية حركة، يغطي رأسها وشاح أسود يتهدل على كتفيها. وقرّرا مؤخراً التخلي عن أداء الصلاة، وأصبحا في معظم الأحيان يجلسان معاً في ركن الكنيسة، يحتسيان القهوة ويتجاذبان أطراف الحديث. وفي اليوم الذي اختفى فيه الرجال، كان

الخوري رافاييل يشتكي للأرملة من التدني الشديد في ريع الكنيسة، وكانا يناقشان سبل إحياء دفع ضريبة العشر بين المؤمنين. وبعد أن أنهيا حديثهما، اتفقا على تجاوز الاعتراف، ولكن بالرغم من ذلك، تناولت الأرملة سر القربان المقدس، ثمّ تلت بعض الأدعية والصلوات قبل أن تعود أدراجها إلى البيت.

ومن خلال نافذة غرفة جلوسها المشرعة، سمعت أرملة موراليس أصوات الباعة المتجولين وهم يحاولون جذب انتباه أول طلائع المستيقظين من النوم بأطايب الطعام التي يبيعونها: «مورسيلاس» (نقانق سوداء) و«إمباناداس» (سمبوسك) و«تشيتشارونيس» (حلقات من لحم الخنزير). أغلقت الأرملة النافذة التي تهبّ من خلالها روائح دم النقانق الكريهة والأطعمة المقلية التي كانت تزعجها أكثر مما تزعجها الأصوات الحادة المرتفعة التي تعلن عن تلك الأطعمة. أيقظت بناتها الثلاث وابنها الوحيد، ثمّ عادت إلى المطبخ، وراحت تعدّ طعام الإفطار لأفراد أسرتها وهي تصفّر لحن أغنية.

وفي الساعة الثامنة صباحاً، كانت معظم أبواب ونوافذ البيوت في ماريكيتا مفتوحة على مصاريعها. وكان الرجال يرقصون التانغو والبوليرو على أنغام أجهزة الفونوغراف، أو يستمعون إلى الأخبار من المذياع. وفي الشارع الرئيسي، سحب قاضي القرية، خاسينتو خيمينيز، وسارجنت الشرطة، نابليون باتينو، طاولة مستديرة كبيرة وستة كراسٍ قابلة للطيّ، ووضعاها تحت شجرة مانغا باسقة ليلعبا لعبة البرجيس مع عدد من الجيران المختارين. وبعد عشر دقائق، عند الناصية الجنوبية الغربية من ساحة القرية، حمل دون ماركو توليو سيفوينتيس، أطول رجل في ماريكيتا، وصاحب حانة الرينكون دي غارديل، الحانة الوحيدة في القرية، آخر

زبونين ثملين من حانته وأخرجهما، واحداً فوق كلّ كتف، ومدّدهما على الأرض، الواحد بجانب الآخر، ثمّ أقفل حانته وعاد إلى بيته. وفي الساعة الثامنة والنصف، في داخل باربيريا غوميز، المحل الصغير الذي يقع قبالة مبنى بلدية ماريكيتا، بدأ دون فينسنتي غوميز يشحذ أمواس الحلاقة ويعقّم الأمشاط والفراشي بالكحول، بينما أخذت زوجته، فرانسيسكا، تنظّف المرايا والنوافذ بصحيفة مبللة. وفي أثناء ذلك، على بعد شارعين من السوق، كانت زوجة سارجنت الشرطة، روزالبا باتيفو، تساوم فلاحاً أحمر الوجه على ثمن ستة أكواز من الذرة، بينما كانت النساء العجائز يجلسن تحت المظلات الخضر يبعن كلّ شيء يخطر على البال، من هلام قدم العِجل إلى أشرطة الكاسيتات المهربة لفيلم مايكل جاكسون المثير. وفي الساعة الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة، في الحقل المنبسط أمام بيت أرملة موراليس، بدأ أخوة ريستريبو (السبعة جميعاً) يؤدون حركات الإحماء قبل الشروع في لعب كرة القدم الأسبوعية منتظرين ديفيد بيريز، حفيد الجزّار، الذي يمتلك الكرة الوحيدة في القرية. وبعد خمس دقائق، راحت فتاتان عانستان ذاتاً شعر طويل، وجسدين مربعين بعض الشيء، تسيران حول ساحة القرية، يد إحداهما مشبوكة بيد الأخرى، تلعنان عنوستهما وترفسان الكلاب الضالّة التي تعترض طريقهما لإبعادها عنهما. وفي الساعة الثامنة وخمسين دقيقة، وعلى مسافة ثلاثة شوارع من ساحة القرية، وفي البيت ذي الواجهة الخضراء المنتصب في وسط الحيّ، كان أنخيل ألبيرتو تاماكا، معلّم المدرسة، يتقلّب في سريره، يتصبب منه عرق غزير، وهو يحلم بأموروزا، المرأة المتيم بها.

وفي الساعة التاسعة إلا ثلاث دقائق، على أطراف ماريكيتا، وداخل لا

كازا دي إميليا (ماخور القرية)، كانت دوتيا إميليا (نفسها) تنتقل من غرفة إلى غرفة، توقظ آخر زبائنها، وتحذّرهم من أنهم سيقعون في ورطة حقيقية مع زوجاتهم إذا ما لم يغادروا الماخور في الحال، وصاحت في وجه إحدى الفتيات توبّخها لأنها لم تحافظ على نظافة غرفتها.

مباشرة بعد الدقة التاسعة لناقوس الكنيسة، وبينما كانت أصداؤه لا تزال تتردد في أذني القندلفت، ظهر من جميع أركان ماريكيتا حوالي ثلاثين رجلاً يرتدون بدلات بالية تميل إلى اللون الأخضر، وراحوا يطلقون النار من بنادقهم وهم يصيحون، «عاشت الثورة». وأخذوا يجوبون الشوارع الضيّقة بتمهل، وقد طلوا وجوههم التي لفحتها الشمس باللون الأسود، والتصقت قمصانهم بأجسامهم النحيفة التي تتصبب عرقاً. «إننا جيش الشعب»، أعلن أحدهم عبر مكبّر الصوت. إننا نحارب لكي يحصل جميع أفراد الشعب الكولومبي على عمل ويتقاضوا أجوراً تمكّنهم من تلبية احتياجاتهم، لكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك من دون دعمكم وتأييدكم». خلت الشوارع، حتى الحيوانات الضالّة هربت عندما تناهت إليها أصوات الطلقات الأولى، وتابع الرجل كلامه قائلاً: «نرجو منكم أن تمدونا بالمساعدة وتقدموا لنا أيّ شيء يمكنكم تقديمه».

كانت أرملة موراليس وبناتها الثلاث وابنها في البيت ينظفون مائدة الطعام. «هذا ما ينقصنا»، قالت الأرملة متذمّرة، وأضافت، «جماعة لعينة أخرى من المتمردين. لقد سئمت هؤلاء الشحاذين الملحدين الذين يأتون إلى القرية كلّ سنة».

وركضت ابنتاها الأصغر سناً، غاردينيا ومانوليا، إلى النافذة بأمل أن

تتمكنا من رؤية الثوار، بينما تشبث ابن الأرملة الوحيد، خوليو سيزار، بأمّه خائفاً. أما أوركيدا، أكبر أخواتها، فقد رمقت أختيها باستهجان وهزّت رأسها.

لقد فقدت أوركيدا اهتمامها بالرجال منذ حوالي خمس سنوات. فقد كانت تعرف أنهم لا يجدونها جذّابة، ولم تكن، وهي في عمرها هذا ـ إحدى وثلاثون سنة ـ مستعدة لأن تعرّض نفسها للرفض مرة أخرى. فقد كانت أذناها مدببتين، وأنفها معقوفاً، وفمها صغيراً جداً على أسنانها الكبيرة المعوجة. وكانت تعلو ذقنها ثلاثة ثآليل تشبه حبات زبيب ذهبية اللون. عندما ولدت أوركيدا، كانت هذه النتوءات البشعة ترصّع خديها، لكنها عندما كبرت، هاجرت جنوباً وهبطت إلى ذقنها. كانت تأمل في أن تواصل هذه الثآليل هبوطها لتستقر في بقعة غير مرئية من جسدها. وكانت أوركيدا تدّعي بأنها عذراء، وهو أمر أكّده مرات عديدة رجال ماريكيتا الفظين بملاحظات مثل: «لو كان لجميع العذارى أجساد مثل جسدها، لما لمسهن لامس طوال حياتهن». وكانت قد ورثت عن أبيها صدره: حلمتان صغيرتان داكنتان تقبعان جنباً إلى جنب فوق سطح صدرها المستوي. لكنها، على الرغم من توصية أخواتها بأن تحشو حمالة صدر كبيرة بقشور الذرة، فقد قرّرت ألا ترتدي شيئاً تحت بلوزاتها النظيفة الناصعة البياض. ولم يكن لأوركيدا محيط خصر، أو منحنيات في جسمها المستطيل. وكانت تتمتع بشخصية ساحرة للغاية. إذ كان بإمكانها أن تدخل في أحاديث مطوّلة عن نابليون بونابرت أو سيمون بوليفار أو شكسبير أو سيرفانتس، أو آيسلندا أو باتاغونيا، بالإضافة إلى المواضيع الفكاهية مثل السياسة في كولومبيا. فقد عقدت العزم على أن تلتهم معظم الكتب المتوفرة في المكتبة الصغيرة في

مدرسة ماريكيتا. وعلى الرغم من سعة إطلاعها وسعة أفق آرائها، فقد كانت كاثوليكية ورعة، تؤمن بشدة بأن البابا رسول من عند الله، وكان أجمل حلم لها هو أن يوقّع لها الإنجيل، «*إلى أوركيدا موراليس، المريدة الورعة. المخلص لك، يوحنا بولص الثاني*».

وعندما كانت أوركيدا أصغر سناً، تقدم أحدهم لطلب يدها، وهو عامل في مزرعة، يدعى رودولفو خيّل إليه أنه سيتمكن من تحسين ظروفه المعيشية إذا ما تزوّجها. لكن في عام ١٩٨٦، عندما وصلت مجموعة من الثوّار الماركسيين لأول مرة إلى ماريكيتا بحثاً عن متطوعين، فاجأ رودولفو أوركيدا بالالتحاق بهم، فأزعجها ذلك كثيراً إلى حد أنها أصيبت بالإسهال طوال شهرين كاملين. وأخيراً، وبعد يوم من استخدامها المرحاض، خرجت منه، ورفعت عقيرتها وقالت بثقة شديدة: «لقد انتهيت من إخراج حبّي لرودولفو بالخراء!»

ومنذ ذلك الحين، لم يعد لأوركيدا صديق، ولم تعد تصاب بالإسهال.

«نرجو أن تخرجوا من بيوتكم وتلتحقوا بنا في ساحة القرية لنتحدث قليلاً»، صاح أحد الثوّار عبر مكبّر الصوت، «لن نؤذي أحداً منكم. إننا نكافح للدفاع عن حقوقكم، وعن حقوق جميع المواطنين في كولومبيا». ومع أنه أخذ يردد ذلك مرة إثر مرة، وفي كل مرة أعلى من المرة السابقة، لم يلبِّ أحد دعوة الثائر إلا معلّم المدرسة، ورجلين سكرانين، ومومس مصابة بالأرق، وثلاثة كلاب ضالّة.

«هل يمكنني أن أذهب يا أمّي؟» سألت غاردينيا موراليس أمّها التي كانت منهمكة في غسيل الصحون يساعدها خوليو سيزار.

«لا أريد أن تحضري اجتماعات شيوعية».

«لكن لا يوجد لديّ شيء أفعله».

«اذهبي وابحثي عن حقيبة الخياطة وأكملي خياطة اللحاف لزوجة القاضي. سنحتاج إلى النقود قريباً».

«إنه يوم أحد يا أمّي، وأريد أن أخرج».

«سمعتِني جيداً يا غاردينيا»، قالت الأرملة، رافعة صوتها، وكذلك عينيها.

ابتعدت غاردينيا غاضبة، مخلّفة وراءها رائحة كريهة. غطّى خوليو سيزار أنفه وفمه بكلتا يديه وهمهم من بين أصابعه، «أرجوك يا أمّي، لا تزعجيها».

ومثل أخواتها، سمّيت غاردينيا على اسم زهرة فوّاحة: فعندما تغضب، أو تحزن أو تقلق، تنبعث من جسمها رائحة مختلفة تماماً عن الرائحة التي تنبعث من تلك الزهرة الرقيقة الرهيفة. ومهما استحمّت في المياه الدافئة التي تتضوع منها رائحة الورد وزهرة العسل والياسمين، أو مهما رشّت جسمها بالعطور ذوات الروائح الجميلة، كانت عندما تغضب، تنبعث من مسامات جسدها رائحة كريهة مثل الجيفة. ولم يتمكن الدكتور راميرز ـ الطبيب الوحيد في القرية ـ من علاج مشكلة الرائحة، وقال السحرة والمشعوذون الذين أخذتها أمّها إليهم إن غاردينيا مسكونة بروح شرّيرة. ولما لم يكن بالإمكان عمل شيء، كيّفت أسرة موراليس نفسها للعيش في ظل هذه الرائحة الكريهة المتكرّرة. وما عدا ذلك، كانت غاردينيا جميلة، في السابعة والعشرين من عمرها، ولم تكن تكفّ عن تحدي أخواتها للعثور على بقعة واحدة أو تجعيدة واحدة في وجهها. كانت ذات عينين سوداوين واسعتين، وشفتين ممتلئتين تخفيان صفين من الأسنان البيضاء المصقولة.

وكان حاجباها سميكين، لم تنتف أي شعرة منهما قط، مع أنها كانت تفتل رموشها في بعض المناسبات الخاصة. وكانت تزيّن دائماً عنقها الرقيقة الطويلة قلادة معطرة من القرنفل وبذور حبّ الهال وأعواد القرفة المجففة في خيط غير مرئي من النايلون. وكانت تضع وراء أذنها اليسرى، أزهاراً طازجة، أو زهرة بواق الملاك، أو زنابق الوادي، أيهما تكون رائحتها أفضل في ذلك اليوم. وكانت تمدّ لسانها، بشكل تلقائي تقريباً، كلّ بضع ثوان لتبلل شفتيها، وهي عادة كانت النساء الورعات في ماريكيتا يعتبرن أنها توحي بالشهوة. لكن مثل أختها الكبرى، كانت غاردينيا عذراء. وكان قد طلب يدها ثلاثة رجال من قرى قريبة، هربوا جميعهم عندما فهموا مصدر الرائحة الكريهة. وحتى عندما وصلت المجموعة الثانية من الثوّار إلى ماريكيتا بحثاً عن متطوعين في عام ١٩٨٨، كانت غاردينيا واحدة من النساء القليلات اللاتي لم يبد الثوّار الشهوانيون، الذين كانوا يجرون وراء الفتيات، اهتماماً بمغازلتها.

عندما قرر القرويون عدم مغادرة بيوتهم لحضور الاجتماع الذي دعا إليه الثوار، اتخذ الثوّار قراراً بزيارة البيوت بيتاً بيتاً لجمع التبرعات، آملين أن يجدوا شباناً ينعمون بصحة جيدة يقبلون التطوع في صفوفهم والانضمام إلى حركتهم. إلا أنه لم يفتح لهم الباب سوى عدد قليل جداً من الأسر. فقد سئم أهالي ماريكيتا وتعبوا من مضايقات مجموعات الثوّار الكثيرة التي لم تكن تتوقف عن الصعود إلى الجبال والهبوط منها وهي تطلب التبرع بما تيسّر من النقود والدجاج والخنازير والبيرة، وإغواء النساء الساذجات البريئات بمواقفهم الرجولية وبدلاتهم ذات اللون الزيتوني الداكن، يفوزون بقلوبهن البكر وبرؤوسهن الخاوية، ثم يغادرونهن أخيراً بعد أسبوع أو

أسبوعين، ويتركونهن ملوثات السمعة، بطونهن منتفخة، ولا تعود أمامهن فرص كثيرة للزواج.

وعندما أخبرت مانوليا موراليس، التي لم تبارح النافذة منذ قدوم الثوّار، أمّها بأنهم يقرعون جميع الأبواب، هرعت الأرملة ولفّت بقايا طعام الفطور في أوراق الموز، ووضعت صرة الطعام الصغيرة على عتبة بيتهن.

«على الأقل يجب أن نعطيهم طعاماً يا أمّي، إنهم شيوعيون، وليسوا كلاباً»، قالت مانوليا.

«لا»، قالت الأرملة بحزم، «إذا فتحت ذلك الباب، فإنهم سيبدأون بإلقاء محاضرة علينا عن الشيوعية ومغازلتكن يا فتيات. بالتأكيد لا».

«أريد أن أكلمهم يا أمّي. لن أهرب مع أحد الثوار».

«كلميهم من النافذة»، قالت أمّها، ودفعت كرسياً خشبياً ثقيلاً تسدّ به الباب.

كانت مانوليا موراليس، أصغر أخواتها الثلاث، في الثانية والعشرين من عمرها، لكنها كانت تبدو أكبر من ذلك بكثير. وكانت نهداها المترهلتين يبدوان من تحت البلوزات الشفّافة التي تحبّ ارتداؤها؛ وكان ردفها عريضاً، يكاد يكون مسطحاً. وكانت ساقاها تشبهان ساقيّ رجل، مكسوتين بالشعر وبالعضلات، فكانت تخفيهما بجوارب نسائية داكنة. ولم يكن ينقص وجهها شيء: فقد كانت عيناها داكنتين، وكذلك رموشها وحاجباها وفمها وأنفها والكثير من الشعر غير المرغوب فيه. وكانت في الماضي تنتف شعراتها الخشنة والشعرات الزائدة التي تنبت على شاربها، لكن الشعر العنيد ـ مثل الثوّار ـ كان يعود باستمرار. فقرّرت أخيراً أن تتركه ينمو بالسرعة والطول كما يشاء، وهكذا كان. أما شعر رأسها، فكان ينسدل بحرية حتى خصرها، أسود براقاً.

وكما كان يتردد على ألسنة العوانس في القرية، فمن المؤكد أن مانوليا لم تكن عذراء، ولو أنها كانت تطلب نقوداً من جميع الرجال لقاء ما تقدمه لهم من أفضال وخدمات، لأصبحت مليونيرة. ولما أصبحت سمعة الفتاة سيئة للغاية في القرية، كان من الأفضل لها أن تبيع نفسها. في الحقيقة، لم تنم مانوليا مع عدد كبير من الرجال، لكنها كانت تنام مع الرجال غير المناسبين: الرجال الذين كانوا يتبجحون بالتحدث عن علاقتهم معها. في البداية، عندما تناهت إليها هذه الإشاعات، حبست نفسها في غرفة النوم لمدة تزيد على ستة أشهر، وقد خيّل إليها أن الناس سينسون سمعتها التي لحق بها ضرر شديد. وفي عام ١٩٩٠، عندما وصلت إلى القرية ثالث مجموعة من الثوار، خرجت مانوليا من خلوتها، راجية أن تلتقي بشخص جديد. كان ذلك عندما أدركت أن سمعتها هي أقلّ مشاكلها، بعد أن تمكن الثوّار من إقناع الرجال العزاب في ماريكيتا بالالتحاق بصفوف الثورة. وفجأة، تبخر أعزّ أحلام مانوليا وهو الزواج من رجل وسيم غني، بل وحتى ثاني أعزّ حلم لها، وأصبح زواجها من أيّ رجل أمراً بعيد المنال. محطمةً، راحت تنظر من نافذة غرفة نومها، تراقب عدداً كبيراً من الشبان العزاب يغادرون القرية مع الثوار، وراحت تلوّح بيدها ببطء في الهواء، وأجهشت في البكاء عندما اختفى آخر رجل عن مرآى عينيها.

مرة أخرى، تجمّع الثوّار الأربعون في ساحة القرية عند الظهيرة. وجلسوا على الأرض تحت ظلّ شجرة مانغا، وأخذوا يحصون المواد التي جمعوها: دجاجتان حيّتان ضامرتان، أربعة أرطال من الرزّ، ثلاثة لترات من الكوكا كولا الخالية من السكر، ستة قطع من البانيلا، ثلاث رزم صغيرة من بقايا الطعام، وحفنة من العملة المعدنية الصدئة. وكان برفقة الثوّار شاب جديد

جُنِّد حديثاً يدعى أنخيل ألبيرتو تاماكا، معلّم المدرسة في ماريكيتا، الذي يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة. وهو الابن الوحيد لثائر أسطوري قُتل عندما لم يكن أنخيل يتجاوز بضعة أشهر من العمر. وربّت أنخيل أمّه، سيسيليا غوارايا، وزوجها الثاني، دون ميسايل فيداليس، وهو رجل حكيم انتقل إلى ماريكيتا منذ سنوات قليلة، لا يملك شيئاً إلا غدته الدرقية المتضخمة، وثلاثة صناديق كبيرة مليئة بالكتب، أصبح بعد ثلاثة أشهر أول معلّم في حياة بلدة ماريكيتا. وتعلم أنخيل من أمّه حسن السلوك والأخلاق الحميدة والانضباط والمثابرة. وتعلّم من زوج أمّه الرياضيات والجغرافيا والعلوم ومبادئ الشيوعية.

وبخلاف معظم الشبان في القرية، لم يؤد أنخيل ألبيرتو الخدمة العسكرية. فقد اتصل دون ميسايل بشخص يدين له بفضل، اتصل بدوره بشخص آخر، وبعد اتصالات لا نهاية لها مع أشخاص راح كل منهم يذكّر الآخر بالأفضال والخدمات المجانية التي أسداها للآخر، وصل اسم أنخيل أخيراً إلى شخص ذي نفوذ فحرّره من واجباته تجاه البلاد. ثم بدأ دون ميسايل يدرّب أنخيل لكي يخلفه كمعلّم في مدرسة ماريكيتا الابتدائية. وبعد أن علّم جيلين كاملين القراءة والكتابة، والجمع والطرح، والضرب والتقسيم، تعب الرجل العجوز. وأصبحت عيناه كليلتين، ووهنت ذراعاه وساقاه. وأصبح بإمكانه أن يحصي بسهولة خصلات شعره المتبقية على رأسه اللامع، وازدادت غدته الدرقية تضخماً إلى درجة أنه أطلق عليها اسم «بيبي» وفكّر في أن تسجيل بيبي في استمارة ضريبة الدخل كمُعال.

وقبل أن يبلغ أنخيل ألبيرتو تامارا الثامنة عشر من عمره، أصبح أصغر المعلمين سناً في ماريكيتا، وأصغر مثير للشغب في القرية. فقد كان يسخر

علناً من الحزبين السياسيين التقليديين، وكان يطلق شعارات ضد الحكومة الراهنة: «رأسماليون خنازير، استغلاليون». أما بالنسبة لتلاميذه، فقد أصبح «الأستاذ»، وأصبح بالنسبة للقاضي «المجنون»، وأطلق عليه الخوري اسم «الشيطان»، وأطلق عليه معظم الرجال في القرية اسم «الشيوعي». أما النساء، فقد كنّ يطلقن عليه أسماء محببة مختلفة مثل: «باباسيتو وبونبونسيتو وبيزكوشيتو» وما إلى ذلك من أسماء الدلع.

وقد منح عمل أنخيل الجديد له الثقة، وشحذ مهاراته في فنون القيادة. ففي أوقات فراغه، كان ينتقل من بيت إلى بيت يعلّم الناس مقاطع من بيان الحزب الشيوعي. وسرعان ما أنشأ ما يسمى «لحظة الحقيقة»، وهو اجتماع يعقد بعد ظهر يوم الأحد في الساحة ـ أو داخل المدرسة إذا كان الجو ماطراً ـ أخذ يتحدّث فيه عن عقيدتي ماركس ولينين، ويقرأ أشهر خطابات فيدل كاسترو وتشي غيفارا، ويتلو أشعار نيرودا، وينشد أكثر الأغاني إثارة للجدل لمرسيدس سوسا، وسيلفيو رودريغيز، وفيوليتا بارا.

في البدء، لم تجذب لحظة الحقيقة هذه إلا حفنة قليلة من الأشخاص، لكن بعد أن بدأ دون ميسايل يقدم البيرة، أصبحت لحظة الحقيقة من أشد الفعاليات شعبية خلال الأسبوع. وبعد بضعة أشهر، بدأ الناس يرددون القصائد الاشتراكية والخطابات الشيوعية. وحفظوا عن ظهر قلب «لا مازا» و "Si Se Calla El Cantor" وأغاني ثورية أخرى استنبطوا لها خطوات وحركات نشيطة، مستحدثين رقصة فريدة كانت مزيجاً من التانغو والسالسا وسوانخارينو. وعُمّد خمسة مواليد جدد بأسماء فلاسفة وثوّار شيوعيين وأماكن أسطورية تتعلق بالشيوعية: هوشي منه أوسبينا، وتشي لوبيز، وفيتنام كالديرون، وتروتسكي وكوبا سانشيز. وأصبحت الشيوعية التي

كانت تعبيراً غريباً وأجنبياً بالنسبة لمعظم القرويين، مرادفة للتسلية بعد ظهر يوم الأحد.

وكان أنخيل يدرك أن القرويين لا يأخذون عقائده على محمل الجدّ، لكنه كان يشعر بالفخر لأنه تمكن من رفع وعيهم السياسي. ولم يكن هناك شيء يدخل إلى نفسه السرور أكثر من سماعه رجلين عجوزين يتحدثان عن كارل ماركس، وكأن هذا الفيلسوف جارهما، وكأنهما يفهمان أفكاره تمام الفهم ويتفقان معها، وليسا مجرد رجلين سكرانين عجوزين. إلا أن أنخيل أحس بخيبة أمل شديدة عندما نسي معظم القرويين، في يوم الانتخابات، بعد سنتين من التلقين المتواصل، ماركس ولينين وكاسترو وتشي غيفارا، وصوّتوا لصالح مرشحي الحزبين التقليديين.

وعلى الرغم من ميوله الشيوعية، جاء خبر انضمام أنخيل إلى الثوّار مفاجأة لجميع أهالي القرية، لأنه أتيحت له فرص عديدة للانضمام إليهم في السابق، فلم ينضم إليهم. ولم يفكّر أحد من أهالي ماريكيتا بأن الأستاذ، المجنون، الشيطان، الشيوعي، البومبونسيتو، سيتحلى بالشجاعة ويتخذ هذه الخطوة الجريئة. لكن الشيء الذي لم يكونوا يعرفونه هو أنه كان لأنخيل سبب يدفعه للمغادرة هذه المرة. فقد أُغرم بأموروزا، المومس التي تعمل في ماخور لا كازا دي إميليا، والتي غادرت ماريكيتا مؤخراً دون أن تودعه. واعتصرت أنخيل آلام مغادرتها. ولم يعد يأكل، أو ينام، أو يفكّر بأي شيء آخر سواها. لذلك تعيّن عليه أن يذهب مع الثوار، أو مع السيرك الجوّال، أو مع رهبان الكابوشية، أو أن يتلاشى مع الأمطار الغزيرة التي تهطل في تشرين الثاني (نوفمبر) قبل أن يجنّ ويفقد صوابه.

بدأ الثوّار يأكلون الطعام، ويشربون الصودا التي جمعوها من أهالي

القرية. وعندما أنهوا طعامهم وشرابهم، أخذ القائد بيدرو، وهو رجل طويل القامة، تزيّن وجهه الأسمر ندبة تجري على جانب رقبته، بموازاة أوداجه، يسير بخطوات وئيدة بين جنوده، محدقاً في وجه كلّ واحد منهم من دون أن ينبس ببنت شفة. ثمَ صاح أخيراً، «ماتامورروز، أريد أن أحدثك على انفراد». وغادر الرجلان المجموعة وراحا يسيران عبر الساحة، ووقفا في وسطها بالقرب من تمثال نصف مشوّه لبطل مجهول. أخذا يتحدثان همساً. كان من الواضح أن المسألة التي يبحثانها هامة، بل حتى خطيرة، لأنه بدت على وجهي الرجلين علائم التوتر. ثم تصافحا بطريقة رسمية وعادا إلى الثوّار الآخرين. انتقى القائد بيدرو ستة من الثوّار، بمن فيهم أنخيل تاماكا، وأمرهم بالاستعداد للمغادرة، ثم قال: «وسيتلقى البقية منكم الأوامر من ماتامورروز». وبعد خمس دقائق، أدّى القائد بيدرو وأنخيل وخمسة رجال آخرين التحية العسكرية، وتوجّهوا صوب الجبال.

كان ماتامورروز شاباً طويل القامة في العشرينات من عمره، وسيماً، ما عدا أن عينه اليمنى كانت مفقوءة، وكانت قد فقئت منذ ثلاث سنوات بعد أن أصابت طلقة وجهه أثناء معركة مع الجيش الكولومبي. وكانت أسنانه الأربع الأمامية العليا مذهّبة، وكأنه يريد أن يعوّض عن خلو وجهه من أي تعابير. وبوجود هذا القدر من الذهب في فمه، كان يشعر بأن الأوامر التي يصدرها تحمل في طياتها تأثيراً إضافياً. انتظر ماتامورروز عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة قبل أن يصدر أوامره لرجاله المتحمسين، المتلهّفين، ثمّ أمسك مكبّر الصوت بيده وأخذ يصيح:

«نشعر بانزعاج شديد من تصرف أهالي هذه القرية».

نهض الثوّار ووقفوا على أقدامهم.

«لقد طلبنا منكم بعض الطعام، فقدمتم لنا الفتات».

ثبّتوا حقائبهم على ظهورهم.

«طلبنا قليلاً من النقود لنواصل الكفاح من أجلكم، وكلّ ما قدمتموه لنا بضعة قطع نقدية لا قيمة لها».

تفحصوا بنادقهم القديمة وتأكدوا من أنها محشوة بالطلقات.

«طلبنا منكم أن ينضم إلينا عدد من الشبان ليساعدونا على تحرير بلادنا من الإمبريالية، وماعدا معلّمكم، ركضتم جميعكم إلى بيوتكم كالصراصير».

انقسموا إلى فصائل تتألف الواحدة منها من خمسة ثوّار.

«إنكم أنانيون جبناء لا تستحقون استعدادنا للتضحية بأنفسنا من أجلكم».

اصطفوا ووجهوا أسلحتهم نحو السماء التي خلت من أشعة الشمس.

«اسمعوا جيداً، أيها الناس، سأكرر عليكم ما كنت قد قلته لكم: إن كان أحدكم يبلغ من العمر اثنتي عشر سنة، ولديه خصيتان بين ساقيه، فيجب أن ينضمّ إلى رجال الثورة اليوم. تعالوا إلى الساحة فوراً، وإلا سنقتل كل من نجده بعد ذلك».

وأخيراً، انتظروا آخر أمر يصدره ماتاموروز: «يا رفاق: باسم الثورة الكولومبية، انطلقوا وخذوا ما تقع عليه أيديكم».

أطلق الثوّار عدّة طلقات في الهواء، ثمّ انطلقوا إلى القرية، وراحوا يركلون الأبواب ويفتحونها عنوة، ويملؤون حقائبهم بالطعام والمال، ويجرّون الرجال، صغاراً وكباراً، خارج بيوتهم، ويسحبونهم من تحت أسرّتهم، ومن داخل خزائن الثياب، أو من داخل الصناديق التي يختبئون فيها، ويطلقون النار على كلّ من يقاومهم. وكان دون ماركو توليو

سيفوينتيس، صاحب حانة القرية، أول رجل تُطلق عليه النار، فأصيب بطلقة في ساقه عندما حاول الهرب من سطح بيته. وفي خضم محنتها، انقضَت إلويسا، زوجة الرجل الجريح، على المعتدي وراحت تكيل له الضربات بيديها العاريتين، مما أثار حنق الثائر الذي ما إن خلّص نفسه من بين يدي المرأة المجنونة، حتى أطلق النار على دون ماركو توليو مرّتين في رأسه. وعلى بعد شارعين، هُرع سارجنت الشرطة، باتينو ومساعداه الاثنان، خارج بيت القاضي (حيث كانوا مختبئين) حاملين بنادقهم. وعندما شاهدوا الثوّار العديدين، ألقى رجلا الشرطة سلاحيهما على الأرض ورفعا أيديهما. لكن السارجنت تمكن من إصابة أحد الثوّار بعد أن أطلق عليه طلقة واحدة من مسدّسه وأرداه قتيلاً. وقوبل عمله البطولي بإطلاق تسع عشرة طلقة ثقبت جسمه من جميع الاتجاهات. وقبل أن يتهاوى على الأرض، تجمّد جسم السارجنت مثل تمثال ينتصب في نافورة يسيل منه الدم الذي غطى الأرض. وبعد قليل، خرج بقية الرجال، بمن فيهم الخوري رافاييل ـ من مخابئهم خجلين ـ وساروا، ورؤوسهم مطرقة بالأرض، وأيديهم مرفوعة، باتجاه الساحة.

راحت أرملة موراليس تذرع غرفة الجلوس في بيتها. كانت عيناها مغمضتين نصف إغماضة، ويداها معقودتين وراء ظهرها، تمعن التفكير بالطريقة التي تمكّنها من منع الثوّار من أخذ ابنها خوليو سيزار، الذي لما يتجاوز بعد الثالثة عشرة من عمره. ووقفت أوركيدا وغاردينيا ومانوليا في أحد أركان الغرفة يمسكن أيدي بعضهن، ينتظرن أمّهن أن تهدئ من روعها. وفجأة، لم يخطر ببال الأرملة أية فكرة. أعطت بناتها الثلاث تعليمات محددة وأخذت تبحث عن الثوب القديم الذي ارتدته بناتها أثناء

مراسم تناول العشاء الرباني الأول في ثلاث مناسبات منفصلة. وجدته مجعّداً في صندوق تحت سريرها. قالت لنفسها إنه سيؤدّي الغرض. في تلك اللحظة، تذكّرت الأرملة أن الله موجود بالإضافة إلى طائفة القديسين الذين تستطيع أن تتوجّه إليهم في الأوقات العصيبة، وبالرغم من ضيق الوقت، أشعلت شموعاً أمام صور القديسين العديدة المتناثرة في أرجاء البيت. ثمّ راحت تتلو صلواتها وهي تبحث عن ابنها المذعور، «أبانا الذي في السموات... خوليو سيزار! ليتقدس اسمك... خوليو سيزار! ليأتِ ملكوتك، وسيكون لدنك... خوليو سيزار، أين أنت بحق الجحيم؟» ووجدت الفتى الصغير النحيل مختبئاً تحت سريره، وجسده يرتعش رعباً. «هيا أسرع، ارتدِ هذا الثوب»، أمرته وألقت بالثوب الأبيض المنفوش على سريره. «أعطنا خبزنا كفاف يومنا»، راحت الأرملة تردد الكلمات بطريقة آلية، تتوقف بين الحين والآخر وهي تحثّ خوليو سيزار على الإسراع. ساعدته في إغلاق سحّاب ثوبه من الخلف، ولفّت رأسه الصغير بمنديل حريري أبيض وثبتته بتاج بلاستيكي. وأشار الصبي المعقود اللسان إلى قدميه العاريتين. «لا تقلق بشأن الحذاء»، قالت، ثمّ دفعته إلى غرفة الجلوس.

عندما داهم ماتاموروز وأربعة من رجاله بيت موراليس، وجدوا أوركيدا وغاردينيا ومانوليا يقفن صامتات في غرفة الجلوس، ورأوا أمّهن في المطبخ تصنع مربى الجوافة، أما خوليو سيزار فقد كان جالساً على الكرسي الخشبي الهزاز مثل مريم عذراء صغيرة، يمسك بيده الإنجيل، وقلبه معلق في فمه. وقف ماتاموروز بالقرب من الباب، حاملاً بيديه بندقية طويلة. دخل الثوّار الأربعة الذين يرافقونه وراحوا يطوفون أرجاء البيت، معكّرين صفو الغرف

وهم يطؤون أرضيتها بأحذيتهم العسكرية الوسخة، ويفتّشون في كلّ ركن وزاوية عن رجال في عمر ملائم ليطلقوا النار عليهم.

«الرجل الوحيد في هذا البيت كان زوجي جاكوبو»، قالت الأرملة مخاطبة ماتاموروز، وهي تشير إلى صورة كبيرة لرجل معلقة على الحائط يحفّها إطار، قد يخيّل للمرء أنه وينستون تشرشل، وأضافت، «لقد توفي بالسرطان منذ عشر سنوات». وغطّت وجهها بكلتا يديها وأجهشت في البكاء بصوت مرتفع من خلال أصابعها.

«ألا يوجد عندك أبناء يا سيدتي؟» سألها ماتاموروز، وهو يرمق خوليو سيزار بطرف عينه.

«لا يا سيدي»، راحت تنشج بشدة، «لقد رزقني الله بأربع بنات جميلات».

«يمكنني أن أرى ذلك»، قال، وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، وهو يحدّق في الصبي. بدأ يعتري الفتيات شعور متزايد بالكرب، وكما كان متوقّعاً، بدأت غاردينيا تنفث أبخرتها ذات الرائحة الكريهة. «ما اسمك، يا فتاتي الصغيرة؟» قال ماتاموروز أخيراً، مخاطباً خوليو سيزار. شحب وجه الفتى وفغر فمه. في تلك اللحظة، انضم الثوّار الأربعة إلى رئيسهم في غرفة الجلوس.

«لا شيء يا كوماندانت»، صاح أحدهم، «لا يوجد أي رجل عازب في هذا البيت».

«لنذهب إذاً»، قال ماتاموروز، مشيراً إليهم بأن يخرجوا.

«كوماندانت»، قال أحد الثوّار، ونظرة شهوانية تعلو وجهه الصغير، «هل يمكننا أن نضاجع الفتيات؟»

«بالتأكيد يا رفيق»، أجابه القائد، «هذا إن كنت لا تبالي برائحة الخراء في هذا البيت»، وبصق على الأرض. وفجأة، شمّ الثوّار الرائحة الكريهة فأسرعوا خارجين، جميعهم ماعدا أصغرهم سناً، فقد حلّ المنديل الأحمر من حول عضلة ذراعه، وغطّى به أنفه وفمه، واتجه نحو الفتيات الثلاث. لم يبد عليه أنه يتجاوز الخامسة عشرة من العمر، كان فتى هندياً داكن البشرة، يفتقد أحد أسنانه الأمامية العليا. وقف إلى جانب أوركيدا، وراح يعتصر حلمتيها بيد، وهو يمسك بندقيته القديمة باليد الأخرى.

«أرجوك لا تفعل ذلك»، قالت أوركيدا متوسلة، وهي تبتعد عن الفتى، «إنني عذراء».

«هذا أفضل»، قال الفتى ساخراً، ودسّ يده بين ساقيها. أغمضت غاردينيا عينيها وأطرقت برأسها. ابتسمت مانوليا للصبي ووضعت أدوات خياطتها جانباً، راجية أن يأتي دورها. لكن الفتى أدار عينيه الشهوانيتين نحو خوليو سيزار، الذي أخذ يهزّ الكرسي بسرعة أكبر. «لا بد أن تكوني أنتِ عذراء أيضاً»، قال الفتى، واقترب من خوليو. وثبت الأخوات الثلاث، ورحن يصرخن، وصاحت أمّهن التي كانت تتلو صلواتها بصمت، «لا تلمس ابنتي الصغيرة!» وجرت ووقفت إلى جانب ابنها. «افعل ما تشاء بالفتيات الثلاث الأخريات... خذني إذا أردت، لكن أرجوك لا تلمس خوليا».

«ولم لا؟» سأل الولد متهكماً.

«إنها لا تزال فتاة صغيرة. حتى إنها لم تتناول بعد قربانها المقدس الأول».

ضحك الفتى بصوت عال من وراء القماش الذي يغطي فمه وقال: «حسناً، ستتناوله الآن»، ووضع يده بين ساقيه.

تملكت الأرملة قوّة مفاجئة لتصفع الفتى الصفيق على وجهه. ونتيجة هذا الدافع القوي، وقفت بينه وبين ابنها وقالت بحزم: «لن أدعك تنفذ أساليبك الشريرة القذرة».

«سينيورا، إنني أحذّرك: ابتعدي عن طريقي».

«يفترض بك أن تناضل من أجل حقوقنا، لا أن تنتهكها»، قالت تدينه، ويداها فوق وركيها. «نحن النساءَ، لدينا حقوق أيضاً، وسنبذل أنا وبناتي ما بوسعنا لحماية أنفسنا من حقيرين من أمثالك».

«أنتن النساءَ لا يحق لكنَّ شيء»، قال الثائر الفتى بازدراء، «ستكون هذه الأرض للرجال وستبقى كذلك». ووجّه لكمة على وجهها، وصاح، «إذا اقتربتِ مني ثانية أطلقت النار عليك!» فكّ حزامه، وحلّ أزرار سرواله الوسخ وبدأ يشده إلى الأسفل بتمهل. راح خوليو سيزار يهزّ كرسيه بسرعة، ويبكي، بينما راحت أوركيدا ومانوليا تقضمان أظافرهما في ركن الغرفة. أما غاردينيا، التي كان من الواضح أنها ازدادت اهتياجاً، فقد جلست وراحت تهوّي نفسها بطرف تنورتها الطويلة، مُفسدة الهواء في الغرفة برائحة عرقها. أصبحت الرائحة الكريهة الآن لا تطاق. سقط الفتى على ركبتيه وراح يتقيأ. وبينما كان يتقيأ، نهضت دونا فيكتوريا من الأرض، وفتحت الباب ودفعت الفتى شبه العار وركلته بقدمها الحافية. وراحت تراقبه يتدحرج هو وبندقيته على الدرج ويسقط على الأرض، ثمّ صفقت الباب وأغلقته بقوة.

عندما تضاءلت مخاوف غاردينيا، زالت الرائحة، وراحت الأرملة تجوب البيت حاملة بيدها قنينة كحول، تشمّم بناتها منها ـ وتشمّم ابنها حتى استعادوا جميعهم وعيهم من الصدمة والرائحة المقززة. وجلسوا هم

الخمسة حول مائدة الطعام، أيديهم متشابكة، وراحت أمّهم العجوز تتلو بضعة أدعية وصلوات بين الدموع والضحكات المتوترة.

في الخارج، استمر إطلاق النار في الشوارع، يتخلله بين الحين والآخر صوت بكاء مفجع لأرملة جديدة، وبكاء طفل يتيم آخر.

عندما توقّف إطلاق النار بعد ساعة، خرجت الأرملة موراليس من البيت. كان طرف وجهها الأيسر متورماً. وتجمهرت نساء ماريكيتا على جانبي الشارع الرئيسي، وأفسحن مجالاً ليمرّ منه رتل الرجال والفتيان الذين اقتادهم الثوّار. كان هؤلاء الرجال هم جيران وأصدقاء الأرملة موراليس: الرجال الذين رحبوا بها وبزوجها وبابنتيها الكبيرتين عندما وصلوا إلى ماريكيتا للمرة الأولى في عام ١٩٧٠، الرجال الذين أحضروا لها أزهاراً بعد أن أنجبت طفليها، وبعد سنوات، الرجال الذين جاؤوا لتقديم تعازيهم لها بوفاة زوجها. هؤلاء هم الرجال الوحيدون الذين عرفتهم خلال اثنتين وعشرين سنة. وهؤلاء الصبية يسيرون إلى جانبهم، أبناؤهم الصغار، الذين كانوا يأتون إلى بيتها بعد ظهر كلّ يوم لأداء الواجب المدرسي مع خوليو سيزار، الصِبية الذين كانوا يساعدونها في حمل سلتها المليئة بالسلع من السوق، الصبية الذين كانوا يلعبون كرة القدم صباح كلّ يوم أحد في الساحة المفتوحة أمام بيتها.

ورأت الأرملة النساء ينتحبن عندما بدأ رجالهن يمرّون من أمامهن مطرقين برؤوسهم. رأت سيسيليا غوارايا وهي تعطي زوجها العجوز نظارته، ورأت جوستينا بيريز وهي تعطي زوجها طقم أسنانه. ورأت أوبالدينا ريستريبو وهي تعطي ابن زوجها الأصغر، كامبو إلياس الابن، مسبحتها. ورأت

آخريات يعطين أزواجهن صوراً عائلية، وطعاماً ملفوفاً في أوراق الموز، وفراشي أسنان، وساعات منبّه، ورسائل غرامية، ونقوداً. ورأت النساء يبكين وهن يعانقن رجالهن ويضمونهم بقوّة إلى أجسادهن، ويقبّلونهم لآخر مرة، لأنهنّ كنّ يعرفن أنهنّ لن يروهم مرة أخرى، وأن هؤلاء الأزواج والأبناء وأبناء العم، وأبناء الأخ والأصدقاء، قد لقوا حتفهم هنا، في هذه اللحظة، أمام عيونهن.

وفي اللحظات الحزينة، كانت الأرملة تحنّ دائما إلى زوجها المرحوم. لكنها لم تبك هذه المرة. وشكرت الله في سريرتها لأنه جعله يصاب بالسرطان لكي يموت في البيت بين ذراعيها. وشعرت بأسف شديد على باقي نساء القرية، ولم تتمالك نفسها وأطلقت تنهيدة طويلة عندما رأت آخر رجلين يختفيان وسط سحب الغبار التي أثارتها أقدامهم الزاحفة.

استدارت الأرملة موراليس ببطء. وبتؤدة، راحت تسير نحو بيتها، يتبعها صدى طويل من العويل. دخلت، وأمسكت مقبض الباب بكلتا يديها ودفعت الباب وأغلقته بجبهتها. وظلت هكذا، وهي تبكي، لمدة طويلة.

لقد تحوّلت ماريكيتا العزيزة على قلبها إلى قرية أرامل في أرض الرجال.

غوردن سميث، ٢٨ سنة، مراسل أمريكي
«جون ر.» ١٣ سنة، جندي من الثوّار

بعد ظهر يوم الأحد. كنت أجلس في بقعة خالية من الأشجار، بالقرب من معسكر للثوار بانتظار جون الذي وافق على أن أجري مقابلة معه.

كان معسكر المتمردين عبارة عن أرض صغيرة تقع في مرتفعات المقاطعة، وهو يبعد حوالي ثلاثة أيام سيراً على الأقدام من أقرب قرية.

وفجأة برز جون من الغابة، فتى صغير ملتف في بدلة رسمية ذات لون زيتوني قاتم، فضفاضة، يعلق بندقية على كتفه. كان وجهه الصغير، المكسو بالنمش، يلمع من العرق. ويعلو ظلّ خفيف من الشعر فوق شفته العليا موحياً بأن شارباً سينمو في الأيام القادمة. وكان شعره، مما تمكنت من رؤيته تحت قبعته، أسود اللون. وكان يبدو عليه أنه لا يتجاوز الاثنتي عشرة سنة، أو ربما ثلاثة عشرة سنة من العمر. تصافحنا وتبادلنا الابتسامات.

«اجلس أيها الفتى»، قلت، مفسحاً له مكاناً فوق جذع الشجرة الذي أجلس عليه.

«لا، شكراً»، أجاب، وهو يهزّ رأسه، «لا بأس هنا. وبالمناسبة، فأنا لست فتى. إنني في الخامسة عشرة من عمري».

لم ينكسر صوته بعد، وكان يتحدث بصوت مرتفع، وكأنه يريد أن يعوّض عن صغر سنه.

كنت قد رأيت جون لأول مرة أثناء مباراة كرة قدم جرت قبل ساعتين فقط في هذه البقعة بالذات. وكان يبدو أن جون أصغر اللاعبين في الفريقين ـ طفل يمازح رفاقه. «الصبي الجندي»، قلت لنفسي، سيكون عنواناً جيداً لقصّة.

لكن الفتى الجالس أمامي الآن لم يكن هو جون نفسه الذي كنت قد رأيته منذ قليل. فقد كان هذا الفتى يتظاهر بأنه أكبر سناً وأطول قامة مما هو في الواقع. رفع إحدى ساقيه وسحب من جوربه علبة مارلبورو. ضربها ثلاث مرات على راحة يده قبل أن يقدم لي واحدة. كنت قد أقلعت عن التدخين منذ حوالي السنة، لكنني قلت لنفسي لعل السيجارة تساعد على كسر الجليد بيننا، لذلك أخذت واحدة. ثم أخرج قداحة مصنوعة على شكل هاتف خليوي صغير.

«إنها قداحة جيدة»، قال، وهو يعطيني إياها، «إنها مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية».

«كيف عرفت ذلك؟» سألته، قرأت على القداحة عبارة «صنع في الصين».

«أعطاني إياها شاب أمريكي. جاء إلى هنا لإجراء مقابلة مع قائدنا».

لم أكن أول مراسل أجنبي يتحدّى الأخطار التي يمكن ان يواجهها في كولومبيا بحثاً عن قصّة جيدة. في السنتين اللتين عشتهما هناك، التقيت بعدد كبير من الأشخاص من بقاع مختلفة من العالم ممن يجرون مقابلات مع الثوّار، والقوات الشبه العسكرية، وجنود الجيش، ومزارعي الكاكاو، أو مثلي، جميع هؤلاء.

«وكيف عرفت أنه من الولايات المتحدة؟»

«إنه يشبهك، شاحب وأشقر، وعيناه زرقاوان، ويتكلّم بطريقة مضحكة مثلك».

سحبت أنا وجون نفساً من سجائرنا، لكن الدخان خنقني وبدأت أسعل.

انفجر ضاحكاً، «هاهاهاها.....»

هذا هو جون الذي رأيته من قبل، الفتى الضاحك الخبيث. «الهاهاها» التي انطلقت منه جعلته مميزاً. أطفأت السيجارة ورحت أراقبه وهو يضحك ـ حتى استعدت نفسي.

ثمّ، قال فجأة: «أنا في الثالثة عشرة من عمري فقط»، نظر إلى الأسفل، وكأنه شعر بالخجل لأنه طفل، «مع أنني لا أخبر أحداً بذلك. هناك شخص قال إنه في الرابعة عشرة من عمره ولم يعد يحترمه أحد. يجب أن تكون كبيراً لكي تقتل الناس».

عندما اخترت جون لأجري معه مقابلتي، قدم لي القائد ملف الفتى. حسب الملف لم يشارك جون في أي معركة. ساورني الشك في ذلك. أعرف أن القادة يزورون ملفات المجنّدين لديهم، وخاصة إذا كانوا تحت سنّ الرشد.

«كم شخصاً قتلت حتى الآن؟» سألته.

قال: «هاهاهاها، هل تريد أن تعدّهم... إني أغمض عيني وأطلق النار، إلى أن لا أعود أسمع صوت نيران من الطرف المقابل». إجاباته بدون تفكير جعلتني أصدق ما يقوله. وسألني، «وماذا عنك؟ هل قتلت أحداً؟»

هزّزت رأسي.

«حقاً؟» بدت المفاجأة على جون. أسند البندقية على العشب وجلس

بجانبها، ركبتاه مضغوطتان معاً على صدره، وذراعاه تلتفان حولهما. كانت الرسالة واضحة: لم يعد بحاجة ليشعر بأنه أكبر سناً أو أطول قامة. بأنه قتل أشخاصاً. أما أنا فلم أقتل أحداً...

«بم تفكر عندما تكون في المعركة؟» تابعت.

«في معظم الأحيان لا أفكر بشيء، لكنني في بعض الأحيان أفكّر بأنني أنقذ حياتي، كما تعرف. إمّا حياتي أو حياتهم، ولا يريدني الله بعد».

«إذاً أنت تؤمن بالله».

«بالتأكيد. إنني أصليّ كلّ ليلة تقريباً، وأصليّ قبل نشوب معركة».

«وهل تظن أن الله يوافقك على قتل الآخرين؟»

فكّر في سؤالي قليلاً قبل أن يجيب: «أظن أن الله لا يريدني أن أقتلهم كما لا يريدهم أن يقتلوننا».

ثم طرحت عليه أسئلة عن الحياة اليومية لمقاتل في حرب العصابات وعلمت أنهم ينهضون في الساعة الرابعة، وينتظمون في صفوفهم في الساعة الخامسة، وتوزع عليهم مهامهم في الساعة الخامسة والنصف. مجموعة مؤلفة من شخصين يطهوان وجبات الطعام الثلاث، وتنطلق مجموعتان أخريان تتألف كل منهما من ثلاثة أشخاص إلى الصيد، وتقوم مجموعتان تتألف كل واحدة منها من أربعة أشخاص باستطلاع المنطقة تحسباً من وجود قوات غازية، بينما يتولى الباقون مهام الحراسة. وبعد الظهر، يلعبون ألعاباً رياضية ويتدربون على الرمي.

«لا يُعدُّ هذا المعسكر شيئاً بالمقارنة مع معسكر التدريب»، قال جون مؤكداً، «فهناك يعلّمونك الرمي من المسدّسات والبنادق والرشاشات، وكيف يمكنك أن تكتشف طائرة، أي مكان في هيكلها يجب أن تسدد

بندقيتك. إنه شيء فظيع»، قال كلّ ذلك بصوته الطفولي، وفكرت ثانية بالملف الذي أعطاني إياه القائد. أخرجته من حقيبة الظهر وأعدت قراءة الصفحة. إنها تقول إن اسم جون الحقيقي هو خوان كارلوس سيبالوس فارغاس، وهو في السادسة عشرة من عمره، وأن والديه ماتا في حادث سيارة عندما كان رضيعاً، وقد أمضى الفتى فترة طفولته كلها في ملجأ للأيتام خرج منه عندما بلغ الخامسة عشرة من العمر؛ وأنه التحق بصفوف المقاتلين للمشاركة في حرب العصابات طوعاً في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠. قرّرت أن أتأكد من صحة المعلومات الواردة في ملفه.

«هل جون اسمك الحقيقي؟»

هزّ رأسه.

«ما هو إذاً؟»

«لا أخبر أحداً باسمي الحقيقي».

قلت: «معك حق. أنا أحبّ اسم جون. إنه اسم جميل».

فأجاب، «إنه ليس جون فقط. إنه جون ر.».

«لا أزال أعتبره اسماً جميلاً. هل أنت الذي اخترته؟»

أومأ. ثم سأل، «هل رأيت رامبو؟»

«رأيت الأجزاء الثلاثة كلها»، قلت معترفاً.

«وأنا أيضاً. إنه رائع! أتذكر اسمه؟ اسم رامبو؟»

كان عليّ أن أفكر للحظة. كانت قد مضت سنوات عديدة على مشاهدتي رامبو ١١١. عرفت أنه اسم مشترك. مايكل؟ روبرت؟ جون؟ «جون!» أعلنت، «أوه، فهمت. جون ر.».

ابتسم. «كان لدى جدتي جهاز تلفزيون. كانت تسمح لي بأن أشاهده

أحياناً، إلى أن باعته. بدأت تبيع كلّ شيء لأنه تعين عليها أن توفر لنا الطعام حتى لم يعد ما يمكنها بيعه في ذلك البيت».

«أين جدتك الآن؟»

هزّ كتفيه.

«وماذا عن أبيك؟ أين هو؟»

«في السجن. حُكم عليه بالسجن عشرون سنة لأنه قتل جاراً سرق منا خنزيراً».

«وأمّك؟»

«أصيبت بطلقة في رأسها»، أجاب، كما لو كانت تلك هي الطريقة التي تنتهي فيها حياة أي شخص، وأضاف، «كان للرجل الذي قتله أبي، ابن يعمل شرطياً. زجّ بأبي في السجن، ثمّ قتل أمّي».

«ألم يلقوا القبض على الشرطي؟»

«هاهاها»، أجاب.

«كم كان عمرك عندما حدث ذلك؟»

دفع يده اليسرى أمام وجهي، بالطريقة التي يخبر فيها الأطفال عن عمرهم. خمس أصابع.

«وكم كان عمرك عندما التحقت بالمقاتلين؟»

«إحدى عشرة سنة».

«هل تعرف ما هذا؟» سألته، ودفعت الملف أمام عينيه.

نظر إليه وهزّ رأسه، وقال: «لا أستطيع القراءة. لم أذهب إلى المدرسة قط».

«ها هنا، سأقرأه لك»، قلت وبدأت أقرأ كلّ سطر ببطء. أنصت بانتباه، لكن تعابير وجهه لم تتغيّر.

«أرجو أن يكون ذلك صحيحاً»، قال بعد أن أنهيت كلامي، وأضاف، «يبدو أنه أفضل من حياتي الحقيقية بكثير». كانت عيناه، السوداوان والحزينتان، مثبتتين في عينيّ. نظرت فيهما ورأيت صبياً صغيراً يتعلّم كيف يطلق النار من البندقية، ويصطاد الطيور في الغابة، ويصلي وهو جاث على ركبتيه قبل أن يتوجه إلى المعركة، ويطلق النار على شخص آخر يعتبره عدواً له وعيناه مغمضتان بإحكام. جعدت الملف وجعلته في شكل كرة ورميته.

«سؤال آخر فقط»، قلت، ولاحظت أنه ينظر إلى ساعته الآن، «أخبرني ما الذي جعلك تنضمّ إلى الثوّار».

«كنت جائعاً».

أمسك جون ر. بندقيته ونهض. كانت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً، وكان عليه أن يؤدي واجب الحراسة من الساعة الرابعة حتى الثامنة.

«عدني بألاّ تحرّف ما قلته لك لتجعلني أبدو شخصاً سيئاً»، قال.

«أعدك»، قلت أطمئنه. ولكي أثبت له ذلك، قبّلت صليباً رسمته بإبهامي وسبابتي، وهي إيماءة يستخدمها الكولومبيون كثيراً للدلالة على أنهم سيفون بوعودهم.

ثمّ طلب مني هدية. قال: «أيّ شيء».

نظرت داخل حقيبتي. كان فيها غيار ثياب داخلية، وفرشاة أسنان، وأنبوبة معجون أسنان صغيرة للسفر، ومجموعتا بطاريات، وأسبيرين، ومضاد حيوي، ولفّة من ورق التواليت، ونسخة مهترئة من رواية «مائة عام من العزلة»، التي كنت قد بدأت قراءتها للتو. لا يريد جون ر. شيئاً من كل ذلك. لكن بعد ذلك، وجدت في جيبي الجانبي قلم حبر ناشف فيه سائل

يطفو يقدم هدية في عيد الميلاد كنت قد حصلت عليه في آخر زيارة لي إلى نيويورك.

«عيد ميلاد مجيد، جون ر.»، قلت، وقدمت له القلم.

«عيد ميلاد مجيد؟ لكننا في نيسان (أبريل)».

«أي وقت يصلح لتقديم هدية عيد الميلاد».

قدمت له القلم وطلبت منه أن يحركّه إلى الأعلى والأسفل، ورأيته يراقب بابا نويل وغزاله وهما يطفوان بسهولة فوق قرية صغيرة مكسوة بالثلج.

«هاهاهاها»، أضاء وجهه، «هل صنع في الولايات المتحدة؟»

اعترفت قائلاً: «لست متأكّداً من ذلك».

تهدلت شفته السفلى محبطاً.

استعدت القلم منه وتفحصته بعناية. وفي النهاية، وجدت على طرف الحلقة الفضية الصغيرة التي تقسم بين الجزء العلوي من القلم والجزء الأسفل، كتابة بأحرف صغيرة، الكلمات الثلاث التي يريد جون ر. أن يسمعها.

قلت: «نعم. صنع في الولايات المتحدة الأمريكية».

شكرني أربع أو خمس مرات، استدار وتوجّه نحو المعسكر، وهو لا يزال يحرّك القلم إلى الأعلى والأسفل ويقول: «هاهاهاها»، عدة مرات إلى أن اختفى جسده الصغير في الغابة.

الفصل الثاني

القاضية التي لم تكن تعرف كيف تحكم

ماريكيتا، ٢٩ تشرين الأول
(أكتوبر) ١٩٩٣

منذ أكثر من أسبوع، لم تتوقف روزالبا عن النظر إلى السماء بإمعان شديد. وفي كلّ مرة كانت تنظر إليها، كانت تبدو لها الغيوم والشمس، القمر والنجوم، كلّ شيء فوق قريتها، بعيداً عنها بعض الشيء. أما اليوم، فعندما خرجت من البيت ونظرت إلى السماء مرة أخرى، قرّرت أن عينيها الخضراوين لم تكونا تكذبان. صحيح: إن ماريكيتا تغرق. رسمت شارة الصليب وسارت في الشارع باتجاه ساحة القرية.

كانت روزالبا أرملة باتين، كما كانت تحبّ أن تطلق على نفسها، أرملة سارجنت الشرطة. كانت امرأة جميلة ذات بشرة بيضاء، وذراعين وساقين جميلتين، وخصر ضامر، وكان لها أضخم عجيزة بين جميع نساء قرية ماريكيتا. وكانت ترفع شعرها الكستنائي الطويل وتجمعه في شكل شينيون وراء عنقها؛ وكانت شامة تقبع بين حاجبيها كما لو أن ذبابة قد استقرت على جبهتها. وعندما كانت تضحك ـ وهو شيء، نادراً ما كانت تفعله منذ وفاة زوجها ـ كانت تغمض عينها نصف إغماضة، وتفتح فمها واسعاً بشكل

بيضوي يكفي ليظهر حشوات أضراسها الفضية العديدة وهي تتلألأ داخل فمها. كانت في السادسة والأربعين من العمر، لكن التجاعيد العميقة حول عينيها ـ التي بدأت تظهر الآن ببطء بعد أن توقّفت عن الضحك ـ وجلد يديها الرقيق المكسو بالنمش، كلّ ذلك يجعلها تبدو أكبر من عمرها بكثير.

عندما كانت روزالبا تسير في الشارع الرئيس، رأت بضعة أكوامٍ جديدة من القمامة والأنقاض، التي أخذت تزداد ارتفاعاً في كلّ مكان. وبينما أخذت القرية تغوص أكثر فأكثر، كانت مسألة وقت حتى تجد الأرامل وأولادهن أنفسهم يغرقون بين القمامة والنفايات. فقد توقف الرجل العجوز الأعرج السقيم بعربته القديمة المتداعية، الذي كان يأتي إلى ماريكيتا مرة في الأسبوع لجمع القمامة، عن المجيء بعد أيام قليلة من اليوم الذي اختفى فيه الرجال. فبعد ذهاب أمين الصندوق والقاضي من القرية، من سيسدد له الأجر لقاء خدماته؟ ليست الأرامل اللاتي لديهن أولويات أخرى مثل توفير الطعام لهن ولأطفالهن.

«لعن الله ذلك الرجل العجوز». كانت روزالبا تردد باستمرار. انعطفت يساراً عند ناصية الشارع ورأت بيتاً مهجوراً جديداً. إنه بيت آل كروز. فمنذ اليوم الذي اختفى فيه الرجال، غادرت عدة نساء ماريكيتا مع أطفالهن وأفراد عائلاتهن الطاعنين في السن، وكل ما تمكّن من تحميله على ظهور دوابهن أو حمله على ظهورهن. وفي أقل من سنة، انخفض عدد سكان ماريكيتا انخفاضاً كبيراً. وسرعان ما برزت في كلّ شارع بيوت مهجورة بدأت تتهدم وتتساقط. ونُزعت عنها السقوف والأبواب والنوافذ والأرضيات، وكلّ ما يمكن إزالته، ولم يتبق منها سوى أربعة جدران طينية، فيها فتحتان أو ثلاث فتحات ذات أشكال مختلفة. عقدت روزالبا حاجبيها، وتابعت سيرها.

ودأبت مؤخراً على الجلوس في مقعد خشبي في ساحة القرية تراقب

القرويات وهن يسعين إلى أعمالهن المعتادة. كانت ترى النساء العجائز اللامباليات المتلفعات بأغطية مخرّمة سوداء يتوجهن إلى الكنيسة؛ وصبايا ينادين بين الحين والآخر عن السلع التي يبعنها، وهي أريبا[1] طازجة، وثياب مستعملة، وصابون، وشموع، وما إلى ذلك؛ وأطفالاً شبه عراة يلحقون بهن، يتسولون الأشياء التي باعوها، وينتظرون النساء حتى يغفلن قليلاً ليسرقوا منهن شيئاً، أيّ شيء. وبعد بضعة دقائق، تكتشف روزالبا أن هذه الرتابة المضجرة لا تحتمل، فتبحث عن امرأة لتتكلم معها. أما اليوم، فقد جلست على مقعد يكاد يغطيه ذرق الطيور. وكان المقعد في مواجهة الشمس البعيدة التي تشق طريقها مخترقة غيوم الصباح البعيدة أيضاً.

وعند ناصية الشارع، برزت ثلاث نساء يبدون مثل راهبات، يرتدين أردية نوم طويلة، ويحملن دوارق ماء كبيرة. فقد كانت الأخوات موراليس، أوركيدا وغاردينيا ومانوليا، متجهات إلى النهر الذي يبعد حوالي الساعة سيراً على الأقدام. فمنذ عهد بعيد، كان رجال ماريكيتا قد أقاموا سداً، وحوّلوا جدولاً قريباً لإمداد المطابخ والحمامات في القرية بالمياه الجارية. أما الآن فقد أصبحت مجرد أنابيب تغزوها الأعشاب الضارة. فقد أدت سنة كاملة من الطقس الشديد الجفاف إلى تجفيف الجدول والقناة، وإتلاف معظم المحاصيل، فأصبحت النساء والأطفال في قبضة المجاعة والقحط.

«صباح الخير»، صاحت روزالبا محيية الأخوات موراليس.

لم تجب أيّ منهن.

تطلعت روزالبا حولها تبحث عن شخص، أي شخص لتكلّمه، لتشتكي له سلوك الأخوات الثلاث وأشياء أخرى تزعجها. لم تر أحداً.

---

(1) فطيرة تُصنع من الذرة تشتهر في المطبخ الكولومبي والفنزويلي ـ م.

«لا بد أنهن جميعاً منهمكات بشيء»، قالت بمرارة، مخاطبة شجرة مانغا قديمة تنتصب إلى جانبها، «لم أر في حياتي نساء سلبيات أكثر من الأرامل في هذه القرية. بدأ الطعام ينفذُ، ولم يبق لنا شيء حتى الروث لتسميد التربة. صحيح أننا نعاني من موجة جفاف، لكننا لا نستطيع أن ننحي باللائمة على الطبيعة في جميع المصاعب التي نواجهها. لا يمكننا أن نلومها ولا نفعل شيئاً. لا نفعل شيئاً سوى الجلوس طوال الوقت، نتذمر، ننتظر انتقال أخبار محنتنا عبر الجبال لكي تصل إلى السيد الحاكم، وحتى يعقد السيد الحاكم مجلسه، ثمّ يبلّغ أعضاء المجلس الحكومة المركزية. وإلى أن يجتمع السيد رئيس الجمهورية مع أعضاء الكونغرس، وإلى أن يخوّل الكونغرس السيد رئيس الجمهورية لكي يخوّل المجلس الذي يخوّل السيد الحاكم، ليخوّل شخصاً آخر حتى يقدم شيئاً من المساعدة إلى مجموعة أرامل حمقاوات يعشن في منطقة جافة في بقعة...». ظهر قطيع صغير من الخنازير نصف الجائعة، تتبعه الراعية أوبالدينا أرملة ريستريبو، وهي تشتم الخنازير بصوت عال. كانت أوبالدينا أرملة دون كامبو إلياس ريستريبو ـ الذي كان أغنى رجل في القرية ـ والذي فقدته هو وسبعة من أبناء زوجها الذين خطفهم الثوّار. كانت أوبالدينا تجمع خنازيرها في حظيرة صغيرة محاطة بسياج شائك خلف حديقتها. وكانت تسوقها وتطوف بها أرجاء القرية مرتين في اليوم لكي تتغذى على القمامة. وكانت قد وضعت إشارة على آذانها اليسرى بطلاء أحمر، وكانت تحصيها عدّة مرات في اليوم للتأكد من أن أياً منها لم تُسرق.

وكانت الخنازير تتوقف كلّ بضعة ثوان لتلتهم أكوام القمامة التي تصادفها في طريقها. «تحركي أيتها الحيوانات الغبية»، صرخت في أكثر خنازيرها هزالاً وضموراً، المتخلفة عن باقي الخنازير.

«متى سأحصل على قطع اللحم يا أوبالدينا؟» صاحت روزالبا، التي لم تتناول قطعة لحم منذ ثلاثة أشهر، مع أنها دفعت ثمن قطعتين كاملتين من لحم الخنزير منذ فترة طويلة».

«ربما في الأسبوع القادم»، أجابت أوبالدينا، «فلم أبع حتى الآن آذان الخنازير وأقدامها». فقد بدأت أوبالدينا، التي كان لديها ثلاجتان عديمتا الفائدة في البيت بعد أن قُطعت الكهرباء في ماريكيتا، تذبح خنزيراً واحداً فقط لتبيع كلّ شيء فيه.

«إن الكارثة التي تصيب الفقراء والمساكين تكون فرصة للأغنياء»، همست روزالبا للشجرة، وأضافت، «أتعرفين كم تطلب تلك المرأة الجشعة لقاء رطل اللحم من تلك الخنازير التي تتغذى على القمامة؟ ثلاثة آلاف بيزو! ولكي أتمكن من شراء بعضاً منها، يجب عليّ أن أؤجر الغرفة الخلفية في بيتي لفاكا. كما تعرفين، أرملة الإسكافي، الهندية ذات العينين الكبيرتين، التي لا تتوقف عن مضغ طعامها الذي تجتره. لماذا؟ طبعاً أوبالدينا تعرف ذلك! لقد أخبرتها ذلك بنفسي. ببساطة إنها لا تعير ذلك أي اهتمام. لكنني لست الوحيدة. أتعرفين لوكريسيا سافيدرا؟ تلك الخياطة العجوز؟ يجب على المسكينة أن تقايض مقصها مقابل قطعة لحم لكي تصنع منها حساء».

وبينما كانت روزالبا تشتكي للشجرة، وصلت إلى القرية قافلة صغيرة من سيارات الجيب الخضراء التي تناثر الطين على جوانبها. هرعت النساء وخرجن من بيوتهن، متخيّلات أن مساعدة إغاثة قد أرسلتها لهن الحكومة. وترجّل من سيارات الجيب.خمسة عشر رجلاً غريباً يرتدون زياً عسكرياً، صامتين لا ينبسون بكلمة. وبالصمت ذاته، أخذوا يجوبون شوارع ماريكيتا

المليئة بالأوساخ، يتبعهم عن كثب أطفال وأمهات عراة، أيديهم ممدودة، يصيحون، «نرجوكم، نرجوكم، نرجوكم...» وطرح الجنود عدة أسئلة على الخوري رافاييل (الرجل الوحيد الذي لم يأخذه المقاتلون). دوّنوا النتائج التي توصلوا إليها في دفاتر صغيرة، والتقطوا كذلك صوراً للساحة الخربة، وللمجموعة الكبيرة من النساء اللاتي تحلّقن حول سيارات الجيب لكي يستجدين.

اعتلى أكبر الرجال العسكريين سناً غطاء سيارته الجيب، وحاول تهدئة الأرامل واسترضائهن. كان رجلاً قصيراً، أشقر الشعر، ذا هيئة بغيضة. وكان جلده يتفصد عرقاً، لامعاً، وتملأ وجهه ندوب من مختلف الأشكال والأحجام. «اسمي أبراهام»، بدأ يتكلم بصوت رقيق لا يتوافق مع مظهره، ومضى يقول: «إننا لم نأت إلى هنا لنقدم لكنّ تعازينا على الخسارة التي لحقت بكن، مع أننا نقدم لكنّ جميعكن أعمق تعاطفنا. لقد أتينا لنقيّم الضرر المادي الذي لحق بقريتكن لكي يتسنى لنا تقديم التعويضات التي تستحقنّها». وقد عزّز كلماته بحركات سريعة بيديه الصغيرتين. «ولسوء الحظ، فإن وصول أي مساعدة سيستغرق بعض الوقت. فكما ترين، يتعرض بلدنا إلى حرب أهلية أخرى غير معلنة. وقد تعرضت قرى كثيرة لهجمات شنها الثوّار قبل أن تتعرض قريتكن للهجوم، لذلك... وعلى الرغم من الأخبار المحبطة التي نقلتها، بدا وكأن الرجل القصير قد نوّم النساء والأطفال تنويماً مغنطيسياً. فقد رحن يحدّقن فيه مشدوهات، مسلوبات اللبّ، وكأنهن ينتظرن منه أن يبيض بيضاً أو يدرّ حليباً. لكن امرأة واحدة فقط، ظلت تمسك بأعصابها، وتسيطر على جميع أحاسيسها سيطرة تامة، وهي روزالبا أرملة باتينو».

«إننا نقدّر لك صدقك، يا سنيور»، قاطعت كلمة أبراهام، «لكن أخبرنا، من سيزوّدنا نحن وأطفالنا بالطعام حتى تهطل بعض الأمطار؟»

«أظن أنه لا يوجد لديّ رد على ذلك، يا سنيورا، لكن ـ».

«وماذا عن الملابس؟ فهذه الخرق التي نرتديها ستبلى قريباً»، واستدارت بسرعة نحو النساء، وقالت: «هل يُفترض بنا أن نجوب أرجاء القرية عراة مثل الهنود الحمر خلال الفترة المتبقية من حياتنا؟»

«سنيورا، استمعي إليّ».

«لا»، قاطعته روزالبا، ملتفتة إلى الرجل، وقالت: «أنت من يجب أن يستمع إلينا. هل التقطت مثلاً صوراً عن خزانات المياه الفارغة والقمامة المكوّمة في كل مكان؟ هل كتبت في دفترك الصغير أن قريتنا تغرق؟»

«أو أن الكهرباء لم تأت إلى قريتنا منذ سنة؟» رددت أوبالدينا، مربية الخنازير.

«أو أن الهاتف الوحيد في القرية لا يعمل؟» صاحت مانوليا موراليس من الخلف.

وبدأ المزيد من النساء يصحن ليعبّرن بغضب عن شكاويهن، مما جعل أبراهام يزداد توتراً. فقد كان يعرف أنه إذا تحوّلت عاصفة الاحتجاج هذه إلى حالة من الشغب، فلن يتمكن هو ورجاله الأربعة عشر من السيطرة عليها. لا، لأن النساء يتفوقن عليهم من حيث العدد فقط، بل لأنهن هنّ وأطفالهن جائعون أيضاً. فمن المرجح أن الناس يثورون عندما تكون بطونهم خاوية.

وفجأة، انفجرت روزالبا في البكاء، وصاحت وهي تنوح: «ماذا سنفعل؟ سنموت جميعاً من الجوع، وسندفن في الزبالة، ولن تلاحظ ذلك إلا العقبان».

«سنيورا»، قال أبراهام، محتاراً من مواقف روزالبا المتقلبة، «إن ما تحتاجه هذه القرية هو زعيمة قوية مثلك. لماذا لا تشغلين منصب القاضية إلى أن تقرّر الحكومة ما ستفعله؟»

«لا أعرف شيئاً عن القانون المدني ولا عن الإجراءات القضائية»، قالت لأبراهام وهي تمسح الدموع من عينيها بظاهر يديها، «لكن زوجي كان سارجنت الشرطة في ماريكيتا. رجل شجاع جداً ضحّى بحياته وهو يحارب الثوّار».

فأجاب أبراهام، «هذا وحده يجعلك الزعيمة المثالية لهذه القرية».

لم يكن في نية أبراهام أن تأخذ روزالبا اقتراحه بجدية، بل كان يريد أن يوقفها عن النواح. لكن المرأة، التي لم تكن معتادة على أي إطراء من أيّ نوع كان، فاجأته بقبولها شغل هذا المنصب. ونزل أبراهام من فوق السيارة الجيب، وكتب بخط يده وثيقة يعيّنها بموجبها القاضي بالوكالة. ثمّ أضفى على الوثيقة طابعاً رسمياً لم ينشد، ربما من دون لحن وبصوت واحد مع جنوده، النشيد الوطني الكولومبي.

*

في أول يوم كامل لها كقاضية، توجّهت روزالبا إلى مكتبها في الساعة السابعة. ارتدت مئزراً أبيض فوق ثوبها الأسود، وحملت مكنسة وممسحة ودلواً مملوءاً بالماء الذي تعلوه رغوة الصابون. ودسّت عقب قلم رصاص وراء أذنها، ووضعت دفتراً صغيراً ومسدسها في جيب مئزرها. وعندما نزلت إلى الشارع الرئيس، استغرقت في التفكير بالأشياء العظيمة التي ستصنعها من أجل ماريكيتا. وكانت كلما خطرت لها فكرة، توقّفت، ووضعت أدوات التنظيف، وأخرجت دفترها وأخذت قلم الرصاص ودوّنت

في قائمة الأولويات. «إعادة المياه الجارية إلى القرية. تطوير نظام ريّ للمحاصيل. إرسال شخص إلى المدينة لشراء بعض البذور والأسمدة». وكان مكتب بلدية ماريكيتا عبارة عن بيت صغير قريب من الساحة. وقد علقت على الجدار الأمامي لوحة لا تزال تحمل اسم القاضي السابق، جاشينتو جيمينيز، الذي أعدمه الثوّار أمام زوجته وأطفاله المذعورين، ثمّ أخذوا ابنه البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً. وظلت أرملة خيمينز المسكينة تبكي لأيام عديدة. لكن ذات صباح، حزمت ثيابها وأحذيتها الكثيرة وغادرت القرية مع ابنتيها إلى إيباكي، حيث تزوّجت جزّاراً جعلها سعيدة مرة أخرى. وقبل أن تغادر القرية، أعطت روزالبا (فقد كانتا صديقتين) مفتاح مكتب البلدية.

فوجئت القاضية بالسهولة التي دار فيها المفتاح في قفل الباب بعد سنة تقريباً. دفعت الباب وفتحته فحيّاها عدد من الخفافيش التي جعلت المكتب بيتاً لها، وانبعث منها صرير حاد. تنحّت جانباً، باشمئزاز. وراحت هذه المخلوقات الشنيعة التي أزعجها شعاع الضوء المتسلل عبر الباب تصفق بأجنحتها وهي ترتطم بالجدران. انتظرتها روزالبا حتى هدأت. ثمّ، دخلت بتصميم، وفتحت النافذة الوحيدة وراحت تراقب سرب الخفافيش يندفع من جانب رأسها يحلّق بعيداً عن المبنى. وبدأت تزيل الغبار عن أثاث مكتبها، وتتوقف عن أداء عملها بين الحين والآخر لتدوّن في دفترها: «تنظيم فرق نظافة لكنس القمامة من الشوارع». وأزالت خيوط العنكبوت التي تشكلت حول زوايا السقف. «تنظيم فريق من النساء لبذر بذور الأرز والقطن والذرة البيضاء المقاومة للجفاف». وأعادت ترتيب المكتبة ومشجب المعاطف المترنح، وأزاحت طاولة المكتب من زاوية إلى أخرى. «إعادة الكهرباء

سبعة أيام في الأسبوع». كنست ومسحت الأرضية مرّتين. «إعادة خط الهاتف ثانية». وأحضرت زهرة البغونيا الجميلة المزروعة في أصيص ووضعتها في زاوية. «إعادة فتح المدرسة». وأخيراً، حرقت القاضية أوراق شجرة الكينا لتحرر الغرفة من الأرواح الشريرة.

عندما فرغت روزالبا من عملها، وقفت وراء الطاولة القديمة المصنوعة من خشب الماهوغوني وتطلعت حولها. فقد أصبح مكتبها الآن أنظف الأماكن وأكثرها ترتيباً في القرية كلها. أحست بالرضا. وعصرت عجيزتها المكتنزة في الكرسي ووضعت يديها فوق سطح طاولة المكتب الناعم، وقالت: «سأعيد ماريكيتا كما كانت»، وأضافت، «لا، ماذا أقول؟ سأحوّلها إلى قرية أفضل بكثير مما كانت في زمن الرجال. إنني أعرف كيف يمكنني أن أفعل ذلك. فأنا زعيمة بالفطرة».

كانت روزالبا من قرية هوندا القريبة من نهر مجدلينا. وعندما كانت في الرابعة عشر من عمرها، ماتت أمّها اختناقاً بعد أن علقت حسكة سمكة في حلقها، فتولت روزالبا رعاية المنزل ورعاية أخوتها الأربعة الذين يصغرونها، وخصصت لكل فرد في الأسرة مهام منزلية، بدءاً من أعمال بسيطة مثل تقشير البطاطا إلى مهام أصعب مثل طحن الذرة بالهاون الخشبي. بل إنها خصصت لأصغر أخوتها، الذي لم يكن يتجاوز الرابعة من العمر، عملاً وهو جلب المياه من النهر للطهي والتنظيف. وقد أدى تنفيذ القواعد التي وضعتها روزالبا بصرامة إلى استياء إخوتها ونفورهم منها. فقد كان على الجميع الاستيقاظ في السادسة صباحاً والنوم في الثامنة مساء. وكان الاستحمام باسفنجة في ماء النهر البارد يومياً أمراً إلزامياً. وكان يتعين عليهم ترديد الصلوات قبل كلّ وجبة طعام وقبل أن يأووا إلى النوم.

وكان يتعين عليهم تناول زبدية الحساء الحارة بكاملها. وكان عليهم ترديد عبارة «من فضلك» و «شكراً جزيلاً» على الدوام، أما العبارات التي تنم عن التذمر والشجار والشتائم، فهي تعرضهم لعقوبة شديدة.

وكانت روزالبا تحلق شعر أخوتها كلّ شهر وتقصّ أظافرهم كل يوم سبت. وكانت تطهي ثلاث وجبات من الطعام يومياً للأسرة بأكملها، وتغسل ثيابهم وتعتني بحديقتها الصغيرة التي تزرع فيها الخسّ والكزبرة والبصل والجزر. وفي أيام السبت والأحد، فكانت تذهب هي وإخوتها إلى المدرسة العامة لتعلم القراءة والكتابة. وبدأت تتدرب على الكتابة حتى أصبحت تكتب بخطّ أنيق جميل.

وكانت شديدة الحرص على المبلغ الصغير الذي كان أبوها يعطيه لها، لكن أفراد أسرتها الآخرين لم يوافقوا على الأولويات التي كانت تضعها. ففي حين كان أخوتها يرتدون القمصان المزركشة وبناطيل الجينز القديمة ذاتها يومياً، ثمّ تنتقل إلى الإخوة الأصغر عندما تضيق عليهم، ركّبت روزالبا نوافذ في مقدمة الكوخ الطيني الذي يقيمون فيه، وكست الأرضية الترابية بالبلاط. واشترت لنفسها راديو ترانزستور صغيراً لتستمع إلى الأخبار والتمثيليات المسلسلة، التي عرفت منها بوجود مُلاَّك أراضي أثرياء يهيمون حباً بخادمات صغيرات جميلات. وكانت روزالبا تفضّل الاستماع إلى الأخبار، وكان يراودها عدد من صيّادي السمك، الذين كانت تتقبل منهم أفضل أنواع السمك الذي اصطادوه في ذلك اليوم، لكن لم تكن هناك دعوات إلى العشاء أو إلى حفلات الرقص بعد ظهر أيام الأحد. فقد كانت توقّعاتها تتجاوز صيّادي السمك.

لم تتوقف الدكتاتورية التي كانت تمارسها على أخوتها إلا بعد أن تزوّج

أبوها ثانية بعد بضع سنوات. فقد وضعت دونا ريجينا، زوجة أبيها، قواعد خاصة بها. وحرّرت زوجة الأب الجديدة الأولاد من واجباتهم المنزلية، وكلّفت روزالبا بالقيام بجميع الأعمال المنزلية ـ كل شيء إلا أعمال الحديقة. فقد كانت دونا ريجينا تحب العمل في الحديقة. وقالت روزالبا لنفسها إن زوجة أبيها امرأة شرّيرة. فكيف تجرؤ تلك المرأة البغيضة على الدخول إلى بيتها الذي جددته ورممته حديثاً وعلى أن تعلّمها ما عليها فعله؟ انظروا كيف أن سلوك أخوتها جيد. فقد كانوا مدربين أكثر من زوجة أبيها نفسه بكثير. وفي معظم الأحيان، كانت المرأة تشتكي من طهي روزالبا، ولم تكن تقول «من فضلك» أو «شكراً» وكانت تشتم وتطلق اللعنات أمام أخوة روزالبا. وازدادت الأحوال سوءاً عندما بدأت دونا ريجينا تحرّض زوجها على روزالبا من وراء ظهرها.

«إنها تنفق معظم النقود على تذاكر اليانصيب»، قالت له دونا ريجينا كاذبة، «وفي الوقت نفسه، نضطر إلى تناول الرزّ وحويصلات الدجاج كلّ يوم. انظر كيف يتضور أولادك جوعاً»، وأشارت إلى أصغرهم سناً الذي كان عارياً وممدداً على الأرض، يأكل الفضلات التي يجدها داخل أنفه. وإزاء هذا الدليل الصارخ، مُنحت دونا ريجينا على الفور السلطة المطلقة في إدارة ميزانية الأسرة. وفي ذلك اليوم، ذهبت إلى السوق لشراء الطعام وعادت محمّلة بأكياس مليئة بأطايب الطعام لم يروها منذ أكثر من ثلاث سنوات: شرائح اللحم، وقطع لحم الخنزير، والجبن وحتى الجاتو. وفي اليوم التالي، اشترت قمصاناً للصبية الأربعة ولزوجها، وفستاناً لها. ولم تشتر شيئاً لروزالبا. ولم تشتر لها حتى بطاريات لجهاز الراديو الترانزيستور، الذي كانت دونا ريجينا تعتبر اقتنائه ضرباً من التبذير.

وبدأت حدّة التوتّر بين المرأتين تزداد، وبعد عدد لا يحصى من المناكفات والمشاجرات، تركت روزالبا البيت أخيراً في صباح يوم اثنين مشمس. ولم تأخذ معها إلا جهاز الراديو وسكيناً حادة واتجهت جنوباً، متجاهلة الكثير من سائقي الشاحنات الذين كانوا يعرضون عليها إيصالها إلى المكان الذي تريده مقابل خدمات تقدمها لهم. وقبل هبوط الليل، رأت قرية من بعيد: ماريكيتا، القرية التي كان يقطنها آنذاك أقل من مائة نسمة. ولم يكن بإمكان روزالبا أن تفسر لنفسها كيف ولماذا، لكنها في تلك اللحظة بالذات، عرفت أنها ستعيش ما تبقى من حياتها هناك، في تلك القرية البعيدة؛ وأنها لن تكون هناك، في تلك القرية، مجرد امرأة عادية. على الإطلاق.

وبعد ثمانية وعشرين عاماً، وجدت روزالبا نفسها تجلس على أهم كرسي في ماريكيتا، محاطة بجدرانها الأربعة الأكثر أهمية. فقد كان على الجدار الواقع على يسارها، علم كولومبيا، المهترئ عند حوافه، الذي بهتت ألوانه الثلاثة وأصبحت لوناً واحداً. أما الجدار الواقع على اليمين، فقد كان يباركه صليب خشبي كبير، عليه المسيح المصلوب مقطوع الرأس (كان ينخره السوس منذ أمد بعيد). أما الجدار أمام طاولة مكتبها، فكان مزيّناً بصورة ذات إطار لرئيس الجمهورية الحالي. وعُلِّقت على الجدار الواقع خلفها نسخة طبق الأصل من الشعار الوطني، وقد كتب عليها "Libertad y Orden" - الحرية والنظام.

استوت روزالبا واقفة وتوجهت نحو النافذة. تملكها شعور بالرهبة مما رأته: ساحة خربة تحيط بها أشجار مانغا تموت، ومقاعد حجرية يغطيها ذرق طيور، وعدد من أعمدة المصابيح المكسورة، وحزمة متشابكة من

الأسلاك التي كانت تزود القرية بالكهرباء لمدة خمسة أيام في الأسبوع، والتي تتدلى الآن بشكل عبثي بين الأعمدة التي كستها الطحالب. عادت إلى طاولتها، منزعجة. لا من المشهد نفسه، بل من نفسها. فقد دأبت على رؤية هذا الخراب ذاته كلّ يوم طوال السنة الماضية. هل كانت تتوقّع حقاً أن تبدو الساحة مختلفة عبر نافذة مكتبها وهي قاضية؟ يا لها من غبية! فلن تبدو مظاهر التحسن على ماريكيتا إلا بعد أن توظف هي، روزالبا، مهاراتها في الإدارة. كانت امرأة قوية بارعة. «إعداد فريق لتقليم أشجار المانغا وسقايتها. كانت دائماً صانعة القرار. «العمل على تنظيف المقاعد».

أتى صوت من بعيد قطع سلسلة أفكارها. «أيتها الرفيقات»، سمعت امرأة تصرخ، «إننا نعاني جميعاً من الجوع ومن فقدان أقربائنا الذكور. هيا لنضع أنفسنا بين يدي الرب، فهو الوحيد الذي يمكنه أن ينقذنا». اندفعت روزالبا عائدة إلى النافذة.

كان صوت أرملة خاراميو. وقفت عند ناصية الساحة، محنية قليلاً، وراحت تدعو النساء الأخريات إلى الانضمام إليها في التسبيح والصلوات العامة. كانت ترتدي فستاناً أحمر وتلف سبحة كبيرة حول خصرها. اعترى القاضية غضب شديد. أولاً، كيف تجرؤ أرملة خاراميو على ارتداء ثوب أحمر والقرية كلها تعيش في حالة حداد؟ وثانياً، كيف يمكنها أن تتوقّع الكثير من الله؟ فماذا فعل لماريكيتا؟ إذ يسود قريتهن فقر مدقع، القرية التي كُتب عليها الموت المحقق تماماً كما كُتب على أرملة خاراميو. وماذا فعل الرب لهذه المرأة الورعة؟ لقد فقدت أفراد أسرتها جميعاً: فقد أطلق الثوّار النار على زوجها وابنيها الصغيرين وقتلوهم عندما رفضوا الانضمام إليهم، وكان ابنها بابلو، أكبر أولادها، قد غادر إلى نيويورك منذ عهد بعيد بحثاً

عن حياة أفضل، ولم يسمع أحد منه حتى الآن. وكانت أرملة خاراميو أنحف وأفقر من أي وقت مضى. وكان يشاع أنها بدأت تفقد عقلها، ومع ذلك فها هي، تصيح أن الرب وحده يمكنه أن ينقذ ماريكيتا... وبغتة، أدركت القاضية وجود منافس قوي جداً لها وهي أرملة خاراميو. الرب نفسه خرج ليهزم روزالبا.

كان أكبر تحد يواجهها إقناع النساء بأن ينسين مسألة المعجزات ويضعن إيمانهن بالزعيمة الوحيدة المصنوعة من لحم ودم التي تعيش في ماريكيتا. كانت تعرف أن عليها أن تبذل جهداً كبيراً لإقناعهن بأنها هي، لا الرب، من سيعيد لهن الكهرباء والمياه الجارية في النهاية. إنها هي، القاضية، التي ستعيد فتح المدرسة؛ وهي التي ستشتري البذور والسماد لتزويد القرويات بالطعام. عادت روزالبا إلى طاولتها، معدّلة كتفيها مع كلّ خطوة تخطوها. أمسكت قائمة الأولويات التي دوّنتها، شاعرة بالخوف يتصاعد في داخلها، وكتبت: «كسب القرويات إلى صفي. منع ارتداء الثياب ذات الألوان البراقة في جميع الأوقات. وأخيراً، تغيير اللوحة المعلقة خارج مكتب البلدية لتصبح: روزالبا أرملة باتينو، القاضية».

بدت فكرة منافسة الرب مثيرة للرعب. وحتى اليوم، لم تكن علاقة روزالبا به سيئة تماماً. ففي الواقع، كان أول شيء فعلته ليلة وصولها إلى ماريكيتا في عام ١٩٦٤ هو الذهاب إلى الكنيسة. وتذكّرت بوضوح كيف أن الكاهن بارتولومي الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة وتسعين سنة، استمع إلى قصتها الحزينة بصبر شديد، وعرض عليها مأوى لقاء العمل في مطبخه. وبسرعة رتبت روزالبا بيت الكاهن الذي كانت تعمه الفوضى، ووضعت جدولاً أسبوعياً بوجبات الطعام اللذيذة التي أثنى عليها الكاهن كثيراً.

وفي الوقت نفسه، لفتت عيناها الخضراوان وعجيزتها الوافرة انتباه الرجال العزاب الثلاثة الوحيدين في القرية. فقد كانوا يرونها عصر كلّ يوم أحد تجلس وحدها على مقعد في ساحة القرية، تقرأ أو تستمع إلى الأخبار من جهاز الراديو الترانزيستور. وعندما بدا للشبان الثلاثة تعذر الاقتراب منها وهي بثوبها الأبيض الرقيق وقبعتها القشّ التي اشتراها لها الكاهن، فقد اكتفوا بمراقبتها من محل بيع المثلجات. وكانت روزالبا هي التي اتخذت الخطوة الأولى عندما كشفت لهم عن أسنانها الجميلة. لوّحوا لها بأيديهم. أغلقت الكتاب الذي كانت تقرؤوها ـ حياة جان دارك ـ والتفتت إلى الجانب الآخر. ألقى الشبان الذين اعتراهم القلق والتوتر قطعة نقدية معدنية في الهواء لمعرفة صاحب الحظ السعيد الذي سيتقرب منها أولاً.

كان فيسنت غوميز هو صاحب الحظ السعيد. مسّد حاجبيه الكثيفين بسبّابتيه وسار نحوها بجرأة. وبعد أن حيّاها بطريقة رسمية، وجد فيسنت نفسه يجيب على قائمة من الأسئلة التي لم يكن مهيئاً لها: «ماذا تريد أن تصبح بعد خمس سنوات؟» «كم طفلاً تحبّ أن يكون لديك؟» «هل تسمح لزوجتك إدارة أمور ميزانية الأسرة؟» «ما رأيك بالزوجات اللاتي يحكمن بيوتهن؟» «كم مرّة تستحّم؟» «هل تحبّ الاستماع إلى المذياع؟» لم يفهم فيسنت لماذا سألته كل هذه الأسئلة، لكنّه أجاب عليها كلّها: كان يريد أن يصبح حلاقاً، وينجب ستة أطفال، وأن يدير ميزانية الأسرة بنفسه، ويدع زوجته تحكم البيت. وقال إنه يستحّم بين يوم وآخر، ويعتبر المذياع أعظم اختراع وأنه لا يوجد له مثيل. وأعادته روزالبا إلى البيت بقبلة على خده. هل أريد أن أكون زوجة حلاق؟ سألت نفسها.

ثم جاء دور رومولو فيليغاس الذي لم تدعه يكمل اللقاء. فقد قال إنه

سيفتح مطعماً، وسينجب ما لا يقل عن اثني عشر طفلاً، ويقوم هو بإدارة الميزانية، ويحكم بيته بنفسه. عندئذ، قرّبت روزالبا مذياعها من أذنها، وفتحت كتابها، متظاهرة بعدم وجود رومولو.

وأخيراً جاء دور نابليون باتينو. كان رجلاً رشيقاً ذا شعر طويل لامع وعينين جاحظتين. كان يبدو ضعيفاً وكانت يداه مخفيتين داخل جيبيه ورأسه غائصاً بين كتفيه.

«كم مرّة تستحمّ؟» سألته روزالبا مباشرة، بعد أن شمّت رائحة نتنة غريبة.

«كلّ يوم اثنين».

«لم أفاجأ بذلك»، شمّته ثانية وعقدت حاجبها، «وأظافرك. كم مرّة تقلمها؟»

«إني لا أقلمها. إني أقضمها». كان صوته منخفضاً، وتحاشى النظر في عينيّ روزالبا. واصلت أسئلتها واكتشفت أن نابليون يريد أن يكون شرطياً، وأن ينجب طفلاً واحداً، وأن يسمح لزوجته إدارة الميزانية، وأن تحكم البيت، وقال إن لديه مذياعاً. لم يكن مظهره سيئاً، قالت لنفسها، لكنّه لا يمكن أن يكون شرطياً فقط، بل سارجنت الشرطة في ماريكيتا.

بعد أن تبادلا النظرات والرسائل والقصائد الغرامية لمدة ثلاثة أشهر، تزوّج نابليون وروزالبا واستأجرا بيتاً بالقرب من الساحة. وبعد عدة سنوات، تمكّنا من شراء البيت بالتقسيط من الدون ماكسيمليانو بيردومو، الرجل الغني الذي يملك نصف البيوت في ماريكيتا ومزارع البن المحيطة بها. وشهد الزوجان الشابان نمو ماريكيتا البطيء، وساعدا في بناء أول مدرسة ابتدائية في عام ١٩٦٨، ومكتب الهاتف في عام ١٩٦٩. وشجّعا صديقيهما فيسنت غوميز ورومولو فيغاس على مواصلة تحقيق أحلامهما.

وفي عام ١٩٧٠، أصبح نابليون أول رجل يحلق شعره عند باربيريا غوميز، وفي مطلع عام ١٩٧١، تناول الزوجان أول وجبة طعام تقدم في مطعم فيغاس. وفي عام ١٩٧٢، بمشاركة جيرانهما وأصدقائهما، زرعا أشجار مانغا صغيرة على جانبي الشوارع غير المعبّدة. وفي السنة التالية شاهدت روزالبا أول أعمدة مصابيح تُركّب حول الساحة. كما كان بيتهما أول بيت في ماريكيتا يدخله جهاز تلفزيون بالأبيض والأسود ـ جهاز ضخم ينتصب فوق أربعة أقدام سميكة، مثل بقرة، له شاشة صغيرة في الوسط، وثلاثة أقراص مستديرة على الجانب الأيمن. وكانت روزالبا قد اشترته في أول رحلة لها إلى إباغي في عام ١٩٧٣. وفي عام ١٩٧٤، تناولت روزالبا ونابليون طعام الغداء على مائدة الحاكم آنذاك الذي جاء إلى القرية لافتتاح طريق معبّد يربط ماريكيتا بالمدن الكبيرة في الجنوب.

أصبح طريق القرية محطة توقف جذّابة للمسافرين بين فريسنو وأباجي. وكان الناس يتوقّفون من أجل احتساء عصير الفواكه الطازجة، ومن أجل استخدام المراحيض العامة، والاستراحة، أو من أجل التقاط صور للبيوت ذات الألوان المنسّقة التي طليت واجهاتها باللون الأحمر والأزرق والأصفر، مثل علم الدولة، وكسيت سقوفها بالطوب البني اللون.

بأيامها الدافئة ولياليها الباردة وكرم سكانها الأصيل وحسن ضيافتهم، غدت ماريكيتا مكاناً يطيب العيش فيه. ولهذا السبب، لم يغادرها بعض من زاروها ممن توقّفوا فيها، مثل دون جاكوبو موراليس وزوجته الحامل دونا فيكتوريا اللذين وصلا في عام ١٩٧٠. فقد كانا متوجهين إلى إباغي لولادة طفلهما الثالث في مستشفى خاص، لكن بعد أن احتست دونا فيكتوريا عصير الجوافة، بدأت تنتابها تقلصات في بطنها، فأُدخلت على الفور إلى

مستوصف ماريكيتا الدافئ المريح. وبعد سبع ساعات، أنجبت فتاة صغيرة سمّتها مانوليا. وأمضت دونا فيكتوريا الخمسة والأربعين يوماً كما جرت العادة كي تتماثل للشفاء في بيت باتينيوس، إلى أن تمكنت من إقناع زوجها ببيع بيتهما الريفي والانتقال إلى ماريكيتا.

فيكتوريا المسكينة، قالت القاضية لنفسها وهي تنفض الغبار عن صورة الرئيس المؤطرة مرة أخرى. فبعد كل ما بذلته من جهد لكي لا يأخذ الثوّار ابنها خوليو سيزر، لم يعد يتكلّم وأصبح يرتدي ثيابا أنثوية وكأنه فتاة. يجب أن أزورها قريباً. لكن الصرخة الحادة التي أطلقتها قطة جعلتها تتوجه إلى النافذة وتنظر إلى الخارج. كان الصراخ ينبعث من جميع زوايا الساحة الأربع. فقد كانت الكلاب والقطط الضامرة تفتش في أكوام الزبالة، تحارب خنازير أوبالدينا، وتنافس بيريسترويكا، بقرة أرملة سولورزانو، على القمامة المتعفّنة من بقايا الطعام وقشّ الذرة، وأوراق موز الجنة، والنفايات البشرية. عندما أخذت تراقبها، أحست القاضية بالتقزز، وقرّرت أن الأمور تبدو أسوأ بكثير من نافذة مكتبها الجديد.

أقسمت على تنظيف الساحة وإزالة القمامة منها. فهي قبل كل شيء روزالبا أرملة دي باتينو: المرأة المؤهلة، القديرة، واسعة الحيلة، التي أنفقت حياتها وهي تنظف بقايا الطعام، ولن يكون هذا الأمر مختلفاً. بالإضافة إلى ذلك، فإن ذلك سيضعها في مكانة تسبق الرب في عيون القرويات.

هرعت عائدة إلى طاولة مكتبها، وما إن رقدت عجيزتها على الكرسي، حتى انفلق سحّاب ثوبها. هزّت رأسها بانزعاج، وراحت تقرأ قائمة الأولويات التي دوّنتها. يأتي بند «تنظيم فرق نظافة لكنس القمامة من

الشوارع» في المرتبة الرابعة. قطّبت حاجبيها. وبحرص شديد وبمساعدة ممحاة، غيّرت ترتيب الأولويات، فأصبح تنظيف الشوارع الأولوية رقم واحد من دون التأثير على جمالية القائمة. فقد كان خط يدها جميلاً للغاية. وانبعث مواء قطة أخرى من بعيد. حركت عينيها وتابعت عملها في قائمة الأولويات: «زيارة فيكتوريا أرملة موراليس. رتق ثوبيّ الأسودين».

كان لدى روزالبا أثواب عديدة، لكن اثنان منها فقط كانا شديدي السواد، كانت ترتديهما منذ مقتل زوجها، وقد نسلت ياقتاهما وحاشيتاهما الآن. لم تبد اهتماماً بذلك من قبل. فقد كانت ترتدي الحداد ـ من يهمه إن كانت ثيابها مهترئة؟ أما الآن فقد أصبحت القاضية، وعليها أن تحافظ على مظهرها اللائق والأنيق. ستقوم برتق وترقيع أرديتها القديمة حتى تهترئ تماماً. ثمّ تخيط ثوباً جديداً، أسود، بالطبع. إن ذلك أقلّ ما يمكن أن تفعله احتراماً لذكرى زوجها الاستثنائي الذي كان زوجها في الماضي.

كان نابليون باتينيو قد بذل كل ما بوسعه لإرضاء روزالبا. وكان قانعاً بأن يظل شرطياً طوال حياته، لكن روزالبا أرادت له أن يكون أكثر من مجرد شرطي، لذلك بذل جهداً كبيراً لكسب احترام رئيسه. وتذكّرت روزالبا نظرات الافتخار في عينيه، بعد أن رُقّيَ أخيراً إلى رتبة سارجنت بعد عشر سنوات. كما كانت صديقات روزالبا يحترمنها احتراماً شديداً، وقد أتاح لها راتب زوجها الفرصة لإعادة تأثيث بيتها وشراء جهاز تسجيل. لكن الشيء الوحيد الذي أفسد سعادتها، هو أن نابليون، بعد سنتهما الثالثة من الزواج، لم يعد قادراً على الحصول على انتصاب. وجرّب أن يتناول حساء قضيب الثور وبيوض السمك، ويشرب شراب الذرة المتخمّرة الممزوج بالعسل والبراندي. كما زار الأطباء في فريسنو وإباجي، لكن حياة روزالبا الجنسية

ظلت مقتصرة على مداعبات أصابع نابليون، أو أصابعها هي. وعزّت نفسها بالتفكير بأن لديها، على الأقل، إخلاصه لها.

في البداية، كان عمله كسارجنت للشرطة في ماريكيتا سهلاً. فباستثناء المشاجرات التي كانت تنشب بين الحين والآخر بين السكارى في إل رينكون دي غارديل ـ حانة القرية ـ والخصومات التي كانت تثور بين المومسات على الزبائن الأغنياء في ماخور دونا إميليا، كانت ماريكيتا قرية هادئة، مسالمة. ولا يوجد فيها سجلّ بمقتل أيّ شخص أو حتى إصابته بجروح خطيرة. وكانت أبواب ونوافذ البيوت جميعها تبقى مشرعة على مصاريعها، إلا في الطقس الماطر، وفي الليل لمنع الخفافيش من أن تحطّ على الأسرّة. ولم يكن أحد يجادل في السياسة. وكان الجميع يشعرون بالرضى لأن الحكومة المركزية هي التي تعيّن القاضي. ومهما كان الحزب الذي ينتمي إليه، كان يسكر مع أنصار حزب الأحرار وحزب المحافظين. وبشكل طبيعي، كان هناك شيء من الحسد والخصام في ماريكيتا، وخاصة بين النساء العازبات. ففي الأمسيات الدافئة، كن يتحلقن في مجموعات صغيرة حول الساحة، وتهاجم إحداهن الأخرى بملاحظات لاذعة عن الشعر والثياب والسمعة. لكن كما كان الكاهن بارتولومي يقول بصوته الخالي من أية نبرة، «بشكل عام، يلتزم الرجال والنساء الجيدون في ماريكيتا بتطبيق كل وصية من الوصايا العشر».

«يا لروح الكاهن بارتولومي الطيبة»، قالت روزالبا، وهي تحدّق، متيقظة، في الصليب المعلّق على الجدار. وتذكّرت كيف مات الكاهن العجوز بعد أن غطّ في النوم في وسط القداس.

ثم حلّ الخوري رافاييل مكانه. وعندما التقت به لأول مرة، خيّل لروزالبا

أنه رجل ورع ومثقف حباه الله مواهب سماوية. لكن بعد هذه السنوات، أدركت أن الخوري رافاييل أدهى من أن يكون رجلاً تقياً أو مثقفاً. لم تكن تحبّه، لكنها كانت تحترمه، وخاصة بعد أن أصبح الرجل «الحقيقي» الوحيد المتبقي حالياً في القرية. الرجل «الحقيقي» الوحيد، والله يعلم مع كم امرأة. أليس من مهمة القاضية معرفة عدد الرجال الذين اقتادهم الثوّار وكم امرأة بقيت؟ كانت تفكر بهذا الأمر. يجب إرسال هذه الأرقام إلى الحكومة المركزية. فإذا عرفوا الأرقام، لربما أسرعوا في إرسال المساعدات المالية إلى القرية. «تعداد السكان»، دوّنت في قائمتها. ستطلب من الخوري رافاييل أن يدقّ جرس الكنيسة عدة مرات. وعندما تُهرع النساء إلى الساحة، تتمكن عندها من إحصائهن.

في تلك اللحظة بالذات، قرع الخوري رافاييل جرس الكنيسة، داعياً المؤمنات إلى حضور الصلاة. ومنذ أن اختفى الرجال، أصبح كسولاً، وبدأ ينهض متأخراً، وقلل عدد الصلوات اليومية من ثلاث صلوات إلى صلاتين فقط. ولم يعد كذلك يلتزم بالمواقيت الثابتة لأنه بدأ يقول: «جميع الأوقات جيدة بالنسبة لله». وكان يقيم صلاة القداس عندما يشاء، وكانت فترة الغداء، هي الفترة الوحيدة من اليوم التي يعلن فيها عن بدء صلاة القداس بقرع الجرس اثنتي عشرة مرة. أما الآن، فبعد أن أصبحت روزالبا على خلاف مع الرب، ربما تطلب من الخوري أن يتوقّف عن أداء صلاة القداس تماماً، بل قد تطرد هذا الخوري الكسول خارج القرية. إلا أن ذلك لن يكون مناسباً، وهي تريد أن تكون المنافسة شريفة. لذلك دوّنت في دفترها: «الطلب من الخوري إقامة القداس في الساعة السابعة صباحاً وفي الساعة السادسة مساء سبعة أيام في الأسبوع».

«روزالبا»، نادتها إحدى النساء عبر النافذة. من تجرؤ على إزعاجها في هذا الوقت المبكّر؟ ولماذا لا يأتين ويقرعن بابها؟ لذلك دوّنت، «عدم مقابلة أحد إلا بموعد مسبق».

«روزالبا، هل أنت هناك؟» سمعت صوتاً مختلفاً.

اقتربت من النافذة. كانت تتحلّق حوالي عشر نساء متشحات بالسواد، وحفنة من الأطفال العراة يغزوهم القمل، أنوفهم تسيل، خارج مكتب البلدية. رفعوا سلالاً فارغة وقدوراً نحو القاضية: وعلت وجوههم نظرات حزينة، كأنهم يعانون من ألم فظيع، وأن علاج ذلك يكمن بيد روزالبا.

«ماذا يجري هنا؟» سألت روزالبا، منزعجة من هذه المجموعة غير المتوقّعة، «ماذا تريدون جميعكم؟»

«ساعدينا يا روزالبا»، قالت أرملة بيريز العجوز بتوسل، وهي تلوّح بقِدرها في الهواء.

انضمت إليها الأخريات ورحن يرددن، «ساعدينا، ساعدينا».

«إذا أردتم أن تكلموني فيجب أن تصطفوا في رتل»، قالت القاضية.

كان المشهد مؤثراً للغاية، حتى لامرأة بقوّتها وشجاعتها. قالت روزالبا لنفسها إنه يجب أن تلقي القبض عليهن جميعاً بتهمة التسول. لكن من سيفعل ذلك؟ فمنذ أن قُتل زوجها، لم يعد في ماريكيتا أحد يستطيع أن يحافظ على النظام العام وتطبيق القوانين.

«أنتِ القاضية يا روزالبا. يجب أن تساعدينا»، قالت أرملة خاراميو.

أرادت أن تصيح بهم بأن يلتزموا الهدوء، وأن يذهبوا، ويتركوها وشأنها.

«إننا جائعون»، صاحت امرأة أخرى.

أرادت أن تصيح بهم بأنها ليست المسيح لكي تطعم أعداداً كبيرة من الناس بقدر قليل من الطعام.

«ساعدينا. ساعدينا».

خيّل إلى روزالبا أن السلال والقدور واليقطين أخذت تقترب منها كثيراً، وأن أيدي النساء التي تبرز منها العظام ستخنقها. أحست بضيق في التنفس، تملّكها الرعب. تراجعت بضع خطوات، وأغلقت النافذة بقوة. أقفلتها وألقت بالمفتاح في سلة المهملات. هؤلاء النساء لا يصبرن على شيء. ألا يستطعن الانتظار حتى تتمكن من ترتيب أمورها؟ بإعياء شديد، أسندت ظهرها على النافذة وتركت جسمها ينزلق على الجدار إلى أن حطّ ردفاها بهدوء فوق أرضية مكتبها الشديدة النظافة. أرادت أن تجهش بالبكاء، لكنّها لم تبك. إن كان بوسع رجل أن يقوم بهذا العمل، فإنها تستطيع أن تفعل ذلك أيضاً. فلا يوجد شيء يدعى الجنس الضعيف. إن النساء مخلوقات من لحم وعظم، كما الرجال. وتستطيع قدما المرأة الواقفتين حيث ينبغي لهما أن تقفا أن تفعلا ما يفعله الرجل، بل أفضل منه. تخيّلت ماذا يمكن للرجل أن يفعله ولا يفعله في حالة كهذه. إن الرجل الحقيقي لا تخيفه حفنة من النساء الجائعات، ولا يختبئ منهن. بل إنه يخرج إليهن ويواجههن، يوبّخهن، ويهدّدهن بأن يزجّ بهن في السجن. أما إذا كان الرجل رقيقاً متملقاً، مثل السياسيين، فإنه يعدهن بأن يمنحهن الكون كله. وتستطيع روزالبا أيضاً أن تفعل ذلك. نعم، ستخرج لمواجهة النساء، وستخبرهن بضرورة التحلي بالصبر، حتى تتمكن من معرفة ما الذي يمكنها أن تفعله؛ بل يمكنها أن تعدهن بأن توفر لهن الطعام والمياه النظيفة، وربما الكهرباء أيضاً، مع أنها تعرف أن الوفاء بأي وعد، في قرية محطمة، فقيرة مثل ماريكيتا، سيكون أمراً بعيد المنال.

بتصميم وحزم، نهضت واتجهت نحو الباب، لكن ذكرى كلمات زوجها

الأخيرة منعتها من أن تدير مقبض الباب: «لا تذهبي إلى أيّ مكان من دون سلاح»، قال لها. ثمّ اعتمر قبعته، وطبع قبلة على خدها، وبدأ يُخرج عدداً من الكراسي والطاولات ليلعب بارتشيسي مع جيرانه. وبعد عدة أشهر، علمت روزالبا من إحدى جاراتها أن زوجها فاز لأول مرة باللعبة قبل أن يُقتل.

فتحت القاضية أول دُرج على الجانب الأيمن من طاولة مكتبها وراحت تفتّش عن المسدس. تأكدت من أنه محشو بالرصاص. كان محشواً بثلاث رصاصات، وهي كلّ ما تبقى من ذخيرة زوجها المرحوم. أمسكته بقوة بكلتا يديها، وتطلعت حولها بحثاً عن هدف ملائم. وقعت عيناها على صورة رئيس الجمهورية المعلقة على الجدار. كان يجلس وراء طاولة مكتبه، ذراعاه معقودتان حول صدره، ورأسه مائل قليلاً نحو اليمين. إن طريقة جلسته التي تنم عن أبهة، وابتسامته التي تنم عن ثقة بالنفس، والتي تكاد تكون ساخرة، أزعجت روزالبا. «لماذا تبتسم يا سيادة الرئيس؟» قالت بصوت مرتفع، «أتسخر من امرأة لا تعرف كيف تدير قرية مليئة بالأرامل؟ وأنت، أين كنت في اليوم الذي اختطف فيه رجالنا؟» توقّفت، وكأنها تنتظر الصورة أن تجيبها، ثم أضافت، «طوال هذا الوقت تضع مؤخرتك الهزيلة على كرسيك المريح، مختبئاً وراء طاولتك السخيفة، وذراعاك معقودتان، بابتسامتك المزيّفة تلك». أدارت عينيها قليلاً إلى اليمين، «وأنت»، قالت تخاطب الصليب المعلق على الحائط، «أين كنت في أول ليلة عندما آوينا إلى فراشنا وأدركنا أن أزواجنا لن يناموا معنا في السرير بعد الآن أبداً؟ أين كنت عندما أخذنا نطوف في الشوارع وأنوفنا تكاد تلتصق بالأرض، نجوب أرجاء القرية اللعينة نبحث عن كسرة خبز؟» لكنها سرعان ما أدركت أن من

العبث أن تتحدث إلى الصليب وعليه المسيح المقطوع الرأس، ثمّ التفتت إلى الوراء إلى الصورة وثبّتت عينيها على البقعة البيضاء الصغيرة بين حاجبيّ الرئيس، ثم قالت: «أيها القذر» ورفعت مسدسها ببطء. «أيها الأحمق». واستغرقت في حلم يقظة عندما رأت، من طرف عينها، خفاشاً تائهاً يصفق بجناحيه. لكنها لم تكن قد صفّت حسابها مع الصورة، فمضت تقول: «سيادة الرئيس، حتى إنك لا تستأهل رصاصة من رصاصاتي». انتظرت حتى حطّ الخفاش فوق رفوف المكتبة، ثمّ وجّهت مسدسها إليه وأطلقت عليه النار.

دفع صوت الطلقة المرتفع النساء والأطفال المتجمعين في الخارج إلى الهرب، وجعل روزالبا تشعر بالاضطراب. أمسكت القائمة وأضافت المهام التالية:

«توظيف شرطية. أوبالدينا أرملة ريستريبو؟ سيسيليا غوارايا؟

منع النساء من التذمر مطلقاً.

حظر التجمعات لأكثر من شخصين.

منع استخدام كلمة «النجدة».

قُرع جرس الكنيسة من بعيد، معلناً حلول الظهيرة. كانت روزالبا قد نظّفت مكتبها تماماً، وأعادت ترتيب جميع قطع الأثاث، ودوّنت قائمة مدروسة وشاملة بالأولويات، وأغلقت، بشكل دائم، نافذة مكتبها التي يأتي منه الضرر.

لكنّها لم تشعر بالارتياح تماماً لأدائها.

أغمضت عينيها وحاولت أن تتخيّل مشهداً مثالياً لقرية ماريكيتا عبر النافذة: سماء صافية زرقاء، والهواء المعطّر برائحة زهر العسل وأزهار

المانوليا؛ طيور عندليب وكناري تغرّد ألحاناً شجية على عتبة نافذتها؛ ساحة تضجّ بالحياة محاطة بأشجار المانغا السامقة المليئة بالثمار الريّانة؛ وفتيات صغيرات يقفزن على الحبل فوق الرصيف؛ والصبية الموفورو الصحة يلعبون كرة القدم في الشارع الرئيسي النظيف؛ ويتمشى الشبان والشابات وأيديهم متشابكة، عشاق؛ وأزواج عجائز يجلسون على مقاعد نظيفة، يُطعم أحدهم الآخر أكواز البوظة ذات النكهات المختلفة.

فتحت القاضية عينيها الخضراوين وندت عنها تنهيدة استسلام. صارت الآن مستعدة للاعتراف بما يجيش في صدرها. وأخيراً، رأت وفهمت بوضوح ما هي أولى أولوياتها الحقيقية، وكيف يمكنها أن تنفذها.

مدّت يدها وأمسكت دفترها وقلمها، ودوّنت في رأس القائمة، فوق جميع البنود الأخرى، بتأن:

الدعاء للرب بأن يرسل لنا شاحنة مليئة بالرجال.

خافيير فينيغاس، ١٧ سنة
مُشرَّد

عندما كنت فتى صغيراً، كان حلمي الوحيد أن أصبح ساحراً محترفاً. حتى إنني تعلّمت بضعة حيل وألعاب خفة جميلة. وكانت أجمل حيلتين أقوم بهما هما «ظهور باقة الأزهار» (التي أُخرجها من قبعتي الرثة) و «قطعة العملة المختفية» (كنت أجعل قطعة عملة معدنية تختفي من يدي المنبسطة). وفي غالب الأحيان، كنت أؤدي هذه الألعاب لأصدقائي في قريتنا. كانت النوع الوحيد للترفيه المتاح لنا. كنت أطلق عليها اسم «حيل للمتعة».

لكن عندما بلغت الثالثة عشرة من عمري، اضطررت إلى التخلّي عن حلمي لأنه كان لزاماً عليّ أن أبدأ بمساعدة أبي في قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها. كنا نربي الدجاج والخنازير، ومثل الآخرين في المنطقة، كنا نزرع الكوكا. وكنت أنا وأختيَّ الصغيرتين نقطف أوراق الكوكا، ويحوّلها أبي إلى أساس الكوكا. وكان الثوّار يحكمون قريتنا منذ وقت بعيد، لذلك لم يكن يُسمح لنا أن نبيع منتجاتنا إلا لهم، مع أن أفراد الجيش الذين يسيطرون على القرية في الجانب الآخر من النهر، كانوا يدفعون مبالغ أكبر بكثير ثمناً لها.

وذات يوم، بعد أن أحسّ أبي بالاستياء من المبلغ الضئيل الذي كان يدفعه الثوّار، خبأ قليلاً من أساس الكوكا في جزمته وكمية أكبر في قبعتي، وانتقلنا بالقارب إلى القرية المحظورة وبعنا ما لدينا فيها. وفي مساء اليوم التالي، قدم خمسة من الثوّار المدججين بالسلاح إلى بيتنا واقتحموه. أجهشت أختاي بالبكاء، وراحت أمّي تصرخ. وضرب أحد الرجال أمّي على بطنها بأخمص بندقيته.

جرّوني أنا وأبي إلى خارج البيت واقتادونا إلى تلّ صغير في مكان قريب حالك العتمة. كنت أرتجف. «لقد بعت الكوكا لأفراد الجيش»، قال أحد الرجال لأبي: «لقد خرقت إحدى القواعد، ويجب أن تنال العقاب على ذلك». وبدأ أبي الذي كان صامتاً طوال الوقت، ينوح طالباً الرأفة. ثمّ سمعت دوياً، يشبه انفجاراً كبيراً، وسقط أبي مغشياً عليه على الأرض، «اذهب وقل لأمّك إن عليها أن تغادر القرية حتى موعد أقصاه ليلة الغد»، قال لي الرجل الذي أطلق النار على أبي. ثمّ ذهبوا. حزمنا ثيابنا وعدداً من أدوات المطبخ وغادرنا في الليلة نفسها إلى المدينة.

حدث ذلك منذ أربع سنوات. ومنذ ذلك الحين، أصبحنا من سكان الأحياء الفقيرة، وأصبحنا نعيش محشورين في كوخ مؤلف من غرفة واحدة فيها سريران صلبان من الألواح الخشبية، لا توجد فيه مياه جارية أو كهرباء. لم نفلح في العثور على أيّ نوع من أنواع العمل، لذلك بدأت أمّي وأختاي يجلسن على رصيف أمام كنيسة مفعمة بالحركة وهن يمددن أيديهن. أما أنا، فقد أصبحت ساحراً نوعاً ما. إن الخدعة التي أفضل ممارستها أن أجعل الطعام الآن يخرج من نفاية شخص آخر، وأجعل النقود تختفي من جيوب الرجال ومن محافظ النساء.

إني أطلق عليها اسم «الحيل من أجل البقاء».

الفصل الثالث

ارتقاء ماخور لا كازا دي إميليا وسقوطه

ماريكيتا، ١٢ أيار(مايو)
١٩٩٤

استيقظت دونا إميليا عندما لامست أشعة الشمس وجهها المنهك الشاحب. أعماها سطوع النور في هذا الوقت المبكّر من الصباح، لكنها عندما كيّفت عينيها، لم تر سوى سماء حمراء. لوهلة خيّل إليها أنها ماتت، وأن روحها تهوي إلى الجحيم، لكنها سرعان ما أحسّت بلسان كلب لزج يلعق خدها، وأنفاس الكلب الكريهة تنفث في أذنها. كانت قد أمضت ليلة أخرى مستلقية على مقعد في ساحة ماريكيتا، وقد تناثرت على الأرض أوراق موز الجنة التي تلفّ فيها عشاءها، لكن الكلاب والقطط الضالّة كانت قد لحستها ونظّفتها.

قبل خمسة أيام، كانت دونا إميليا قد قرّرت أنه آن الأوان لكي تموت. كانت في الثانية والسبعين من العمر، ومنذ اليوم الذي اختفى فيه الرجال، كانت تعيش على مدّخراتها خلال الثمانية عشر شهراً الماضية، وأنفقت آخر سنت لديها. لذلك أعلنت على الملأ عن قرارها بأنها ستموت، وأعلنت بأن

الشيخوخة والفقر والعزلة لا تلتقي، ثمّ جلست على مقعد قبالة التمثال النصف المشوّه، بانتظار أن يأتيها الموت ويأخذ روحها. وانتاب روزالبا وأوبالدينا (مربية الخنازير التي عُيِّنت سارجنت الشرطة مؤخراً)، وأرملة سولورزانو (صاحبة البقرة في القرية) شعور بالأسف لما آل إليه حال هذه المرأة. فقد خيّل إليهنّ أنها جنّت. وأعطينها بطانيات في الليلة الأولى، ووافقن على أن يتناوبن على جلب الطعام والحليب الطازج من البقرة بيريسترويكا لها. في اليوم الأول، قدمت دونا إميليا نصف طعامها للكلاب والقطط، لكنها في اليوم الثاني، عرفت أن الموت لن يزورها بسرعة إذا استمرت في تناول الطعام، لذلك بدأت تُطعم الحيوانات التي ترافقها والتي ازداد عددها، كلّ ما لديها من طعام. واكتفت بتناول رشفة واحدة من الحليب يومياً. لذاك بدأت تموت ببطء، جزءاً فجزءاً. ففي البداية، أحكمت إغلاق يديها ولم تعد تستطيع فتحهما. وبعد فترة، لم تعد تشعر بقدميها وكاحليها، ثمّ غارت عيناها في جمجمتها، وأصبح جلد وجهها الصغير المليء بالتجاعيد شبه شفاف. أما بصرها وقدرتها على السمع، فكانت لا تزال على ما يرام. وكذلك عقلها، الذي كان لا يزال رزيناً وصافياً بقدر يكفي لأن يجعلها تفهم أن امرأة عجوزاً سيئة السمعة، ليس لها أسرة ولا تملك نقوداً، ولا تتوفر لديها أدنى إمكانية للبقاء في قرية لا تقيم فيها إلا أرامل وعوانس.

بذلت دونا إميليا جهداً للجلوس. تطلعت حولها، ولأول مرة، لاحظت أشجار المانغا القديمة التي أحيتها مجموعة الأرامل بأمر من القاضية روزالبا أصدرته مؤخراً. كانت مليئة بالأوراق الخضر والثمار. ركّزت عينيها على ثمرة مانغا ناضجة تتدلى من أعلى غصن. لم تكن ثمرة مانغا عادية: كانت

أكبر من معظم الثمار الأخرى، لونها أصفر مائل إلى البرتقالي وهو اللون الذي لم تكن تراه إلا في فصل الصيف عندما تلتهب السماء، عندما تميل الشمس إلى الغروب. لم تشته الثمرة، لكن خيّل إليها أن من الرائع أن تمضي ما تبقّى من حياتها في إبداء إعجابها بجمال ثمرة المانغا تلك.
حدّقت فيها طويلاً دون أن يرمش لها جفن، حتى بدأت عيناها تغمضان بتكاسل، وكأنها بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

تذكّرت، مرة أخرى، حياتها التي عاشتها قبل أن يختفي الرجال من ماريكيتا.

*

منذ سنتين فقط، كانت دونا إميليا صاحبة لا كازا دي إميليا، ماخور ماريكيتا. كان لا كازا بيتاً كبيراً يتألف من ثلاث عشرة غرفة نوم، وستة حمّامات كاملة، وغرفتين للترفيه، وباحة داخلية، وأربع وعشرين نافذة، وثلاثة وعشرين باباً، عدّلتها جميعها لكي تُفتح إلى الخارج. «تحركي إلى الأمام دائماً»، دأبت على القول، «ففي كلّ مرّة تفتحين باباً إلى الخارج، تتقدمين خطوة أخرى إلى الأمام». ومن أجل الدخول إلى الماخور، يضطر الزبون إلى المرور عبر باب أولاً، ثمّ يسير في مدخل ضيّق، ثمّ يعبر باباً آخر، تليه ستارة مخملية تفتح أخيراً على غرفة كبيرة مضيئة مؤثثة بكراسٍ قابلة للطيّ وطاولات عارية مصطفّة على طول الجدار. وخزانة في الزاوية ومنضدة صغيرة بمثابة البار في الكازا. كانت دونا إميليا تديره بنفسها، تقدم البراندي وشراب الروم بالقنينة فقط. وكانت بين الحين والآخر تبيع قناني الويسكي المهرّبة التي كانت تشتريها من السوق السوداء. وكانت الموسيقى تنبعث من حاكٍ عتيق من ماركة توشيبا، بصوت عال ومن دون توقف،

الأسطوانة التي تختارها حسب مزاجها: البيليرو عندما تكون كئيبة، والتانغو عندما تشعر بالحنين إلى أيام شبابها، والسالسا عندما تكون مبتهجة، وما إلى ذلك. وإلى جانب البار، تقبع الغرفة الحمراء، التي يُطلق عليها هذا الاسم لأن الضوء الوحيد فيها ينبعث من شموع حمراء غليظة منتصبة فوق رفوف مصطفة على الجدران. وكانت الغرفة الحمراء مؤثثة بكراسٍ ذات مساند مصنوعة من أغصان متشابكة، ووسائد ملوّنة، وأرجوحة معلقة بخطّافات، مخصصة للرجال للذين يفضّلون وجود أجواء لطيفة. أما الولوج إلى ما تبقى من البيت ـ غرف النوم الثلاث عشرة، المطبخ العمومي وغرفة الطعام ـ فكان عبر بوابة موصدة. وكانت كلّ فتاة من الفتيات تحمل نسخة من مفتاح البيت مربوط بحبل يتدلى من رقبتها.

وكان «لا كازا»، بفتياته الجميلات الاثنتي عشرة، ومشروباته المتدفقة، والموسيقى الصادحة فيه طوال الليل، وغرف نومه النظيفة، وحمّاماته النظيفة، والبخور المشتعل في أرجاء البيت، أجمل وأنظف ماخور في المنطقة.

كانت دونا إميليا قد ولدت في هذا البيت بالذات؛ وكانت أمّها، بائعة الهوى، قد نزفت حتى الموت فور إنجابها. وقالت صاحبة الماخور آنذاك، وهي امرأة عانس تدعى ماتيلد، بدينة جداً إلى حد أن ثيابها لم تكن تتسع لها، إنها تكره الأطفال الصغار، فوضعت الطفلة في دير، وقالت: «ستصبح هذه الطفلة راهبة صالحة». لكن الفتيات الإحدى عشرة اللواتي كن يعملن معها، واللاتي كن يحلمن جميعهن بإنجاب أطفال، لم تكن تروق لهن فكرة أن تنتفخ بطونهن طوال تلك الفترة الطويلة، وافقن على تربية الطفلة الصغيرة معاً والتناوب على تنشئتها. وقبلت ماتيلد ذلك بشرط واحد: وهو أنها لا تريد أن تسمع صوت بكاء الطفلة أبداً. لذلك أصبح

لإميليا، التي سمّيت على اسم إمليو بوكانيغرا، أول زبون يأتي إلى الماخور بعد ولادتها، إحدى عشرة أمّاً، لكن لم يكن لها اسم أب أو اسم عائلة. بل كانت مجرد إميليا، فتاة ماريكيتا غير الشرعية. وكانت أمهاتها يهدهدنها، يلاطفنها ويلاعبنها، وكانت كل واحدة منهن تحبها بطريقتها الخاصة. وعندما كانت إميليا تبكي، كانت الفتيات يهدهدنها لتنام على أغنية المهد الوحيدة التي يعرفنها، شيء عن فراخ تصيح: بيو، بيو، بيو.

على مرّ السنين، كانت الفتيات الإحدى عشر يُستبدلن الواحدة تلو الأخرى، وكبرت ثلاث فتيات منهن على هذه المهنة، وعادت أربع منهن إلى مسقط رأسهن وتزوجن من أخلائهن أثناء طفولتهن، الذين كانوا ينتظرون عودتهن بفارغ الصبر، لأنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة المهنة التي كانت تمارسها الفتيات. وأدركت ثلاث منهن أن ممارسة الدعارة لا تلائمهن، وغادرن إلى المدينة للعمل خادمات في البيوت. وادّعت الأخيرة بأنها تلقت نداء إلهياً لخدمة الرب، واقترحت أخذ إميليا ذات السنوات العشر إلى الدير، لكن ماتيلد، التي كبرت في السن وازداد وزنها، قالت إنها ستحتفظ بالفتاة.

ولم تشأ ماتيلد أن تحذو الفتاة الصغيرة حذوها. ففي كلّ صباح، كانت ترسل إميليا إلى الشارع تحمل سلة مليئة بالفواكه لبيعها، كي تبعدها عن الماخور. وكانت إميليا تجوب شوارع ماريكيتا مرتدية فساتينها الوردية، تصيح معلنة عن الفاكهة التي تبيعها، «جوافة»، وشعرها الأسود مجدول في ضفائر، «برتقال»، وذراعاها الطويلتان تتأرجحان إلى الأمام والوراء، «يوسف أفندي»، وسلة كبيرة تتأرجح برقة على رأسها.

لكن قُدِّر لهذه الفتاة أن تكون بائعة هوى.

ففي صباح منعش، هبتّ نسمة هواء قوية فاختلّ توازن سلة إميليا، فسقطت وتناثرت الفاكهة على الأرض. ورأى عدد من الفتيان الذين كانوا يلعبون كرة القدم في الشارع ما حدث، فانفجروا ضاحكين، مشيرين لها بأصابعهم، وراحوا ينعتونها بمختلف الأسماء. جثت إميليا على ركبتيها، وأجهشت في البكاء. جرى الأولاد وجمعوا الفاكهة. عادت الفتاة إلى ماتيلد، وقالت لها إنها تريد أن تعمل مثل جميع أمهاتها.

في المرّة الأولى من ممارسة عملها، لم تتقاض أجراً لقاءه. كانت في الثالثة عشرة من عمرها وكانت عذراء، وكان الألم شديداً إلى حد أنها دفعت الزبون من فوقها واختبأت تحت السرير. وفي آخر مرّة، أعادت النقود إلى الرجل. كانت في الثامنة والستين، وسقط الجزء العلوي من طاقم أسنانها أثناء ممارستها الشفوية. لم يتذمر زبونها، المراهق ذو الوجه المكسو بالبثور، لكن السيدة العجوز قالت إن هذا مناف لأخلاقيات المهنة وأصرّت على إعادة النقود إلى الشاب. كانت مسيرة حياة دونا إميليا المهنية الطويلة مليئة بمئات الحكايات النادرة. وفي الليالي التي كانت تقلّ فيها وتيرة العمل، كانت تجلس في الغرفة الحمراء تتحلّق حولها الفتيات جميعهن، تشعل سيجاراً رفيعاً، وتصبّ لنفسها كأساً من نبيذ التفاح، وتروي لهن حكاياتها، لكنها لم تكن تذكر أسماء زبائنها.

وبعد اليوم الذي اختفى فيه الرجال، أصبحت الحركة بطيئة جداً في ليال كثيرة في الماخور. وبالإضافة إلى القيل والقال، كانت المدام العجوز تعقد اجتماعات ليلية مع فتياتها الاثنتي عشرة لتشجيعهن على التشبث بمهنتهن، ولرفع معنوياتهن. فقد كانت تقول لهن: «عزيزاتي، لقد قطعنا شوطاً طويلاً معاً. صحيح أننا لم نر زبوناً واحداً منذ أيام عديدة، لكنني أشعر بأن الثوّار

سيطلقون سراح رجالنا قريباً. إن إحساسي يقول لي ذلك». لكن عندما مرّت الليالي دون قدوم أي زبون، بدأ صبر الفتيات ينفذ. وذات ليلة، بعد ثلاثة أسابيع، قرّرن مواجهة المرأة العجوز.

«دونا إميليا»، قالت فيفيانا، أفصح الفتيات في المجموعة، «لقد مضى شهر تقريباً على دخول رجل من هذا الباب. لنواجه الأمر بصراحة، لقد ذهب رجال هذه القرية ولن يعودوا». أومأت الفتيات الإحدى عشرة الأخريات بصمت، ثم أضافت، «لا يمكننا أن نجلس هكذا، وننتظر حدوث معجزة. لدينا جميعنا عائلات في قرانا علينا أن نعيلها». توقّفت عن الكلام قليلاً، وكأنها تفكر بما ستقوله، ثمّ أضافت، «لقد قرّرنا أن نجوب المزارع القريبة. لا بد أن هناك بعض المزارعين وقاطفي البنّ الذين يحتاجون إلى خدماتنا».

ساد صمت.

«ربما كان بإمكاننا أن نعقد صفقة»، واصلت فيفيانا بعد وهلة، «لعلنا نستطيع أن نستأجر غرفة منك. وبهذه الطريقة نواصل العمل بما نعرف أن نفعله، وتصبحين صاحبة الحانة. وبهذه الطريقة أنتِ تكسبين النقود، ونحن نكسب نقوداً، ويسعد الجميع. ما رأيك؟»

التفت الإثنا عشر زوجاً من العيون إلى دونا إميليا لسماع ردّها.

بدت المدام العجوز هادئة، إلا أن يديها بدأتا ترتعشان، فبدأ النبيذ في كأسها يهتز بلطف. وضعت الكأس على الطاولة وأرخت يديها على حضنها، يد تمسك اليد الأخرى بقوة، وقالت بتنازل: «هناك شيء لا تستطيع المرأة أن تخسره»، قالت باستسلام، «وهو كرامتها. لقد قبلتنّ العمل معي لأنكن قبلتنّ إدخال المتعة في نفوس الأغنياء: رجال أعمال

وأصحاب الأراضي. أما عمّال المزارع الذين تحدثتِ عنهم للتو، يا عزيزتي»، قالت مخاطبة فيفيانا وحدها الآن «في الحقيقة إنهم أناس لطيفون. في الواقع، لقد تعرفت على بعضهم بنفسي. لكنهم عمّال سوقيون، زبائن مختلفون تماماً. إنهم قذرون وتفوح منهم رائحة التراب»، ثمّ توجهت لمخاطبة الفتيات جميعهن، وقالت: «أكره أن أراكنّ أن تنزلن بأنفسكن إلى هذا الدرك الأسفل».

«يسهل قول ذلك»، قالت لا غرينغا، التي سُمّيت على اسم شعرها الأصفر المصبوغ، «إذ لديك مدّخرات ولا يوجد لديك أحد تعيلينه».

«عندما يتعلق الأمر بما نفعله، فالرجال هم رجال مهما كانت الطبقة التي ينتمون إليها»، قالت نيغريتا. كانت ثمة مقاومة في صوتها.

شاركت الفتيات الأخريات في المناقشة بالوقوف، والإيماء برؤوسهن والصياح للتعبير عن سخطهن. وأدركت دونا إميليا أنها بحاجة إلى التوصل إلى حلّ بسرعة، قبل أن يخرج الأمر عن سيطرتها، وقالت: «أرجو أن تهدأن. إنني أفهم سبب انزعاجكن، لكن يجب أن تصدّقن ما أقوله. أضمن لكنّ أنه ما دام باب لا كازا دي إميليا ظل مفتوحاً للعمل، سيكون لديكن مكان تنمن فيه وطعام وفير تأكلنه». بدت وكأنها تتحدث كأمّ.

«لا نريد أيّ طعام لعين»، قالت زوليا.

«لا حاجة لأن تلعني يا عزيزتي»، قالت دونا إميليا برقة، «في الحقيقة، تمرّ اللا كازا بأوقات عصيبة، لكنني على قناعة بأننا نستطيع معاً التغلّب على جميع العقبات. امنحوني فرصة حتى ليلة غد كي أتوصل إلى حلّ بديل». كان لدى السيدة العجوز القدرة على بثّ الإلهام والمودّة والعاطفة في فتياتها، فوافقن على الانتظار وآوين إلى فراشهن.

في الليلة التالية، اجتمعن في الغرفة نفسها. وبابتسامة واثقة ترتسم على وجهها، بدأت دونا إميليا تقول: «من الآن فصاعداً، وإلى أن يتحسّن العمل، ستتقاضى كلّ واحدة منكن راتباً أساسياً». فقد قرّرت أن تستثمر مدّخرات عمرها في فتياتها لقاء شيء واحد: «بما أنه لا يوجد لديكن شيء تفعلنه حالياً، أريد أن تتدرب كلّ واحدة منكن جيداً. ففي مهنة المتعة، يمكنكن دائماً تعلّم أشياء جديدة».

كانت دونا إميليا نفسها تدير جلسات فردية مع الفتيات. كانت تعلّمهن جميع الخبرات التي تعلّمتها واكتسبتها خلال فترة عملها التي تزيد على خمسين سنة: الأوضاع والأساليب الجنسية الفريدة، والنظافة الشخصية والمهارات الاجتماعية. وأثناء تدريبهن، كنِ يتبادلن الأدوار ويجرين اختبارات شفوية.

أما الجزء الثاني من خطة دونا إميليا، فقد تضمّن جولة ترويجية في بعض القرى المختارة التي لم يسلبها الثوّار رجالها بعد. فضلاً عن ذلك، كانت على وشك أن تطلب من مصوّر من قرية هوندا التقاط صور لجميع الفتيات لوضعها في ملف يُعدُّ لكل واحدة منهن. وسيُعرض الملف على الزبائن المحتملين في قرى أخرى ليروا ويقدّروا بالتفصيل ما يمكن للماخور أن يقدمه لهم.

عندما أنهت المدام كلمتها المرتجلة، وقفت الفتيات الاثنتي عشرة وصفقن لها بحرارة. ومع أنهن كن يرغبن في الحصول على مزيد من المال، فقد لامست فكرة التقاط صور لهن، بعضهن لأول مرة، أرقّ بقعة فيهن، وهي غرورهن. فقد كنّ نساء جاهلات غير متعلمات، وقد كتب على بطاقاتهن الشخصية: «لا تستطيع الفتاة المذكورة أعلاه أن توقّعها

باسمها». وكنّ جميعاً تقريباً قد اغتصبن بطريقة وحشية عندما كن صغيرات من قبل أقربائهن الذكور. وقد أنجبت ثلاث منهن أطفالاً، لكنهن تركنهم مع أمهاتهن وهربن. وقد أمضين جميعهن مراهقتهن وحياتهن البالغة في الانتقال من قرية إلى أخرى، راجيات أن تكون القرية التالية مختلفة، لكنهن سرعان ما كن يكتشفن أنها لا تختلف عن القرى الأخرى.

وأبدت لهنّ دونا إميليا اللطف والاحترام. وكنّ في أعماقهن مولعات بها، ومعجبات بالنجاح الذي حققته. وقد رأت أكثر من فتاة نفسها في هذه السيدة الصغيرة.

في اليوم التالي، بدأت جلسات التدريب الشخصية لمدة ساعة. ستّ فتيات في الصباح، وستّ فتيات بعد الظهر، بالإضافة إلى ساعتين من تأدية الأدوار في الليل. «إن الفرق بين المومس وفتيات إميليا»، قالت وهي تحاضر في تلميذاتها، إن المومس تفتح ساقيها وتترك الرجل يقوم بعمله، أما فتيات إميليا فهن اللاتي يقمن بالعمل من بدايته حتى نهايته». وكانت كلّ جلسة تركّز على طريقة مختلفة لإرضاء الرجل. وتركزت إحدى الجلسات على تحديد المناطق الجنسية الحسّاسة في جسم الرجل.

قالت دونا إميليا، يأتي الاست في المقام الأول، مع أن معظم الرجال ينكرون هذه المتعة. وتركزت جلسة أخرى على تقليص العضلات داخل مهبلهن، التي لم تكن تعرف معظمهن بوجودها، للضغط على قضيب الرجل أثناء المضاجعة. وادّعت دونا إميليا أنها عندما كانت أصغر سناً، كانت تتقن هذه التقنية بحيث كانت تستطيع إيصال الرجال إلى رعشة الجماع حتى من دون أن تحرك جسدها على الإطلاق. كما حدّثت المدام الفتيات عن أهمية الثقة بالنفس، فقد قالت: «المرأة الراضية عن نفسها فقط

هي التي تستطيع إرضاء الرجل تماماً». وعلّمتهن أخيراً، عشر وضعيات من الأوضاع الجنسية غير الشائعة التي تعرف أن الرجال يحبّون ممارستها، لكنهم يخجلون من طلب ممارستها من أمّ أطفالهم. وقد أطلقت على هذه الوضعيات البهلوانية أسماء خاصة بها، مثل البقرة الشرهة، والرولر كوستر الكولومبية، وساعة الوقواق. وكانت دونا إميليا تنهي كلّ جلسة من جلساتها دائماً بتقديم النصيحة نفسها: «تذكّرن أن تحترمن زوجات زبائنكن إذا ما رأيتموهن في الشارع، فبفضلهن يستمر عملنا».

جاء مصوّر من هوندا ليعدّ ملفاً عن الدار. والتُقطت لكلّ فتاة ثلاث صور: واحدة بالثياب العادية، وواحدة بالملابس الداخلية، والثالثة بلا شيء، ويداها تغطّيان أجزاءها الحميمة. وبناء على اقتراح المصوّر، التقطت دونا إميليا صوراً وهي ترتدي ثياباً محافظة سوداء.

تأبطت المدام الملف، وبدأت جولتها الترويجية. وكانت في كل مرة ترافق فتاة مختلفة، وزارت قرى مجاورة مثل فريسنو التي تبعد حوالي ستين ميلاً غرب ماريكيتا، عبر طرق متعرجة مهملة، وكذلك طرق أخرى، لم تكن قريبة كثيراً، مثل قرية دورادا، التي تبعد عشرين ميلاً إلى الشمال. كانتا تنتقلان من شركة إلى شركة، تطلبان مقابلةِ صاحب الشركة. وعندما كانت دونا إميليا تجذب انتباه صاحب الشركة، تسأله بصراحة شديدة: «هل تحبّ النساء؟» وإذا كان الرّد بالإيجاب، تهمس له: «إذاً يجب أن تأتي وترى فتياتي»، وتفتح على الفور ملف الدار أمام عينيّ الرجل المندهش. وكانت تحثّ الرجال على تحديد مواعيد على الفور، وتسجّلها في تقويم مواعيد الدار، وتقدم له بطاقتها وعليها شعار، «ما هي آخر مرة كنت فيها في دار توجد فيها اثنتا عشرة امرأة عارية؟ أهلا بك في لا كازا دي إميليا».

في قريتيّ ليردا وليبانو، تلقى الرجال نبأ عودة الفتيات إلى مزاولة عملهن في دار دونا إميليا بسعادة وانتشر بسرعة بين الرجال. إذ كان الخروج من قراهم يُبعد عنهم خطر إلقاء زوجاتهم وجيرانهم القبض عليهم متلبسين.

وفي قريتيْ هوندا ودورادا، كانت الاستجابة عظيمة أيضاً. كانت عظيمة إلى حد أن الرجال أخذوا يستأجرون شاحنات صغيرة وسيارات جيب في عطل نهاية الأسبوع للذهاب إلى اللا كازا والعودة منه؟

وفي الأسابيع التي أعقبت زيارات دونا إميليا، شهدت الدار ازدهاراً سريعاً. وبنفس القدر، انتابت دونا إميليا رغبة متزايدة في كسب النقود لتسديد استثماراتها. فقد اعتمدت تدابير صارمة لتحقيق أرباح جيدة. فقبل أن يؤخذ الرجل إلى الغرفة، تطلب منه الفتاة أن يشتري قنينة مشروب كحولي. وقُصّرت فترة بقاء الفتاة مع الزبون من عشرين دقيقة إلى خمس عشرة دقيقة، مهما كانت أهمية الرجل. ومُدِّدت ساعات العمل خلال أيام الأسبوع، وأصبح اللاكازا يفتح أبوابه طوال أربع وعشرين ساعة في عطل نهاية الأسبوع، ولم يكن يُسمح إلا لأربع فتيات بالنوم في وقت واحد. وكانت توصي بقوة بأن تعمل الفتيات وقتاً إضافياً، مع أنه لم يكن مطلوباً منهن ذلك. وألغيت فترات الاستراحة للتدخين، وقُصِّرت فترات الاستراحة بين زبون وآخر إلى خمس دقائق. وكان بإمكان الزبائن تمديد فترة بقائهم مع الفتاة إذا لم يكن لدى الفتاة رجل آخر على قائمة الانتظار. وأخيراً، كان للزبائن الدائمين، والرجال الأكبر سنّاً وذوي العاهات أولوية في جميع الأوقات. وقد أحدثت هذه الإجراءات ردود أفعال مختلطة بين الفتيات، لكن المدام لم تكن تقبل أيّ مناقشة في هذا الأمر.

وتحسّن رضاء الزبائن كثيراً. وحسب آخر استطلاع أجرته دونا إميليا،

كان ٩٠ في المائة من الذين قدمت لهم خدمات راضين، مقابل ٦٠ في المائة قبل الأسبوع الذي اختفى فيه الرجال من ماريكيتا. وللحصول على هذه المعلومات، دأبت المدام العجوز على توديع زبائنها، وسؤالهم هل استمتعوا بزيارتهم، وكانت تقدم لهم وردة حمراء، وتقول: «هذه لزوجتك أو لصديقتك».

كم كنت مبتدئة آنذاك! قالت دونا إميليا لنفسها عندما فتحت عينيها. وأحست بالارتياح عندما رأت ثمرة المانغا الكبيرة التي لا تزال تتدلى من أطول غصن للشجرة، وتساءلت من هو الشخص المحظوظ الذي سيتناولها. سرب من الطيور، قالت لنفسها. نعم، سرب من الطيور الصغيرة البيضاء الجميلة ستقدّر كثيراً هذه الثمرة الريّانة المكتنزة الملساء ونكهتها الحلوة. وترتسم ابتسامة على وجهها تنم عن موافقتها. أو ربما كلب... في الوقت الحاضر، هناك عدد منها ينام عند قدميها. لا، فالكلاب تبتلع طعامها دون أن تتذوق نكهة ما تأكله. إنها غير جديرة بهذه الثمرة.

قطعت سلسلة أفكارها حفنة من النساء يتكلمن بأصوات عالية. كانت هناك أربع فتيات يقتربن منها، كانت مانوليا موراليس من بينهن. كان بوسع دونا إميليا تمييز صوت الفتاة الحاد في أي مكان. ففي الماضي، شاهدت في أحد المحلات دمية ناطقة يشبه صوتها صوت مانوليا الذي يبدو كالصراخ. توقّفت الفتيات أمام العجوز، ورحن يهمهمن شيئاً غير مفهوم؛ وسرعان ما أطلقن قهقهات ظلت ترن في أذني إميليا لفترة طويلة بعد ذهابهن. ورجت أن لا تتناول أي واحدة منهن ثمرة المانغا تلك. فلا تستحق هؤلاء العوانس الحقيرات هذه الفاكهة اللذيذة. ضاقت عيناها بالكراهية، وعضّت شفتها السفلى بأسنانها الاصطناعية.

كان للمدام السابقة سبب وجيه لتكره عانسات ماريكيتا. فبسببهن توقّفت أعمال اللاكازا.

*

مرّ شهران تقريباً على اليوم الذي اختفى فيه رجال ماريكيتا، وبينما كانت الأرامل يندبن حظهن على فقدان أزواجهن، بدأ يعتري الشابات شعور بالضيق والقلق، فلم يتقبلن فكرة العيش في قرية لا توجد فيها إلا أرامل وعوانس، وأنه كُتب عليهن أيضاً أن يبقين عازبات طوال حياتهن.

كانت مانوليا موراليس تقود مجموعة صغيرة من الصبايا، اللاتي كن يجتمعن في وسط الساحة كلّ ليلة بعد إنهاء الصلاة. ولم يكنّ يتحدثن إلا عن الرجال، لا عن الرجال من أقاربهن، بل عن أخلائهن، أو الرجال الذين تقدموا لطلب أيديهن أو الذين أحبونهم سرّاً. ولم يكن يسمح بالحديث في اجتماعاتهن عن مواضيع مثل الجفاف، ونتائجه الوخيمة على المحاصيل في القرية، وشح الطعام المرتقب، بل كانت الصبايا يتبادلن قصصاً رومانسية وحكايات عن تجاربهن الجنسية، وكنّ يرين لبعضهن البعض صوراً عن رجالهن الذين رحلوا بالإضافة إلى الهدايا التي قدمت لهن: أزهار مجفّفة محفوظة بين طيات الكتب، وخصلات شعر، بل حتى ثياب داخلية رجالية. وليلة إثر ليلة، كنّ يتخيّلن ويحلمن بذلك اليوم المجيد الذي يعود فيه أحبائهن إليهن.

وفي إحدى الأمسيات، سمعت الفتيات هدير سيارة تقترب من الساحة. وثبن واقفات، إذ لم تمر سيارة واحدة في دروب ماريكيتا الترابية منذ فترة طويلة. مرّت من أمامهن سيارة جيب خضراء مهلهلة فيها أربعة رجال، ولم يطلقوا لهن بوق السيارة أو يلوحوا لهن تلويحة مجاملة. ارتبكت الفتيات.

وبعد بضع دقائق، مرّت بالقرب من الساحة سيارة جيب أخرى فيها خمسة رجال. جرت مانوليا نحو الطريق، رافعة يديها ملوّحة بمنديلها في الهواء، وصاحت بأن يتوقفوا. لكن السيارة تجاوزتها من دون حتى أن يشعر الشبان في داخلها بوجودها. تملك مانوليا شعور بالانزعاج والإحباط، لكنها لم تنهزم. انتظرت بهدوء حتى سمعت صوت سيارة أخرى تقترب من الساحة. ثمّ أمرت الفتيات بأن يتراصفن في صف واحد عبر الشارع، وشبكن أيديهن معاً في سلسلة بشرية. توقف السائق. كان رجلاً أصلع، متوسط العمر، أنزل زجاج نافذة سيارته الجيب الحمراء. وكان برفقته ثلاثة رجال آخرين.

«مساء الخير، أيها السادة»، قالت مانوليا، مخاطبة السائق.

«كيف يمكننا أن نساعد تلك الحسناوات؟»

«كنّا نتساءل فقط من أين أتيتم وإلى أين تتوجهون. لأن قريتنا تبعد كثيراً عن الطريق الرئيسي».

«إننا من قرية هوندا، وفي طريقنا لزيارة فتيات دونا إميليا»، قال السائق، وأخرج البطاقة التي كانت المدام قد أعطتها له.

«قالت دونا إميليا إن لديها اثنتي عشرة فتاة جميلة»، جاء الصوت الأجش من المقعد الخلفي في سيارة الجيب، «لكنني لا أرى إلا تسع فتيات فقط».

«يؤسفني أن أخيّب أملك»، أجابت مانوليا، بصوت ساخر، «لكننا لسنا سيدات ليل. لا علاقة لنا بتلك المرأة».

«حسناً، إذا كان الأمر كذلك، إذاً افسحن لنا الطريق أيتها الجميلات الساحرات. فلدينا أعمال عاجلة علينا أن نقوم بها»، قال السائق، فضحك الرجال الآخرون.

أشارت مانوليا للفتيات بإفساح الطريق، فانطلق الرجال بسرعة.

عادت الفتيات إلى الساحة وجلسن على الأرض. حاولن مواصلة اجتماعهن الليلي، لكن رائحة الرجال الفحولية القوية عبقت في الهواء، وراحت أصواتهم وضحكاتهم تتردد في آذان النساء.

«هذا ليس عدلاً»، قالت ساندرا فيليغاس، «إنني جالسة هنا أتوق إلى رؤية رجل، بينما تقبض تلك القحبات نقوداً لقاء النوم مع عدّة رجال في الليلة الواحدة. لقد سئمت الاقتتات على الذكريات. إذ ستذبل هذه الصور وستذوي الوجوه».

«لقد مضى شهران»، أجابت مارسيلا لوبيز، المخطوبة لخاسينتو خيمينيز الابن، ابن القاضي السابق، «يجب أن نظل وفيات لرجالنا».

«ليس لدي رجل أخلص له»، قالت مانوليا، أكثر الفتيات تجربة من الأخريات، «ولا أنتِ»، أضافت، مشيرة بذقنها إلى بيلار فيليغاس، «يمكننا أنا وأنت أن نكوّن فريقاً لمنافسة فتيات دونا إميليا». أطلقت الفتيات ضحكة هستيرية، وانفضّ اجتماعهن بهدوء.

في الليلة التالية، ألغت مانوليا اجتماع الفتيات، وذهبت مع بيلار إلى أطراف ماريكيتا. ارتديتا فستانين ضيقين بلا أكمام، وصبغتا وجهيهما بألوان عديدة، وأسدلتا شعريهما حتى كتفيهما. وشمّتا رائحة الرجال قبل أن تسمعا هدير السيارة أو تريا أضواءها. عندما رآهما السائق، ضغط على الفرامل وأطلق زمّور سيارته. توقفت مانوليا، ولوّحت لهم، وتابعت سيرها بخطى وئيدة. تابعت بيلار سيرها دون أن تنظر إلى الوراء، ساقاها ترتعشان. مدّ الرجال الأربعة رقابهم من نوافذ السيارة. كانوا شباناً وسيمين حليقي الوجوه، وكانت تفوح منهم رائحة الكولونيا. «انتظرا»، صاح أحد الشباب

من النافذة، ومنخاراه يتوهجان. وثبوا خارج سيارة الجيب وركضوا نحو الفتاتين.

«ما أجمل هاتين الزهرتين الجميلتين اللتين هبطتا من السماء»، قال أحدهم، «هل لي أن أسألكما إلى أين أنتما ذاهبتان في هذا الوقت من الليل؟»

«نريد أن نستنشق هواء عليلاً»، قالت مانوليا وهي تهوّي وجهها بيديها.

«هكذا إذن»، قال الرجل ذاته، «هل أنتما من لا كازا دي إميليا؟»

«ليس تماماً»، أجابت مانوليا، «يعمل عدد منّا باستقلالية». وبين الجُمل، راحت تمرر لسانها حول شفتيها بغنج. وقالت إنها هي وبيلار مستعدتان لمضاجعتهم جميعاً الليلة بدون مقابل لكن بشرطين.

«أيّ شيء تطلبينه يا حلوتي»، قال أصغرهم، وهو يمرر يده بين ساقيه.

«الشرط الأول، يجب أن تعدونا بمعاملتنا كما لو كنا مصنوعتين من الكريستال، والشرط الثاني، تعدونا بأن لا يعود أحد منكم أبداً إلى لا كازا دي إميليا».

«أقسم بالله»، أجاب أصغرهم. وقبّل صليباً رسمه بإبهامه وسبّابته. ثم كرّر الرجال الثلاثة الآخرون هذه الحركة وختموا الاتفاق بأن أقسموا جميعهم بحق الله.

ألقى الرجال قطعة عملة معدنية في الهواء لتحديد صاحبيْ الشرف اللذين سيحظيان بممارسة العلاقة الحميمة مع الفتاتين. واتفقوا على أن ينتظر الخاسر في السيارة، يدخّن سجائر، ويحتسي براندي رخيصاً. فاز الشاب الأصغر بحقّ الاختيار أولاً، وقاد مانوليا وراء شجرة مطاط كبيرة. خلعا ثيابهما بسرعة. قبّلته بحرارة وغمر نفسه ببطء في لحمها. تمددا فوق أوراق

الأشجار السميكة اللزجة المتساقطة من الشجرة المطاطية. كانا يتحرّكان معاً، السيقان والأوراق المتشابكة بكثافة. وأخذ الفائز الآخر، وهو شاب قصير بعض الشيء، وشعره مطلي بكمية كبيرة من ملمّع الشعر البريليانتين، بيلار وراء الشجيرات. وجعلت بيلار الرجل يبحث في العشب عن النمل والعقارب أولاً، ثمّ غطّى الأرض بثيابه وثيابها. تمددا فوق الملابس، وبدأ يداعب وجهها، ويمسّد شعرها ونهديها: «إنك أجمل امرأة رأيتها في حياتي»، قال، وتحرّك بلطف في داخلها. لوهلة خيّل إليه أنها تمارس الحبّ فوق غيمة تسبح في الهواء. ثمّ انفجرا كلاهما.

كانت مئات النجوم تتناثر في السماء.

في الأسبوع التالي، انضمت لويزا وساندرا فيليغاس إلى مانوليا وبيلار في مغامراتهما. والتقين في المدرسة المهجورة لكي يغيّرن ثيابهن ويرتدين فساتين ضيّقة ويتبرجّن.

«يجب ألا نحبل»، قالت مانوليا لتلميذاتها، «فبعض الرجال أسرع من الآخرين. يجب أن تنظرن باستمرار في وجوههم، وعندما تشاهدن عيونهم تضيق وتصغر، وتفغر أفواههم، فهذا يعني أنهم اقتربوا من ذلك. وعندها يجب أن تدفعوهم عنكن».

«وماذا لو كانوا ثقيلي الوزن؟» سألت ساندرا.

«عندها يجب ألا ترقدي تحته»، أجابت مانوليا.

واقترحت عليهن الخروج إلى الطريق مثنى مثنى معاً، والحفاظ على مسافة بينهن. وأعطتهن صافرات أيضاً، يبقينها حول أعناقهن طوال الوقت، «لا تطلقن صافرة إلا إذا كنتن معرضات للخطر».

وخلال أسبوعين، أقنعت مانوليا وبيلار ثماني فتيات أخريات بالانضمام

إليهما، ونظّمتا أربع مجموعات تتألف كلّ منها من ثلاث فتيات. وساعدتا الفتيات الجدد في اختيار ثيابهن ومكياجهن، وتبادلتا معهن تجاربهما. واتفقن على إبقاء عملهن سراً وعدم إخبار أحد في القرية، لا سيما الخوري، ولا أمهاتهن ـ فليست النساء المسكينات الفقيرات بحاجة إلى سبب آخر يزيدهن كرباً. كما احتفظت الفتيات بحقهن في رفض أيّ رجل لأيّ سبب كان. ولم يطلبن نقوداً لقاء خدماتهن، لكن كان على الرجال تعويضهن بأي شكل كان. «بهذه الطريقة نستطيع صون كرامتنا»، قالت بيلار. واختارت كلّ فتاة بقعة خاصة بها، وحافظت على نظافتها من البقّ والأعشاب والنباتات غير المرغوب فيها. حتى إن عدداً قليلاً منهن زرعن زهوراً حولهن واحتفظن بقليل من الخبز والحلويات في مكان قريب إذا كان زبائنهن جائعين. وبعد شهر واحد، عندما اقترب موسم الأمطار، أخذت كل واحدة منهن تساعد الأخرى في نصب خيمة بأعواد الخيزران وأغطية بلاستيكية كبيرة.

وفي هذه الأثناء، شهد لا كازا دونا إميليا نقصاناً ملحوظاً في العمل. وطلبت دونا إميليا من بناتها التأكد من إرضاء زبائنهن تماماً، وأن يشكرنهم دائماً على قدومهم، ويدعونهم إلى العودة مرة أخرى.

«تذكّرن أنهم يسافرون من مسافة بعيدة»، قالت، «ويجب أن يكون الوقت الذي يمضونه هنا معنا جديراً بذلك».

لكن المنافسة كانت شديدة.

وأجرت دونا إميليا اليائسة بضعة رحلات أخرى إلى القرى القريبة. وفي هوندا، أُبلغت عن وجود مجموعة من فتيات ماريكيتا الشابات الجميلات، اللاتي يجبن الطرقات، ويقبلن جميع أنواع الهدايا لقاء علاقة حبّ عابرة مع

الرجال: عطر، قطع من المجوهرات والثياب والأدوات المنزلية. وقيل لدونا إميليا إن معظمهن يشعرن بالسعادة لقاء علبة شوكولاتة فقط، أو باقة ورود حمر، أو قصيدة حبّ مكتوبة بخط اليد. وفي ذلك الوقت، نصبت مانوليا ورفيقاتها قرية مؤقتة من الخيام كنّ ينقلنها باستمرار كي لا يراهن الخوري رافاييل ولا الأرامل.

وأطلق الرجال على قرية الخيام اسم «الماخور السحري»، الماخور الذي يظهر ثم يختفي. وكان البحث عن الخيام الغامضة على امتداد الطرق الملتوية، ووراء الغابة، وبين التلال القاحلة، يزيد من شعور الرجال بالإثارة. ويبحث الرجل في طول المنطقة وعرضها ـ لساعات عديدة، إذا تعين عليه ذلك ـ لكنه كان يجدها دائماً. وعندما يجدها، سرعان ما يختفي بين ذراعيْ ورجليْ امرأة شهوانية متقدة، وأشعة شمس الظهيرة تشعّ فوق عريهما. السيقان مشدودة، والأرداف تهتز وتتأرجح، والقلوب تخفق بسرعة، والعرق ينضح بقوة، ويفقد الجسدان القدرة على التحكم بالتنفس، وتنطلق التنهدات والصرخات والصيحات بملء حريتها ـ رجل، امرأة، انطلاق نيران ملتهبة تحت السماء.

وفي محاولة منهن لاستعادة زبائنهن، وافقت دونا إميليا وبناتها الاثنتا عشرة على تخفيض تسعيرتهن واستحداث المزيد من الحوافز. واتفقن على أخذ زبونين بسعر زبون واحد من يوم الأحد إلى يوم الخميس. وفي أيام الجمعة، يدفع الرجل الذي يأتي مبكراً نصف السعر فقط. وفي أيام السبت، يقمن عيد إميليا: وهي حفلة مدتها ثلاث ساعات، تتضمن تقديم الطعام والمشروبات والحق في انضمام الفتيات الاثنتي عشرة جميعهن، عاريات، في الغرفة الحمراء ـ كل ذلك بسعر واحد.

وسافرت دونا إميليا إلى فريسنو، حيث طبعت منشورات تعلن فيها عن الخدمات الأسبوعية الخاصة التي تقدم في اللا كازا، وتوزعها في القرى المحيطة. وأصبحت السيدة العجوز بائعة، تنتقل كلّ يوم من قرية إلى أخرى، تضع حقيبتها تحت ذراعها، وتحمل بيدها كيساً ورقياً مليئاً بالإعلانات. وكانت تمضي ليالي طويلة وهي تجلس بمفردها في حانة اللا كازا، تدخّن سجائرها الرفيعة، وتحتسي نبيذ التفاح من القنينة مباشرة، تبتدع أفكاراً جديدة تمكّنها من الاحتفاظ بعملها. لكن لم يكن من شيء يمكنها فعله. تساءلت كيف يمكنها أن تنافس حفنة من النساء الشبقات المخفيات، أشباح رومانسية مستعدة لممارسة الجنس لقاء تذوق القليل من العاطفة؟ لعنت الثوّار الشيوعيين لأنهم سلبوها زبائنها، وبكت بحرقة وحزن على جميع الرجال الذين اختفوا.

وسرعان ما بدأت رئتاها ترفضان دخان السجائر التي تدخنها، فبدأت تسعل بشدة إلى حد أن الحليب والجرجير المُحلّيين بالعسل اللذين تحتسيهما عادة، لم يعودا ينفعانها. وفقدت عدّة باوندات من وزنها، وبدأت تسكر بعد بضعة رشفات من النبيذ. لذلك، لم تحاول أن توقف الفتيات في صباح اليوم الذي سمعت فيه الفتيات الاثنتي عشرة يحزمن حقائبهن للرحيل. وكان كل ما فعلته أنها نهضت من سريرها، وغسلت وجهها بالماء، وتوجهت إلى المطبخ لتعدّ آخر وجبة طعام يتناولنها جميعهن.

وبعد بضع ساعات، عندما خرجت الفتيات الإثنتا عشرة من غرف نومهن دون أن يتزيّن ويتبرّجن، بل كن يرتدين ثياباً محافظة، تتدلى حقائبهن من على أكتافهن، ووجدن المدام العجوز جالسة في غرفة الطعام، يداها

معقدوتان فوق الطاولة. كانت ترتدي فستان نوم من الحرير الأحمر يغطي جسمها من الرقبة حتى الأسفل. وكان شعرها الأشيب مسدلاً على ظهرها، وشيء من الورع يرتسم على وجهها، شيء سعيد حالم. كانت المائدة مغطاة بمفرش أبيض، صُفَّت عليه بشكل جميل مناديل قماشية، وأطباق من الفضّة، وأوعية خزفية وشوكات وسكاكين وكؤوس من الكريستال مترعة بالنبيذ. ومُدّت على المائدة سلال فيها خبز ذرة، وأطباق مليئة بالفاكهة وأنواع مختلفة من الأجبان، وزبدية كبيرة من حساء البطاطا الحارة، وصحون بيضوية فيها قطع من لحم الديك الرومي المشوي، والرزّ الأبيض والفاصولياء الحمراء.

«حسنا يا عزيزاتي»، قالت دونا إميليا، «لقد آن الأوان للوداع». نظرت إلى يديها نصف الشفافتين، وقد اغرورقت عيناها بالدموع. كانت فيفيانا أول فتاة تعانقها، ثم عانقتها الفتيات الإحدى عشرة الأخريات، الواحدة تلو الأخرى. ومسحن الدموع عن خدّيْ المدام المليئتين بالتجاعيد، وقبّلن يديها المرتعشتين الصغيرتين، ومسّدن شعرها. وعندما أخذت الفتيات أماكنهن وجلسن أخيراً، وقفت دونا إميليا ورفعت كأسها المليء بالنبيذ لتشرب نخبهن. وبصوت محطم، قالت:

«بصحتكن يا فتياتي الشجاعات، تلميذاتي اللاتي حملتن صلبانكن بتحمّلكن رجال ماريكيتا: الذين كانوا أحياناً بذيئين، ووقحين أحياناً، لكنهم كانوا رائعين دائماً.

«هذا بصحة رجال ماريكيتا، رجالنا، وبصحة لا كازا دي إميليا، الذي يفتقدهم كثيراً».

رشفت النساء الثلاث عشرة جميعهن النبيذ، وجلسن وبدأن يتناولن

طعامهن بصمت. وعندما انتهين، اقترحت فيفيانا أن يرتدين جميعهن ثياب العمل. وهكذا ارتدين أرديتهن البراقة، وساعدت إحداهن الأخرى في وضع مكياجها. ودعت دونا إميليا الفتيات إلى غرفة البار حيث أدارت موسيقى مرحة. رقصن وشربن طوال الليل، وتبادلن حكاياتهن الظريفة والمسلية، وتبادلن النكات، وشربن نخب بعضهن ثانية، وضحكن وبكين وضحكن أكثر.

في اليوم التالي، عندما استيقظت دونا إميليا، وجدت نفسها وحيدة في الغرفة، تحيط بها الكؤوس الوسخة وقناني النبيذ الفارغة. تخيّلت الفتيات الاثنتي عشرة يتمشّين على الطريق، وأشعة الشمس تتلألأ فوق وجوههن الدهنية، يحلمن، ربما، بقدوم ذلك اليوم الذي يسعدن فيه بباقة من الورود الحمر من رجال أو بقصيدة مكتوبة باليد لقاء حبّهم لهن. وتمنّت دونا إميليا ذلك المصير لكلّ واحدة منهن، وأغمضت عينيها، راجية ألا تفتحهما ثانية أبداً. وقرّرت أن تغلق الماخور وأن تعيش من المدخرات التي وفرتها.

الماخور السحري، الماخور الذي كان يوجد أحياناً، ويختفي أحياناً أخرى، لكنه اختفى ذات يوم إلى الأبد، ولا يمكن إلقاء اللوم إلا على الحبّ. ووجدت الشابّات الاثنتا عشرة أنفسهن عاشقات، كلّ واحدة مع رجل مختلف. فقد أُغرمت مانوليا بحلاق متزوّج يدعى فالانتاين، وهو رجل داكن البشرة متوسط العمر، يضع باروكة متصلبة لا تتوقف عن التحرك فوق رأسه كله. فعندما زار خيمتها، لم تكف مانوليا عن التحدث عن أردية الزفاف المصنوعة من الحرير وخواتم الخطوبة المصنوعة على شكل قلوب. كما أصرّت على أن تقرأ له، على ضوء شمعة، قصّة حبّ. قال فالانتاين إن الفتاة مخبولة ولم يعد يأتي إليها. وليلة بعد ليلة، انتظرته

مانوليا. ورفضت أن تستقبل رجالاً آخرين ورفضت قبول هداياهم. وأمضت معظم لياليها تحت خيمتها وهي تبكي. وفي بعض الأحيان، كانت ترتّب أشياءها وتزيل الأعشاب الضارة وتسقي نباتاتها. لكن في معظم الأحيان، كانت تقرأ لنفسها الحكايات القديمة ذاتها، وتبكي.

وفي النهاية، خلصت الفتيات الاثنتا عشرة إلى أن الله منح كل واحدة منهن عينين لتنظر بهما إلى الرجال على نحو أفضل، وأذنين لتسمعا ما يريدون قوله بصورة أفضل، وذراعين لمعانقتهم، وساقين تطوقان خصورهم بهما، لكنه منحهن قلباً واحداً فقط ليقدمنه لهم. أما الرجال، فهم يحبّون بخصياتهم، وقد منحهم الله اثنتين منها.

وفي إحدى الليالي لم يجد الرجال الماخور السحري. وراحوا يبحثون عنه في كل مكان على امتداد الطرق المتعرجة، وراء الأجمات، وبين التلال. بحثوا عنه في طول البلاد وعرضها لأسابيع طويلة، لكنهم لم يجدوه. فقد عادت النساء إلى ماريكيتا، وعدن إلى عزوبيتهن، وامتلأت لقاءاتهن الليلية الحزينة بالذكريات، ورحن يتخيّلن قدوم ذلك اليوم المجيد الذي يعود فيه عزّاب القرية إليهن.

*

لقد دمّرن عملي من أجل لا شيء! قالت دونا إميليا لنفسها. وبغتة سمعت، من بعيد، بائعة متجولة تنادي عن بضاعتها بصوت رقيق: «جوافة! برتقال! يوسف أفندي!» ثمّ رأتها، صبيّة تمشي برشاقة تضع سلة كبيرة على رأسها. وأمعنت العجوز النظر في الفتاة، التي لم تكن تشبه الفتيات الاثنتي عشرة: ثوبها الوردي، شعرها الأسود المجدول بضفائر، ذراعاها الطويلتان، وخصرها النحيف، واعتراها شعور غريب بأنها تعرفها

منذ مدة طويلة. ولاحظت الفتاة المرأة العجوز أيضاً. ابتسمت لها ولوّحت لها بيدها بلطف، وبادلتها دونا إميليا الابتسامة. كانت على وشك أن تطلب من الفتاة أن تجلس معها على المقعد عندما هبتّ ريح قوية، وأوقعت السلة من فوق رأس الفتاة. وتناثرت ثمار الجوافة والبرتقال واليوسف أفندي على الأرض. ركعت الفتاة وراحت تجمعها بهدوء وأعادتها إلى السلة. أرادت دونا إميليا مساعدتها، لكنها عندما حاولت أن تنهض من على المقعد، لم تشعر بساقيها.

ثم هبّت ريح أقوى، وسقطت حبات المانغا ذات لون الغروب على الأرض، بجانب الفتاة مباشرة. رأت دونا إميليا الفتاة تبتسم، ورأتها تلتقط المانغا بيديها وتضعها في السلة، ورأتها تسير بخطوات واسعة في الطريق وعادت لتضع السلة على رأسها، ثم تلاشت مع الريح.

شعرت بالبهجة، أرخت دونا إميليا ظهرها على المقعد وركّزت عينيها في السماء، وفي هذه المرة فقط لم تجدها زرقاء.

خوزيه ل. ميندوزا، ٣٢ سنة
مقدّم في الجيش الوطني الكولومبي

لقد تعلمت شيئاً واحداً في الجيش، وهو أنه كلما قلّ اتصالك بضحيّتك، سهل عليك قتله. ففي إحدى المرات، تركت رجلاً يحدثني طويلاً قبل أن أطلق النار عليه وأرديه قتيلاً، ولا أزال حتى الآن أشعر بالندم على ذلك. كنا قد تلقّينا نداء من مركز الشرطة في قرية صغيرة تقع في الجبال. كان الثوّار قد هاجموهم وكانوا بحاجة إلى تعزيزات. كانت الدروب سيئة للغاية، لذلك لم نتمكن من الوصول إلى هناك إلا في صباح اليوم التالي، وكنا قد ظننا أن الثوّار قد ذهبوا وحملوا كل ما يجدر حمله. رحت أسير في دروب القرية أحصي الجثث، غير مدرك أن واحداً من الثوّار كان مختبئاً في تلك اللحظة وراء شجرة، مسدداً بندقيته من طراز غاليل خلف رقبتي يريد أن يفجّر رأسي. اكتشف أحد جنودي وجوده فأطلق عليه النار فأصابه في ذراعه قبل أن يتمكن من عمل أي شيء. كان شاباً هندياً ذا عينين صغيرتين وبشرة سمراء داكنة. وضعناه هو وثلاثة من المقاتلين الآخرين الذين تمكنّا من أسرهم في حفرة للمجاري.

وعندما أحكمنا سيطرتنا على القرية، طلبت من الهندي الخروج من الحفرة ـ فلم أكن أريد قتله أمام الثلاثة الآخرين. عرف ما كنت أنوي القيام

به، لذلك زعم أنه لا يستطيع الخروج لأنه يشعر بوهن شديد بسبب الدم الذي نزفه. كان يجب أن أتركه يموت في الحفرة. صحت به أن يخرج، فراح يتوسل إليّ بأن لا أطلق النار. قال إن أمّه أصيبت بسكتة دماغية وأن أختيه الصغيرتين احترقتا في حريق وهما لا تزالان تعيشان ولا تستطيعان تحريك ساقيهما، وقد شُوِّه وجهاهما تماماً وأنهما تعتمدان عليه في إعالتهما، وقال إنه رجل طيب أُرغم على أن يصبح مقاتلاً، وأنني إذا عفوت عنه فإنه سيترك صفوف الثوار ليلتحق بالجيش الوطني. . . . كان كأنه يحفظ كلّ هذا الخطاب عن ظهر قلب. لا أعرف السبب، لكنني واصلت الاستماع إلى قصّته اللعينة وأنا أحدّق في عينيه اللتين توسعتا من الخوف. تركته يتكلّم ويتكلّم حتى تعب وتوقّف. ثمّ جثوت أمامه، ووضعت فوهة مسدّسي على جبهته، وقلت للرجال الثلاثة الآخرين في الحفرة إنه حاول قتلي من الخلف وأن هذا ليس من الرجولة في شيء. «هكذا تقتل رجلاً»، قلت، وأطلقت عليه النار. ونتيجة صوت الانفجار، أُغمضت عيناي تلقائياً. عندما فتحتهما، كان جسد الهندي لا يزال منتصباً في الحفرة، لكن رأسه زال عنه من الأنف. وغاب شعره، ودماغه، وعيناه الصغيرتان. . . لكن كان هناك فمه، والعضلات حول شفتيه ترتجفان كما لو كانتا تحاولان أن تقولا لي شيئاً نسي أن يقوله.

الفصل الرابع

المعلّمة التي رفضت أن تعلّم التاريخ

ماريكيتا، ١١ شباط (فبراير)
١٩٩٥

كانت كليوتيلد غوارنزو عانساً في السابعة والستين من عمرها، يكسو رأسها شعر أشيب قصير، ويعلو شفتها العليا خيط رفيع من الشعر الناعم، وقد نبتت على ذقنها شعرات بيض خشنة. ونظارة سميكة تقبع فوق أنفها المكوّر، الذي يبدو مثل علامة استفهام مقلوبة، فيمنحها سحنة يشوبها الغموض. وكانت تصرفاتها تشي بشيء من الذكورة: طريقتها في الجلوس حيث تكون ساقاها متباعدتين كثيراً، وطريقتها في المشي حيث تخبط بقدميها بقوة على الأرض، والطريقة التي تُحكم فيها قبضة يدها اليمنى بشكل غريزي عندما تشعر بتهديد ما، كما لو كانت متأهبة لضرب أحد أو شيء وطرحه أرضاً. ويكمل التجهّم قسمات وجهها التي قلما تسترخي. باختصار، كانت صورة للصرامة لكن بشعر أشيب.

وكانت كليوتيلد تقوم برحلة عندما تعطّلت الحافلة المسافرة التي كانت تستقلها. كان الليل قد بدأ يهبط، فانتابها شعور بالخوف. واستأجرت فتى

من القرية ليوصلها على ظهر دابة إلى أقرب قرية. فأمضت الليلة هناك، وتابعت رحلتها عند الفجر.

أنزلها الفتى وحقيبتها في باحة قرية ماريكيتا وتركها هناك. كان هدوء شديد يخيم على القرية في تلك الليلة، وحين كان يوجد ضوء كانت تبدو أشبه بمدينة أشباح. بدأت ساقا كليوتيلد ترتعشان. وراحت تسير على غير هدى، وبجهد كبير، مجتازة بضع حارات حتى لمحت وميض ضوء ينبعث من نافذة صغيرة. هُرِعت إلى البيت الذي ينبعث منه بصيص النور، وقرعت الباب المفتوح. بعد قليل، ظهرت فتاة شابة متدثّرة بشال، وهي تمسك بشمعة في يدها. لم تكن الفتاة تتجاوز العاشرة من عمرها، أو ربما الحادية عشرة.

«تفضلي ادخلي»، قالت بصوت رقيق. سارت أمامها، تحمل الشمعة في بهو طويل ضيّق، «اسمي فيرجيلينا سافيدرا، وهذه جدتي، لوكريسيا أرملة دي سافيدرا»، وأشارت الفتاة إلى امرأة عجوز شاحبة تجلس في كرسي هزاز.

«وأنا الآنسة كليوتيلد غوارنيزو في خدمتك»، قالت، ثم توجهت تخاطب لوكريشيا، وأضافت، «وإنني أبحث عن مكان دافئ أمضي فيه الليلة».

«يمكنك المكوث هنا إن أردت»، أجابت لوكريسيا بلا مبالاة، «عندنا أرجوحة إضافية وبطانية يمكنكِ استخدامها».

كانت كليوتيلد تكره الأراجيح. ولم تستطع أن تفهم كيف يستطيع المرء أن ينام وهو معلّق في الهواء مثل الحيوان الكسلان الذي يتدلى من الأغصان. بالطبع لم تقل لهما ذلك. بدتا لها شخصين ريفيين ودودين، وقالت: «إني أقدّر لكما ذلك كثيراً».

أشارت لوكريسيا إليها بأن تجلس. لم يكن هناك سوى كرسي واحد، مما جعل الأمر أسهل وأقل حرجاً بالنسبة لكليوتيلد. وضعت حقيبتها وجلست وراحت تتطلع حولها، شبه مبتسمة للجدران. كانت الغرفة مظلمة وخانقة، لا يكاد يوجد فيها قطع أثاث، وكانت تقبع في إحدى الزوايا كومة من حطب الطهي، وكانت قطتان هزيلتان سوداوان تقبعان في زاوية أخرى. كانت كليوتيلد تكره القطط أكثر مما تكره الأراجيح، وراحت تتساءل هل القطتان اللتان تراهما ميتتين أم حين. ربما كانتا جزءاً من أثاث البيت الفقير.

«فيديل كاسترو»، قالت لوكريسيا فجأة. بدا أنها تتفحص وجه وجسم كليوتيلد لملاحظة أي إشارة تدل على أن لديها ثروة. وقد تطلب من كليوتيلد أن تمنحها شيئاً قبل أن تغادر في الغد. فقد كانت لوكريسيا قد قايضت معظم أدوات الخياطة التي كانت تملكها لقاء الطعام.

«المعذرة؟» ردت كليوتيلد. أحسّت وكأنّ لوكريسيا تتفحص وجهها وجسمها بدقّة لرؤية أية دلالة على وجود ثروة لديها. كانت تتمنى حقاً أن لا تتوقع لوكريسيا منها دفع أي شيء لقاء إقامتها في هذه الليلة. فلم يكد يكون لدى كليوتيلد مبلغ كاف في محفظتها لدفع ثمن تذكرة الحافلة التي ستقلها بعيداً عن هذه القرية المهلهلة.

«قلت فيديل وكاسترو. إنهما اسما القطين».

«أوه»، ردت كليوتيلد، «اسمان مثيران للاهتمام لقطين. هل هما على قيد الحياة؟»

«ههههه»، همهمت لوكريشيا. توقّفت، وكأنها تريد تغيير الموضوع، ثم أضافت، «كما ترين، إننا فقراء جداً».

«ألسنا جميعاً فقراء؟» قاطعتها كليوتيلد، «لقد جعلتنا هذه الحرب نعيش في ضائقة مالية»، وتساءلت هل تعرف لوكريسيا معنى كلمة ضائقة. «حتى

لا يمكنك التمييز بين الثوّار وبين قوات الجيش، أو الحكومة. . . وقولي لي من سيستخدم امرأة عجوزاً مثلي في ظل الأوضاع الحالية؟»

«لا أحد»، أجابت لوكريشيا، تبدو محبطة قليلاً لأن حديث كليوتيلد جعلها تستبعد أية إمكانية للحصول منها على حفنة من البيزوات في تلك الليلة، وقالت: «لا يوجد لدينا شيء يمكننا تقديمه لك إلا القهوة. هل تريدين كوباً من القهوة؟»

شكرتها كليوتيلد، وقالت إن الوقت متأخر جداً على احتساء القهوة، وأنها لا تطلب شيئاً إلا شمعة ومكاناً تنام فيه. «أحبّ أن أقرأ قبل أن أنام، ألا تقرأين؟»

«أنا لا أقرأ ولا أكتب»، قالت المرأة بحزم، وكأنها تفتخر بذلك.

«يا إلهي! لا يمكنني أن أتخيّل نفسي غير قادرة على القراءة»، ثم توجهت إلى فيرجيلينا التي كانت تشذّب فتيلة شمعة جديدة بأسنانها، وسألتها، «هل تقرأين؟»

هزّت الفتاة رأسها.

«أيتها الفتاة الصغيرة»، قالت كليوتيلد، رافعة سبابتها في الهواء، «يجب أن تعرفي أن التعليم هو الأداة لتحقيق النجاح».

«النساء في هذه القرية لسن بحاجة إلى التعليم»، قالت لوكريسيا بمرارة، وأضافت «كما أن المدرسة مغلقة منذ أكثر من سنتين».

«سنتان؟ يا له من شيء مخيف!»

أعطت فيرجيلينا كليوتيلد الشمعة وقنينة كوكا كولا فارغة لتضعها عليها.

«لقد وعدتنا القاضية بأن بعد فتح المدرسة قريباً»، قالت الفتاة بهدوء، «عندما يتم توظيف معلّمة».

«معلّمة؟» سألت كليوتيلد، ونهضت من كرسيها، «يا لها من صدفة؟ فأنا معلّمة مجازة».

«حسناً، إن كنت مهتمّة، فاذهبي إلى مكتب القاضية غداً»، اقترحت لوكريشيا، «فهي تجري مقابلات مع المرشّحات للوظيفة طوال الأسبوع».

«ألا تعرفين كم الراتب؟ هذا لا يهمّ كثيراً، فأنا امرأة عازبة ولديّ التزامات مالية. طبعاً يجب أن أستأجر غرفة وأشتري الطعام، لكن ما المبلغ الذي يمكن للمرء إنفاقه على الطعام في قرية صغيرة كهذه. حقاً؟ هذا المبلغ الكبير لقاء قطعة من لحم الخنزير؟ حسناً، إني لا أحبّ اللحم على أية حال. إنه مضر للصحة. إنه يسبّب التهاب المفاصل. صحيح؟ لديّ علاج لذلك: اسحقي عقرباً حيّاً وضعيه في قنينة فيها كحول طوال شهر كامل. ثم امسحي الكحول على مفاصلك كلّ ليلة قبل النوم. إنه حقاً هبة من الله. لقد أخبرني به شخص هندي. طبعاً امرأة هندية، لأن الرجال لا يفهمون ألم المرأة. إنهم لا يفهمون أيّ شيء عن المرأة. لا ـ أنا لست متزوّجة. جميع الرجال الذين صادفتهم كانوا خنازير. ربما كان الرجال في هذه القرية مختلفين... ماذا تقصدين، لا يوجد رجال؟ الخوري فقط؟ حقاً؟ الثوّار الشيوعيون، إيه؟ حسناً، هذا رائع! فظيع، لكن رائع. لقد سمعت عن قرى تعيش فيها أرامل، لكنّي لم أر أياً منها في حياتي. آه، الحرب، إنها دائماً الحرب. لا يتوقف الرجال عن شنّ الحروب، ونظل نحن نعاني من عواقبها. على الأقل لم تضطررن إلى الهرب وترك كلّ شيء وراءكن كما رأيت الناس يفعلون... إذاً حدّثيني عن قاضيتكن. هل هي لطيفة وودودة؟ هل هذا صحيح؟ حسناً، لا يوجد أحد مثالي. نعم، قد أتقدّم لهذه الوظيفة. من أجل العمل فقط، لأنني لست متأكّدة بعد هل سأمكث في هذه القرية.

حسناً، بما أنك تلحين كثيراً، سأحتسي قليلاً من القهوة. نصف فنجان فقط. شكراً لك».

في صباح اليوم التالي، استيقظت كليوتيلد كدأبها في الساعة الخامسة. فهي تستيقظ في الوقت نفسه يومياً في أي مكان تنام فيه أو مهما تأخرت في الإيواء إلى الفراش. ارتدت ثيابها في غرفة الجلوس نصف المعتمة، حيث نصبت لها فيرجيلينا أرجوحة في الليلة الماضية. ارتدت بدلة سوداء ببنطال وحذاء أسود للجري، وحملت حقيبة جلدية قديمة فيها أوراقها الثبوتية، وخرجت لتواجه ضباب الفجر. تخيّلت كليوتيلد أنه ستكون هناك متقدمات أخريات لمنصب المعلّمة، وأرادت أن تكون أول متقدمة تجري مقابلة في ذلك الصباح. كانت واثقة من حصولها على الوظيفة. فخلال حياتها المهنية الطويلة كمعلّمة، لم تتقدم إلى أية وظيفة ولم تحصل عليها. لكنها قبل أن تقبل الوظيفة عليها أن تُقنع نفسها بأن ماريكيتا قرية هادئة يمكن أن تمضي فيها ما تبقى من أيام في حياتها، مكان تشعر فيه بالأمان، وكما كان يحلو لها أن تقول، مكان قريب من السماء.

للحظة شعرت بأن حالتها أثقل من المعتاد. ثمّ قالت لنفسها، أحاول خداع من؟ فلم يتغير مضمون الحالة منذ سنوات عديدة، بل هي نفسها التي تغيرت. إذ كبرت في السن، واعتراها الضعف. لم يكن يهمها مدى استقامة ظهرها عندما تمشي، أو كيف يبدو صوتها حازماً ومتسلطاً عندما توبّخ الأطفال الذين يسيئون السلوك ـ فقد كانت سيدة عجوزاً ضعيفة تخاف من أشياء كثيرة. كان الليل أكثر شيء تخشاه: عتمته التي تحدث فيها أمور مريعة؛ سكونه الطويل لم يكن شيئاً سوى غياب الأصوات التي كانت تريد أن تسمعها عن الأشباح التي تصيح والتي كانت تراها وتسمعها في كلّ زاوية

وركن، والحلم المروّع الذي ما فتئ يعاودها، يعذّبها ليلة بعد ليلة: حلم الرجال والدم والستائر المخملية الحمر.

بدأت الشمس تشرق غامرة كلّ شيء: الآجر الطيني الذي يكسو أسطح معظم البيوت، والبرك التي تشكلها مياه الأمطار في الشوارع غير المعبّدة، وعلى الشعر الأسود الطويل لسرب من الصبايا اللاتي يحملن على رؤوسهن سلالاً كبيرة فيها ثياب وسخة يأخذنها للغسيل وهن يغنين ويضحكن أثناء سيرهن. نظرن بفضول إلى كليوتيلد. كان الأشخاص الوحيدون الذين يأتون إلى ماريكيتا في هذه الأيام هم قارئات البخت، ومعالجات وطبيبات لا يحملن شهادات، وهاربات، وأسر مشرّدة، ونساء ضللن طريقهن. وفي بعض الأحيان، كانت تصل قافلة من التجار، دوابهم محمّلة ببضائع لم يعد للقرويات القدرة على شرائها أو لم يعدن يستعملنها ـ عطورات، كوكا كولا، شفرات حلاقة ـ لكن كذلك سلع أخرى لا يمكن الاستغناء عنها ـ فحم، شموع، كيروسين، مبيّض للقاضية، ونبيذ للخوري.

«صباح الخير يا سيدة»، قالت إحدى النساء.

«آنسة» قالت كليوتيلد مصحّحة، لكنها تكلّمت بهدوء شديد، ولم تسمعها المرأة. ومع ذلك، قالت كليوتيلد لنفسها إن النساء في ماريكيتا يتّسمن بالوّد والجد. انعطفت يساراً في الزاوية التالية ورأت من بعيد فتى وفتاة يمسكان كلباً يعوي. قرّرت أن تلقي التحية عليهما، تلميذيها المرتقبين. وبما أنهما يعيشان في قرية صغيرة، فسيخجلان ولا يشعران بالأمان، لذلك قرّرت أن تكون لطيفة معهما. وعندما اقتربت منهما، خفضت نظارتها ولاحظت أنهما حافيان وأنهما يرتديان ثياباً رثة. ولاحظت أيضا، بفزع، أن الفتاة تغلق فم الكلب بقوة بينما يدفع الصبي عصا في مؤخرته.

«ماذا تفعلان؟» صاحت كليوتيلد، وصفعت الصبي على ظهره. أطلق الصبي الكلب وركل ساق كليوتيلد، وقال صائحاً: «أيتها المرأة العجوز المجنونة». ثمّ هرب مع الفتاة وهما يضحكان بشدة. وأخذ الكلب يجري أيضاً، والعصا لا تزال عالقة في مؤخرته. تملّك كليوتيلد الغضب. جلست على الرصيف وراحت تتفحص ساقها. مجرد بقعة حمراء صغيرة. أملت في أن لا تزرّق، وأن لا تصاب برضوض بسهولة، لأنها امرأة عجوز.

التقطت حقيبتها الجلدية عن الأرض ومشت وهي تعرج وراحت تهشّ على القطط والكلاب الضالّة الكثيرة التي تجمّعت حولها، تستجديها شيئاً من الطعام. وعند ناصية الشارع التالية، انعطفت يميناً ورأت مجموعة من الأطفال شبه عراة متجمّعين بجانب شجرة مانغا، يدردشون. ظنت كليوتيلد أنهم يبدون أكثر تحضّراً من الطفلين الآخرين. أرادت أن تتحدث إليهم. خاطبتهم قائلة: «صباح الخير، أيها الفتيان والفتيات، كيف حالكم اليوم؟»

بدأ الأطفال يضحكون، ويهمس أحدهم للآخر.

«أليس هذا صباحاً جميلاً؟» قالت كليوتيلد وهي تنظر إلى السماء، وتبتسم بسعادة. كان صباح هذا اليوم جميلاً حقاً، «ما اسمك يا بني؟» سألت صبياً طويلاً يحك تحت إبطه.

نظر الصبي بسرعة إلى أصدقائه، وكأنه يبدي موافقته على ما قالته، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال لها: «اسمي فيتنام كالديرون، لكنهم يطلقون عليّ اسم ديابلو (الشيطان)». ولوى قسمات وجهه بشكل قبيح أمام كليوتيلد، وقال: «بوووووو»، وانفجر أصدقاؤه في الضحك.

«هذا سلوك غير مؤدّب يا بني»، قالت كليوتيلد بهدوء. في ظروف مختلفة، كانت ستمسك الصبي من أذنه، وتصفعه على وجهه، وتجعله

يركع أمامها ويعتذر لها، ثم تجعله يكتب: «يجب أن أحترم من يكبرني» مئة مرة. لكنها وصلت للتو إلى ماريكيتا ولا تعرف هؤلاء الفتيان أو أمهاتهم. حدّقت فيه طويلاً لكي تتذكر وجهه المكسو بالنمش إذا ما رأته مرة أخرى.

«أنا السنيورا كليوتيلد غوارنيزو»، قالت بصرامة، «ومن الممكن أن أكون معلّمتكم القادمة».

«لا نريد معلّمات هنا»، صاحت فتاة صغيرة من الخلف.

«اذهبي من هنا»، ردّد أحد الفتيان، وسرعان ما بدأوا يصيحون جميعهم بصوت واحد، «اذهبي من هنا، اذهبي من هنا».

«لشدّ ما أتمنى لو كان معي الآن مسطرة»، قالت كليوتيلد في نفسها.

«اذهبي من هنا، اذهبي من هنا».

رمقتهم بنظرة تشي بالاستهجان، ثمّ استدارت وأخذت تسير نحو الساحة. لم تمش بضع خطوات حتى أصابها حجرٌ صغيرٌ خلف رقبتها. أطبقت يدها اليمنى، والتفتت إلى الأطفال ورمقتهم بحدّة، واعترتها نوبة من الغضب فتضرّجت خداها. وقف الأطفال بجرأة وتحد، يحمل كلّ واحد منهم مقلاعاً، وشريطه المطاطي مشدود إلى الخلف، متأهبين لقذف المرأة العجوز بالحصى.

«أيها التعساء الصغار»، صاحت، ووضعت حقيبتها أمام وجهها لحمايته.

جاء تدبير الحماية هذا في وقته تماماً، لأنه سرعان ما بدأ وابل من الحجارة ينهمر عليها، تصيبها في ساقيها وعلى أطراف أصابعها البارزة من جانبي الحقيبة. صاحت بغضب، «أيها الأوغاد! أيها الرعاع». هرب الأطفال، وهم يضحكون، يهنّئ أحدهم الآخر على إصابته الهدف.

كانت كليوتيلد ترتجف غضباً. فإذا مكثت في هذه القرية ـ وأصبحت

تشك في ذلك كثيراً بعد هذه الحادثة ـ فإن أول ما ستفعله عندما تصبح معلّمة هو معاقبتهم على هذه الإهانة التي جرحت كرامتها. كانت تتخيّل طريقة معاقبتهم عندما ظهرت من ناصية الشارع خمس نساء متوسطات العمر، متشحات بالسواد، رؤوسهن محنية قليلاً، وأيديهن معقودة على صدورهن. وبينما كانت النساء يسرن، كنّ ينشدن بحماسة شديدة، نسخة محلية من أنشودة «هللويا الشكر لله». لا بد أنهن أمهات بعض هؤلاء الصغار الأوغاد، قالت كليوتيلد في نفسها، ورمقتهن بنظرة ازدراء. واصلت سيرها في الدرب غير المعبّد حتى أصبح إنشاد الأطفال الأشرار وأمهاتهم اللا مباليات صدى يتردد من بعيد.

كانت كليوتيلد المرشّحة الأولى والوحيدة التي جاءت لإجراء المقابلة في ذلك اليوم. لبثت جالسة بهدوء شديد في غرفة الانتظار في مكتب القاضية، والحقيبة الجلدية تقبع فوق حضنها. كانت يداها ترتعشان. كانت تثنيهما فوق الحقيبة، وقرّرت أن تتناسى الحادثة التي وقعت لها مع الأطفال، وأن تركّز على المقابلة. لكنها لم تستطع أن تركّز تفكيرها لأن سيسيليا غوارايا، سكرتيرة القاضية، لم تكن تكفّ عن لعن وضرب الآلة الكاتبة الصدئة التي ينزلق فيها الشريط من مكانه باستمرار. فكانت سيسيليا تصرخ، «اللعنة عليك، يا ابن الجرذ! يا خراء الخنزير».

بعد فترة انتظار طويلة، خرجت من مكتب القاضية امرأة ذات وركين عريضين، تحمل دلواً بيد، وتحمل باليد الأخرى مكنسة مصنوعة من أغصان الشجر. كان رأسها معصوباً بمنديل ملوّن، وكانت تضع مئزراً فوق ثيابها السوداء. فوجئت كليوتيلد. فإذا كانت القاضية قادرة على توظيف عاملة تنظيف، فهي قادرة على توظيف معلّمة ممتازة مثلي، قالت لنفسها،

وهي تهز رأسها. في غضون ذلك، وضعت المرأة معدات التنظيف بجانب طاولة سيسيليا، ومسحت يديها في مئزرها. لاحظت كليوتيلد أن مئزر المرأة ممزق وأن حذاءها بال، مما جعلها تعيد النظر في افتراضها السابق. قالت لنفسها ربما كنت مخطئة، فلعل هذه المسكينة تقبض راتباً لا يكاد يسد رمقها. ثمّ خطرت ببالها فكرة سيئة. انتظرت حتى تنظر المرأة إليها وتومئ لها بأن تدنو منها.

بدا الاضطراب على محيّا المرأة. نظرت إلى سيسيليا لترشدها ماذا تفعل، لكن السكرتيرة كانت منهمكة في عملها، لذلك اقتربت من كليوتيلد.

«كم تدفع لكِ لكي تنظفي مكتبها؟» همست لها كليوتيلد، مشيرة إلى مكتب القاضية.

«عفواً؟» قالت المرأة، وقد بدا عليها الشعور بالإهانة.

«كم تدفع لك القاضية من أجر؟» كرّرت كليوتيلد بمكر.

«أنا هي القاضية»، قالت المرأة.

غطت كليوتيلد فمها بأطراف أصابعها وضحكت بعصبية، وقالت: «أعتذر»، ثمّ أضافت وهي تنهض من الكرسي، «أنا كليوتيلد غوارنيزو، خادمتك المتواضعة».

«روزالبا أرملة باتينو»، قالت الأخرى بحدّة، «قاضية قرية ماريكيتا».

لم تصافح إحداهما الأخرى.

تملّك القاضية غضب شديد. فقد حذّرتها سكرتيرتها من المرأة الغريبة الجالسة في غرفة الانتظار، «يبدو أنها امرأة غريبة الأطوار»، قالت سيسيليا. لكن روزالبا قالت لنفسها، بعد أن وقفت أمامها، إن المرأة

العجوز غريبة الأطوار حقاً. «من فضلك، تفضلي من هنا»، قالت متساءلة متى وصلت هذه الغريبة، ومن أين جاءت، وأين تقيم، والأهم من كل ذلك، أنها هي، القاضية، لم يبلغها أحد عن ذلك. ماذا لو كانت الحكومة هي التي بعثت بالمرأة العجوز؟ ماذا لو كان أحداً، مفوّض من نوع ما، قد تلقى أخيراً التقرير الرسمي عن إحصاء السكان الذي أجرته القاضية منذ عهد بعيد، والذي جعلت سيسيليا تطبعه على الآلة الكاتبة، وأرسلته مع أي شخص، ومع كلّ شخص مرّ من ماريكيتا؟

«شكراً»، أجابت كليوتيلد، وهي تدلف إلى مكتب روزالبا. قرّرت المعلّمة، في عقلها، أن اللبس الذي حدث كان بسبب القاضية. فقد التقت بالعديد من القضاة ورؤساء البلديات من قبل، كما التقت بعدد من المحافظين. في حين لم تستقبلها شخصية مرموقة ترتدي ثياب خادمة. لم يعجبها هذا الأمر. وما فائدة كلّ خرق التنظيف هذه المكوّمة على حافة النافذة؟ وتلك الرائحة، أوف! كم استخدمت هذه المرأة من مزيل الأوساخ المبيّض على الأرضية؟

«تفضلي»، قالت روزالبا، وأشارت إلى كرسي مهلهل، تنبو منه الحشوة من الشقوق والثقوب، وأضافت «أخبرتني سكرتيرتي أنك جئت إلى هنا لتتقدمي لشغل وظيفة معلّمة».

«هذا صحيح».

«جيد. لنبدأ إذاً. هل لديك خبرة في التعليم يا سيدة غوارنيزو؟»

«آنسة، أيتها القاضية»، صحّحت لها المرأة العجوز، «نعم، ولديّ حوالي خمسين سنة من الخبرة في التعليم، يمكنك التحقق من سبعة وعشرين سنة منها من ملفي تحت البند المعنون (خطابات التوصية)».

«ممتاز، يا آنسة غوارنيزو، ممتاز»، قالت روزالبا، وقد أحسّت بشيء من الرهبة من صوت المعلّمة الأجشّ، وبسبب حقيبتها الكبيرة المعقدة التي بدأت كليوتيلد تنبش فيها بعناية فوق طاولتها المصنوعة من خشب الماهوغوني. كانت الوثائق منظّمة بدقة شديدة، مصنّفة في أقسام عديدة مرتبة حسب الأسماء، تتضمّن أسماء المدارس التي درّست فيها، والمواضيع، والفترات الزمنية، والجوائز، والأوسمة، وخطابات التوصية. وكان فيها أيضاً قسم كامل بالصور وسير ذاتية لأشخاص بارزين كانت قد درّستهم خلال السنوات السبع والعشرين الماضية ـ الذين أصبحوا الآن أطباء ومحامين ومصمّمي أزياء وملكات جمال.

«إني معجبة، يا سيدة غوارنيزو، لكن...»

«آنسة، أيتها القاضية»، قاطعتها المعلّمة، «بعد أن يمضي المرء سبعاً وستين سنة من العفة، فهو يريد أن ينادى بلقبه الذي يستحقه».

«أرجوكِ أعذريني، آنسة غوارنيزو. عندما أخاطب امرأة تكبرني سناً بالآنسة أشعر بالحرج». بعد أن أحسّت بأن ثقة السيدة العجوز بنفسها تطغى عليها، بذلت روزالبا جهداً كبيراً للعثور على كلمات تبدو فخمة مثل كلمات المعلّمة. «كما كنت أقول، فأنا شديدة الإعجاب بوثائقك الثبوتية خلال السنوات السبع والعشرين الماضية، لكن أين وماذا كنت تعلّمين في السابق؟»

«أيتها القاضية، لأسباب شخصية لن أتمكن من الإجابة على هذا السؤال». أثارت إجابة كليوتيلد فترة طويلة من الصمت غير المريح، التي كان على روزالبا أن تكسرها لأنها تظاهرت بأنها تقرأ بالتفصيل كلّ وثيقة من الوثائق الموجودة في ملفّ المعلّمة. «هل لديك أسئلة أخرى، أيتها

القاضية؟ أسئلة تتعلّق بخبرتي الأخيرة؟ سأكون أكثر من سعيدة للإجابة عليها».

«لنر»، قالت روزالبا، وأغلقت الملف. فكّرت جيداً بما ستسأله. لا بد أن يكون سؤالاً ذكياً، «هل لديك خطة عمل لتلاميذ ماريكيتا، يا آنسة غوارنيزو؟»

«سيسعدني كثيراً أن أضع خطة عمل عندما أحصل على الوظيفة، وفي هذه الحالة سأكلّم التلاميذ لتقييم مستوى معارفهم الحالي».

«ممتاز، لكن هل لديك فكرة عن المواضيع التي تريدين أن تعلّميها؟ لقد انقضى على ذهابي إلى المدرسة زمن طويل، حتى إنني لا أعرف ماذا يعلّمون هذه الأيام».

«أستطيع أن أعلّم الفنون واللغة والعلوم والرياضيات والدراسات الاجتماعية والجغرافيا والأخلاق بشكل ممتاز».

«وماذا عن تاريخ كولومبيا؟ هل تستطيعين أن تعلّمي تاريخ كولومبيا؟ كان الموضوع الأثير لديّ في المدرسة».

«يمكنني أن أعلّم هذا أيضا، أيتها القاضية، لكنني لا أعلّمه»، قالت كليوتيلد، ورفعت بسبابتها نظارتها الجاثمة فوق أنفها، «وقبل أن تسأليني عن السبب، سأخبرك بأن هذا الأمر يعود أيضاً لأسباب شخصية للغاية».

تساءلت روزالبا هل كانت كليوتيلد في السجن لمدة عشرين سنة. فلكي تُسجن عشرين سنة، لا بد أنها قتلت أحداً. أو لعلها أُودعت في مصح عقلي. لا بد أنها مجنونة. أو لعل الآنسة كانت رجلاً ثم تحولت إلى امرأة. وما يؤكد ظنها هو ذلك الشارب.

«حسناً» قالت القاضية، وهي تتطلع حولها لتتحاشى عيني المعلّمة

الثاقبتين، «لـ تلاميذنا معرفة مباشرة بالحروب الأهلية والمذابح. إن نصف تاريخ بلادنا هناك».

«وكم عدد التلاميذ الذين نتحدّث عنهم، أيتها القاضية؟»

فجأة فتحت روزالبا دُرجاً وأخرجت منه صفحة من الورق، وقالت: «حسب الإحصاءات السكانية الأخيرة، يبلغ عددنا الإجمالي تسعاً وتسعين نسمة، ويتبين منها ـ يزداد عدد الأطفال بسرعة كبيرة ـ هناك واحداً أو اثنين يجب نقلهما إلى فئة مختلفة. لنر: سبع وثلاثون أرملة زائداً خمساً وأربعين عذراء، ناقصاً... خفضت صوتها لكنها واصلت عملية الجمع والطرح. «خمسة عشر طفلاً»، أعلنت بعد قليل، «لكنني متأكّدة من أن حفنة من الصبايا سيبدين اهتمامهن أيضاً بتعلّم شيء أو شيئين. لذلك يمكنني أن أقول حوالي عشرين طالباً».

«عدد جيد جداً»، قالت كليوتيلد. في تلك اللحظة، لفتت انتباه القاضية ذرة غبار على الأرض. لم تعرف كيف أفلتت من مكنستها وممسحتها اللتين عملتا بقوة وبلا هوادة.

انتابتها الرغبة في التقاطها، لكن بسبب وجود كليوتيلد الطاغي، شعرت القاضية بالخجل والضعف.

«حسناً، يبدو أنك تفين بجميع الشروط التي أردت تحديدها لهذه الوظيفة»، قالت روزالبا، ولم تتوقف عن التطلع حولها. لم تعد تتحاشى كليوتيلد الآن فقط، بل أيضاً ذرة الغبار اللتين كانتا تحدّقان فيها بتحدٍ. «سأتخذ قراري النهائي خلال اليومين القادمين، ثمّ سأعلن النتيجة في بيان رسمي».

«أتطلّع إلى سماع قرارك، أيتها القاضية»، أجابت كليوتيلد، «وإني واثقة

من أنك ستأخذين بعين الاعتبار الفوائد العديدة التي تنجم عن أن يشغل هذا المنصب شخص لا يمتلك معارف شاملة فحسب، بل مؤهل أيضاً لتعليم الانضباط وحسن السلوك. إني واثقة بأنك تدركين أن هذه الخصال قد تلاشت بطريقة ما من أطفال هذه القرية و. . .».

«صدقيني يا آنسة غوارنيزو. أنا وسارجنت الشرطة ندرك تماماً هذا الأمر. وفي حقيقة الأمر، فإن ذلك هو السبب الرئيسي الذي يدفعنا لإعادة فتح المدرسة. تأكدي تماماً من أنني سآخذ ذلك في عين الاعتبار قبل اختيار المعلّمة الجديدة. والآن، أرجو أن تعذريني، فجدول أعمالي مليء اليوم».

ابتسمت كل من المرأتين للأخرى ابتسامة متصنعة.

ثمّ حدث شيء غريب. فما إن نهضت كليوتيلد عن الكرسي الحزين، حتى أصبح وجهها على مستوى صورة رئيس الجمهورية المؤطرة المعلقة على الجدار وراءها. ذُعرت القاضية عندما لاحظت أن لكليهما الابتسامة الخبيثة ذاتها. كما بدا لها أن طول كليوتيلد قد ازداد بضع بوصات أثناء المقابلة. في الواقع، بدت المعلّمة أطول من أيّ امرأة أو رجل رأته روزالبا في حياتها.

«أتمنى لك يوماً سعيداً، آنسة غوارنيزو»، تمكنت من القول، متظاهرة بأنها تدوّن ملاحظات في دفتر مقلوب رأساً على عقب.

عندما خرجت كليوتيلد من مكتبها، التقطت القاضية ذرة الغبار من الأرض وتخلّصت منها. «ما مشكلتي؟» قالت، «يجب أن أخجل من نفسي حين أسمح لعانس عجوز تثير مخاوفي في مكتبي». كانت آخر مرة انتابها هذا الشعور عندما كانت في السادسة عشرة، عندما حوّلت زوجة أبيها الشرّيرة حياتها إلى حياة مليئة بالبؤس.

لكن روزالبا لم تعد شابّة ساذجة. «لا، لم أعد شابّة ساذجة». بل امرأة حكيمة ومحنّكة وذات خبرة. «إنني امرأة حكيمة ومحنّكة وذات خبرة». رفضت أن تشعر بالتهديد من عانس عجوز غريبة الأطوار جاءت إلى مكتبها لتظهر غرورها، وتدّعي أنها أذكى وأكثر ثقافة من القاضية نفسها. «كيف تجرؤ على المجيء إلى مكتبي وهي متشحة بالسواد مع أنها ليست أرملة لأحد، وتنتعل حذاء جري وهي لا تكاد تقدر على السير؟»

طلبت روزالبا من سيسيليا معرفة كلّ شيء يمكن معرفته عن هذه الأجنبية الغامضة.

بعد المقابلة ذهبت كليوتيلد إلى السوق. جلست إلى طاولة صدئة تحت خيمة كانت الأرملة موراليس وابنتها خوليا ـ التي كانت تُعرف سابقاً بابنها خوليو سيزر ـ يقدمان وجبات طعام ووجبات خفيفة. تجاهلت كليوتيلد الأرملة ونظرات الفتاة الفضولية نحوها وطلبت وجبة إفطار. بينما كانت تنتظر طعامها، تذكّرت ما جرى لها مع الأطفال وتساءلت هل ستشغل هذه الوظيفة ـ لم تكن تشكّ في أن القاضية ستعرض عليها هذه الوظيفة ـ وتبقى في هذه القرية. فقد كان يروق لها كثيراً أن تعيش في قرية نائية تخلو من الرجال، لكن سلوك الأطفال أزعجها كثيراً، وكذلك سلوك أمهاتهم اللاتي تصرّفن وكأن ذلك لا يثير قلقهن.

وضعت خوليا موراليس فنجاناً من القهوة السوداء يتصاعد منها البخار أمام كليوتيلد، ثمّ اتجهت إلى الشواية ووضعت نصف رغيف خبز أريبا نصف مخبوز فوق النار الخفيفة. لاحقتها المرأة العجوز بعينيها، وقالت لنفسها إنها فتاة شابة غريبة الأطوار. لعل الإفراط في تبرّجها وزينتها هو الذي جعلها تبدو غريبة الأطوار. أخذت رشفة من القهوة، وراحت تتطلع حولها

إلى السوق، محاولة إيجاد شيء إيجابي يجعلها تغيّر الفكرة التي كوّنتها عن ماريكيتا. حوالي ست خيام بهت لونها تتناثر فوق مساحة من الأرض. كان أهالي القرية يبيعون سلعهم أو يقايضون بها تحت هذه الخيام ـ شموع، فحم، كيروسين أبيض، أطعمة ومشروبات جاهزة. وبين الخيام، كانت البطاطا والبصل وأكواز الذرة والبرتقال ملقاة فوق أكياس فارغة ممدودة على الأرض. لا توجد تنويعة كبيرة من السلع، قالت كليوتيلد لنفسها، لكنّها رأت أسوأ من ذلك بكثير. وفي وسط السوق، كانت هناك نار طهي مكشوفة تشتعل بشكل متقطع، وتقف بجانبها امرأة عجوز تبدو عليها أمارات الجنون تتكئ إلى قِدر معدني مليء بالماء، تحرّكه والعرق يتفصد منها؛ وعلى مسافة قريبة منها، يقف حمار صغير يلتهم حزمة من أوراق نباتات جافة، بينما تطوف الكلاب والقطط باحثة عن شيء تتناوله. وبغتة ظهرت من الناصية حفنة من الأطفال الذين يشبه أحدهم الآخر، يركضون. عرفت كليوتيلد واحداً منهم على الفور، فيتنام كالدرودن، «الشيطان».

«اصطدنا واحداً! اصطدنا واحداً!» صاح الصبية بحماسة شديدة، وتجمهروا حول المرأة التي يبدو عليها الجنون وأعطوها مخلوقاً يشبه الطير اصطادوه للتو بمقاليعهم. ابتسمت بفمها الذي يخلو من الأسنان، وغمست الطير في الماء الحار، ثم أخرجته وبدأت تنتف ريشه، بينما أخذ الأطفال يروون قصصاً مختلفة بصوت مرتفع كيف اصطادوا الطير.

«إنهم أطفال طيبون»، قالت الأرملة موراليس، بعد أن لاحظت نظرة الازدراء التي تنظر فيها كليوتيلد إلى الأطفال، «إنهم يذهبون ويجلبون شيئاً للأرملة جاراميليو كي تضعه في قِدرها. هذه المرأة المسكينة نصف مجنونة ولا من أحد يعتني بها»، وهزت رأسها عدة مرات وهي تردد، «إنهم أطفال طيبون للغاية».

«إنهم همجيون، هذه هي حقيقتهم»، قالت كليوتيلد بقسوة وصرامة. وتمنّت أن تكون الأرملة أمّ واحد منهم. ولو كانت أماً لواحد منهم، فإن كليوتيلد ستلقنها درساً.

اقتربت أرملة موراليس أكثر من كليوتيلد وكلمتها بصوت منخفض، «هل ترين الصبيين هناك، إلى يمين الحمار الصغير؟ الأطول فيهما يدعى تروتسكي، والآخر فيتنام. لقد أُرغم هذان الصبيان المسكينان على رؤية أبويهما يقتلان أمام عيونهما على يد الثوّار».

صدمت المعلومة التي قالتها الأرملة كليوتيلد. عقدت جبينها وراحت تقضم أظافرها، ثم قالت: «سآخذ الرغيف الآن». التفتت خوليا وأومأت لأمّها بأن الرغيف لم ينضج تماماً بعد. فقالت الأرملة: «لكنه لم ينضج بعد».

«حسناً»، قالت كليوتيلد، «أعطيني إياه هكذا». رمقتها خوليا بنظرة ساخرة، وقلبت شواية الذرة وانتظرت حتى ينضج فترة أطول. لكن كليوتيلد لم تر ذلك لأن عينيها كانتا مثبتتين على الأطفال، وقالت: «يبدو أن أمهاتهم لا يبدين اهتماماً كبيراً بهم».

«قد يكون هذا صحيحاً يا سيدتي»، أجابت الأرملة موراليس، «لكن الله يعلم أن هؤلاء النساء الفقيرات يعملن ليل نهار لكي يتمكّن من وضع قطعة خبز على موائدهن»، ثم أطلقت تنهيدة، وقالت: «ليس من السهل أن تكون المرأة أرملة. إني واثقة من أنكِ تعرفين ذلك».

«لا، لا أعرف»، أجابت كليوتيلد، «وقبل أن أفقد أعصابي، دعيني أسألك سؤالاً آخر، هل يمكنني أن آخذ رغيفي الآن؟»

اتجهت الأرملة إلى الشوّاية ووبّخت ابنتها لعدم سماعها ما طلبته، ثم

وضعت الرغيف في صحن ووضعته أمام المرأة العجوز. ثم قالت: «أنا فيكتوريا أرملة موراليس»، ومدّت يدها نحو كليوتيلد.

«سأتناول مزيداً من القهوة»، أجابت كليوتيلد بوقاحة، وخبطت الفنجان الفارغ فوق يد الأرملة الممدودة.

بينما راحت تتناول طعام فطورها، فكرت كليوتيلد بالملاحظة التي أبدتها الأرملة موراليس. لعل أطفال ماريكيتا لا يدركون أنهم أشرار. لعل الحرب وأعمال العنف التي رأوها كل ذلك جعلهم غير مدركين لما يسببونه من ألم للآخرين. معظم القتلة بدؤوا هكذا؛ يؤذون حيواناتهم، ويرشقون النساء العجائز العزّل بالحجارة، وقبل أن يدركوا ذلك، يطلقون النار بأسلحتهم ويقتلون الناس بأبشع الطرق وأشنعها، لأن الأوغاد لم يزعجوا أنفسهم ويتعلموا كيف يقتلون. لكن بوسع كليوتيلد أن تنقذهم من مستقبل مريع كهذا. فإذا حصلت على الوظيفة، يمكنها أن تعلّمهم الانضباط وحسن السلوك وتجعلهم مواطنين شرفاء. أما الأمهات، فقد قرّرن أنهن مجرد ريفيات جاهلات يعتبرن أن مسؤوليتهن الوحيدة تكمن في توفير الطعام لأطفالهن. ولو اختارت كليوتيلد الإقامة في ماريكيتا، فإنها ستقدم لهنّ نصائح في أساليب التربية.

كانت أرملة موراليس قد ذهبت عندما أنهت كليوتيلد تناول طعامها. كانت خوليا تجلس وحدها على طاولة صغيرة في الخلف، تقشّر بطاطا حمراء كبيرة. «كم المبلغ؟» سألتها كليوتيلد. كانت تأمل في ألا يتجاوز المبلغ خمسمائة بيزو، لأنه لم يعد لديها الكثير من النقود.

لكن خوليا لم تكن تفكر بالنقود. فقد اتجهت نحو طاولة كليوتيلد، وراحت تتفحصها بدقة لتعرف هل كانت تحمل أشياء ثمينة. أشارت إلى خاتم ذهبي في يد المرأة العجوز اليمنى.

«عفواً؟» قالت المعلّمة غاضبة، «لا يمكنك أن تحددي سعراً لهذا الخاتم يا عزيزتي. إنه هدية من أمّي، ولم أخرجه من إصبعي قط».

خفضت خوليا رأسها وراحت تعدّ على أصابعها، ثمّ قالت إنها مستعدة لأن تقدم لكليوتيلد ثلاث وجبات من الطعام كلّ يوم طوال خمسة عشر يوماً لقاء هذا الخاتم.

نظرت كليوتيلد إلى الخاتم. فلو قرّرت البقاء في ماريكيتا، يكون عرض خوليا جديراً بالتفكير. لكن الخاتم هو صلتها الوحيدة بماضيها. لكنه أيضاً صلتها الوحيدة بذلك الحلم الفظيع والمتكرّر عن الرجال والدم والستائر المخملية الحمر. قالت: «قدّمي لي ثلاث وجبات من الطعام يومياً لمدة شهرين، ويصبح الخاتم لك. إنه من الذهب وعياره أربعة وعشرون قيراطاً».

اقتربت خوليا من المعلّمة وانحنت لترمق الخاتم عن قرب: كان على شكل ثعبان، وله محجران حمراوان صغيران مثل عينين. لم تر خوليا شيئاً كهذا في حياتها. حسناً، طوال شهرين، أومأت وأطلقت زفرة طويلة.

بعد أن تصافحتا على اتفاقهما، بدأت كليوتيلد تنزع الخاتم من إصبعها، لكنه لم يخرج. أحضرت خوليا، التي تصبح نشيطة عندما تريد، صفيحة من القصدير يحتفظن فيها بشحم الخنزير القديم النتن لإعادة استخدامه. غرفت من الصفيحة قليلاً من الشحم، وفركته حول إصبع كليوتيلد، وحاولت إخراج الخاتم. في تلك اللحظة، بينما كانت خوليا تحاول فتله وشدّه، أحست كليوتيلد بأن ذاكرتها تُعصر، ويتدفق منها مزيج من الصور المبهمة: رجال غاضبون، مناجل، خاتم ذهبي، أزهار مخملية، دم، صرخات. لكن سرعان ما بدأت الذكريات تتجمع، ببطء وبوضوح، وتحوّلت إلى ذكريات حيّة عن أشد الحوادث إيلاماً في حياتها.

مثل فيلم يُعرض مراراً في رأسها، رأت كليوتيلد قرية صغيرة فيها بيوت بيضاء مسقوفة بآجر طيني اللون، وباحات أمامية مليئة بالأزهار المخملية الذهبية المتلألئة. وتذكّرت أن القرية تدعى سان جيل. هناك، في منزل صغير، كانت تعيش شابّة تدعى ميلاغرو مع والديها وإخوتها. كانت معلّمة مادة التاريخ، معلّمة جيدة تستطيع أن تتحدث عن جميع الحروب الأهلية التي نشبت في بلدها وكأنها شاركت فيها جميعاً، وكانت تروي، سنة بعد سنة، الصراع الذي لم يحسم بين الحزبين السياسيين التقليديين.

وذات ليلة، كانت تجلس على درجات بيتها عندما رأت مجموعة كبيرة من الرجال المدججين بالمناجل يندفعون إلى الشارع الذي يقع فيه بيتها، وهم يهتفون شعارات مناوئة لليبراليين. ركضت إلى داخل البيت واختبأت وراء ستارة مخملية حمراء. وسرعان ما اقتحم الرجال بيتها وحشروا أفراد أسرتها في غرفة الجلوس. ومن مخبئها، رأت ميلاغرو الرجال يسبلون عينيّ أبيها، ويقتلعون أظافر أمّها قبل أن يقطعوهما إرباً إرباً. ثم قطع الرجال رؤوس إخوتها الصغار وقطّعوا أجسامهم إلى قطع صغيرة. وقبل أن يغادروا، سمع أحد الرجال صوت شهقات ميلاغرو. وجدها ترتعش وراء الستائر ويداها تغطيان فمها. ضحك ومدّدها على الأرض. لم تُبدِ ميلاغرو أي مقاومة. استرخى جسدها كله باستسلام، وراحت تحدّق في الفراغ وراءه، وكزّت على أسنانها بقوة. مزّق تنورتها، ضمت ساقيها بقوة. صفعها على وجهها، فتشنج جسدها. أطبق بفمه على فمها، وولجها بعنف، ظلت مستلقية هامدة دون حركة، تصرّ على أسنانها. وعندما فرغ منها، رأى خاتماً ذهبياً في إصبعها. أمسك يدها وراح يسحب الخاتم من إصبعها، لكنه لم يخرج. استشاط غضباً وراح يلعنها ويشدّه بقوة أكبر في

كل مرة، لكن من دون جدوى. أخذ يكيل لها اللعنات والشتائم، وهو يبرمه ويشدّه من إصبعها.

«توقّفي»، صاحت كليوتيلد بخوليا التي كانت لا تزال تحاول إخراج الخاتم من إصبع المرأة. أصبح جسم كليوتيلد يرتعش الآن. رجعت إلى الوراء بضع خطوات وتطلعت حولها، وسَعَتْ جاهدة لإعادة نفسها إلى الحاضر. لاحظت الناس بالقرب منها، ولون السماء، وأشكال الأشياء. استمعت إلى صوت تنفسها الثقيل، وإلى تغريد الطيور وعواء الكلاب. لمست ذراعيها ووجهها وشعرها، وفركت راحتي يديها على أطراف ساقيها لتشعر بثيابها. وفجأة، أخذت تخبط بقدميها على الأرض، وتصيح دون أن تخاطب أحداً معيناً، «لقد حدث هذا منذ زمن بعيد، وتمكنت من العيش. لقد ظلت ميلاغرو على قيد الحياة».

نهضت خوليا وابتعدت عن كليوتيلد، وقد خيّل إليها أنها أمام امرأة مجنونة، ببطء ومن دون أن تبعد عينيها عنها.

غاصت كليوتيلد في الكرسي الذي نهضت منه، وأغمضت عينيها، وتركت ما تبقى من ذكرياتها تأخذ شكل صور وأصوات وروائح، وأحاسيس ومشاعر الجسد، وتفقد صوابها إلى الأبد.

لقد رأت ميلاغرو تبكي وهي تدفن أجساد أقربائها في الفناء الخلفي لبيتها. ورأتها تنضم إلى مئات اللاجئين النازحين من قرى عديدة هاربين إلى أماكن أكثر أماناً. ثمّ رأت ميلاغرو تقصّ شعرها قصيراً وسمعتها تغيّر اسمها ليصبح كليوتيلد غوارنيزو. وباسم كليوتيلد، انتقلت من قرية إلى قرية بعد أن أصبحت تمقت الرجال، وتعلّم الأطفال تاريخ الأمة الذي تحفظه عن ظهر قلب. كانت تتمتع بذاكرة هائلة. لكن عندما كان أحد

يسأل كليوتيلد عن مسقط رأسها، أو عن أسرتها، أو عن سبب كراهيتها للرجال، لم تكن ذاكرتها تسعفها جيداً. ولم تكن تتذكّر شيئاً عن ماضيها.

«إنها شاحبة». «إنها ترتجف». «ربما يجب أن نطلب الممرضة». كانت المرأة العجوز تسمع أصواتاً خافتة مختلفة قادمة من بعيد، وهمسات يبدو أنها تنبعث من لا مكان. «أظن أنها تحلم». «يا سيدتي، استيقظي». هل ينتمون إلى ماضيها أم إلى حاضرها؟ «من هي على أي حال؟» «إنها مسافرة. إنها تقيم مع عائلة سافيدرا». «أظن أنها متجهة إلى دورادو، أو ربما إلى هوندا».

وتذكّرت كليوتيلد الآن أنها عندما بلغت السابعة والثلاثين من العمر (أو لعلها كانت في الثامنة والثلاثين)، قررت أن تستقر في دورادو (أو ربما كانت هوندا). وسرعان ما وجدت عملاً في مدرسة محترمة قدمت لها كتاباً دراسياً محدّثاً عن التاريخ لتدّرسه. وعندما بدأت تحضّر دروسها، أدركت كليوتيلد المسكينة أنها رأت بنفسها بعض الأحداث التاريخية المأساوية التي ستدرّسها: الحرب الأهلية السياسية التي وقعت في عام ١٩٤٨ والتي تُعرف باسم «أعمال العنف»، التي حرّضت عليها الطبقات الحاكمة، فخرج آلاف الفلاحين المدججين بالمناجل وراحوا يذبحون الفلاحين الآخرين (قطع الليبراليون رؤوس المحافظين، وذبح المحافظون الليبراليين)، والدكتاتورية العسكرية التي أعقبتها. ووردت في الكتاب قصص عن الفوضى والألم والجوع والخراب، مدعمة بصور مرعبة وشهادات أدلى بها أشخاص مثل كليوتيلد، رأوا أسرهم وأصدقاءهم يُقتلون ويُشوّهون. وفي الحال توقّفت كليوتيلد عن تعليم التاريخ الكولومبي، وسرعان ما وجدت نفسها تتنقل ثانية من قرية إلى قرية، هاربة من ماضيها، متفادية الحروب الأهلية الجديدة

التي لم تنته في هذه البلاد، وأصبحت تحتقر الرجال، ولا تني تحلم ذلك الحلم المروّع. ثمّ وصلت في إحدى الليالي إلى ماريكيتا.

ولم تعد الذكريات تخيفها، بالرغم من حدّتها. وعاد تنفّس كليوتيلد إلى الانتظام، وظهر على خدّيها لون وردي ينم عن صحة وافرة. فتحت عينيها ورأت عدداً من الوجوه تتحلّق حولها. «هل أنت على ما يرام؟» سألتها أرملة موراليس، «إنك ترتجفين».

«إنها تتنفس بصعوبة»، أضافت فرانسيسكا أرملة غوميز. هزت النساء رؤوسهن.

نهضت كليوتيلد وبدأت تتحرّك على نحو غامض بين النساء، تنقّل نظراتها من امرأة إلى أخرى، وقسمات وجهها تخلو من أي تعابير. قالت: «أنا على ما يرام. أنا في صحة جيدة، شكراً». وبعد أن سمعن ذلك، عادت النساء إلى خيامهن.

«أين الفتاة؟» سألت كليوتيلد الأرملة موراليس، «ابنتك. أين هي؟» أشارت الأرملة إلى الطاولة الخلفية، حيث كانت خوليا تقطع شرائح البطاطا. سارت كليوتيلد نحوها، وقالت لها: «لديّ شيء يخصُّك ياخوليا». واستلّت الخاتم من إصبعها بحركة واحدة سلسة، ووضعته على الطاولة بجانب يد الفتاة. وهمست قائلة: «الحرارة»، إن أصابعي تتوّرم في الحرارة».

وضعت خوليا الخاتم في إصبعها الوسطى، ورفعت يدها أمام كليوتيلد لتراه، ملمحة إلى أن الخاتم أعجبها حقاً. ابتسمت كليوتيلد، ثمّ بدأت تسير في شارع تظلّله أشجار المانغا، تلاحقها العيون العديدة التي ترمقها بريبة من الخيام والزوايا.

في هذه الأثناء، ناقشت روزالبا في مكتبها مسألة هل عليها أن تمنح كليوتيلد الوظيفة. كانت قد أجْرت حتى الآن مقابلات مع أربع مرشّحات أخريات في ذلك الأسبوع، ولم يكن لدى أية واحدة منهن ملفاً، أو سيرة ذاتية، أو حتى أية خبرة في التعليم. وكانت من بينهن مانوليا موراليس، التي جاءت إلى المقابلة مرتدية سروالاً قصيراً وخفاً وكانت تملأ شعرها لفائف عديدة. وعندما سألتها روزالبا، «ما الذي يجعلك تظنين أنك مؤهلة لشغل هذه الوظيفة؟» أجابت مانوليا، «أعرف القراءة والكتابة وأستطيع أن أردد حروف الأبجدية وهي معكوسة أسرع من أي شخص أعرفه». وكانت المرشّحة الأخرى، فرانسيسكا أرملة غوميز، قد جلبت معها خنزيراً هزيلاً حياً. وبعد مشادّة عنيفة مع سكرتيرة روزالبا، أدخلت فرانسيسكا الحيوان الصاخب المزعج إلى مكتب القاضية وعرضته عليها لقاء منحها الوظيفة.

في رأي القاضية، لم يكن لديها أدنى شك بأن الآنسة غوارنيزو هي المتقدمة الوحيدة القادرة على شغل هذه الوظيفة. فهي امرأة واثقة من نفسها وتتمتع بخبرة طويلة؛ بل ربما كانت واثقة من نفسها كثيراً وتتمتع بخبرة أكثر من اللازم. ماذا لو كانت تريد أن تفرض شروطها على القرية؟ ماذا لو كانت تطمح سراً في أن تصبح قاضية؟ بالإضافة إلى ذلك، لم تكن روزالبا تعرف شيئاً عن مكان وجودها قبل عام ١٩٧٣، والسبب الذي جعلها ترفض تدريس التاريخ الكولومبي. شعرت روزالبا بالتهديد إلى حد أنها نسيت أن تسأل كليوتيلد أهمّ الأسئلة، مثل «من أين أنتِ؟» «هل لديكِ أقرباء أحياء؟» «وهل أنتِ خنثى؟»

في صباح اليوم التالي، وصلت روزالبا إلى مكتبها في وقت أبكر من المعتاد، وعلى الفور شرعت في تنظيف المكتب. كانت قد عرفت،

بواسطة سكرتيرتها الثرثارة، أن كليوتيلد غوارنيزو، وصلت إلى القرية منذ ليلتين، وأنها تقيم في بيت لوكريسيا وفيرجيلينا سافيدرا. وأن أصل المرأة غير معروف، لكن روزالبا كانت صممت على أن تعرف ذلك من المعلّمة نفسها. لذلك، دعت كليوتيلد مرة أخرى لمقابلتها. لكنها عزمت على أن تسيطر على الوضع هذه المرّة، لتقود هي المقابلة، وتطرح الأسئلة وتطلب الإجابات التي تريدها هي. وكانت قد تدرّبت على حديثها التمهيدي في البيت، أمام مرآة كبيرة معلّقة في غرفة نومها، ثم في المكتب أمام سيسيليا.

عندما وصلت كليوتيلد، كان مكتب روزالبا نظيفاً لامعاً، وكانت قد أزالت صورة رئيس الجمهورية عن الجدار. وبدت القاضية أنيقة في ثوبها الأسود ذي الأكمام الطويلة والياقة المخرّمة، وكان شعرها ملموماً في شكل شينيون في مؤخرة عنقها على الموضة القديمة،.بدت أنيقة أكثر من قبل. أما كليوتيلد فكانت ترتدي بنطالاً أزرق سماوي اللون، وحذاء جلدياً طويلاً مدبّباً، ودخلت إلى المكتب بخطوات واسعة قوية. جلست منتصبة الظهر أمام طاولة القاضية، وساقاها منفرجتان قليلاً.

بدأت روزالبا حديثها بثقة شديدة: «إنك واحدة من مرشحتين على القائمة النهائية لهذه الوظيفة يا آنسة غوارنيزو. يجب أن أعترف بأن ملفك قد أعجبني كثيراً. لا يمكنني أن أفكر بمرشّحة أفضل منك لشغل هذه الوظيفة. لكن لديّ مشكلة صغيرة، لأنه بلغني أنك تقيمين في ماريكيتا بصورة رسمية، ولا نعرف الكثير عن حياتك السابقة... توقّفت لتتيح لكليوتيلد الفرصة لتكشف عن بضعة تفاصيل عن حياتها الغامضة.

لكن كليوتيلد لم تكشف شيئاً. بل ثبّتت عينيها على القاضية، فجعلت روزالبا تثبّت عينيها على يديها المرتعشتين المستندتين إلى حضنها. جلستا

صامتتين، حتى تابعت روزالبا كلامها، «كما يمكن لك أن تفهمي، فإن تعليم أطفالنا أمر حيوي بالنسبة لنا في ماريكيتا». لم تتذكّر أيّ سؤال من الأسئلة التي كانت قد أعدتها لتطرحها على كليوتيلد، «لا أشكّ للحظة واحدة في أنك ـ مثقفة ولك خبرة جيدة، لكنني أتساءل فقط، أودّ أن أعرف. حسناً، نودّ أن نعرف، فأنا أمثّل صوت أهل القرية».

في تلك اللحظة، تسلل شعاع من نور الشمس من النافذة إلى الغرفة وأضاء وجه كليوتيلد بوهج مميّز. ورأت القاضية هذه المرّة امرأة محترمة في السابعة والستين من عمرها. لا بد أن شعرها الأشيب، وخط شاربها الناعم، وشعرها الأبيض الخشن، ويدها المطبقة، وعبوسها الدائم، تعود جميعها إلى ماضي تلك المرأة الغامض، ماض لم يكن يحظى بقدر كبير من الاحترام.

كنا نتساءل هل ـ هل تريدين شغل الوظيفة. هل تريدين أن تشغلي الوظيفة يا آنسة غوارنيزو؟» سألتها روزالبا.

استغرقت كليوتيلد عمراً طويلاً لمواجهة مخاوفها، لكنها استغرقت يومين فقط لقبول الواقع بأنه بالرغم من فقرها والفوضى التي تغمرها، والأطفال الطائشين الجامحين، وأمهاتهم اللا مباليات، وقاضيتها غير الكفوءة العاجزة، فإن ماريكيتا هي أقرب مكان إلى السماء تستطيع أن تعيش فيه. اليوم، وللمرة الأولى في حياتها، أحسّت أنها مستعدة لأن تزف نفسها إلى شيء ما، أيّ شيء كان.

«نعم أقبل»، أجابت بحزم.

أنخيل ألبيرتو تاماكا، ٣٥ سنة، قائد من الثوّار

مشينا أياماً عديدة، ونفدت منا جميع إمداداتنا من الطعام. وقبيل الغروب، صادفنا كوخاً صغيراً سقفه مصنوع من القشّ. ظننت أنهم سيقدمون لنا شيئاً من الطعام. فتحت امرأة ضخمة الجثة، متوسطة العمر، الباب قبل أن نقرعه، كما لو كانت تنتظرنا، وعادت ودخلت دون أن تنبس بكلمة. تبعناها. كان البيت يتألف من غرفة واحدة معتمة صغيرة، فيها سرير واحد. كانت تفوح منها رائحة حيوان نافق. وكان هناك رجل ممدّد على الأرض أمام الجدار، غُطّي جزء منه بملاءة بيضاء، والجزء الآخر يكسوه ذباب أخضر. كانت المرأة تضع كمادات على وجهه. كان قد ضُرب ضرباً مبرحاً.

«لقد قتلوا الخنازير والدجاجات وتناولوا الطعام كله»، قالت لنا، ولم يكن هناك أي أثر للاستياء على وجهها.

«من فعل ذلك؟» سألتُ.

«القوات شبه العسكرية. من غيرهم؟ لقد اتّهموا زوجي بأنه يتعاون مع الثوّار. انظر ماذا فعلوا به»، وكشفت عنه الملاءة. كانت ذراعا الرجل معقودتين فوق بطنه. وكانت اليدان مقطوعتين، وكانتا ملفوفتين بخرق مشبعة بالدماء مربوطة بخيط.

«هسس»، قالت للرجل، «سيكون كل شيء على ما يرام»، وغطّت ذراعيه بالملاءة بلطف.

اقتربت من الرجل وتحسست النبض على رقبته. كان ميتاً. كان قد مات منذ ساعات، «يا سيدتي»، قلت، «لقد مات هذا الرجل»، ثم أضفت، «أنا آسف».

بللت المرأة الخرقة في الماء، وعصرتها وراحت تمسحها فوق وجه الرجل، «سيكون على ما يرام»، كرّرت وارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة، وبدأت تهش الذباب.

«سيدتي»، حاولت ثانية، «هل سمعت ما قلته للتو؟»

«أخشى ألاّ يكون لديّ قهوة أقدمها لكم»، قالت مخاطبة الرجال الواقفين خلفي، «أترون، لقد قتلوا الخنازير والدجاجات وأكلوا كلّ الطعام».

رسمنا شارة الصليب وغادرنا بصمت.

الفصل الخامس

الأرملة التي عثرت على ثروة تحت سريرها

ماريكيتا، ١ آب/
أغسطس ١٩٩٦

كان الحلم جلياً مفعماً بالحيوية إلى حد جعل فرانسيسكا أرملة غوميز تحسّ بخيبة أمل كبيرة عندما أفاقت منه. فقد رأت فيما يرى النائم أنها في المطبخ، تعدّ حساء من شحم الخنزير للعشاء، عندما سمعت جرس الكنيسة يقرع بلا توقف. جرت إلى النافذة، ورأت من مسافة بعيدة رتلاً لانهاية له من شخوص رجال يهبطون الجبل ببطء باتجاه القرية. لقد عاد رجال ماريكيتا من الحرب!

بشعور بالالتزام بواجباتها الأخلاقية أكثر من سعادتها بعودة زوجها الوشيكة، خرجت فرانسيسكا للقاء زوجها. وقفت تحت شجرة المانغا في الشارع وراحت تنتظر وصوله. عندما اقتربت تلك الشخوص من بيتها، لاحظت فرانسيسكا أمرين اثنين: فقد خلت وجوه جميع تلك الشخوص من أية قسمات وملامح، وباستثناء قبعاتها القماشية الزيتونية اللون، وأحذيتها الطويلة التي تصل إلى الركبة، كانت عارية، ذات قضبان صغيرة وخصيات ضخمة. تساءلت كيف يمكنها أن تميّز زوجها فينسيتي؟ تذكّرت

وجود ندبة صغيرة مثل نجمة ذات خمسة رؤوس على الجانب الأيمن من جبينه. إلا أنهم جميعا كان لهم ذلك السطح المستوي الشاحب مكان الوجه. كانت الشمس قد آذنت للغروب، عندما وقفت هناك، تراقب تلك الشخوص الغامضة التي تسير في الشارع، وراحت تضحك بتوتر وعصبية.

كان فصل ماطر آخر قد بدأ، وبدأ سقف بيت فرانسيسكا يرشح بالماء من جديد. أخرجت نونية من تحت سريرها، ووضعتها بجانب الخزانة حيث يتسرب الماء من السقف، وراحت تراقب كيف تمتزج قطرات المطر ببولها، محدثة فقاعات صغيرة جداً. وتذكّرت أن اليوم هو أول يوم في الشهر، فرسمت الفكرة ابتسامة على وجهها. وبحماسة ظاهرة، أخرجت من دُرج الطاولة الصغيرة المركونة بجانب السرير، كيساً من القماش فيه كتاب تنبؤات قديم بعنوان «فيريتاس»، يحتوي على ألف رسالة تنبؤية. لا يمكن الرجوع إلى كتاب «فيريتاس» إلا في أول يوم من كلّ شهر، باتباع خطوتين بسيطتين: الأولى، صياغة سؤال واضح أثناء قراءة الكتاب. والثانية، أن تختار، بشكل عشوائي، كرة صغيرة مرقّمة من الكيس الذي يضم ألف كرة منها. ويطابق الرقم المختار الرسالة التي تجيب على سؤاله. حملت فرانسيسكا كتاب «فيريتاس» والكيس إلى كرسيها الهزاز القديم وجلست، ثم رفعت الكتاب من حضنها بكلتا يديها، وقالت تخاطبه بصوت مرتفع: «فيريتاس، أخبرني ما السرّ للوصول إلى السعادة؟» كانت تطرح السؤال عينه كلّ شهر في السنوات القليلة الماضية. وكانت الإجابات جميعها غامضة وغير واضحة، مكتوبة بلغة إسبانية قديمة تمكنت فرانسيسكا من قراءتها بصعوبة. لكنها كانت تجد كتاب فيريتاس مسلّياً أيضاً، وكانت تنتظر أول يوم من كلّ شهر بفارغ الصبر. أدخلت يدها في كيس القماش وحركت الكرات الصغيرة الألف بشدة قبل أن تسحب الكرة ذات الرقم ٧٣٩.

الغموض: . . . مع أن النور الذي منحته مبهر، والحرارة قائظة، وألسنة اللهب عالية، فلم تتحد النار والسماء قط.

التفسير: يجب النظر إلى جميع التحولات في الحياة وفق التأثير الذي تحدثه.

الحكم: إذا جلبت لك الحزن، تخلّص منها.

رددت فرانسيسكا الرسالة التنبؤية عدة مرات وكأنها تتلو صلاة، وأحست بطريقة ما أن كتاب فيريتاس قد أجابها على سؤالها، وأنه سيكون لهذا الجواب تأثير كبير على حياتها. وضعت الكتاب والكيس جانباً وراحت تتطلع في أرجاء الغرفة بدقة. فيسينتي، زوجها هو الذي جلب لها أشد أنواع التعاسة. لكن كيف يمكنها التخلّص من شخص يقبع في عقل المرء؟ إن مجرد التفكير في هذا الأمر جعلها تشعر بالإنهاك. عادت إلى الكرسي الهزاز.

كادت تمضي أربع سنوات على اليوم الذي اختفى فيه الرجال من ماريكيتا. مضت أربع سنوات على اليوم الذي أخرج فيه الثوّار فينسنتي غوميز، حلاق ماريكيتا، من بيته، وأوسعوه ضرباً ثم أرغموه على الانضمام إليهم. وكانت فرانسيسكا تأمل في سريرتها طوال تلك الفترة في أن يدرك الثوّار في نهاية الأمر، أن فينسنتي، بالإضافة إلى حلاقة الشعر، وحلاقة اللحى وتشذيب الشاربين، فإنه لن يكون مفيداً لهم، ولا للعالم، وأن يقتلوه. أغمضت عينيها وبذلت جهداً لتتذكّر كيف كان شكل فيسينتي وهو جالس على كرسي المرحاض. كانت تمارس هذا التمرين لتقوية ذاكرتها صباح كلّ يوم تقريباً، لكي تنفّس عن بعض الإحباطات التي

تراكمت على مر السنين. ولدهشتها، لم تتصور سوى اليوم كرسي المرحاض ـ طاسته الخزفية البيضاء، مقعده البلاستيكي المثبّت بمفصلات، حتى أداة دفق المياه الفضية. حاولت مرة ثانية وثالثة، لكنها لم تر شيئاً سوى المرحاض المهجور. أحست بالسعادة لأنها أدركت ذلك من دون أن ترى صورته الحقيقية، وأدركت أنها لم تعد قادرة على تصوّر وجه زوجها. وشأن الرجال الذين رأتهم في حلمها، كان وجه فينسنتي مجرد سطح شاحب مستوٍ خالٍ من أية قسمات. ربما لم يكن التخلّص من أشد مصادر حزنها بالصعوبة التي كانت تتخيّلها.

كانت الرسالة تقول شيئاً عن التحوّل، لذلك قرّرت فرانسيسكا أن تغيّر مسار حياتها، وقرّرت أن تحدث التغييرات بالتدريج، لكي لا تزعج الخوري أو أشدّ النساء تديناً. وأول كلّ شيء، ستبدأ فرانسيسكا إسدال شعرها الطويل، وتجعله يسترسل حتى أسفل ظهرها. كان شعرها جميلاً فاحماً، جميلاً جداً وينبغي ألا تبقيه معقوصاً في شكل كعكة قبيحة. والأمر الثاني، ستطلب من القاضية أن تسمح لها بارتداء ثياب غير الثياب السوداء. فمنذ بضعة أيام، رأت كليوتيد غوارنيزو، مديرة المدرسة الجديدة، ترتدي ثوباً له أزرار صفراء. ثمّ ستركّز على ترميم بيتها الخرب: ستصلح السقف الذي يرشح ماء وتسد الشقوق والفجوات في الجدران. وكانت تريد أن تطلي بيتها كله بلون أحمر براق، لكنها لا تملك النقود للقيام بذلك. أما الآن، فكل ما يمكنها أن تصنعه في بيتها هو إعادة ترتيب قطع أثاثها القليلة.

بدأت ذلك بإزاحة الخزانة الرثّة المصنوعة من خشب الأرز من زاوية في الغرفة إلى زاوية أخرى. عندما أزاحت الخزانة لاحظت أن البقعة الخشبية من الأرضية التي تقبع فوقها الخزانة، مع أنها مكسوة بطبقة من الغبار

وتعلوها خيوط العنكبوت، لا تزال ملساء ولامعة. كانت قد استغرقت سنتين في إقناع زوجها البخيل بتغيير أرضية بيتهما بألواح من خشب الصنوبر. كان يقول لها إن هذا سيكلّفهما نفقات غير ضرورية، وكانت تجيب أن الغبار المنبعث من الأرضية الطينية في بيتهما يقتلها ببطء. وكانت تتظاهر بأن نوبات من السعال الدائم تنتابها، وأنها مصابة بالحساسية، والربو وأنها تعاني من مشاكل تنفسية أخرى. لكن فينستي لم يجلب نجاراً إلا بعد أن ادّعت بأن استنشاقها الغبار باستمرار هو الذي جعلها لا تحمل، فلم يكسُ أرضية بيتهما بألواح من خشب الصنوبر الأكثر نعومة فقط، بل صقلها مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات، أو كما قال للعامل، «حتى أرى انعكاس كيلوت زوجتي فيها».

لم تكن أيام زواجهما سيئة دائماً. فقد تذكّرت فرانسيسكا المتعة التي كانت تغمر زوجها عندما يجعلها تعتقد بأنه يحزر لون كيلوتها من انعكاس الأرضية له. ثم أضحت تلك لعبتهما اليومية، واتفق الزوجان المبتهجان على تقديم جائزة للفائز: ففي كلّ مرّة يحزر فيها فينستي لون كيلوتها، يحصل على قبلة طويلة، أما إذا لم يحزر فيعطي فرانسيسكا خمسمائة بيزو. ووجدت أن هذه اللعبة مثيرة جنسياً، لذلك بدأت تشتري ملابس داخلية فاضحة ذات ألوان غير عادية. وفي صباح كلّ يوم، كان يحزر لون كيلوتها، فتمنحه قبلة طويلة تفضي إلى مضاجعة لاهبة. لذلك أصبح صالون غوميز للحلاقة يُفتح في وقت متأخر في غالب الأحيان. ومنذ البداية، كانت فرانسيسكا تعرف أن الأرضية اللامعة هي التي تكشف لون كيلوتها، لكنها لم تعترف له بأنها تعرف ذلك إلا بعد سبعة أشهر. وعندما أخبرته، ضحكا معاً طويلاً، وقبّل أحدهما الآخر مدة أطول، وراح يفرك

بطنها برقة، وفوجئ بأنها لم تكن بارزة جداً. كانت حاملاً في شهرها السادس.

أما الآن، فكلّ ما تبقّى من حبّهما وفرحهما مجرد بقعة مستطيلة براقة صغيرة في الجزء السفلي من بيتها، يكسوها الغبار. سحبت الكرسي الهزاز وقرّبته من النافذة، وأفرغت النونية التي كانت على وشك أن تفيض عن حوافها. ثم سحبت السرير ودفعته في كلّ اتّجاه ممكن، وفي النهاية قررت أن تتركه وسط غرفة النوم لتتمكن من إدخال مكنستها وممسحتها من زوايا الغرف الأربع بسهولة عندما تنظّفها.

بعد أن أزاحت فرانسيسكا السرير، لاحظت وجود قصاصة صغيرة من الورق تبرز من شقّ أحد ألواح الأرضية المهلهلة. كانت هذه القصاصة وصية موقّعة بيد الآنسة إيولايلا غوميز، تصرّح فيها بأنّها تركت لفينسنتي كلّ ثروتها (مئتا مليون بيزو). كانت إيولايلا عمّة والد فينسنتي، قريبته الوحيدة، عانساً ثرية ماتت بالشيخوخة في ليبانو، مسقط رأسها، قبل خمس عشرة سنة. وبواسطة مطرقة، أخرجت فرانسيسكا قصاصة الورق من شقّ اللوح الخشبي، فعثرت تحت السرير القابع هناك منذ سنوات عديدة، على كيس كبير مليء بالأوراق النقدية مدفوناً تحت الأرضية المكسوة بالتراب. سرى في جسدها إحساس مفاجئ بالغضب، وراحت تذرع الغرفة من دون هدف، ولم تتوقّف إلا بعد أن لمحت انعكاس صورتها في قطعة المرآة التي تتدلى من الجدار. اقتربت بحذر من المرآة وكأنها تخشى أن تظهر أمامها صورة مسخ، لكن كلّ ما رأته كان مثيراً للشفقة، امرأة حمقاء أمضت أكثر من نصف حياتها الزوجية وهي تعيش حياة فقيرة، بينما يملك زوجها ثروة مدفونة تحت سريرهما. بغتة،

انفجرت غاضبة وأخذت تجري في أرجاء البيت وتحطّم الأطباق والأواني الزجاجية، وتقتلع الصور من على الجدران، وتركل الكراسي والطاولات وتمزّق الستائر.

وأخيراً، عندما اعتراها إرهاق شديد، تهاوت على ركبتيها على الأرض، وراحت تخبط بجبينها أرضية الغرفة، وأجهشت في البكاء.

مكثت على تلك الحال فترة طويلة، متذكّرة كيف بدأ زوجها يتغيّر بعد أن لاحظ أن خافيير، ابنهما، لم يكن ينمو ويكبر بالسرعة التي ينمو فيها باقي الفتيان في ماريكيتا. وعندما أكّد الدكتور راميرز أخيراً بأن ابنهما قزم، لم يعد فينسنتي يكلّمها طوال سنة تقريباً. ثم أقام حفلة كبيرة بمناسبة عيد ميلاد خافيير الخامس، لكنه في صباح اليوم التالي، حبس ابنه في غرفة، ومنع فرانسيسكا من أن تدع أحداً في القرية يراه. وقسّم مصروف البيت الأسبوعي إلى نصفين، وكأن حجم ابنهما هو الذي يفرض مقدار المال الذي يسمح لها بإنفاقه. وبدأ يشرب الكحول في كلّ ليلة ولم يعد يتناول طعامه في البيت. وعندما كانت فرانسيسكا تطلب منه نقوداً لشراء رطل إضافي من الرزّ أو رغيف من الخبز، كان يرفض طلبها. واتّهمها بأنها زوجة مبذّرة طمّاعة تنفق مصروف البيت على نحو طائش. وعاشت فرانسيسكا لسنوات فقيرة، لا تشتري إلا الضروريات الأساسية للبيت، ترتدي ثياباً ممزّقة، تبحث عن تخفيضات، تساوم، تحاول شراء أكبر قدر من المواد بهذا المبلغ الضئيل الذي يعطيها إياه فينسنتي كلّ أسبوع، والذي كان ينقصه كلما نظر إلى ابنه.

ثم مات خافيير. وعندما أعلن الطبيب أن سبب موته سوء التغذية، لام فينسنتي زوجته. وأذاع في القرية أن فرانسيسكا أمّ قاسية الفؤاد، لا مبالية. وقد دخل ذلك في روعها، وأصبحت تتمنى الموت لأنها أنجبت ولداً قزماً

وتركته يموت، ومن المرجح أنها ستفقد زوجها أيضاً: ذلك الرجل الرائع الذي كان يحزر لون كيلوتها والذي كان يتأخر في الذهاب إلى عمله صباح كلّ يوم ليبقى في البيت لمضاجعتها.

نهضت فرانسيسكا عن الأرض وراحت تذرع أرجاء البيت، وجمعت أشياء زوجها جميعها ـ ثيابه وصوره وقبعاته وأحذيته، ومعجون حلاقته ومجموعة اسطواناته. ثمّ جمعت ثياب الحداد لديها ـ فساتينها وبراقعها وجواربها وطرحتها وكلّ قطعة سوداء أخرى من القماش وقعت يدها عليها، وحشرتها جميعها في صندوق من الورق المقوى ووضعته عند مدخل الباب، ثمّ رمته إلى الخارج بقوة، وصاحت: «إذا كان ثمة شيء يجلب لك الحزن، فتخلّص منه». بعد أن اعتراها شعور بالزهو بنفسها، عادت إلى غرفة نومها وأخرجت ثروتها المخبأة في الحفرة. كانت جميعها أوراقاً نقدية من الفئة نفسها ـ عشرة آلاف ـ وكانت مرتبة بحيث أن وجه البطلة الكولومبية بوليكاربا سالافاريتا كان متجهاً إلى الأعلى. لم تر فرانسيسكا في حياتها مبلغاً كهذا. ولم تستطع أن تتخيّل كيف ستنفق مائتي مليون بيزو. لعله يتعين عليها مغادرة ماريكيتا، والذهاب إلى مدينة كبيرة تستطيع أن تبدأ فيها حياة جديدة، حياة حقيقية فيها بيت كبير، وزوج وسيم، وأطفال موفوري الصحة. فلم يعد بوسع ماريكيتا أن تقدم شيئاً لامرأة غنية مثلها. صحيح أن بعض النساء في هذه الأيام يزرعن بعض المحاصيل، وصحيح أن الطعام قليل في بعض الأحيان، لكن لا يزال هناك طعام. لكن سواء بتوفر الطعام أو بعدم توفره، فإن ماريكيتا ليست سوى قرية بائسة لا يحدث فيها شيء، وأن صديقاتها هنّ السبب الوحيد الذي يجعلها تمكث فيها. فقد كان لديها صديقات طيبات، صديقات وفيات،

رفيقات، مثل فيكتوريا أرملة موراليس، وإلفيا أرملة لوبيز، وإرليندا أرملة كالديرون، على سبيل المثال لا الحصر. ماذا سيحدث لهنّ لو غادرت القرية؟ لعله يتعين عليها أن تأخذ معها عدداً منهن. ست أو ثماني صديقات منهن. بدا لها أن ستة عدد واقعي أكثر. لكن أيّهن؟ يا لها من معضلة! ولكي تفكّر بذلك كان يتعين عليها أن تنتظر شهراً كاملاً آخر لكي تستشير كتاب فيريتاس مرة أخرى.

أشياء كثيرة قد تحدث خلال شهر...

نظرت من النافذة. كان المطر قد توقّف عن الهطول، وصفت السماء، وأخذ أحدهم الصندوق الذي كانت قد ألقته في الشارع. عالم مشرق جديد ينتظر فرانسيسكا. كدّست نقودها فوق الطاولات والكراسي. ثمّ توجهت إلى غرفتها لارتداء ثيابها.

عندما غادرت فرانسيسكا بيتها، كانت ترتدي بنطالاً أحمر وبلوزة صفراء تكشف عن جزء سخي من صدرها. ومشطت شعرها الطويل الناعم، وتزينت وتبرّجت، وألقت بحقيبتها على كتفها اليمنى. وسارت باتجاه السوق حيث تُعرف فيه باسم «لا ماساتيرا»، لأنها كانت تبيع هناك، تحت خيمة خضراء باهتة اللون، أفضل عصير ماساتو في القرية منذ قرابة أربع سنوات. كان سرّ وصفة إعداد شراب الذرة الصفراء المتخمّر قد انتقل إليها عبر الأجيال. عندما وصلت فرانسيسكا، كانت صديقاتها وجاراتها قد بدأن ينصبن أكشاكهن لعرض بضائعهن القليلة وبيعها ومقايضتها. مطّت بعضهن رقابهن، وحدّقن فيها، للتأكّد من أن المرأة التي انتهكت أوامر القاضية بعدم ارتداء ثياب زاهية الألوان هي «اللا ماساتيرا». أحست فرانسيسكا، وهي تسير بين صديقاتها، بحقيبتها اليدوية المليئة بالبيزوات، بشعور مختلف بعض الشيء ـ أجمل قليلاً، ومثير للاهتمام.

وقفت وسط السوق وانتظرت حتى تحلقت النساء حولها. وعندما لفتت انتباه الجميع، قالت بفظاظة: «لقد عثرت على ثروة مدفونة تحت سريري». توقفت تنتظر ردّة فعل صديقاتها، التي انبعثت في شكل دهشة، شكل ظنّت فرانسيسكا، المرأة المتسرعة قليلاً، أنهن يشككن في ما تقوله. «ألا تصدقنني؟» سألتهن، ويداها مستندتان على وركيها النحيلين. وقبل أن تتاح للنساء فرصة الإجابة على سؤالها، فتحت حقيبتها، واستلت منها لفّات سميكة من النقود. «لا يشكل هذا حتى جزءاً من مائة منها»، قالت بتباه إذا ساورت إحداهن الشكوك، «ومع ذلك فإن لدي مشكلة عويصة. هل عليّ أن أبقى في القرية أم أغادرها؟ ما رأيكن جميعكن؟» بارتباك، راحت كل امرأة تنظر إلى الأخرى، بعد أن اختلطت كلمات فرانسيسكا في عقولهن. راحت فرانسيسكا ترمقهن بعينين حادتين، وقالت لنفسها، يا لهن من مسكينات! فلا يمكنهن مساعدتي على إيجاد حلّ لمشكلتي لأنهن قانعات بالعيش هنا. إنهن مقتنعات بأن هذا هو كلّ ما يمكنهن الحصول عليه. إن الريبة تساورهن، إنهنّ لا يشعرن بالأمان، وهن فقيرات جداً.

وزعت نقوداً على جميع صديقاتها، ثمّ استأذنتهن، وتوجّهت إلى مكتب القاضية.

«إن القاضية ترغب في ألا يزعجها أحد هذا الصباح»، قالت سيسيليا دون أن ترفع عينيها عن الآلة الكاتبة، «عودي بعد الظهر». لكن فرانسيسكا صمّمت على رؤية القاضية، فأخرجت رزمة من الأوراق النقدية من حقيبتها وبطريقة متكلفة وضعتها فوق آلة الكاتبة التي تستخدمها سيسيليا.

«لندّعِ أنكِ لم تريني... قالت فرانسيسكا. استغرقت سيسيليا بضعة ثوان حتى تربط الصلة بين البيزوات القابعة أمام عينيها والجملة غير المنتهية التي

قالتها الأرملة ـ إذ لم يسبق أن رشاها أحد ـ لكنها ما إن فهمت الصفقة، حتى التقطت النقود وأخفتها بين ثدييها المكتنزين.

في آخر مرة دخلت فيها فرانسيسكا مكتب القاضية، جلبت معها خنزيراً حيّاً وقدمته للقاضية لقاء شغلها مهمة مديرة المدرسة. وكان من الطبيعي أنه أُلقي بها خارج المكتب. أما اليوم فإن الأمر مختلف: فقد أصبحت فرانسيسكا غنية. عدّلت كتفيها ودفعت صدرها إلى الأمام ودخلت المكتب. وجدت روزالبا جالسة على طاولتها، تكتب ما بدا لها أنه رسالة على قطعة ورق مصفرّة.

«أيتها القاضية، لقد جئت لرؤيتك لأنني في ورطة»، قالت فرانسيسكا على الفور، «وبما أنك أعقل شخص في هذه القرية...»

رفعت روزالبا عينيها عندما سمعت هذا الإطراء.

«كما ترين، فقد عثرت على ثروة تحت سريري هذا الصباح، ولم أتمكن حتى الآن من اتخاذ قرار هل أغادر ماريكيتا أم لا».

انتقلت عينا القاضية بسرعة من شعر الأرملة المصفف إلى ركبتيها ـ وكان ذلك كلّ ما كان بوسعها رؤيته من وراء طاولتها، وقالت: «يبدو أنه يجب التذكير بالقانون الساري في ماريكيتا»، وبدا أنها غاضبة.

«أيتها القاضية، لقد تعلّمت هذا الصباح أنه إذا أتاك شيء محزن، فعليك التخلص منه»، تابعت فرانسيسكا، «وكل ما تجلبه لي هذه القرية هو الحزن. لذلك أفكّر بمغادرة القرية من ناحية، لكنني، من الناحية الأخرى، لا أريد أن أترك صديقاتي العزيزات يواجهن مصيرهن الفظيع هنا».

«أسمعتِ ما قلته للتو، يا فرانسيسكا؟»

«طبعاً يمكنني أن آخذ معي عدداً منهن، لكن من هنّ اللاتي سآخذهن

معي؟ وماذا سيحدث للاتي سيبقين؟ أرجوكِ أخبريني أيتها القاضية، ماذا كنتِ تفعلين لو كنتِ في مكاني؟»

«حسناً، سأغيّر ثيابي أولاً وأرتدي ثياب الحداد، ثم أتبرع بنصف ثروتي إلى خزانة ماريكيتا المهدمة».

كان من الواضح بالنسبة لفرانسيسكا أن القاضية، شأنها شأن صديقاتها، لن تساعدها على اختيار أي من الخيارين غير المرغوبين بعد حصولها على ثروتها الجديدة. استدارت فجأة وخرجت من المكتب، وهي تفكّر بأن روزالبا ليست امرأة عقلانية كما كانت تظن.

خارج مكتب القاضية، كان حشد كبير بانتظارها. فقد شاع خبر عثور فرانسيسكا على ثروة وأنها توزع نقوداً. «نرجوك ساعدينا»، قلن جميعهن، وأيديهن ممدودة. وراحت أصغرهن تمسّد شعر فرانسيسكا، وأخذت أخرى تدلك يديها، بل جثت إحداهن أمامها وكأنها تتضرع لها. تملّك فرانسيسكا الغضب لأنه لا وجود لدى هؤلاء النساء احترام لذواتهن. لماذا يذللن أنفسهن؟ فعندما كانت فرانسيسكا فقيرة، لم تركع أمام أحد أو تتملقه للحصول على نقود، ولا حتى لزوجها. «ليكن لديكن شيء من الكبرياء»، صاحت فيهن، وضربت بقوة على أيديهن المتزلّفة المتذللة كما لو كانت تضرب حشرات تلسعها.

أقفلت عائدة إلى بيتها بسرعة. رأت ثلاثاً من صديقاتها يجلسن على درج بيتها، ينتظرنها.

«يجب أن نكلمكِ يا فرانسيسكا»، قالت أرملة مارين، التي كانت تغطي رأسها والجزء الأعلى من وجهها بحجاب أسود، فبدت فتحتا أنفها الواسعتين وكأنهما عيناها. دعتهن فرانسيسكا إلى الدخول إلى بيتها.

«يجب ألا تغادري ماريكيتا»، قالت سارجنت الشرطة أوبالدينا بصوت يتسم بالجدية.

«يجب أن تنتظري حتى يعود زوجك»، أضافت أرملة كالديرون.

«لقد مات فينستي»، قالت فرانسيسكا، «وكذلك أزواجكن». ثم أخذت تحدّث النساء عن حلمها وما قاله لها الكتاب، ولكي تمنح شيئاً من المصداقية لكلامها المخزي، طلبت منهن أن يغمضن أعينيهن ويتخيّلن وجوه أزواجهن. وبعد قليل، طلبت منهن إخبارها بما رأين. انتاب النساء الثلاث الفزع عندما اكتشفن أن كلّ ما تذكّرنه عن أزواجهن هو شعرات تنسل من أنف طويل، أو ماء زرقاء ضخمة في عين سوداء، وأنهن كنّ يبكين على شوارب غير مشذبة، أو سنّ ذهبي، أو شامة تنمو منها شعرات فوق ذقن ناتئة. ولم يتمكنّ حتى من تذكر روائح رجالهن، أو أصواتهم. وأصبح أزواجهن مجرد صور وصناديق يكسوها الغبار مليئة بثياب مجعّدة ستلتهمها الحشرات عاجلاً أم آجلاً. وأدركت الأرامل الثلاث أن رجالهن ماتوا في قلوبهن، وملأت هذه الفكرة عقولهن بإحساس بالذنب.

لكن إحساسهن بالذنب لم يدم طويلاً. وبتشجيع من فرانسيسكا ـ التي أصبحت الآن ثرية، وهكذا لا بد أنها أصبحت ذكية أيضاً، عادت الأرامل الثلاث إلى بيوتهن، وارتدين ثياباً ذات ألوان براقة. وقبل حلول الظهر قابلن فرانسيسكا على أطراف ماريكيتا. وأحضرت كلّ أرملة منهن حقيبة مليئة بأغراض زوجها وثياب الحداد. كوّمن الثياب، والصور، والكتب، وقبعات البيسبول، وعلب السيجار التي لم تُفتح بعد، بل وحتى عصي البلياردو. وبعد أن عدّت إلى ثلاثة، صاحت فرانسيسكا، «إن كان هناك شيء يجلب لكن الحزن، فتخلّصن منه»، وأضرمت النار في الكومة.

جلسن هناك، ورحن يحدّقن في شعلة النار الملتهبة، يضحكن بعصبية، بينما أخذت تنبعث من النار شرارات براقة متعددة الألوان.

قبل انتهاء اليوم توجهت فرانسيسكا إلى الكنيسة، واثقة من أن الخوري رافاييل سيقدم لها نصيحة جيدة. فقد كان الرجل النحيف مولعاً بإعطاء النصائح وتقديم الآراء. جثت وراء اللوح الخشبي الجانبي المصنوع من قصب السلال القابل للطي الذي كان يُستخدم غرفة للاعتراف منذ عدة سنوات. وكان حاجز الغربال ذي الألواح الثلاثة، يُطوى على شكل حرف UÁ وكان الخوري يجلس مساء كل يوم قبل صلاة القداس، داخل الحاجز الذي يشبه شكل حرف U ليستمع إلى الاعترافات من خلال الفتحات الطويلة الضيقة التي فتحها من كلّ جانب. لم تكن فرانسيسكا بحاجة لأن تحكي للقس قصتها أو تطلب إرشاداته ـ فقد كانت القاضية أخبرته بكل ما يحتاج إلى معرفته، بالإضافة إلى النصيحة الذي يجب عليه أن يقدمها لهذه المرأة المضطربة. «يجب أن تبقي في القرية يا عزيزتي»، بدأ الخوري كلامه، تشي نبرته بأمر رقيق النبرة، لا نصيحة حكيمة، وأضاف، «إن مشكلة ماريكيتا الرئيسية لا تكمن في عدم وجود رجال، بل في عدم توفر الموارد. ما مقدار المبلغ الذي عثرتِ عليه؟»

«مئتا مليون بيزو».

«ممتاز. الآن، لو استثمرتِ جزءاً من مالَك في عمل مربح هنا، لساهمت في تنشيط اقتصاد القرية. لنقل مثلاً أنك قررتِ إعادة فتح صالون حلاقة زوجك. أولاً، عليكِ أن توظفي عمالاً للبناء، ممّا يعني أنك ستوفرين وظائف، ما يعني أن الناس سيقبضون رواتب وينفقون مالهم في الأعمال التجارية الصغيرة، ممّا يعني أنه سيكون هناك طلب على منتجات وخدمات

أخرى. إنك تسدين لماريكيتا خدمة كبيرة، وتربحين في الوقت نفسه من استثمارك هذا».

كانت نبرة صوت الخوري منخفضة، جمله محسوبة بدقة، ثم قال بحماسة: «ثقي بما أقوله لك يا عزيزتي».

من المكان الذي كانت تجثو فيه فرانسيسكا، لم يكن بإمكانها رؤية الرجل الذي يقول الكلمات التي كان عليها أن تصدقها وتثق بها، وكانت تعتقد أن ما يقوله هو لصالحها. ومنذ المرة الأولى التي التقت به، كان شكل الخوري الغريب بعض الشيء يزعج فرانسيسكا قليلاً: إذ لم يكن رأسه الأصلع يبدو جزءاً منه ـ فقد كان كبيراً جداً لا يلائم جسمه الصغير ـ ووجهه الوردي المتقد، يتعارض بقوة مع رداء الخوري الأسود الذي يخفي ما تبقى منه، وكأن هناك شيئاً يشي بالخداع والغموض يقبع تحته. لم يكن أمام فرانسيسكا خيار آخر غير أن تثق بكلمات الرجل. والأهم من كل ذلك، فهي النصيحة الوحيدة التي يقدمها لها أحد لحل مشكلتها. لبثت صامتة لوهلة، تتأمّل خياراتها. وعندما نظرت إلى خلفية الصور الباهتة، والمقاعد الطويلة التي نخرتها دودة الخشب، قالت: «يا أبانا، كم تريد من أجل الكنيسة؟»

فاجأ السؤال الخوري. عفواً؟»

«يا أبانا، لقد قبلت نصيحتك. سأقيم لنفسي مشروعاً، ويبدو أن كنيستك هي أكثر البيوت ربحاً في القرية». ثم انخفض صوتها ليتحوّل إلى همس، وسألته، «كم تريد؟»

«إن بيت الله ليس مؤسسة تجارية»، انفجر قائلاً.

«آه، يا أبانا، إنك تعرف جيداً أنه كذلك. إذ يأتي الناس إلى هذا المكان لشراء راحة البال. إنهم يدفعون لك نقوداً لكي تتوسط لهم مع ربك الخفي». انسالت الكلمات بسهولة من فمها، ما أثار حنق الخوري.

«اسكتي!» صاح، وقد ازداد وجهه احمراراً، «لا أسمح لكِ بأن تتحدثي عن الكنيسة المقدّسة بهذه الكلمات الدنيوية». نهض بسرعة ليغادر، لكنه توقّف فجأة، وكأنه نسي شيئاً مهماً في غرفة الاعتراف. استدار وخاطب الحاجز الذي تجثو وراءه فرانسيسكا، وقال: «والله، ستندمين على أنكِ قلتِ ما قلتِ».

إذا لم تتمكن من شراء الكنيسة، فيجب على فرانسيسكا ترميم دكان حلاقة فينستي القديم وفتح صالون للتجميل بدلاً منه. بالطبع لا يمكنها أن تعتمد على نساء ماريكيتا لمواصلة عملها ـ فهن بسيطات للغاية. لذلك ستعمل على جذب نساء راقيات من قرى أخرى. وستكون تلك النساء سعيدات للغاية وسيجلبن معهن في المرة التالية صديقاتهن، اللاتي سيجلبن بدورهن صديقاتهن هنّ أيضاً، ولن تمضي فترة طويلة حتى يرتاد صالون فرانسيسكا زبونات مميزات. وسرعان ما أُصبح ربّة عمل، قالت لنفسها قبل أن تأوي إلى الفراش، وظلت هذه الفكرة تراودها في تلك الليلة حتى أثناء نومها.

في اليوم التالي، وظّفت فرانسيسكا أوركيدا ومانوليا موراليس وغاردينيا لترميم محلّ الحلاقة المتهالك، وطلبت منهن إزالة ملصقين اثنين حال لونهما وشابهما اصفرار من على الجدران ـ أحدهما إعلان عن أمشاط جيب، والآخر إعلان عن ملمّع الشعر البرليانتين ـ وعدّة خطّافات كان الرجال يعلّقون عليها قبعاتهم ومعاطفهم. وأمرتهن بإزالة المرايا ذوات الإطارات غير المصقولة، والنضد والرفوف والأدراج، وبإخراج كرسيّ الحلاقة التقليديين القديمين. واستمرت بإلقاء الأشياء من المحلّ حتى لم يعد محل حلاقة غوميز القديم سوى غرفة خاوية ذات باب معدني صدئ.

وما إن غادرت فرانسيسكا الدكان، حتى تذكّرت زوجها فجأة، لا بسبب المعدات الشخصية وقطع الأثاث المكدسة في كومة أمام الدكان، ولا بسبب الكلمتين غير الكاملتين المطبوعتين بشكل سيء ورخيص على النافذة الزجاجية: «صالون غ ميز»، بسبب الشقّ الموجود بين المدخل والرصيف، الذي كان لا يزال مملوءاً بأعواد الثقاب المحترقة، وأعقاب السجائر، وأغلفة السكاكر، وكميات كبيرة من الشعر الوسخ. وأمرت النساء الثلاث بتنظيف الشقّ وملئه بالمعجون.

قبل أن تأوي إلى الفراش في تلك الليلة، نظرت إلى نفسها في المرآة. لم تكن مسرورة بما رأته: امرأة ضامرة في السادسة والأربعين من العمر، راجية أن تبدو في الثلاثين، لكنها تبدو في الحقيقة بأنها في الخمسين من العمر. كان شعرها ملطّخاً باللون الرمادي، وقد بدت التجاعيد الغائرة تحت عينيها مثل قدمي نعامة أكثر من قدمي غراب. وكانت تشوّه يديها ندوب من الحروق والجروح التي ستذكّرها إلى الأبد، بخلاف معظم النساء في ماريكيتا، بأنها لم تكن تصلح للعمل في المطبخ. وقرّرت أنها أيضاً، شأنها في ذلك شأن صالون حلاقة غوميز القديم، بحاجة إلى عملية ترميم رئيسية.

في صباح اليوم التالي، ارتدت فرانسيسكا أفخر رداء وأفضل حذاء لديها ودسّت رزمة كبيرة من النقود في حقيبتها. ووضعت ما تبقى لديها من الثياب والطعام في صناديق، ووضعتها عند عتبة بيتها لتأخذها إحدى النساء الفقيرات. توجهت إلى دكان الحلاق القديم وكلّفت كلّ أخت من أخوات موراليس بمهمة محددة. وقالت لهن إنها ستعود بعد أسبوعين. توقّفت عند المدرسة، وبعد جدال مع مديرة المدرسة الصارمة، سمحت لها أن تأخذ فيتنام كالديرون لبضع ساعات. وحملها الفتى على أحد البغال الثلاثة التي تملكها أمّه وأوصلها إلى الطريق الرئيسي، حيث استقلت فرانسيسكا الحافلة إلى إباجو، أقرب مدينة للقرية.

عندما وصلت إلى إباجو، أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يوصلها إلى أفضل فندق في القرية، وحجزت غرفة فيه.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، خرجت لتتسوّق في محلات آخر صرعات الأزياء. «أريد أن أرى البنطلونات»، قالت للبائع، «بنطلونات وبلوزات بألوان براقة».

أمضت عدّة ساعات تجرّب بناطيل وبلوزات ومعاطف من مختلف الموديلات والأطوال والألوان. ودفعت مبالغ كبيرة لقاء عشرات الثياب والأحذية ذات الكعوب العالية التي لا تستطيع السير بها. ثمّ اشترت حقائب يد وأحزمة مطابقة لها، وبروشات (دبابيس) ومجوهرات وأوشحة وقفازات وقبعات حريرية وجوارب نسائية غالية الثمن. في تلك الليلة، عندما عادت فرانسيسكا إلى جناحها في الفندق وأرسلت ثيابها الجديدة، فتحت جميع الأكياس، وأفردت الثياب التي اشترتها وألقت بها بإهمال على السرير الكبير. استلقت عارية فوق ركام الثياب والإكسسوارات مستمتعة بملمس البلوزات والأوشحة الحريرية على جلدها. وغطّت نفسها بمعطف فراء وأغمضت عينيها، وبينما راحت تمرر بأصابعها فوق الفراء الناعم وتشمّ رائحة الجلد الحيواني، الممتزجة برائحة عرقها الحادّة، استسلمت لمخيّلتها. وضغطت بأطراف أصابعها على خديها وتخيّلت وجهها يكسوه زغب حيواني. وأخذت تمسّد شعرها الطويل وتخيّلته هو أيضا، قد تحوّل إلى فراء، وأن ذلك المعطف الرائع، وتلك الملابس والأحذية والأحزمة المحيطة بها، قد غيّرتها وجعلتها شخصاً آخر، حوّلتها إلى امرأة جامحة كانت تتوق أن تكونها دائماً. انتابتها مشاعر الخوف من أحلام يقظتها، ففتحت فرانسيسكا عينيها. كان المعطف لا يزال ملتفاً حول جسمها،

نهضت من السرير وراحت تنظر إلى نفسها في المرآة. كانت لا تزال فرانسيسكا نفسها: تبدو مسنّة، تحيط التجاعيد عينيها وتملأ الندوب يديها. أما الشيء الذي لم تعكسه المرآة ولم تستطع أن تعترف به بعد، فهو المرأة الأخرى، فرانسيسكا المختلفة تماماً التي أخذت تنمو بسرعة داخل فرانسيسكا العجوز. في تلك الليلة نامت وهي تفكّر بما ستفعله فيما بعد.

في صباح اليوم التالي، ارتدت فرانسيسكا بلوزة لا تتماشى مع بنطلونها الذي لم يكن يتماشى مع حذائها الذي لم يتطابق مع حزامها الذي لم يتناسب مع حقيبة يدها، وتزيّنت بمكياج ذي ألوان عديدة، يتماشى كل لون بطريقة ما، وبشكل منفصل، مع كلّ قطعة ترتديها. وحدّدت موعداً مع أشهر مصفف للشعر في إباجو، وهو شاب طويل قوي ذو شعر أسود طويل، يُلقب تحبباً باسم سانسن. دخلت فرانسيسكا إلى الصالون وهي تبدو مثل شيء يوشك أن يتحوّل إلى شيء آخر، لكنها كانت لا تزال بعيدة عن تحقيق ذلك، مثل بيضة على وشك أن تفقس.

«أريد أن أشبه هذه»، قالت لسانسن، مشيرة إلى امرأة رائعة الجمال في ملصق إعلان شامبو معلّق على الحائط. نظر الرجل إلى الصورة ثم عاد لينظر إليها.

«سيكلّفكِ ذلك ثروة»، قال بجديّة.

«إذاً من الأفضل أن تبدأ ذلك في الحال»، ردّت. صبغ سانسن شعر فرانسيسكا، قصّه، ومشّطه بالفرشاة، ثم جفّفه بمجفف الشعر. ونتف مساعدوه شعر حاجبيها، وفتلوا رموشها، وقصّوا أظافر يديها وقدميها، وطلوها بطلاء الأظافر، ودلّكوا قدميها، وأزالوا شعر شاربها الخفيف، والبثور من على وجهها، ووضعوا مساحيق جديدة على وجهها. وفي نهاية

اليوم، لم تشعر بنفسها امرأة مختلفة تمام الاختلاف فحسب، بل بدت كذلك امرأة مختلفة تماماً. لم تكن تشبه المرأة في صورة الإعلان على أقل تقدير، لكن مظهرها الجديد منحها إحساساً بالجمال والرقة أكثر مما كانت تتوقّع بكثير.

في اليوم التالي، سجّلت اسمها في دورة مكثفة في آداب السلوك مدتها أسبوع لدى دون خوزيه ماريا أوليفاريس دي بيلالكازار، وهو رجل عجوز كان قد هرب من بلده إسبانيا بعد سقوط المملكة بيد الدكتاتور، الجنرال فرانكو. وما إن وصل إلى أمريكا، حتى أطلق دون خوزيه ماريا على نفسه لقب «النبيل مركيز سانتا كولوما»، مما جعله بصورة آلية أحد أعضاء الطبقة الراقية الصغيرة المتميّزة في إباجو. (كما يقول المثل القديم، «من يسافر إلى الخارج يعرّف نفسه بأنه كونت أو دوق أو لورد»). وبدأ المركيز يكسب رزقه من تعليم آداب السلوك لأنه، حسب ما يقول: «لقد اكتشفنا أمريكا الجنوبية منذ حوالي خمسمائة سنة، ولا يزال هؤلاء البرابرة لا يعرفون كيف يستخدمون الشوكة». وبالفعل كانت فرانسيسكا المثل الصارخ لمقولته المتحيّزة تلك: فقد كانت امرأة غير مثقفة، جاهلة، بل سوقية ومبتذلة. وتعلّمت من المركيز أهم قواعد السلوك التقليدية في تناول الطعام في المطاعم. «القاعدة الأولى: ضعي منديلك في حضنك بعد أن يضعه المضيف، لا قبله. القاعدة الثانية: أبقي المنديل في حضنك طوال فترة تناولك وجبة الطعام ويجب أن تستخدميه لتمسحي فمك بلطف»، وإلى ما هنالك. كما تعلّمت كيف تستخدم أدوات المائدة بشكل صحيح، وأن تبدأ من أبعد أداة من الطبق. فلم يكن لديها في بيتها في ماريكيتا إلا شوكة واحدة، ولم تستخدمها منذ أن اختفى زوجها. كانت فرانسيسكا تفضّل أن تأكل بأصابعها وأن تستخدم ملعقة خشبية.

بثيابها الجميلة، وسحنتها الجديدة، وقواعد آداب السلوك التي تعلمتها، خرجت فرانسيسكا أخيراً. وبدأت تتعشى في المطاعم الفاخرة، وتغشى النوادي الاجتماعية الفاخرة. وصارت ترتاد صالات الكوكتيل والبارات. وسكرت أكثر من مرة، وتقيّأت في سيارة الأجرة وفي بهو الفندق، ومارست الجنس مع امرأة أخرى.

كانت تنتاب فرانسيسكا منذ صغرها الرغبة في ممارسة الجنس مع امرأة. وفي إحدى المرات، حاولت التحرش بفتاة معتوهة بعض الشيء، جاءت إليها لتبيعها نقانق، وعندما حاولت فرانسيسكا أن تتحسس صدرها، رمت الفتاة النقانق وهربت، وهي تصرخ. أما في إباجو، فقد كانت امرأة أجنبية في مدينة أجنبية. والأهم من ذلك، أنها تملك نقوداً تستطيع أن تشتري بها ما تريد، حتى الخدمات الجنسية من إحدى عاملات تنظيف الفندق.

وفيما يلي حقيقة ما حدث: فبعد أن تقيأت فرانسيسكا في بهو الفندق، استدعت موظفة الاستقبال عاملة تنظيف شابة وطلبت منها مرافقة فرانسيسكا إلى جناحها. في غرفتها، لم تتمالك فرانسيسكا نفسها، فألقت بنفسها على عاملة التنظيف التي أبعدتها عنها على الفور، لكن بعد أن دسّت فرانسيسكا لفة من البيزوات في جيب مئزرها، لم تستلم العاملة لفرانسيسكا فقط، بل بدا أنها كانت تستمتع بذلك أيضاً. كانت فرانسيسكا تحب مضاجعة امرأة. لعلها تستطيع، عندما تعود إلى ماريكيتا، أن تطلب من إحدى النساء اللاتي يعملن في خدمتها ـ على الأرجح مانوليا ـ أن تضاجعها، ثم تطلب منها إصلاح سقف بيتها الذي يرشح بالماء، ثم تضاجعها ثانية، ثم تطلب منها طلاء جدران بيتها باللون الأزرق، ثم تصبغها باللون الأحمر، ثمّ بالأصفر، ثمّ بالأخضر، وتضاجعها بين كلّ لون ولون، وعندما تنتهي من طلاء الألوان، تبدأ بالظلال، أفتح قليلاً، أغمق قليلاً، وما إلى ذلك.

وقبل أن تعود فرانسيسكا إلى ماريكيتا، طلبت معدات وأثاثاً وتجهيزات جديدة لتأثيث صالون التجميل. وأعطت عربوناً للبائع الذي وعد بتسليم جميع هذه الأشياء خلال أسبوعين وإيصالها إلى عنوانها في ماريكيتا ـ القرية التي لم يسمع بها قط، ولم يتمكن حتى من تحديد موقعها على خريطة حديثة.

في غضون ذلك، وفي قرية ماريكيتا التي لم يسمع بها أحد، كانت القاضية قد عقدت اجتماعاً على انفراد مع الخوري لوضع خطة قانونية تقضي بفرض ضريبة على ثروة فرانسيسكا (إذ لم تكن توجد حالياً قوانين مدوّنة حول ثروات يُعثر عليها تحت سرير أحد سكان القرية). واتفقا على أنه، بما أن النقود عثر عليها فوق أراضي ماريكيتا، على فرانسيسكا أن تدفع نسبة مئوية من ثروتها لدعم الحكومة المحلية. سألت روزالبا عن رأي الخوري رافاييل بفرض ضريبة تقارب ٥٠ في المائة. فقال الخوري إنه يحبّ هذا الرقم كثيراً لأنه بلغ من العمر خمسين سنة للتو؛ وأضاف بنبرة كئيبة أنه يجب على فرانسيسكا أن تدفع نسبة مئوية من ثروتها لدعم الكنيسة المحلية ورجال الدين. وسأل القاضية عن رأيها في جعل ضريبة العشر عشرين بدلاً من العشرة في المائة المعتادة. فقالت القاضية إن عشرين رقم جميل، لأنها عندما كانت في العشرين من عمرها، كانت أجمل امرأة في ماريكيتا. فقال الخوري إنها لا تزال كذلك. وفي القانون، حدّدا النسبة المئوية التي اتفقا عليها قبل عودة فرانسيسكا.

قبل الغروب، وصلت الأكياس التي اشترتها فرانسيسكا وحقائبها الجديدة إلى ماريكيتا في سيارة جيب حمراء صغيرة مهلهلة من طراز ويليس موديل سنة ١٩٤٧ . كانت سيارة الجيب تتهادى في الشارع الرئيسي المليء

بالحفر، من الكنيسة إلى السوق، ومن السوق إلى المدرسة، ودارت دورتين حول الساحة، ولم تتوقف عن إطلاق زمورها البغيض. توقّف الجميع عن أعمالهم وخرجوا إلى الشارع. كانت النساء يتمنّين أن يكون السائق رجلاً وسيماً، وكان الأطفال يتمنّون أن يحصلوا على جولة مجانية في السيارة. اقترب الجميع من السيارة المكدّسة بالبضائع، مطلقين صيحات البهجة والحبور. كان السائق رجلاً عجوزاً أشيب مهلهلاً مثل السيارة التي يقودها، الذي كان يقرّب رأسه من المقود، وكأن طرف ذقنه، لا يداه، هو الذي يوجّه سيارة الجيب في طريقها. وإلى جانبه، تجلس فرانسيسكا، مستندة بظهرها وكتفيها إلى المقعد، تبتسم لصديقاتها وجاراتها. إلا أن أحداً لم يعرفها، لا عندما توقّفت سيارة الجيب أمام بيتها وسار السائق العجوز إلى الجهة الأخرى ليفتح لها باب السيارة، ولا عندما برزت إحدى قدميها من السيارة، منتعلة حذاء ذا كعب، ثم تلتها إحدى يديها، ذات الأظافر المطلية والمشذّبة، وذراعها المليئة بالأساور الذهبية التي انبعثت منها خشخشة؛ ولا حتى عندما وقفت فرانسيسكا بثبات فوق الأرض، تمسّد براحتي يديها، التجعيدات التي أحدثتها الرحلة الطويلة حول خصر فستانها الحريري القرمزي. وعندما فتحت فرانسيسكا باب بيتها، صاحت امرأة بنشوة «أراهن على أنها فرانسيسكا، اللا ماساتيرا».

وقف الحشد الكبير يراقب السائق وهو يُدخل إلى بيت فرانسيسكا كيساً بعد كيس، وحقيبة بعد حقيبة. وأخذت جميع النساء، وهن ينظرن إلى السائق وهو يروح ويجيء، يلعنّ في سريرتهن تبذير فرانسيسكا.

عندما ذهب السائق، دعت فرانسيسكا حفنة من صديقاتها إلى الدخول إلى بيتها. وبدأت الأخريات يتناوبن على التلصص من النافذة، بينما راحت

فرانسيسكا تجرّب ارتداء الثياب وانتعال الأحذية وتكوّمها في جميع زوايا بيتها، تذكّرهن ببؤسهن ومعاناتهن. وكانت روزالبا بين النساء اللاتي يراقبن هذا المشهد من الخارج، وكانت تشعر بالذنب تجاهها لأنها أصدرت ذلك المرسوم المريب الذي يفرض ضريبة كبيرة على ثروة فرانسيسكا، لذلك خرجت تبحث عن شيء لتبرير سلوكها. لكن بعد أن حدّقت روزالبا بإمعان من النافذة، أدركت أنّ لدى فرانسيسكا ثياباً تكفي نساء ماريكيتا جميعهن، وأحذية تكفي أقدام أم أربع وأربعين؛ بينما ترتدي جميع النساء تقريباً، يوماً بعد يوم منذ حوالي أربع سنوات، نفس الفساتين السوداء الممتلئة بالرتوق والرقع. أما الحمقاوات اللواتي استمعن لفرانسيسكا وأحرقن ثياب الحداد لديهن، فسرعان ما اكتشفن أن ثيابهن الملوّنة قد أصبحت كبيرة أو ضيقة جداً عليهن، أو أن العثّ قد أكلها. واهترأت معظم نعال أحذية النساء، وأصبحت رقيقة جداً إلى درجة أن أقدامهن أصبحت تحسّ بصلابة الأرض والنتوءات فيها، حتى إن بعضهن بدأن يمشين حافيات. ولم يعد من سبب يجعل روزالبا تشعر بالذنب. لقد برّر جشع فرانسيسكا وبرّأ العمل الذي اتخذته القاضية وأراح ضميرها.

كان اليوم التالي يوم السبت، يوم السوق. خرجت بعض النساء في الصباح الباكر لصيد السمك، وذهبت أخريات لاصطياد الطيور، وحُزّت رقاب بعض الدجاجات، وجُمعت الحبوب، وقُطفت ثمار البرتقال والجوافة الكبيرة الناضجة من الأشجار. وفجأة توفرت المنتجات الغذائية التي كانت شحيحة، ووجدت أفضل هذه المنتجات وأكثرها طزاجة طريقها إلى السوق، حيث تتجمع المشتريات والبائعات بعد الساعة السادسة بقليل لمقايضة سلعهن. نهضت فرانسيسكا من فراشها في وقت مبكر. كانت

جائعة، لكن لم يكن لديها شيء في بيتها يمكن أكله ـ فقد أفرغت عمداً خزانة طعامها قبل أن تتوجه إلى إباجو. وقد حان الأوان الآن لملء مطبخها بأفضل الأطعمة التي يمكنها أن تعثر عليه. وبينما كانت تهمّ بالمغادرة، سمعت قرعاً على الباب. فتحت الباب فرأت القاضية والخوري وسارجنت الشرطة واقفين بصورة رسمية على عتبة الباب. طلبت فرانسيسكا منهم الدخول.

«كان بودّي أن أقدم لكم كرسياً لتجلسوا عليه لو كان يوجد لديّ كرسي»، قالت، وهي تتفحص الغرفة المليئة بأكوام السلع ـ بحثاً عن دليل لوجود مقعد.

«هذا ليس ضرورياً»، قاطعتها القاضية، «سأختصر كلامي». وأخرجت قصاصة ورقية من حقيبتها اليدوية وأعطتها لفرانسيسكا قبل أن تبدأ بيانها الرسمي: «لقد سنّ قانون يخوّل إدارة ماريكيتا وكنيسة الروم الكاثوليك فرض ضريبة على أيّ مبلغ من المال يوجد ضمن محيط القرية».

«صحيح؟» قالت فرانسيسكا، غير مبدية أي دهشة.

«تحتوي الوثيقة التي تحملينها على كلّ ما يمكن أن تحتاجيه لمعرفة القانون، بما في ذلك النسب المئوية التي يجب أن تسدديها»، أضاف الخوري رافاييل، مصدّقاً على ما قالته القاضية.

تضرّج وجه فرانسيسكا، لكنها لم تجب في الحال. كانت تدرك جدّية الأمر مما يستدعي منها بالطبع رداً معقولاً تختار فيه الكلمات بصورة لائقة، ردّ سيدة مهذبة. «اخرجي من بيتي، أيتها السوقية»، صاحت في وجه روزالبا، ثمّ مزّقت الورقة ورمت القصاصات في وجهها.

وقفت سارجنت الشرطة أوبالدينا بين المرأتين بطريقة تصالحية. إلا أن

ذلك لم يكن ضرورياً، لأن القاضية ظلت رابطة الجأش على نحو يثير الدهشة.

«إني أحذّرك يا فرانسيسكا»، قالت روزالبا، «لن أسمح بعد الآن أن تنام أيّ امرأة في ماريكيتا خاوية المعدة، بينما توجد امرأة أخرى تتجشّأ قطع لحم الخنزير».

«فلتذهب نساء ماريكيتا إلى الجحيم! لن أقاسم أحداً نقودي. هيا اخرجي!» وأشارت إلى الباب الذي تركته مفتوحاً.

«فكّري بالموضوع يا عزيزتي»، تدخّل الخوري رافاييل، «إن وسامتك وثيابك الجميلة قد تجعلك هكذا لفترة من الزمن، لكنك لا تزالين أرملة في قرية الأرامل. ومن الناحية الأخرى، فإن روحك».

«اذهب إلى الجحيم أنت وكنيستك السخيفة. هيا اخرج من هنا!»

«أمامك مهلة حتى الغروب كي تأتي إلى مكتبي وتدفعي الضرائب المستحقة عليك على كلّ سنتافو وجدتِه، وإلا فإنني سأنفيك من ماريكيتا»، قالت القاضية. ولم يعد باستطاعة سارجنت الشرطة، التي ظلت هادئة حتى تلك اللحظة، أن تتمالك نفسها. وبابتسامة ساخرة، قالت لفرانسيسكا: «إذا جلبت الحزن إلى ماريكيتا، فإننا سنتخلص منها»؛ واستدار الثلاثة في الحال وغادروا الغرفة.

أسندت فرانسيسكا ظهرها إلى الباب، وقد غمرها شعور بالقلق وعدم الارتياح. ماذا ستفعل الآن؟ إذ لا يمكنها أن تبلّغ عن مبلغ أقل من المبلغ الذي عثرت عليه لأن الخوري رافاييل يعرف المبلغ الحقيقي. هل ينبغي لها أن تظل في القرية وتنفذ قرار القاضية؟ أم تغادر؟ كانت قد تعرضت للمعضلة نفسها قبل أسبوعين. لا، أصبح الأمر أسوأ الآن لأن القاضية منحتها فرصة

حتى الغروب كي تتخذ قرارها. لكن تهديد القاضية هو الذي ساعد فرانسيسكا بالصدفة على البتّ في أن لا تذهب إلى أيّ مكان. فمن تظن روزالبا نفسها حتى تقرر من يمكث في القرية ومن يغادرها؟ وإذا كان على أحد أن يغادر القرية فهو روزالبا نفسها، التي لم تولد في ماريكيتا. وقررت فرانسيسكا أن تتمسّك بخطتها الأصلية في افتتاح صالون التجميل، ومحاربة القاضية. لا بد أن هناك قانوناً يحمي أرملة غنية من النفي خارج قريتها.

بتلك الفكرة التي عششت في رأسها، توجهت فرانسيسكا إلى دكان حلاقة غوميز القديم. بدا المكان نفسه كما تركته عندما غادرت إلى إباجو. فلم تفعل الأخوات موراليس شيئاً. غاضبة، توجهت فرانسيسكا إلى السوق تبحث عن عاملات جديدات، لكن لم تقبل أية امرأة العمل معها. ثمّ جابت أرجاء القرية تطلب من كلّ امرأة رأتها أن تعمل لديها، ورفعت الأجر وهي تنتقل من بيت إلى آخر، وأصبحت ودودة، بل لطيفة، لكن لم تقبل أية امرأة العمل مع فرانسيسكا. اعتراها شعور بالتعب والجوع ـ مع كلّ هذه المشاكل التي تعرضت لها هذا الصباح، نسيت الطعام. ذهبت إلى خيمة أرملة موراليس وطلبت طعام الفطور من خوليا. رمقت الفتاة فرانسيسكا بازدراء وكأنها تقول بين أشياء أخرى إن وجودها لم يعد مرحباً به في مطعمهن. طافت فرانسيسكا في السوق تحاول شراء طعام من صديقاتها القديمات، لكن لم ترحب أية واحدة منهن بها. عرضت أن تدفع ضعف ثمن موزتين، وثلاثة أضعاف ثمن نبات اليكة، لكن البائعات رفضن أن يبعنها شيئاً. خُيّل إليها أن صديقاتها في السوق، مثل القاضية، يختبرن كبرياءها. لكن فرانسيسكا إرملة غوميز لم تركع لأحد ولن تركع الآن بعد أن أصبحت غنية.

عادت إلى البيت والجوع يعتصرها، وأحست أن الطفيليات تلتهم أمعاءها. كان كلّ ما بقي في مطبخها كمية قليلة من الماء وغالون من الكيروسين للموقد. غلت الماء، وصبّته في كوب وأضافت آخر بقايا الملح المتبقية في وعاء بلاستيكي، وراحت ترشف هذا المزيج العديم الطعم رشفات صغيرة، راجية أن يزول إحساسها الشديد بالجوع. لكن السائل ازداد قوة عندما وصل إلى أحشائها.

بدأ المساء يقترب. جلست فرانسيسكا على أرضية الغرفة وبدأت تعبث بمنخريها: فقد غطّت الفتحة اليمنى، وأخذت تشمّ بالفتحة اليسرى رائحة حساء قوانص طير تُطهى في أحد البيوت المجاورة. ثم غطّت فتحة أنفها اليسرى، واكتشفت رائحة شوربة الأمعاء. ثم أغمضت عينيها وتابعت ذلك، وأخذت أحاسيسها تنتقل من مطبخ إلى مطبخ، حتى أمكنها معرفة ما ستتناوله كلّ أسرة على العشاء في تلك الليلة، بل حتى معرفة من هي الأسرة التي ستأوي إلى الفراش وبطون أفرادها خاوية مثلها هي. لعلها يجب أن تسدد الضرائب ليتمكن جميع من في ماريكيتا من تناول طعام جيد وارتداء ثياب نظيفة. أو ربما لا. لماذا يجب أن تعطي أحداً شيئاً إذا لم يكن قد بذل جهداً للحصول عليه؟ فقد عرضت عليهن عملاً ورفضن عرضها. وأخيراً قالت لنفسها حسناً، إذاً فهن يستحقن النوم على الجوع.

رشفت الجرعات القليلة المتبقية من الماء المغلي، وبدأت ترى فجأة، مخاوفها، الواحدة تلو الأخرى، تدخل البيت. وكانت الواحدة أولى القادمين ـ وحدها بالطبع. وعرفتها فرانسيسكا في الحال، لأنها جابت أرجاء البيت وقد اعتراها شيء من الخجل بحثاً عن مكان تقبع فيه. واستقرت أخيراً داخل الجيب الداخلي لأحد معاطف الفرو الجديدة التي

اشترتها فرانسيسكا، ولم تتحرّك ثانية. ثم أعقبها الشعور بالذنب، الذي راح يشير إليها بأصابع تأنيبية طويلة. وانسلت في بلوزة حريرية حمراء، تدسّ أصابعها عبر الأكمام الطويلة، لا تكفّ عن إزعاج فرانسيسكا. ثمّ، يداً بيد، وصل الرفض والهجران. وراحا يجولان بحرية في أرجاء الغرفة، متجاهلين فرانسيسكا. وسرعان ما اختارا زوجاً من الأحذية الفخمة واختفى كلّ منهما في حذاء مختلف. وأدركت فرانسيسكا أن مخاوفها قد رافقت وصول ثروتها. كانت تنتظر المناسبة الملائمة، لحظة ضعف ويأس شديدين لتكشف عن نفسها. ها هي تختفي حالياً بين ملابسها الجديدة الغالية، حيث راحت تراقب حزن عينيها المتورمتين. لم يكن أمامها سوى شيء واحد يمكنها فعله.

نهضت عن أرضية الغرفة وبيدين وساقين مرتعشتين تعرّت تماماً. كوّمت في وسط غرفة الجلوس جميع ثيابها وأحذيتها الجديدة، وأكسسواراتها الغالية ورزم أوراق البيزو، كلّها. ثمّ صبّت السائل الوحيد المتبقي في بيتها فوق الكومة بطريقة طقوسية: وتحوّلت ذراعها اليمنى إلى ريشة طويلة تطير بخفة في الهواء. تراجعت عن الكومة وتطلعت في أرجاء بيتها، ضحكت. ثمّ دخلت المطبخ، وأخذت علبة ثقاب، وسارت صوب الباب، فتحته، استدارت، وأشعلت عود ثقاب ورمته فوق الكومة المبللة. انتظرت حتى التهمت ألسنة النيران الكومة ووصلت إلى السقف. ثمّ خرجت، أغلقت الباب وسارت ببطء في الشارع واتجهت إلى شجرة المانغا، وهي تقهقه. كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب الآن، ووقفت هناك عارية تماماً، تراقب الدخان وألسنة النيران الخارجة عبر الفتحات في السقف والنافذة المفتوحة؛ وسمعت جرس الكنيسة يقرع بإصرار وأصوات العديد من الجارات والصديقات يصرخن لإحضار الماء؛ وهي تقهقه وتقهقه.

خيوس مارتينز، ٤٨ سنة
عقيد سابق، الجيش الكولومبي الوطني

بدأ رجل يدخل الغرفة أسفل القاعة، لكن لم يره أحد في البيت. «إنه ناشر سابق يعاني فقدان الذاكرة»، قالت صاحبة البيت الذي نقيم فيه لأحد النزلاء. «أرجوك ألاّ تخبر العقيد. إنه مجنون!» أنا لست مجنوناً، بل مستاء. فمنذ عشر سنوات، انفجر لغم وضعه الثوّار في إحدى المعارك وبُترت قدماي، وبذلك انتهى عملي العسكري. لكن في هذا النزل من الدرجة الثانية، لا يمكن حفظ الأسرار لمدة تزيد على بضع دقائق. وعندما سمعت عنها، قلت هل هو فقدان الذاكرة؟ سأساعد هذا المنيك على استعادة ذاكرته، ثم سأفجّر رأسه.

في غرفتي، حشوت مسدسي وأخفيته تحت معطف أبيض مثني بمهارة فوق حضني. جرعت نصف كأس من شراب الرم وأشعلت سيجارة، أخذت منها نفسين ثم أطفأتها وسحقتها في منفضة السجائر. تفحّصت يدي. كانت ثابتة بما يكفي لأطلق النار عليه. توجهت بكرسيّه المتحرك نحو الباب وفتحته ببطء، أجفلت عندما أصدر صريراً. بعد أن نظرت في الاتجاهين، تحرّكت بالكرسي في الرواق الضيق. لم أكن متوتراً وعصبياً. لم يخفق قلبي بضربات أسرع من المعتاد، ولم ألهث طلباً للنفس. حركتُ

يديّ فوق العجلات حتى أصبحت على مسافة بوصتين تقريباً من غرفة ضحيتي. سمعته يسعل، ابن الزنا ذاك. قرعت على باب غرفته ثلاث مرات بيدي اليسرى. كانت يدي الأخرى تحت المعطف تمسك المسدّس بقوة حتى بدأت يدي تؤلمني. سعل ثانية. في وقت قريب سأضع حداً لسعاله، قلت لنفسي. ساد صمت لفترة قصيرة، ثمّ سمعت صوتاً مألوفاً. فُتح الباب فجأة وكان هناك أمامي تماماً، النزيل الجديد، المقاتل السابق في صفوف الثوار، الوحش. لم تكن له ساقان، بل مجرد جدعتين، وكان يجلس في كرسي للمعوقين.

راح أحدنا يحدّق في الآخر. كما لو كنا ننظر في مرآة.

«مرحباً» قال أخيراً، وابتسامة ودية ترتسم على شفتيه، وأضاف، «فيسنتي غوميز في خدمتك»، ومدّ لي يده.

أفلت من يدي المسدس الذي كان لا يزال مخبأً تحت المعطف، وتعمدت الانتظار لحظة قبل مصافحته، وقلت: «خيسوس. خيسوس مارتينز. إني نزيل في الغرفة في نهاية البهو».

«سرّني لقاؤك»، قال أحدنا.

«وسرّني لقاؤك أنت أيضاً»، أجاب الآخر.

الفصل السادس

«الأرملة الأخرى»

ماريكيتا، ٧ كانون الأول
(ديسمبر) ١٩٩٧

كدأبه في كلّ ليلة طوال السنوات الخمس الماضية، جلس سانتياغو مارين على درجات البيت، حافياً ودون قميص، يحدّق في الظلام، منتظراً بابلو. وكان قد أشعل هذه الليلة أيضاً شموعاً من أجل مريم العذراء التي تنتقل، حسب التقاليد السائدة، في السابع من كانون الأول (ديسمبر) من كل عام من بيت إلى بيت، ومن قرية إلى قرية، وتمنح بركاتها على كلّ شمعة تشعل من أجلها.

تناهى إلى سمعه من بعيد صوت هدير سيارة. في البداية لم يكترث بالأمر، لكن عندما بدأ هدير الصوت يزداد، لمّ شعره الطويل بسرعة وجعله في شكل ذنب حصان، ومسح وجهه المكسو بالزيت بخرقة، وأشعل شمعة أخرى. ثمّ رأى الأضواء الأمامية لسيارة تهبط من أعلى التل. كانت آخر سيارة عبرت شوارع ماريكيتا غير المعبّدة هي سيارة الجيب المهلهلة التي أوصلت فرانسيسكا، أرملة غوميز، مع حقائبها الكثيرة عندما عادت من

رحلتها إلى إباجو قبل أكثر من سنة. باستثناء لونها الأسود، لم تكن السيارة الآخذة بالاقتراب من القرية مختلفة: سيارة جيب قديمة، بالية، ذات صوت محرّك عال. دار السائق دورتين حول الساحة الخربة قبل أن يتوقف عند الناصية ليحيّي قاضية القرية والخوري ومديرة المدرسة، بالإضافة إلى الكثير من النساء والأطفال الذين يحملون شموعاً، والذين خرجوا من بيوتهم للترحيب بالزائر. وبعد أن أكّد للقاضية للمرة الثانية أنه لم يرسل من قبل الحكومة، وبعد أن عرف العنوان، قاد الرجل سيارته ببطء عبر الحشد المتزايد، في شارع فرعي ضيّق، ثم توقف في وسط الشارع، أمام بيت أرملة جاراميلو، وأمام بيت سانتياغو.

«دعوني أخرج»، قال السائق بنبرة غاضبة للأطفال الشبه العراة المتحلقين حول السيارة. وقرّبت النساء أطفالهن إليهن، ورحن ينتظرن بهدوء.

«ابتعدوا عن طريقي»، صرخ السائق، وقد بدا متعجرفاً يرشح احتقاراً، على الرغم من عينيه المشدوهتين، وبشرته الداكنة، وبالرغم من قبعته المصنوعة من القش، ومعطفه الرث، وخنجره القابع في غمده على خصره ما يدل بوضوح على أنه ينحدر من أصول هندية ـ لم يكن شخصاً مهماً. وقف أمام مدخل بيت أرملة جاراميلو، وظن أن الجلبة التي أحدثتها سيارته، وصراخ الحشد المتجمهر حولها يكفيان لإخراج المرأة من بيتها. ولم تكن الأرملة قد أشعلت أيّة شمعة هذه الليلة لأنها فقدت الأمل في الحصول على البركات منذ أمد بعيد (فقد جنّت بعد أن قتل الثوّار زوجها واثنين من أبنائها، ولم يعد هناك من يقوم على رعايتها). وعندما لم تخرج أرملة جاراميليو من البيت، قرع السائق المتغطرس الباب وانتظر. قرع للمرة الثانية والثالثة والرابعة، وفي كل مرة، أعلى من سابقتها، إلى أن فتحت

الأرملة الباب أخيراً، ولم تكد تمدّ أنفها، حتى همس الرجل شيئاً في أذنها، ومن دون أن تجيب، صفقت المرأة المجنونة الباب في وجهه.

«كلبة!» صاح الرجل. وأخذ يركل الباب بحذائه الجلدي المدبب. «افتحي الباب، أيتها الكلبة. لقد أمضيت ساعات في البحث عن هذه الحفرة اللعينة». تراجعت النساء المحتشدات. استمر الرجل الغاضب يركل الباب ويطلق الشتائم، «إذا لم تدفعي لي الآن، سألقي بقطعة الخراء المقززة هذه فوق درجات بيتك»، صرخ، مشيراً نحو السيارة بسبابته، «وتعرفين ماذا يمكنني أن أفعل أيضاً؟ سآخذ الحقيبة اللعينة معي. هذا ما سأفعله».

أخذ سانتياغو يراقب المشهد بهدوء من الجانب الآخر من الشارع، وطلب من أخواته الصغيرات الدخول إلى البيت، وأن تراقب أمّه المشهد من مسافة معقولة. لم يتحرّك من مكانه. لبث واقفاً في البقعة ذاتها التي كان يمكث فيها كلّ ليلة، طوال السنوات الخمس الماضية، يشعل مزيداً من الشموع من أجل العذراء، بأمل الحصول على بركاتها، محدقاً في الظلام، منتظراً عودة بابلو إليه.

*

كان بابلو وسانتياغو قد ولدا في صباح الأول من شهر أيار (مايو) ١٩٦٩. كان بابلو يكبره بساعتين ونصف الساعة؛ وكان يحلو للدكتور راميريز، الطبيب الذي قام بتوليدهما، أن يقول إنه ما عدا الوحمة الداكنة تحت عين بابلو اليمنى، كان الصبيان يشبه أحدهما الآخر عندما ولدا: «مثل توأمين، مع أنهما ولدا لأمّين مختلفتين».

عندما بدأا يكبران، كان بابلو وسانتياغو الطفلين الوحيدين في الشارع الوحيد في ماريكيتا. كان الشارع ضيّقاً غير معبّد تحفّه أشجار المانغا

الصغيرة. وكانت سقوف البيوت مصنوعة من الآجر، وكانت واجهاتها المبنيّة من الآجر تخفي طبقات من التراب. كان هذا الشارع يُعرف بشارع دون ماكسيمليانو، الرجل الذي يملك جميع البيوت على جانبي الطريق. وكان يمتلك ثلاث مزارع قريبة من القرية. وخلال موسم الحصاد، كان معظم الرجال الذين يعملون في حصاد المحاصيل يأتون من القرى المحيطة بماريكيتا. وكانت النساء يمكثن في البيت ويحطن أطفالهن بالرعاية، ويقدّمن لهم الكاسافا والبطاطا والكزبرة والكوسا.

وكان الصبيّان يمضيان معظم أوقاتهما في المناطق المحيطة بالقرية. وكان أحدهما يزور منزل الآخر لتناول الطعام، ثمّ يخرجان ثانية. ولم يكن من غير المعتاد أن ترى أمّ كل منهما بابلو وسانتياغو وهما يتجوّلان في أرجاء ماريكيتا ويشبك أحدهما يده بيد الآخر، وكانتا تقولان: «إنهما مثل شقيقين».

وكانت اللعبة المفضّلة للصبيين هي لعبة الخوري والأمّ بجانب النهر.

«سأكون أنا الأب»، قال بابلو.

«إنك الأب دائماً. أريد أنا أن أكون الخوري أيضاً»، يقول سانتياغو متذمراً. لكنه كان يستسلم في كلّ مرّة. يختفي بابلو في الغابة مدّعياً أنه يعمل في إحدى مزارع البن التي يملكها دون ماكسيمليانو، ويبقى سانتياغو على ضفة النهر يقلّد تصرفات أمّه: ينقل الماء من النهر في أوعية طينية كبيرة، يطهو، يسقي الحديقة، يطهو ثانية، يغسل الملابس، ويطهو للمرّة الأخيرة. وبعد بضعة دقائق يخرج بابلو من وراء الحرش، متظاهراً بأنه وسخ ومتعب.

«مساء الخير يا حبيبتي»، يقول، ويقبّل مؤخرة رقبة سانتياغو.

«كيف كان يومك؟»

«كالعادة. الكثير من العمل».

جلس الصبيّان على الأرض، وتظاهرا بأنهما يتناولان وجبة طعام من الرزّ والفاصولياء. وبعد العشاء، خلع بابلو قميصه ورقد على العشب، ونظر إلى السماء، ويداه معقودتان تحت رقبته. «سأغسل الصحون فيما بعد»، قال سانتياغو، وانتقل بسرعة إلى جزء اللعبة الذي يحبّه أكثر: التدليك. بدأ بقدميّ بابلو، وراح يفرك بلطف كلّ إصبع من أصابع قدمه الاثنتي عشرة حيث ورث عن والده قدمين في كل منهما ست أصابع. أخذ سانتياغو يدلك إلى الأعلى ببطء، ربلتي ساقيْ وركبتيْ وفخذيْ بابلو، وأمضى فترة من الزمن وهو يدلك صدره. وعندما قرص سانتياغو حلمتيْ بابلو الصغيرتين البنيتين، بدأت تنبعث من بابلو تنهدات. وعندما بدأ بابلو يتنهد، عرف سانتياغو أنه آن الأوان ليبدأ بمداعبة قضيب صديقه الصغير، يعتصره مثل حلمة في ضرع، وراح يضحك بحماسة على الطريقة التي كان يتلوى فيها جسم بابلو بمتعة، مثل جرو. وعندما توقّف سانتياغو، ضمّه بابلو بين ذراعيه، وسار معه إلى النهر. وعندما وصل الماء إلى خصره، كافأ بابلو سانتياغو بقبلة ناعمة ليثبت له أنه زوجة جيدة. وأمضيا باقي النهار في السباحة عاريين في النهر، يغرقان صراصير، ويبولان فوق كثيب النمل، ويرميان أحجاراً على أعشاش، ثم يعدوان إلى النهر. إلا أن القبلة كانت الجزء الذي كان سانتياغو يحبّه أكثر من أي شيء، التعبير الصحيح عن الحبّ الذي يعادل الضجر في تقليد أمّه كلّ يوم.

وفي الليل، كان الصبيّان يجلسان فوق جذع شجرة خارج بيت سانتياغو، ينصتان إلى حكايات جدته السحرية، مثل الحكاية التي تحوّلت فيها المرأة

العجوز إلى قطّة لكي تخدع الموت، أو حكاية الأميرة الغنية التي لا تعرف كيف تضحك. وفي كلّ ليلة تقريباً، كان بابلو وسانتياغو ينامان معاً فوق الأرض الطينية الوعرة أمام بيت سانتياغو، ملتحفين بالملاءة البيضاء نفسها، وهما يحلمان أحلاماً مختلفة.

*

بحزم، عاد السائق إلى سيارة الجيب. فتح الباب الخلفي، وأخرج حقيبة جلدية رثّة. فتحها وأخرج منها منشفة بيضاء كبيرة وأغلقها ثانية. وقبل أن يتابع العمل الذي كان يقوم به، نظر الرجل الغاضب نحو باب أرملة جاراميلو، وكأنه يمنح المرأة آخر فرصة للخروج، ولتسوية الأمر معها. ثمّ وضع الحقيبة جانباً، وسحب من داخل سيارة الجيب جسداً شدّه من الساقين. لم يتحرك الجسد، ولم يصدر عنه أيّ صوت. اقتربت النساء أكثر، مضيئات المشهد بنور شموعهن. «ابتعدن»، صاح السائق بهنّ. وبسرعة عرّى الجسم العاري، كاشفاً عن رجل هزيل تكسوه قروح وكدمات، وأزال عن رأس الرجل قبعة بحركة سريعة: كان أصلع تماماً تقريباً.

«أشعر بالبرد»، صاح الرجل العاري بصوت منخفض.

«أوه»، همست النساء المحتشدات بصوت واحد، وشعرن بالارتياح عندما اكتشفن أن الرجل الغريب لم يكن ميتاً. وأزال السائق سلسلة ذهبية من رقبة الرجل العاري، ونزع من رسغه ساعة يد متلألئة ووضعهما في الجيب الأمامي من سرواله الوسخ. ثمّ حاول أن يستل خاتمين من إحدى أصابع الرجل الكبيرة.

«لا»، قال الرجل العاري متأوهاً، «ليس الخاتمين، أرجوك»، وشد قبضته بإحكام.

«اخرس»، أمره السائق، «لقد أقسمت بأنها ستدفع لي تكاليف إحضارك إلى هنا، لكنك لم تدفع التكاليف، لذلك من الأفضل أن تتركني آخذ ذينك الخاتمين اللعينين الآن».

«أرجوك، ليس الخاتمين».

«دعني أخرجها، وإلا قطعت يدك»، صاح السائق، مادّاً يده إلى خنجره.

«أوه!» همس الحشد ثانية.

«توقّف، أرجوك. لا تفعل ذلك. كرمى لله»، كان الصوت اليائس هو صوت الخوري رافاييل، الذي أُبلغ للتو بما يجري فجاء مسرعاً ترافقة القاضية وسارجنت الشرطة. قال: «أرجوك دع هذه الروح المسكينة تموت بسلام». وقف على مسافة من المشهد البغيض، وأخرج إكليلاً من جيب ثوبه، وأخذ يدمدم صلوات بمسبحته. وعلى الفور، انضمت إليه عدد من الأرامل.

تجاهل السائق المحبط طلب الخوري وواصل سعيه لفتح يد الرجل الهزيل، لكنه لم يتمكن من فتحها.

«دع هذا الرجل المريض الآن، وإلا هشمت رأسك». جاء التهديد الآن من القاضية، روزالبا أرملة باتينو. وقفت وراء السائق مباشرة، موجّهة مسدساً إلى رأسه. وإلى جانبها، تقف سارجنت الشرطة، أوبالدينا أرملة ريستريبو، تمسك مسدساً بكلتا يديها.

أدار السائق عينيه الحاقدتين إلى النساء وبصق على الأرض. وأمسك المنشفة البيضاء ولفّها حول الرجل الهزيل، ثمّ حمل كومة العظام على كتفه واتجه إلى باب منزل أرملة جاراميلو، ومدّدها على الأرض بالقرب من الدرجات وركل الباب ثلاث مرات أخرى. صاح السائق، «إنه خارج باب

بيتك. عار عليك لأنني سآخذ ملابسه. أتسمعينني؟» وعاد إلى سيارة الجيب، متجاهلاً المسدسين اللذين كانا يلاحقان كلّ حركة من حركاته، وجمع ملابس الرجل المريض وحذاءه، ودسّها في الحقيبة الجلدية الرثّة. أغلق الباب الخلفي، وركب سيارة الجيب وشغّل المحرك. ومن وراء النافذة صاح بالكلمات التي كان سانتياغو، الجالس عبر الشارع، يخشى سماعها: «إنه ابنك الذي يحتضر في الخارج. أيتها الكلبة الفظة. ستذهبين إلى الجحيم!»

ظل سانتياغو هادئاً، يحدّق بشرود في كتلة الوجوه المألوفة المحتشدة أمامه، غير قادر على رؤية كيف تحوّلن فجأة من حالة الاكتئاب إلى الجدّ. فلم ير قط النساء وهن يضعن رؤوسهن بين أيديهن، أو يمسكن شفاههن المرتعشة بأطراف أصابعهن. ولم يسمع صوت بكائهن، أو صوت محرّك السيارة الجيب الصاخب العالي وهي تبتعد. وفي هذه اللحظة، كانت خفقات قلبه في صدره هي الحركة الوحيدة المنبعثة منه.

*

بدأ بابلو وسانتياغو يعملان في الأراضي التي يملكها دون ماكسيمليانو بيردومو في أحد الأيام الغائمة من عام ١٩٨١ . فقد كان الآباء يرسلون أطفالهم للعمل عندما يبلغون الثانية عشرة من العمر، وفي بعض الأحيان، في سن أصغر إذا طُلب منهم العمل في الحقول. كان موسم الحصاد قد بدأ وبدأت الحاجة إلى العمال في ياريما، أكبر مزرعة بن يملكها دون ماكسيمليانو. ووصل الصبيّان إلى البيت الريفي في وقت مبكر من الصباح، والتقيا بدونا مارينا، وهي امرأة قزمة، غير ودودة، مسؤولة عن سكن العمال. نظرت إلى الصبيين بازدراء، ودمدمت بشيء لم يفهماه، وبيدها

السمينة الصغيرة، أشارت لهما بأن يتبعاها. سار بابلو وسانتياغو وراء دونا مارينا في درب موحل ضيّق، يبعدان بأرجلهما الإوزات التي كانت تلحق المرأة القزمة وكأنها واحدة منها. وقادت دونا مارينا الصبيين إلى مأوى كبير يقيم فيه قاطفو البن في ياريما أثناء موسم القطاف. وأخبرتهما أين يمكنهما إيجاد سلال القشّ التي يربطونها حول خصريهما، وأرسلتهما إلى المزرعة. وقالت لهما بصوت فيه صرير: «امشيا في هذا الدرب إلى أن تريا أشجار البنّ»، ورمقتهما بازدراء، وأضافت، «شكراً لأنكما تبعدان تلك الوحوش عنّي».

كانت حبات البنّ في معظم أشجار البنّ قد أصبحت بلون الكرز الداكن. ومن الجزء الأعلى من التلّ، بدت المزرعة مثل آلاف أشجار عيد الميلاد المزيّنة بأنوار حمراء. وأمر المشرف بابلو بأن يتبعه، طوال نصف يوم، رجل هندي مسنّ يتدلى على ظهره شعر طويل في شكل ذيل حصان. وتبع سانتياغو رجلاً يدعى سيغاريلو، بسبب وجود سيجارة في فمه دائماً. وكان على الرجلين تعليم الصبيين أسرع وأسهل طريقة لقطف البنّ. وكان بابلو وسانتياغو يتمنيان أن يتمكنا من العثور على والد كلّ منهما، ولهما أكثر من ثلاثين سنة من الخبرة في مزارع البنّ، لكنّهما كانا قد أُرسلا إلى كابريرا، وهي مزرعة بنّ صغيرة يؤدي فيها الطقس السيء إلى فشل المحصول.

«انظر إلى يديّ يا بني»، طلب سيغاريلو من سانتياغو. وراحت أصابعه تخفق مثل العصافير بين أغصان الأشجار، لا يكاد يلمسها، بينما راحت عشرات حبّات البنّ الحمراء تتساقط في سلته. «لا نريد إلا حبّات البنّ التي تشبه حبّات الكرز الجاهزة، الحبّات التي تستطيع أن تقطفها بيديك». كان وجهه قد لفحته الشمس، وشارباه غير مشذبين؛ وأضاف، «إن كانت هناك

حبّات خضر معها، فإن طعم القهوة يصبح مرّاً، وإن كانت هناك حبّات بنّ شديدة النضج، فإن طعمها يصبح حامضاً». وأخذ سانتياغو يتفحّص سلة الرجل بحثاً عن حبّات بن خضر أو ناضجة كثيراً، لكنه لم يجد شيئاً. ومضى سيغاريلو يقول: «يستطيع قاطف البنّ الماهر قطف المحصول الناضج في جولة واحدة فقط. ويجب عليه أن يقطف ما لا يقل عن مائة رطل من البنّ في اليوم». وقال إنه عندما تمتلئ السلة، يجب على القاطف نقلها إلى مطحنة البنّ القريبة من المخزن، حيث تقوم دونا مارينا، القزمة، بوزن البنّ وتسجيل كمية البنّ المقطوفة، ثم يعود إلى المزرعة ليقطف البنّ ثانية. ويُدفع أجر قاطفي البنّ كلّ يوم سبت، نقداً في جزء منه، ومن المحصول في جزء آخر، وذلك حسب الكمية التي قطفها كلّ رجل خلال الأسبوع. وأضاف سيغاريلو، «إن أهم شيء في كلّ ذلك الاستمتاع بالعمل. غنّ أغانٍ، تكلّم مع الأشجار، قل لها بعض النكات. تخيّل أن الأشجار مئات النساء العاريات المصطفة، تنتظر منك أن تُخرج ثدييها»، قال الرجل مقهقهاً. اصطنع سانتياغو ابتسامة. فكّر بأن يسحب قضيب بابلو بدلاً من ذلك.

في الليلة الأولى، ضم بابلو حصيرته القشّ إلى حصيرة سانتياغو في مهجع ياريمان ليناما لصق بعضهما، كدأبهما. وأمسك أحدهما بيد الآخر لترديد الصلاة، وعندما انتهيا، قبّل أحدهما الآخر وقالا طابت ليلتك.

وعند الزاوية، راح باتشو، وهو شابّ بدين قصير ذو خدّين ورديتين، جالس على حصيرته، يراقب الصبيين تحت ضوء المصباح. «انظروا ما لدينا هنا يا شباب»، صاح باتشو ليسمع كلّ من في المهجع. «شاذان يقبّل أحدهما الآخر ويصلّيان لله». استوى واقفاً، وحمل المصباح واتجه نحو

الصبيين، وقال يخاطبهما، «تتبادلان القبل وتصلّيان ـ ألا تعلمان أن هذا حرام؟» سألهما بنبرة بدت جواباً أكثر مما بدت سؤالاً. هزّ رأسه منددأ قبل أن يضيف، «إنه إثم شنيع». لم يفهم سانتياغو وبابلو ما قاله الرجل، لكنه في جميع الأحوال، جعل الأمر يبدو وكأنهما ارتكبا إثماً مشيناً. مال أحدهما على الآخر، حزينين. وقف الشاب فوقهما، وصدره متضخم ومشوه بسبب قربه الشديد منهما، وقال: «هذا حلو للغاية»، قال، مقلّداً صوت امرأة، «هيا، أريد أن أرى أحدكما يقبّل الآخر».

«اخرس يا باتشو»، صاح سيغاريلو متذمّراً من حصيرته، نصف نائم.

«دع الصبيين في حالهما ودعنا ننام».

لكن الرجال الذين لم يفعلوا شيئاً في الأسابيع القليلة الماضية إلا العمل، كانوا متلهفين على أيّ نوع من التسلية. جلس بعضهم على الحصيرة واستعدوا لمشاهدة المشهد من بعيد، ونهض آخرون وتحلّقوا حول الصبيين، وطلبوا منهما أن يبدآ العرض في الحال.

«هيا أيتها الخنفستان الصغيرتان. ليس أمامنا الليل بطوله»، قال رجل فقد الصف الأمامي كله من أسنانه، ولامس مؤخرة سانتياغو بقدمه العارية.

«إنني خائف يا بابلو»، همس سانتياغو في أذن صديقه.

«هيا نقبّل بعضنا مرة أخرى ثم نخلد إلى النوم». هزّ بابلو رأسه موافقاً.

«قبّله، قبّله»، صاح النظّارة الهائجون بصوت واحد.

«أرجوك يا بابلو، قبلة واحدة أخرى فقط»، همس سانتياغو ثانية، بصوت محشرج بالرعب، وقلبه الصغير يخفق بقوة داخل صدره العظمي.

«قبّله، قبّله ـ».

طلب سانتياغو بإلحاح شديد إلى حد أن بابلو أحسّ بأنه يجب أن يفعل

ذلك، أومأ برأسه حسناً. ضمّ الصبيان أحدهما إلى الآخر بقوة. وألقى سانتياغو نظرة على الرجال، من واحد إلى آخر، مشيراً إلى أنه هو وبابلو مستعدان لإدخال السعادة إلى نفوسهم، ثمّ قبّل برفق شفتي صديقه المرتعشتين لوهلة، إلى أن فصلت أول ركلة وجهيهما عن بعضهما.

انقض الرجال الغاضبون على الصبيين كالوحوش الجائعة، يوجهون إلى جسديهما الرقيقين لكمات قوية بقبضاتهم العنيفة، يطأونهما بأقدامهم الصلبة الغاضبة. وبعد أن خدّرهما الخوف، لم يشعر الصبيان بالضربات القوية التي كانت تكال لهما من كلّ جانب. لم يكونا يصرخان، ولم يكونا يبكيان، ولم يكونا يريان أو يسمعان شيئاً.

«توقّفوا»، جاءت الصرخات المفاجئة من الباب، «افسحوا الطريق! تحرّكوا». كان الصوت واضحاً. فقد راحت دونا مارينا، التي تحمل مصباحاً يكاد يبلغ نصف حجمها، تشق بجسمها الصغير الحشد. عاد جميع الرجال إلى حصرانهم، يضحكون ويتهامسون. رفع بابلو وسانتياغو وجهيهما المشبعين ضرباً من فوق حصيرتهما وأجهشا في البكاء. «يا إلهي! ماذا فعلتما لهذين الطفلين المسكينين؟»وضعت دونا مارينا المصباح على الأرض الطينية، وراحت تمسّد رأسي الصبيين بيديها الصغيرتين. «لقد وصل هذان الطفلان إلى هنا اليوم»، لم تقل ذلك لأحد على وجه التعيين، ثم صاحت، «لم يفعلا شيئاً لأي أحد منكم. لماذا آذيتموهما؟ لماذا؟»

«لأنهما شاذان»، أجاب صوت من الخلف. «لهذا السبب». نظرت باتجاه الزاوية التي انبعث منها الصوت، لكنها لم تر أحداً: فقد أطفأ الرجال مصابيحهم، وتركوا معظم أرجاء الغرفة في عتمة تامة. «ستدفعون جميعكم ثمن ما فعلتموه»، صاحت في الظلام، «لن يتناول أحد طعام الفطور غداً».

وساعدت دونا مارينا الصبيين على النهوض برفق من فوق حصيرتيهما، وأعادتهما إلى البيت الريفي حيث تعيش مع الطبّاخين والخادمات. وطهّرت لهما جروحهما برفق، وبدون أيّ تعليق أو سؤال، قالت فجأة عندما بدأت تضمد جروحهما، «أعرف أنكما لستما كذلك، ما قاله ذلك الوغد عنكما».

كان في صوتها نبرة تحذير لم يتمكن الصبيّان، اللذان كانا لا يزالان مكتئبين من الضربات التي تلقياها، من إدراكها. «أعرف أنكما لستما كذلك، إني أعرف ذلك». صمتت مرة أخرى، كأنها أنهت حديثها، لأنها كانت تبحث في عقلها عن الجولة التالية من الكلمات بعناية. وعندما بدأت تضع كمادات باردة على وجهيهما المتورمين، تابعت كلامها، «إن كنتما كذلك، أي ما قاله الرجل عنكما، فإني أنصحكما أولاً، بأن تحتفظا بذلك لنفسيكما، وثانياً، أن تكونا حذرين للغاية هنا. إن الريف قاس. لكن بما أنكما لستما كذلك، فلن أنصحكما بشيء». ومنحتهما ابتسامة تآمرية، وواصلت معالجة جروحهما. وعندما انتهت، أخذتهما إلى مبنى المخزن وقالت لهما إنهما سيناماان هنا من الآن فصاعداً.

عندما غادرت، عانق بابلو وسانتياغو أحدهما الآخر، وبكيا بصمت. ومسّد أحدهما أنف الآخر المكسور بأطراف أصابعه. وقبّل الآخر عينيْ صديقه المتورمتين مرات عديدة.

وناما معاً داخل أحد أكياس البن.

*

توّقف الخوري رافاييل وأتباعه عن تلاوة الصلاة وانضموا إلى بقية الحشد في الثرثرة التي لم تتوقف. وراحو ينظرون بين الحين والآخر من وراء أكتافهم إلى سانتياغو، متسائلين متى سيحدُث التأثير الكامل للمأساة عليه

ومتى سيكون ردّ فعله. وحذّرت الممرضة راميرز المجموعة كلها بعدم الاقتراب من الرجل المريض، ثمّ انتحت جانباً بالخوري رافاييل والقاضية لتحدثهما.

«مهما كان المرض الذي أصاب بابلو، فقد يكون معدياً»، قالت الممرضة بصوت منخفض، ورمقت القاضية بنظرة تحذيرية. ثم قالت إنه لم يتم تلقيح أطفال ماريكيتا من أيّ مرض منذ ست سنوات، ولن ينجو من الوباء، ثم أوصت بحبس بابلو في كوخ فرانسيسكا المحروق حتى يموت ـ وكان يبدو من نظراته أنه سيموت قريباً ـ ثم يُحرق جسمه. بدا أن القاضية والخوري قد أصابتهما نصيحة الممرضة بالذعر.

«لا نستطيع أن نترك أحداً منا يموت هكذا ـ معزولاً في مزبلة، محاطاً بالجرذان والمخلوقات الأخرى»، قالت القاضية. كان صوتها الغاضب يرتفع أكثر من مجرد همس.

«أوافق»، قال الخوري رافاييل مقاطعاً، «يجب أن يموت بابلو جاراميليو كمسيحي، ويُدفن وفق الطقوس المسيحية».

«إن مستقبل قريتنا مجهول في الحالة التي هي عليها»، ردّت الممرضة البدينة، «كلّ ما أعرفه أن كلّ ما لدينا هو أطفالنا. وإذا فقدناهم ـ». لم تنه جملتها، بل اكتسى وجهها بنظرة قدرية، وجه له أنف ساحرة ضخم وعينيْ سمكة حزينة، وأضافت، «فقط فكّروا في الأمر».

فكّروا في الأمر معاً، وفي أقل من دقيقة، خلصوا إلى أنه ليس أمامهم حلّ آخر: إذ أن مستقبل ماريكيتا يجب أن يأتي في المقام الأول. لكن من سيأخذ بابلو إلى بيت فرانسيسكا القديم؟» سألت القاضية. هزّ الخوري كتفيه، وهزّت الممرضة كتفيها، وهزّت القاضية كتفيها، لكنها سألت سؤالاً آخر: «ألا يجب حجر هذا الشخص صحياً؟»

في تلك اللحظة بالذات، نهض سانتياغو، وفي يده شمعة، أخذ يسير ببطء عبر الشارع باتجاه بابلو. كان بابلو مستلقياً إلى جانبه، وجهه متجه نحو باب بيت أمّه وكأنه ينتظر أن يُفتح. وقف سانتياغو إلى جانبه، متأمّلاً في ضوء الشمعة، الشيء القليل الذي يمكن تأمّله هناك، باذلاً جهده ليتعرف على صديقه القديم. ربما كان ذلك خطأ. لعل سائق سيارة الجيب قد أخطأ، وجاء إلى القرية الخطأ، إلى الشارع الخطأ. لا بد أن خطأ ما قد حدث. فقد كان بابلو شاباً وسيماً: طويلاً، أسمر داكناً، متين البنية، ذا شعر طويل أسود...

«سانتياغو؟ هل هذا أنت؟» سأل بابلو، وهو يتحسّس وجود صديقه بطريقة ما.

أومأ سانتياغو تلقائياً عندما استدار بابلو بصعوبة واستلقى على ظهره. وبصعوبة كبيرة، سحب بابلو ذراعه اليسرى من تحت المنشفة الملتفة حوله، كاشفاً عن الجزء العلوي من جسمه، ومدّها ليلمس سانتياغو، لكن سانتياغو كان بعيداً عنه قليلاً، وسقطت ذراع بابلو باسترخاء على الأرض محدثة صوت ارتطام. وهمس قائلاً: «الخاتمان».

نظر سانتياغو إلى يد بابلو النحيلة وهي تتلوّى مثل دودة في التراب. كان خاتمان ذهبيان صلبان معلقين في بنصره. «ماذا عنهما؟»

«خذ واحداً»، قال بابلو هامساً، «لقد وعدتك بخاتم. أتذكر؟»

*

كان ذلك في شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩٨٤. كان بابلو وسانتياغو قد بلغا الخامسة عشرة من العمر. كانا قد غادرا ياريما، بناء على توصية دونا مارينا، للعمل في بيت دون ماكسيمليانو الريفي، الذي يقع على مسافة

تبعد حوالي ثلاث ساعات سيراً على الأقدام من ماريكيتا. وكان صاحب الأراضي الثري قد بناه منذ خمس سنوات، وكان ينم عن ذوقه السيء وانعدام قدرته على التخيل. فقد كان بيت بيردومو عبارة عن صندوق خالٍ من أي ذوق، عريض، ذي غرف متداخلة وبضع نوافذ، كأنه صمم خصيصاً لمنع الضوء من انتهاك خصوصية ساكنيه. وقد قضى دون ماكسيمليانو عدّة أشهر لإقناع زوجته بمغادرة المدينة والانتقال إليه. وللتعويض عن قبح البيت، حشته دونا كاريداد بقطع أثاث فخمة، وحوّلت جميع غرفه إلى مزيج من الطاولات والكراسي والخزانات والأسرّة المبهرجة الألوان، التي ساهمت جميعها في خلق حالة دائمة من التشويش والفوضى.

وباتباع نصيحة دونا مارينا غير المباشرة، عرّف بابلو وسانتياغو نفسيهما على أنهما ابنا عمّ. وسرعان ما أُوكلت إليهما مهمة صيانة البيت ـ طلاء الجدران وإعادة طلائها، وإصلاح الأبواب المكسورة، وملء المواقد بالحطب، وصيانة شبكة التمديدات، وتجهيز المخزن بالمواد اللازمة. وكان دائماً هناك شيء يمكن القيام به. واشترك الشابان في غرفة نوم صغيرة لا توجد فيها نوافذ خلف البيت، بجانب غرفة الخادمة، فيها صندوقان لوضع ملابسهما، وسريرا طيّ ومصباح. وفي نهاية يوم العمل، كان بابلو وسانتياغو يدخلان تلك الغرفة ويغلقان على نفسيهما الباب ليحلّ عليهما إحساس هائل بالهدوء والأمان والحميمية. وقد خلق هدوء الغرفة المطلق، وانعدام الزينة المنعش والمريح للنفس، ونور المصباح الذي يلقي بظلال تتمايل على الجدران البيضاء ـ جميعها عالماً منعزلاً، فبدا للشابين أن كلّ شيء ممكن، حتى حبّهما السري وشهوتهما المستعرة. وفي داخل غرفة

النوم تلك، لم يعد تدليك أحدهما قدميْ وركبتيْ الآخر جزءاً من لعبتهما الطفولية، بل أصبح جزءاً أساسياً في حياتهما معاً؛ ولم يعد التقبيل مكافأة، بل طريقة مرغوبة بتذكير أحدهما الآخر، من دون كلمات، بأشد مشاعرهما عمقاً. ولم يكن داخل غرفة النوم تلك زوج أو زوجة، بل شابان، عاشقان.

وكانت ابنة بيردوموس الوحيدة، الآنسة لوسيا، قد وصلت مؤخراً من نيويورك، حيث تدرس في الجامعة. وكانت تأتي في شهر حزيران (يونيه) من كل عام وتمكث حتى نهاية شهر آب (أغسطس). لكنها لم تسافر هذه المرة وحدها: فقد جاء معها رجل يدعى وليام، في السابعة والعشرين من عمره، يطلب يدها للزواج. ولم يكن وليام وسيماً ولا غير وسيم، بل بين بين: فارع الطول، وردي البشرة، ذو أنف صغير وعينين خضراوين. وكان وجهه، المكسو بطبقة من النمش، يبدو لأول وهلة ذا قسمات متعجرفة، لكن بعد أن رأى المودّة الحقيقية والكرم الأصيل الذي أبداه له مضيفوه، كشف وجهه عن مظهر البراءة والتواضع الذي ترك انطباعاً جيداً ودائماً في نفوس أسرة بيردوموس. ولم يكن وليام يرتدي شيئاً سوى بناطيل من قماش الكاكي، وقمصان منشّاة فاتحة الألوان. وكان يتكلّم لغة إسبانية ركيكة بصوت لا يكاد يُسمع، وكأنه يريد أن يمنع مستمعيه من ملاحظة لفظه السيء. ورأت دونا كاريداد في ذلك أمراً جذاباً وتحيّنت كلّ فرصة للتحدث إليه. مكث خمسة أيام فقط، وهي مدة تكفي ليخلّف البعوض والحشرات الأخرى على جلده الأجنبي وفروة رأسه، ندوباً كثيرة. وقبل الليلة التي غادر فيها، خطب وليام الآنسة لوسيا رسمياً بعد أن وضع خاتماً ذهبياً في إحدى أصابعها الطويلة خلال عشاء رسمي.

وعندما ذهب خطيبها، ازدادت طلبات الآنسة لوسيا: «بابلو اجلب طعام

فطوري إلى الشرفة». «سانتياغو، مشّط لي شعري». «بابلو، اجلب لي نظارتي الشمسية». «سانتياغو، دلّك قدمي». لم تكن جذابة كثيراً: كانت نحيفة، توجد تحت عينيها البنيتين الناعستين ظلال داكنة، ولها شفتان رقيقتان تختفيان كلما ابتسمت. ومع أنها لم تكد تبلغ الثالثة والعشرين من العمر، فقدت أسنانها لونها الأصلي، وبدت الآن وكأنها طليت بالصدأ قليلاً، بسبب، كما كانت دونا كاريداد تردد، «عادة التدخين السيئة التي يجب أن تقلعي عنها قبل أن يكتشف خطيبك». وكانت حاجبا الفتاة موضع نقد وسخرية: فقد نتفت كلّ الشعر عليهما، ورسمت مكانهما خطين رفيعين من التاتو،كانا يجعلانهما أطول أو أغمق أو أثخن ـ لكن دائماً خطين غير مستويين ـ صباح كلّ يوم باستخدام أقلام رسم الحواجب. كما كانت شخصية ابنة أسرة بيردوموس الوحيدة لا تتناسب مع الريف: فقد كانت لطيفة وحسّاسة، ذات سلوك رقيق، ربما كان رقيقاً جداً إلى حد أنه لا يتلاءم مع الحياة الريفية. وكانت حرارة الصيف «مقيتة»، والبعوض «لا يطاق»، والماء المحلي السيء «قذراً»، وما إلى ذلك. وكانت ترتدي أحذية ذات كعوب عالية، وتتبرج، وتضع مجوهرات كلّ يوم، وتجلس على الشرفة وتدخّن، وتقلّب صفحات مجلات الأعراس وتقرأ قصص الحبّ.

«هل كانت تلك القصّة عن الموت يا آنسة لوسيا؟» سألها سانتياغو ذات يوم، بعد أن أنزلت الفتاة كتابها.

ابتسمت، وقالت: «لا، يا غبي. إنها عن الحبّ». كانت متمدّدة على الأرجوحة، تقرأ تارة وتنفث نفثات قصيرة من سيجارتها الرفيعة التي تتدلى من يدها النحيلة. كان سانتياغو يقف إلى جانبها، يهشّ عنها البعوض والبرغش الذي يطنّ ويئز حولها.

«لكن تبدو عليك علامات الألم».

«قد يجعلك الحبّ تشعر بالألم أحياناً».

فكّر سانتياغو قليلاً بما قالته. فلم يسبب الحبّ ألماً له ولا لبابلو؛ بل الكراهية، الكراهية غير المبرّرة التي يكنّها لهما قاطفو البنّ، والتي ـ على الرغم من شفاعة دونا مارينا المتكررة لهما سببت لهما ضرباً مبرحاً أكثر من مرة، وسيلاً من الإهانات اللفظية. وشعر أنه ربما كان عليه أن يخبر الآنسة لوسيا بأنّه ليس ابن عم بابلو، بل إنهما صبيان عاشقان. لا بد أن تتفهم، لأنها تبدو فتاة تفهم كل شيء. بالإضافة إلى ذلك، فهي على وشك الزواج، مما يجعلها خبيرة في أمور الحبّ. لكن سانتياغو كان قد وعد بابلو بأن لا يخبر أحداً بذلك. سألها، «عمّ تدور القصّة؟»

نفثت الآنسة لوسيا دخان سيجارتها من طرف فمها، وأصدرت صوتاً مثل نسيم رقيق، وقالت: «إنها تتحدث عن رجل يذهب إلى الحرب». توقّفت قليلاً، لتفكر، ثم مضت تقول: «لا، بل إنها تتحدث عن فتاة يعشقها رجل... انس الموضوع يا سانتياغو. إنها قصة معقّدة جداً».

«أرجوك، آنسة لوسيا. أريد أن أعرف».

نظرت الآنسة لوسيا إليه بفضول. وبخلاف ابن عمه بابلو، كان سانتياغو يبدو رهيفاً، مخنثاً بعض الشيء. ولم يخشن صوته بعد، ولم تكن ثمة دلالة على أن تفاحة آدم ستبرز في مقدمة رقبته. كان نحيفاً، ناعم الوجه، وكان يرغب بشدة في سماع قصص الحبّ. أطفأت ما تبقى من السيجارة وأطفأتها في منفضة سجائر.

ثم قالت: «حسناً، تدور القصّة حول إرنيستو وسوليداد، شاب وشابّة يعشق أحدهما الآخر. إنهما خطيبان يخطّطان لحياتهما معاً ـ أين يريدان أن

يعيشا، كم طفلاً سينجبان، وما إلى ذلك. لكن الحرب تندلع، ويُطلب من إرنيستو الذهاب إلى مكان بعيد، إلى الطرف الآخر من المحيط، لمحاربة الأعداء. وتقسم له سوليداد بأن حبّها له أبديّ، ويعدها بأن يعود ويتزوّجها. ومرت أسابيع وشهور دون أن تسمع كلمة واحدة من إرنيستو. وكانت سوليداد المسكينة تقف في كلّ ليلة أمام نافذتها آملة أن ترى عينيْ إرنيستو الخضراوين تتوهّجان في الليل، لكنّها لم ترهما. وذات يوم، وبعد سنوات من الانتظار، علمت سوليداد من أحد المحاربين أن إرنيستو أصيب بجروح بليغة، وفقد ذاكرته. وأنه يعيش في بلاد بعيدة، وتزوّج من امرأة ويعيش حياة سعيدة. حزنت، لكن حبّها له كان قوياً جداً فقررت الوفاء بوعدها له. وهكذا بدأت سوليداد تقف في كلّ ليلة بجانب نافذتها وتشعل شموعاً، تنتظر إرنيستو أن يعود إليها».

وبدا الآن على وجه الآنسة لوسيا ذات التعابير الحزينة التي كان سانتياغو قد لاحظها سابقاً. أشعلت سيجارة أخرى، وأخذت عدّة نفثات منها، وقالت: «هذه هي القصة».

«هذه هي؟ وماذا عن إرنيستو؟ هل عاد؟» كان من الواضح أن أمله قد خاب من نهايته.

«لا أحد يعرف. هذا ما أحبه في هذه القصّة. يجب على المرء أن يتخيّل ما سيحدث بعد ذلك».

لم يعرف سانتياغو ماذا سيقول لها. واصل تهويته لها، مفكّراً بنهاية مُرضية للقصّة، ثمّ قال: «أعتقد أنه يجب على إرنيستو أن يستعيد ذاكرته بطريقة ما، ثمّ يعود ليتزوّجها».

رمقته الآنسة لوسيا بنظرة متعاطفة، وقالت: «أظن أنه لن يعود»، سكتت

برهة، ثم أضافت، «وستظل سوليداد تقف جانب تلك النافذة، تنتظره، طوال حياتها».

فكّر سانتياغو بأن هذه النهاية قاسية وسخيفة، وقال: «هذا غير جيد، فقد وعد الرجل بأن يعود إليها ويتزوجها. يجب أن يفي بوعده».

«عندي فكرة»، قالت بإشارة مشجعة، «خذ الكتاب معك، واقرأ القصّة، ثم يكتب كل منا نهاية لها ونقارنهما».

فقال: «لا أجيد القراءة ولا الكتابة».

لم يكن اعتراف سانتياغو مفاجئاً لها، ومع أنها لم تكن تهتم بذلك من الناحية الاجتماعية، فقد كدّر ضميرها، سألته، «كم عمرك؟»

«خمس عشرة سنة».

«جيّد، على الأقل يبدو أنك تعرف الأرقام».

«أعرف بعضها».

«ماذا عن بابلو؟ هل يعرف القراءة؟»

هزّ سانتياغو رأسه، لكن وجهه ظل هادئاً وراضياً. قرّبت الآنسة لوسيا السيجارة من فمها، ودون أن تمجّ منها نفساً، هزّت هي أيضاً رأسها.

تبين أن الآنسة لوسيا معلمة عظيمة: ذات شخصية مؤثرة، حيوية، واضحة النطق، صبورة. وفي كلّ ليلة بعد انتهاء العمل، كان بابلو وسانتياغو وخادمتان أخريان ينضمون إلى ابنة بيردوموس في المطبخ لتلقي درس لمدة ساعتين. في البداية، تعلّموا الحروف الصوتية، ثمّ الحروف الساكنة، ثمّ تشكيل عبارات وجمل بسيطة. وكان بابلو يتعلّم بسرعة وحماسة. فحفظ الأبجدية عن ظهر قلب بسرعة، وسرعان ما بدأ يكتب جملاً طويلة واضحة. أما سانتياغو فكان نقيضه. فقد كان يخربش الحروف

ويجمعها دون ترتيب، ولم يكن يبذل أي جهد في التعلم. لكن أسلوبه اللا مبالي أربك بابلو ـ كان سانتياغو متلهفاً على الدوام لتعلّم أيّ شيء. ربما كان يتعلّم القراءة والكتابة بوتيرة مختلفة، أبطأ من بابلو، أبطأ من الخادمتين. أو ربما كان يغار من الاهتمام الذي كانت الآنسة لوسيا تبديه لبابلو غالباً، فقد كانت لا تتوقف عن الثناء على ذكائه ورغبته الشديدة في الدراسة.

وبعد كلّ درس، كانت الخادمتان تعودان إلى غرفتهما، ويذهب سانتياغو إلى غرفته، ويتوجه بابلو والآنسة لوسيا إلى الشرفة. كانت الآنسة لوسيا ثرثارة، وكان بابلو مستمعاً جيداً. كانت تدور بينهما أحاديث طويلة، معظمها عن حياتها في الولايات المتحدة، وكانت تريه صوراً وبطاقات بريدية من مدن رائعة وأماكن غريبة. وكان بابلو يسألها أحياناً عن نيويورك، وجعلته ردود الفتاة المفصّلة والمنمقة يتخيّل مدينة عظيمة فيها سيارات سريعة تطير في الهواء؛ وأبراج راسخة ضخمة تلامس السماء؛ وحدائق يكسوها العشب معلقة في الغيوم؛ وأرض تفيض مالاً، حيث تنمو قطع نقود ذهبية من حفر في الأرض في كل مكان، مثل الأعشاب الضارة.

في البدء، كان العيش في مثل هذا المكان مجرد حلم يقظة كامن، لكنه كاد يصبح هوساً لدى بابلو. كان يفكّر ليل نهار في الانتقال إلى نيويورك. وتخيّل نفسه يرتدي بنطال كاكي وقمصاناً منشّاة، مثل دون وليام، ويسير في شوارع واسعة؛ أو يجلس وراء طاولته في مكتبه، أو يتأمّل أفق المدينة عبر النوافذ الكبيرة من بيته، وجيوبه مليئة دائماً بالأوراق النقدية. وراح يفكّر بالانتقال إلى نيويورك إلى حد أن ذلك بدا أمراً يمكن تحقيقه. كان يتمنى حدوث ذلك بولع إلى حد جعل فرصة تحقيق حلمه تلوح في الأفق

أخيراً. ففي إحدى الليالي، بعد حديث جدّي بينه وبين الآنسة لوسيا، وقبل أن يأوي إلى النوم، نقل بابلو الخبر إلى سانتياغو.

«سأغادر مع الآنسة لوسيا. قالت إنها ستساعدني في الذهاب إلى هناك. إنها تعرف كيف».

بالنسبة لسانتياغو، لم تكن الفكرة معقولة. «لا بد أن تكون رحلة مكلفة يا بابلو. من أين ستحصل على النقود لدفع تكاليفها خلال أسبوعين؟»

«ستقرضني إياها».

«لكن أين ستعيش؟»

«ستدعني أمكث في بيتها لمدة شهر أو قرابة ذلك، حتى أستقر».

«وكيف ستجد عملاً؟»

«إنها ستساعدني في إيجاد عمل».

«لكنك لا تتكلّم لغتهم».

«قالت إنني ذكي، ويمكنني أن أتعلّمها بسرعة».

«لكن كلّ ما تعرفه هو تصليح بعض الأشياء».

«قالت إنه عمل ذو أجر جيد في نيويورك».

«لا أعرف يا بابلو... لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة».

«ليس مستحيلاً».

كانت فترة الصمت التي سادت بين ردّ بابلو الأخير وسؤال سانتياغو التالي طويلة، لا تطاق.

«وماذا عنا؟»

«لا تقلق علينا يا سانتياغو. سأعود وآخذك معي. وسأجلب قدراً كافياً من المال لشراء مزارع بنّ لأسرتي ولأسرتك». توسعت عيناه من الانفعال، وانتفخت فتحتا أنفه.

«وسأكتب لك رسالة كلّ أسبوع. وبهذه الطريقة ستعرف أنني أفكّر بك طوال الوقت».

غاص سانتياغو في سريره دون أن ينبس بكلمة.

بدت الآنسة لوسيا أشنع وأخبث في نظر سانتياغو خلال الأسبوعين اللذين سبقا مغادرة بابلو. كان ذنبها أن بابلو سيسافر فجأة، ذنبها أن أيام سانتياغو ولياليه أصبحت منذ ذلك الحين كأن لا نهاية لها. كان عليها أن تكتشف أن بابلو وسانتياغو عاشقان وأن ترى الأمر «بغيضاً» و«لا يطاق» و«قذراً». فقد تبدو فتاة ودودة وحنونة في الظاهر، أما في العمق، فلم تكن تقل شرّاً وحقداً عن قاطفي البنّ الذين كانوا يضربونهما. فلم تتمكن من فصل أحدهما عن الآخر بقبضتيها، لذلك لجأت إلى استخدام ذكائها.

كان سانتياغو يتفادى الالتقاء بالآنسة لوسيا أثناء النهار. ففي الصباح، كما جرت العادة، كان يمشّط شعرها الطويل بالفرشاة، ولكن ليس باللطف الذي دأب عليه. وبعد الظهر، كان يقف بجانبها، يهشّ البعوض عنها، وهي تقرأ، لكنه لم يعد يسألها عما يجعلها تضحك ضحكتها الخافتة، أو تزفر تنهدات طويلة، أو تذرف الدموع. كما لم يفوّت أي درس من دروس القراءة والكتابة التي كانت تلقيها عليهم في الليل. بل بذل جهداً كبيراً في التعلم بسرعة لأنه، قال لنفسه، يجب أن يكون قادراً على قراءة الرسائل التي سيرسلها له بابلو كلّ أسبوع ليردّ عليها. وفي الأسبوعين اللذين لم يتحدّث عنهما بابلو شيئاً، إلا عن مغامرته الوشيكة، جعلت سانتياغو شديد الغضب. ولم يكن سانتياغو يعبأ بمعرفة أنه يوجد جهاز تلفزيون في كلّ بيت في نيويورك، أو أن سكان نيويورك يتناولون دجاجة كلّ يوم إذا أرادوا ذلك.

وقبل أسبوع من مغادرته، ذهب بابلو إلى ماريكيتا لمدة يومين لإحضار وثائقه القانونية وتوديع والديه وأخويه الاثنين. عندها فهم سانتياغو جيداً

كيف ستكون حياته من دونه. ولوهلة، فكّر بالذهاب إلى نيويورك مع بابلو، لكنّه سرعان ما تخلى عن الفكرة. فقد كان أكبر أخواته الثلاث والابن الوحيد، وكان قد وعد والده بأن يساعده في إعالة باقي أفراد الأسرة في ماريكيتا. وكان، سانتياغو مارين، رجلاً يلتزم بكلمته.

في يوم السبت الذي سبق مغادرة بابلو، سرق سانتياغو خاتم خطوبة الآنسة لوسيا. فقد أراد أن يجرّبه في إصبعه ليرى كيف سيبدو عندما يخطب. فقد علم من الخادمات أنها تنزع الخاتم من إصبعها الرقيق صباح كلّ يوم قبل أن تستحم، وأنها تضعه على المنضدة بجانب السرير، بجانب صورة زوجها المقبل داخل الإطار. في صباح ذلك اليوم، انتظر سانتياغو سماع صوت يجري، ثمّ تسلل على أطراف أصابعه إلى غرفة نومها. كانت رائحة السجائر تعبق في الغرفة بشدّة، وكانت ثيابها وأحذيتها مبعثرة على أرض الغرفة. عندما وقف في وسط الغرفة، بدأ يتصبب منه عرق بارد، وأخذت يداه ترتعشان. ماذا يفعل؟ بدأ يفكّر بالعواقب التي قد يحل به وبـبابلو نتيجة تصرفه الشجاع، لكنه رأى عندئذ الخاتم في المكان الذي حددته الخادمتان. حدّق فيه للحظة أو لحظتين، ويداه معقودتان بشدة خلف ظهره. ثمّ انتزعه ورفعه نحو الضوء: كان خاتماً من الذهب الخالص مرصعاً بثلاثة أحجار صغيرة. جرّبه في كلّ إصبع من أصابعه العشرة لكنه رأى أنه لم يبد جيداً على أصابعه. لكن لا بد أنه سيبدو جميلاً في أصبع بابلو. وتخيّل يد بابلو وهي تكتب رسالة، عزيزي سانتياغو ـ الأحجار الثلاثة تلمع من الخاتم الذي يضعه ـ وقرّر، في لحظة إثارة، أن يكون خاتم الآنسة لوسيا خاتم خطوبته هو وبابلو. دسّه في جيبه وخرج من غرفة النوم بسرعة.

عندما عادا إلى غرفتهما، طلب سانتياغو من بابلو أن يغمض عينيه وقال له: «لا تفتحهما حتى أطلب منك ذلك». ثم أضاف، «أعطني يدك الآن.

اليد اليمنى». ووضع الخاتم في خنصر بابلو، الإصبع الصغيرة الوحيد الذي يتسع له، «قبل أن تفتح عينيك، يجب أن تعدني بأن تبقيه دائماً في إصبعك، وألاّ تخلعه، حتى عندما تستحمّ».

«أعدك بذلك»، قال بابلو نافذ الصبر، وعندما فتح عينيه، صاح، «هذا خاتم خطوبة الآنسة لوسيا! هل سرقته؟»

«يستطيع السيد وليام أن يشتري لها خاتماً آخر».

نزع بابلو الخاتم من إصبعه بسرعة ووضعه بقوة في يد سانتياغو، وقال: «لقد ارتكبت خطأ. يجب أن تخجل من نفسك».

خرج من غرفة النوم، وصفق الباب وراءه. انكب سانتياغو على وجهه على السرير وراح يبكي بصمت، ووجهه مدفون في الوسادة. فقد أخذ العالم الذي بناه هو وبابلو معاً ينهار فجأة حوله. إنه على وشك أن يفقد الشخص الذي يحبّه.

وبعد عدة دقائق عاد بابلو إلى الغرفة، وقال: «أعرف لماذا أخذت ذلك الخاتم، لكن هذا خطأ. يجب أن تعيده مباشرة قبل أن تلاحظ اختفاءه». جلس سانتياغو على السرير وهزّ رأسه. «انظر إليّ» همس بابلو، وأدار بيده ذقن سانتياغو نحوه، «سأجمع نقوداً كثيرة، وسأشتري خاتمين لنا، أتسمعني؟ سيكونان أفضل من هذا عشرة مرات، مائة مرة، سترى. وعندما أعود، سأضع خاتماً في إصبعك، وستضع خاتماً آخر في إصبعي... لا، لا تبك. أرجوك لا تبك. أعدك بأنني سأعود، وسنكون معاً. نعم، إلى الأبد. هسس... سيكون كل شيء على ما يرام يا سانتياغو، حبيبي سانتياغو. سأعود قريباً. أعدك. هسس...»

*

تفرّق الحشد بعد تحذير الممرضة. لم تبق سوى حفنة من النساء بالقرب من هذا المشهد المثير للشفقة، يراقبن من وراء نوافذ بيوتهن وأبوابها، وكانت القاضية من بين تلك النسوة. كانت روزالبا تراقب الرجلين من نافذة بيت سيسيليا وفرانسيسكا ـ فبعد أن اضطرمت النار في بيتها، سُمح لفرانسيسكا بالانتقال إلى غرفة نوم ابنها المرحوم أنخيل لقاء عملها في الحديقة والمطبخ.

كان بابلو ممدداً على الأرض، بينما وقف سانتياغو فوقه. كانا يبكيان، وكان نور الشمعة الشاحب يضيء يد سانتياغو.

جثا سانتياغو على ركبتيه ووضع الشمعة على الأرض. أخذ يد بابلو، المرخية، الرطبة، في يده. كان بابلو مجرد كتلة من العظام، عظام قد تتهاوى لو لم يكن جلده يحتويها. كانت تملأ ذراعه ورقبته والجزء المكشوف من جسمه بقع أرجوانية وتقرّحات جلدية حمراء لامعة. وتدلّت طبقة رقيقة من الجلد نصف الشفاف فوق عظام وجهه. كانت عيناه غائرتين وكئيبتين، وتحوّل حاجباه السميكتان إلى خطوط رفيعة من الشعرات المتناثرة. وبقيت الوحمة الكامنة تحت عينه وحدها كاملة، داكنة، سوادها الكثيف يُبرز شحوب وجه لا يحمل أي أثر للرجل الذي كان سانتياغو يحبّه، الرجل الذي كان ينتظره.

«خذ واحداً»، غمغم بابلو، «الخاتمان. خذ واحداً».

بحرص شديد، سلّ سانتياغو الخاتم من إصبع بابلو وراح يفركه بشكل دائري فوق راحة الرجل المريض، وقال: «أريدك أن تضعه في إصبعي. لقد وعدتني بذلك».

هزّ بابلو رأسه. نعم، تذكّر وعده. كان هو أيضاً يريد أن يضع الخاتم في

إصبع سانتياغو. كان يتمنى أن يتبقى شيء من القوّة في ذراعه. . .

جعله سانتياغو يمسك الخاتم الذهبي بينما أزلق الخاتم في بنصر يده اليمنى. ثمّ نزع الخاتم الثاني من إصبع بابلو. «أعطني يدك اليمنى»، قال، مع أنه أصبح يعرف الآن أن بابلو قد فقد السيطرة على معظم عضلاته. قال ذلك ليسمع صوته، ويتأكد من أن سانتياغو مارين، الرجل أمامه، هو بابلو جاراميلو، وأن هذه اللحظة المنتظرة منذ أمد بعيد تحدث فعلاً. مدّ يده إلى يد بابلو اليمنى، ووضع الخاتم الذهبي بلطف في بنصر الرجل. ولفترة قصيرة، كان الخاتمان بجانب بعضهما، يتلألآن تحت ضوء الشموع. دائرتان من الذهب الخالص من دون أحجار تنتقص من بساطة جمالهما. ابتسم بابلو، ابتسامته المرتعشة سلسلة من التقلصات العضلية.

رفع سانتياغو يده، أداره في إصبعه، أحكم قبضته وأرخاها من دون أن يرفع عينيه المنتصرتين عن الخاتم الذهبي من إصبعه. لقد خطب بابلو رسمياً في نهاية الأمر.

*

سنة ألف وتسعمائة وثمانية وثمانون. مضت أربعة أشهر على شهر آب (أغسطس)، ولم يسمع سانتياغو كلمة واحدة من بابلو. كانت الآنسة لوسيا وزوجها قد جاءا للزيارة ذات مرة، لكن لم يكن لديهما أي خبر عنه. قالت: «لا أعرف أين هو. لقد انتقلتُ أنا ووليام إلى بيت جديد، ولم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك الحين». لكن سانتياغو لم يستسلم. وقبل أن يعود الزوجان إلى الولايات المتحدة، أعطاهما كومة من الرسائل التي كتبها إلى بابلو. «إن نيويورك مدينة كبيرة يا سانتياغو. من المستحيل تسليمه رسائلك من دون معرفة عنوانه».

«أرجوكِ يا آنسة لوسيا، خذيها معك. لعلك تقابلينه في الشارع».

«سآخذها. لكنني لا أستطيع أن أعدك بأن بابلو سيقرؤها».

أصبح سانتياغو الآن مسؤولاً عن الإشراف على منزل ريستريبوس. كان يحرص على توفير الأطعمة ومواد التنظيف، وكانوا يقدمون له مبلغاً أسبوعياً لتوفير هذه المواد. وكان مسؤولاً عن استخدام الخادمات والعاملين وتزيين مذبح الكنيسة في البيت بالفواكه الطازجة والأزهار. وكان يعمل من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة ليلاً، ولم يعد لديه وقت يخلو فيه إلى نفسه. وكانت كلمة «نفسه» كلمة فظيعة، اضطر إلى تعلمها بعد مغادرة بابلو؛ وكانت تنتابه حالة من العزلة والوحشة كلّ ليلة في غرفة نومه. ماذا لو فقد بابلو ذاكرته، مثل إرنيستو في قصّة الآنسة لوسيا؟ ماذا لو التقى شخصاً آخر ونسي سانتياغو؟ بين الحين والآخر، كانت الشكوك تطغى على آماله، فيبكي بصمت. وأعاد كتابة نهاية قصّة الآنسة لوسيا عدة مرات، وعندما لم يكن يستطيع أن يفكّر بأسلوب مناسب لنهايتها، كان يعيد كتابة القصّة من البداية.

كانت رواية حكايته على النحو التالي:

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كان هناك شابّان اسمهما بيدرو وصموئيل، يحبّ أحدهما الآخر. ومثل كلّ حبيبين، أرادا أن يصبحا خطيبين، لكنهما كانا فقيرين لا يستطيعان شراء خاتمين. عندها قرر بيدرو الذهاب إلى نيويورك للعمل وتوفير المال الكافي لشراء خاتمي خطبتهما. كانا في غاية الحزن عندما ودّع أحدهما الآخر. بكيا وأقسما على أن يحبّا بعضهما حباً أبدياً. ووعد بيدرو بأن يكتب إلى صموئيل رسالة كلّ أسبوع وأن يعود ويعيش معه بقية حياتهما. مضت سنة، ولم يتلق صموئيل أيّ

رسالة من بيدرو. لكن صموئيل لم يشعر بالقلق. فقد كان بيدرو متأكداً من أن سبباً وجيهاً يمنعه من الكتابة إليه. وكلما اعترته بعض الشكوك، أبعد تلك الأفكار الشرّيرة عنه، وقال لنفسه: «إن بيدرو يحبّني. إنه سيعود». انتظر صموئيل طويلاً، لكنه لم يفقد الأمل.

وذات ليلة، بينما كان يستحمّ في النهر، سمع صوتاً ينادي باسمه. تطلع حوله ورأى بيدرو يخرج من وراء الأشجار. كان يرتدي بدلة بيضاء مكوية، ويضع ربطة حمراء وينتعل حذاء أبيض من الجلد الأصلي، ويحمل حقيبتين. وخيّل لصموئيل أنه يرى هلاوس. لكن لا، كان هذا هو بيدرو نفسه. اندفع خارجاً من الماء وقبّله. فتح بيدرو إحدى الحقائب. كانت مليئة بمئات الرسائل التي كان قد كتبها إلى صموئيل، والتي أعيدت جميعها إليه لسبب أو لآخر. ثمّ فتح بيدرو الحقيبة الأخرى. كان فيها ثوب زفاف مطوياً بعناية شديدة.

«هذا لك يا صموئيل»، قال بيدرو، «أريد أن نتزوّج الآن».

«بيدرو، لا أعرف ماذا أقول. لم نصبح خطيبين بعد»، قال صموئيل.

«أنا آسف. كدت أنسى ذلك»، أجاب بيدرو، وأخرج علبة صغيرة من جيبه. عندما فتح العلبة، كاد الضوء يعمي صموئيل. كان خاتم خطوبة ذهبياً متوّجاً بقطعة كبيرة من الماس. «هل تتزوّجني؟» سأل بيدرو.

«نعم»، أجاب صموئيل مبتسماً. قبّل أحدهما الآخر. ثمّ قدم بيدرو إلى صموئيل الحقيبة التي تحتوي ثوب الزفاف وطلب منه ارتداءه. كان صموئيل يدرك أن العريس يجب ألا يرى عروسه قبل حفل الزفاف، لذلك اختفى وراء الأشجار. كان الرداء جميلاً حقاً: ناصع البياض من دون ردنين، ذو فتحة عنق واسعة، وتنورة طويلة على شكل جرس. وكان طول بطانة الرداء قرابة ثلاث ياردات. وكان مع الثوب برقع وحذاء أبيض. لم

يشكّ صموئيل بأن هذا الثوب هو أغلى ثوب في نيويورك كلّها؛ لكنّه لم يحزن لأنه يعرف أنه يستحقه. ارتدى الثوب ووضع البرقع، ورتّب الأزهار في باقة ملوّنة، ثمّ خرج من وراء الأشجار. تحلّق عشرات الأشخاص بانتظار خروج صموئيل. كانوا أقرباء وجيران دعاهم بيدرو مقدماً.

أخذوا يصفّقون ويهتفون بينما مشى صموئيل ببطء عبرهم، ممسكاً بالأزهار. قابل صموئيل بيدرو في النهاية، على ضفة النهر. رفع بيدرو البرقع وفوجئ مندهشاً برؤية بدر ينعكس من كلّ عين من عينيْ صموئيل. قال: «أحبّك، يا حبيبي». قبّل أحدهما الآخر، وفي تلك اللحظة، أمطرهما الناس بحبات الرزّ. ضم بيدرو صموئيل بين ذراعيه وسار في النهر حتى غمر الماء الدافئ خصريهما.

«إننا أسعد زوجين على وجه الأرض»، قال بيدرو.

«نعم، يا حبيي»، ردّد صموئيل.

وتواعدا بأن لا ينفصلا ثانية ويعيشا سعيدين إلى الأبد.

كان سانتياغو يقرأ القصّة كلّ ليلة قبل أن يخلد إلى النوم، كالصلاة. وأخيراً حفظها عن ظهر قلب، وأصبح بوسعه ترديدها طوال اليوم.

*

لفّ سانتياغو بابلو بالمنشفة البيضاء، وحمله بين ذراعيه ومشى به في الشارع. وراحت الأرامل اللاتي كنّ يتسكعن في الشارع ينظرن خلسة إلى وجه سانتياغو المتألم وهو يجتازهن. كنّ يهززن برؤوسهن، ويرسمن شارة الصليب، ويتلين صلواتهن، ويفركن عيونهن المحدّقة.

«أدخله يا بني»، صاحت أمّ سانتياغو من أمام باب بيتها، «يمكننا أن نتدبر له شيئاً ليأكله».

واصل سانتياغو سيره صامتاً.

«لا بد أنه يشعر بالبرد»، بدا في حالة اكتئاب شديد، «دعني أجلب له بعض الثياب». وارتفعت صيحاتها عندما ابتعد ابنها مع بابلو. ومن الخلف، بَدوا مثل صليب أسود كبير يتلاشى وسط نور الشموع المشتعلة الخافتة على كلا جانبي الطريق.

«إلى أين تأخذ الرجل يا سانتياغو مارين؟» نادت القاضية من نافذة سيسيليا وفرانسيسكا. «إنك ستوضع في محجر صحي، أتسمعني؟ لا تذهب ولا تقل إنني لم أحذّرك».

لم يجب سانتياغو، لم يتوقّف ولم ينظر إلى الوراء. وراح يحدّق بمحبة في الصرة التي يحملها بين ذراعيه وقرّبها إلى جسمه.

كان البدر ينير الدرب الضيّق. ولم يتوقّف سانتياغو ليرتاح إلا مرّة واحدة فقط. جثا على جانب الطريق مسنداً ردفيه على كعبيه وبابلو في حضنه.

«إلى أين نحن ذاهبان؟» سأل بابلو بصوت خفيض.

«إلى المكان الذي يجب أن تراه». لم يكن صوتاهما العميقان يتناغمان مع أصوات الليل، الذي تختلط فيه أصوات حفيف الأغصان، وصرير جذوع الأشجار، ونقيق الضفادع، وصوت صرصار الليل، ونعيق البوم، وأصوات المخلوقات الليلية الأخرى.

«أريد أن أرى الساحة. . . والكنيسة».

«إنهما كما كانتا عندما غادرت».

كان الجو حاراً. وبدأت حبات العرق على جبهة سانتياغو تسيل على وجهه. أغمض عينيه وتخيّل الرجل الذي يحمله بين ذراعيه سلة مليئة بالورود الأرجوانية الرهيفة، الجميلة. نهض، نصف مبتسم، وواصل

سيره، ببطء أكبر، لأن الغيوم الضخمة حجبت نور القمر ولم يعد ير جيداً. كانت قدماه تأخذانه إلى حيث كانا ذاهبين.

«خذني لأرى أبي»، قال بابلو.

«لقد ذهب يا بابلو».

«إذاً. . . خذني لأرى إخوتي».

«لقد ذهبوا هم أيضا».

لم يخبر سانتياغو بابلو كيف ماتوا. ولم يخبر بابلو أن الثوّار الشيوعيين هاجموا ماريكيتا قبل خمس سنوات، وخطفوا رجالهم. وأنهم قالوا إنهم يحاربون لكي لا يمر يوم لا يتناول فيه شخص كولومبي وجبة طعام جيدة، ثم تناولوا طعامهم وشربوا ماءهم. وقالوا إنهم يقودون البلاد لكي تصبح مجتمعاً تمسي فيه الملكية عامة، ثم انتقلوا من بيت إلى بيت، يغتصبون أخواتهم وأمهاتهم. وأمروا جميع الرجال الذين تزيد أعمارهم على اثنتي عشرة سنة بالالتحاق بهم، وقالوا إنهم سيعطون كلّ فرد منهم بندقية؛ بندقية الحرية لمحاربة الحكومة، للدفاع عن حقوقهم. لكن عندما سأل والد بابلو عن حقّه في الاختيار بعدم الالتحاق بالحركة، أطلقوا عليه النار من إحدى بنادق الحرية التي وزّعوها عليهم وأردوه قتيلاً، ثمّ قتلوا أخويه الاثنين أيضاً، لأن «كولومبيا لم تعد بحاجة إلى جبناء».

لم يخبر سانتياغو بابلو أن الثوّار اقتادوا جميع الرجال؛ وأنه هو، سانتياغو، تمكن من الهرب من التجنيد الإجباري لأنه كان لا يزال يعمل في بيت دون ماكسيميليانو الريفي، وأنه عاد إلى القرية حال سماعه بالهجوم، وأنه وعد أمّه وأخواته بألاّ يتركهن ثانية بعد ما رآه: بيوت أحرقت تماماً، أرامل فقدن عقولهن، يبكين بين أكوام الزبالة، نساء عجائز يصلّين

جاثيات على ركبهن العارية وأياديهن الملطّخة بالدم مضغوطة معاً وعيونهن مغمضة بشدة، وفتيات صغيرات يفركن أجسادهن المنتهكة بقوة فوق الطين، يلعنّ حياتهن، وفتيان وفتيات صغار عراة يبكون ويجوبون الشوارع، يصيحون منادين آباءهم وإخوتهم.

لم يخبر سانتياغو بابلو أياً من ذلك، بل واصل سيره، يتبع قدميه اللتين تعرفان الدرب أكثر مما يعرفه هو.

«لكن ماما... إنها في البيت. لقد سمعت السائق... كان صوت بابلو يزداد ضعفاً في كلّ مرّة يتكلّم فيها.

«نعم، إنها هناك. إنها نادراً ما تغادر بيتها. لكنها عندما تغادره، تضع ببغاء على كتفها، ويتبعها ثلاثة كلاب مسّنة. إنها لا تكلّم أحداً».

«هل جنّت؟»

«إنها سعيدة. إنها أسعد من معظم الأرامل في القرية. إنها ليست وحدها. لقد استبدلت حيواناً بكلّ قريب فقدته».

ضغط بابلو وجهه بقوة على صدر سانتياغو وأخذ يبكي بهدوء.

بزغ القمر من بين الغيوم، أكبر حجماً وأكثر إشراقاً، ملقياً بضيائه على الرجلين. وعندما رأى سانتياغو المكان الذي يقصدانه أخيراً، تباطأ، لكن تنفّسه كان لا يزال سريعاً، الهواء الدافئ يدخل ويخرج من رئتيه بموجات تشنجية قصيرة.

«لقد وصلنا» قال هامساً. كانا بجانب النهر، حيث كان يلعب هو وبابلو لعبة الخوري والأمّ، مرات ومرات. وقف سانتياغو على الضفة، يراقب الماء وهو يتدفق باستمرار، مصغياً إلى صوت تدفقه. قال: «انظر ما أجمله». نظر بابلو إلى الأعلى ليرى روعة القمر المتلألئ، وراح يتحرك

قليلاً ليرى بدراً ينعكس في كلّ عين من عينيه الغائرتين، مضيئاً وجهاً يفترض أن يكون ميتاً. «أحبّك»، قال سانتياغو، ممسكاً بابلو بشدة وهو يسير قاصداً النهر كما كانا يفعلان عندما كانا طفلين. شيئاً فشيئاً، بدأ الماء البارد يغطي قدميه الحافيتين، ثم كاحليه وربلتي ساقيه، وركبتيه وفخذيه وخصره. ثمّ توقّف، وقبّل بابلو قبلة خفيفة على شفتيه، ورآه يبتسم، رأى عينيه تتسعان، وفتحتا أنفه تزدادان توسعاً، كما حدث عندما أراد أن يغادر إلى نيويورك.

كان بابلو مستعداً للمغادرة مرة أخرى.

رفع سانتياغو رأسه ونظر إلى القمر ومدّ ذراعيه، وكأنه يقدم أضحية. ركّز نظره على وجه بابلو، مالئاً نفسه بالرجل الذي يحبّه، وبدأ يرخي قبضته عنه، وبدأت ذراعاه تنفصلان ببطء عن ظهر حبيبه الصغير، مقدماً إياه هدية إلى تيار النهر. وانجرف جسد بابلو الضعيف بعيداً عنه، إلى وسط النهر، وبدأ يختفي في الماء، ثم عاد وطفا على السطح، حتى أصبح كلّ ما تبقّى منه منشفة بيضاء ليس غير علقت في دوامة النهر، تصعد إلى الأعلى، ثم تهبط إلى الأسفل.

أو لعل البدر هو الذي كان يسطع فوق الماء.

مانويل رييس، ٢٣ سنة
جندي من الثوّار

عندما أفقتُ، كنت مستلقياً على بطني في الحقل المكسو بالعشب. كان جسمي يؤلمني، وأنفي وفمي وحنجرتي تحرقني. رفعت رأسي. كان رجل يجلس أمامي، وجهه مصبوغ بالأسود والأخضر. انقضت بضعة ثوان لكي ألاحظ الأمور الأخرى فيه: قبعة دورية، سيجارة مشتعلة تتدلى من فمه، بدلة عسكرية مموّهة، ويحمل بين يديه بندقية من طراز غاليل، مصوّبة نحو جبهتي.

«لا تعرف مدى سعادتي لأنك لا تزال حياً»، قال متهكماً.

بدأت أتذكر ببطء الأحداث التي أفضت إلى تلك اللحظة. السقوط من فوق سطح السفينة، واندفاع الماء إلى فمي وأنفي، وذراعي تكافحان بيأس عكس التيار، محاولاً أن أطفو فوق سطح الماء. لا أستطيع أن أتذكّر أي شيء آخر.

عرّف الرجل نفسه بأنه جندي في الجيش النظامي. قال إنه سيحصل على مائتي ألف بيزو إذا تمكن من إعادتي إلى معسكره حياً. «يجب أن تشكر الله. إنك المحظوظ الوحيد»، قال، ودخان السيجارة يتسرب من طرف فمه، ثم قال: «انظر إلى الرجل إلى جانبك؟» التفت إلى جانبي. رجل شبه

عار ممدّد على بطنه، لا يكاد يبعد عني مسافة باردة. «لقد غرق اللقيط المسكين. ومع ذلك لا يزال يساوي بضعة آلاف من البيزوات».

نهض وأمرني أن أرفع الجثّة وأحملها. كان معسكره يبعد حوالي ساعتين سيراً على الأقدام. عندما أدرت الجثة لأضعه على كتفي، أدركت أنه كامبو إلياس ريستريبو الابن، أفضل صديق لي من الثوّار. عندها تذكّرت الباقي: إذ كنا أنا وكامبو إلياس قد وضعنا خطة مثالية للهرب من معسكرهم، من الحرب. وفي الليلة التي سبقت ذلك، بينما كنت أقوم بالحراسة، سلّمت بندقيتي إلى أحد الرفاق (إن التخلي عن البندقية هو أسوأ جريمة يمكن أن يقترفها المقاتل ضد مجموعته السابقة) وقلت له: «انظر يا رفيق، سأتغوط وراء الشجيرات هناك». لا أستطيع أن أقول له إنني سأهرب. إذ تقضي القواعد لدى الثوّار بقتل أي مقاتل يريد الهرب، حتى لو كان قائدك. هرعت إلى الكوخ المهجور، حيث كان كامبو إلياس ينتظرني بطوافة بدائية صنعها بنفسه. كنا نجتاز النهر عندما علقت طوافتنا في دوّامة وانقلبت.

إنه يتظاهر بأنه ميت، قلت لنفسي ـ كان ذلك جزءاً من خطتنا ـ لكنني عندما رفعته، كان رأسه مرخياً. وكان وجهه شاحباً، وشفتاه قرمزيتين. كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما، لكن لم يكن يُرى منهما سوى بياضهما، وكأنه قرّر أنه لا يوجد شيء تجدر رؤيته، فأرجعهما إلى الخلف.

بدأت أمشي بهدوء حاملاً كامبو إلياس على كتفي، متسائلاً ماذا سيحدث لي، وأنا أفكّر بأنه هو المحظوظ ـ لا أنا ـ فقد نجا من كلّ هذا.

الفصل السابع

الأضحية العذراء

ماريكيتا، ٢٢ نيسان
(أبريل) ١٩٩٨

كانت فكرة خرق الوصية السادسة من قانون الله من بنات أفكار الخوري. ففي أحد الأيام، قرّر زيارة القاضية لمناقشة ما أسماه «الحاجة الماسة إلى التكاثر». توجه إلى مكتبها في وقت مبكر من عصر ذلك اليوم، مرتدياً رداءه المصنوع من البوليستر الأسود على الرغم من الحرارة القائظة التي أعقبت عاصفة عنيفة دامت ثلاثة أيام. وأحضر الخوري معه صبي المذبح، هوشي منه أوسبينا البالغ من العمر أربع عشرة سنة، الذي وضع تحت الاختبار لأنه أكل مخزون أسبوع كامل من الطعام. وكان الصبي، الذي كان بديناً، رخو الجلد، مترهلاً، يكره عمله، وخاصة عندما يتعين عليه، في مثل هذا اليوم، أن يحمل الكتاب المقدس الضخم من أجل الخوري. «ألا يمكننا أن نأخذ إنجيلاً أصغر حجماً؟» كان يسأل في كلّ مرّة، وفي كلّ مرّة، كان يسمع الجواب ذاته: «لا». فقد كان الخوري مقتنعاً بأن الكتاب المقدس الضخم يزيد من أهميته ويضيف ثقلاً لمواعظه الأخلاقية.

وقف الخوري، داخل مكتب روزالبا، بجانب النافذة وراح يقرأ بصوت عال مقتطفات طويلة وكاملة في المزامير عن التناسل والتكاثر. قالت القاضية لنفسها إنها طويلة ومضجرة، وتساءلت لماذا لا يدخل الخوري في صلب الموضوع.

«الشكر لله!» قال بعد أن انتهى. أغلق الكتاب المقدس بقوة، ونظر من فوق نظارته وأعلن، «يتوجب علينا أن نضمن بقاء نوعنا».

«أوافقك أيها الأب»، أجابت القاضية، «لقد وضعت إعادة الرجال إلى ماريكيتا على قائمة أولوياتي منذ أن عُيّنت قاضية. وقد طلبت أكثر من مرة من الحكومة، بل من الله، أن ترسل لنا شاحنة مليئة بهم».

«الله قادر على كل شيء»، قال الخوري، «لكن ماذا عن المفوّض والحاكم؟ هل ردّوا عليك؟» أضاف منافقاً. فقد كان يعرف الرد.

«من يدري؟ ربما كانوا قد ردّوا»، أجابت، بنبرة توحي بعبارة نعم وليس لا. «لكن بعد أن جرفت العاصفة جميع الدروب المؤدية إلى قريتنا، أشكّ في أننا سنرى ساعي بريد مرة أخرى في هذه المنطقة ـ أو أي شخص آخر ـ من أجل هذا الأمر». وفكّرت بالآثار الفعلية لما قالته للتو: لم يعد هناك تجار، لم يعد هناك زوّار يأتون بين الحين والآخر، لم يعد هناك مسافرون، لم يعد هناك رجال. هذه الآفاق الكئيبة جعلتها تشعر بالقلق، وقالت: «يجب أن نفعل شيئاً لهذه الطرق على الفور»، وأخرجت دفتر ملاحظاتها وعقب قلم الرصاص من درجها.

«الأهم قبل المهم، يا ابنتي»، قاطعها الخوري فجأة، قبل أن تتمكن القاضية من إضافة إعادة شق الطرق إلى قائمة أولوياتها الطويلة، العديمة الفائدة. «يجب أن يكون التكاثر أولى أولويتنا»، وأشار إلى الصبي خادم

المذبح بأن يخرج من الغرفة، ثمّ جلس قبالة روزالبا. ناقشا المسألة معاً بالتفصيل، وخلصا إلى أنه يجب على نساء ماريكيتا إنجاب فتية بسرعة، وإلا فإن قريتهم ستزول من الوجود في هذا الجيل. واقترحت القاضية أن يتولى سانتياغو مارين «مهمة إنجاز هذا العمل».

هزّ الخوري رأسه، بدا وكأن أحداً قد لعنه. «فليغفر الله لذلك... الرجل».

«أبونا رافاييل»، قالت روزالبا بحشرجة، «ألا تزال تكنّ مشاعر حقد لسانتياغو على ما فعله؟» دحرجت عينيها وانطلقت منها آنّة متبرمة، غير مدركة أسلوبها الاستسلامي، «ألا توافق معي بأن وضعه في المحجر الصحي، وحيداً مع أحزانه، هو عقاب كاف لهذا الشاب المسكين؟ يا إلهي! يجب أن نتحلى بقدر كبير من الشجاعة، والحبّ. لقد فعل ما فعله. ولهذا السبب بالذات أعتبر سانتياغو واحداً منا. *ارملة. الأرملة الأخرى*».

شاعراً بالإهانة، قابل الخوري تعليق روزالبا بصمت مطبق. نظر إلى الجهة الأخرى، وبدأ يلعب بأصابعه، القابعة فوق بطنه البارزة.

«بالإضافة إلى ذلك»، واصلت روزالبا كلامها، «إنه أفضل فرصة متاحة لدينا لإيلاد امرأة».

نهض الخوري على قدميه فجأة، وقال هادراً: «أبداً»، وخبط براحة يده على طاولة القاضية، «إن رجلاً ارتكب خطيئة ضد الرب بمعاشرة رجل آخر لن يكون أباً لأهالي ماريكيتا في المستقبل». مدّ يده إلى جيبه وأخرج منديلاً وراح يربت به على جبينه، بيدين مرتعشتين.

نظرت القاضية إلى الخوري بهدوء وقرّرت أن تنتظر حتى يهدأ الرجل

الضئيل الحجم. لقد اعتادت على مزاج الخوري السيء. ففي إحدى المرات، منذ أمد بعيد، اقتلع خصلات الشعر القليلة المتبقية في رأسه بسبب عدم بقاء كمية كافية من رقائق الخبز من أجل القربان المقدس، وقال: «يا للعار». فكيف يتوقّعون منه أن يؤدي القداس من دون تقديم جسد المسيح؟ هل يُفترض منه أن يتجاوز العشاء الرباني، أهم جزء في القداس؟ وتمكنت روزالبا أخيراً، كالعادة، من حلّ المشكلة. فقد صنعت قطعاً صغيرة ورقيقة من خبز الذرة واقترحت على الخوري أن يباركها. في البداية، أحسّ بالإهانة وقال: «جسد المسيح قطعة من خبز الذرة؟» لكن روزالبا أفهمته أن خبز القربان المقدس ليس سوى قطعاً رقيقة من الخبز، وبعد أخذ ورد، قبل عرضها. لكن الخوري، بعد كلّ هذا الاضطراب نسي أن يبارك قطع خبز الذرة، وهكذا، ابتلعت النساء في الكنيسة نفس الخبز الذي كنّ قد تناولنه أثناء وجبة الفطور في البيت، لكن بفارق أنها كانت أصغر حجماً. ومنذ ذلك اليوم، أصبح خبز الذرة هو خبز الذرة في ماريكيتا، أحياناً يكون حلواً، وأحياناً مالحاً، وعندما يتوفر، يكون منكّهاً بالجبن.

أخذ الخوري نَفَسين عميقين وجلس ثانية.

«ماذا عن خوليا موراليس؟» قالت روزالبا، «فَتحتَ تلك التنورة يوجد رجل جميل»، وأكّدت على كلمة *جميل*.

قلّب الخوري عينيه، وقال: «ألا تسمعينني أيتها القاضية؟ لا يمكن إرغام أحد على المباضعة. من المحزن أنه لن يكون زواجاً عن حبّ، لكنه يجب أن يتضمّن، على أقل تقدير، درجة من الرقة والمودّة التي لا يمكن أن يمنحها إلا رجل حقيقي إلى امرأة».

«إذاً لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول»، قالت القاضية وعقدت ذراعيها، وأضافت، «لعلنا ننظر في أمر الفتية. إذ سيبلغ تشي وتروتسكي الخامسة عشرة من عمرهما هذه السنة».

«إنهما لا يزالان طفلين»، قال الخوري.

سادت فترة صمت طويلة، تحاشى كل منهما النظر في عينيْ الآخر. وبعد قليل، أطلق الخوري زفرة، وغمغم وهو يهزّ رأسه، «حسناً... لا، لا يمكنني أن أفعل ذلك». وغطّى وجهه بكلتا يديه، وكأنه على وشك أن يبكي، «لا أستطيع أن أفعل ذلك. لا أستطيع، لا أستطيع، لا أستطيع»، ظل يردد ذلك من بين أصابعه، ويهزّ رأسه بشكل محموم. لكنه بعد ذلك، متغلباً على ذنبه كما يفعل الكاثوليكيون الطيبون فقط، قال بصوت مرتفع ويائس، «يجب على المرء أن يرقى إلى مستوى مسؤولياته. فإذا شاء الله ذلك، فله مشيئته». استوى واقفاً، وقسمات شهيد ترتسم على وجهه الوردي، وراح يحدّق عبر النافذة في السماء التي تكسوها السحب، وأضاف، «يجب عليّ أن أقوم بهذه المهمة بنفسي».

اعترضت القاضية على الفكرة، وقالت: «أظن أن هذا سيعرّض سمعتك وسمعة كنيستك لضرر شديد، بالإضافة إلى سمعة قريتنا. إذ إنك تجسّد المبادئ الأخلاقية والعفة، يا أبونا». لكن الخوري أصرّ على أنها الإرادة الإلهية التي يجب أن لا يتدخل أحد في مشيئة الرب. لم تمض روزالبا في مناقشة الموضوع، وكانت شبه واثقة من أن فكرة الخوري ستلقى مقاومة شديدة بين القرويات، وستجعل النساء يقاومن الخوري العنيد.

في المساء، قرع الخوري جرس الكنيسة بقوة، داعياً إلى عقد اجتماع لنساء القرية. لكن نساء ماريكيتا كنّ قد سئمن حضور مثل هذه

الاجتماعات، لأنها تتناول دائماً أموراً تافهة لا أهمية لها. إذ كانت القاضية تذكّرهن في معظم هذه الاجتماعات بكنس ومسح أرضيات بيوتهن، والعناية بالباحات الخلفية لبيوتهن، وتقليم أظافرهن، وتمشيط شعرهن، أو أن يفلّين أطفالهن من القمل. لكنهن مع ذلك كن يحضرن هذه الاجتماعات، لأنه لم يكن هناك شيء أفضل يمكنهن القيام به. وفي هذه الليلة، قرأت روزالبا سلسلة من الفقرات القصيرة التي كتبها الخوري لنساء ماريكيتا. فكانت الفقرة الأولى، تبلغهن ـ بل تحذّرهن ـ من أن ماريكيتا معرضة لخطر الاندثار والانقراض إذا لم يتكاثر أهلها ويتناسلوا. «لكن هناك أمل»، قالت القاضية، «فالخوري رافاييل مستعد لأن يكسر نذره المقدس بالعفة ليساعد على الحفاظ على بقاء ماريكيتا واستمرارها».

سرت همهمة ارتباك في صفوفهن.

ثم أوضحت الفقرة الثانية، التي تقول إن الخوري سيجازف في أن يمضي، بعد موته، في المطهر فترة أطول بكثير مما يستحقه، فقط ليردّ لنساء القرية فضل ما كنّ قد قدمنه إلى كنيسته طوال هذه السنوات. وفي أعقاب ذلك، وردت جملة قصيرة تعلن عن بدء حملة التكاثر. إذ قرأت القاضية، «إن الحملة تهدف إلى تلقيح عشرين امرأة في المرحلة الأولى»، وأضافت أنها هي والخوري سيصلّيان من أجل إنجاب عدد من المواليد الذكور. ثمّ أخذت تتلو القواعد: تشارك في الحملة النساء اللاتي لا تقل أعمارهن عن خمس عشرة سنة ولا تتجاوز الأربَعين سنة؛ ويجب أن يسجلن أسمائهن لدى سيسيليا غوارايا، سكرتيرة القاضية؛ وعند التسجيل، يجب إبراز إثبات بصحة أعمارهن؛ وعندما يصبح التسجيل رسمياً، سيُدرج اسم المشاركات في قائمة الانتظار، ويُبلغن بموعد زيارة الخوري لهنّ.

وسُتعلق القائمة في مكتب القاضية. ومن باب الاحترام للربّ، يجب إزالة جميع الصور الدينية من الغرفة التي سيتم فيها هذا العمل المقدّس. ويجب ألا ترافق العمل المقدّس أية مشاعر عاطفية: فلن يمارس الخوري معهن الجنس، بل سيقتصر عمله على إنجاب الأطفال، الذين يؤمل أن يكونوا صبياناً. وأخيراً، ينبغي للنساء التبرع بأيّ قدر من الطعام لمساعدة الخوري على الحفاظ على صحته، ولكي يظل قوياً طوال فترة الحمل، التي قد تدوم بضعة أشهر.

وعلى عكس ما تخيّلته القاضية، لم تبد القرويات أي اعتراض على فكرة الخوري. وبخلاف ما تخيّله الخوري، لم تسجل أية امرأة اسمها خلال الأيام القليلة الأولى بعد الإعلان. فلم يتمكنّ حتى من تخيّل فكرة أن النوم مع خوري، ناهيك عن خوريهن. «سيكون الأمر أشبه بمضاجعة الربّ»، قالت أرملة موراليس. إلا أن ذلك لم يثبّط من عزيمة الخوري. فلم يكفّ أثناء صلاة القداس في كلّ يوم من تذكير النساء بواجبهن إزاء الجنس البشري واتّهامهن بالأنانية. «إن كنت أنا مستعداً للتضحية، فلماذا لا تضحين بأنفسكنّ كما ضحيّت أنا؟» وعندما أكدّ لهن أن الربّ قد منح إذناً خاصاً بخرق الوصية السادسة، أخذت قائمة الزيارات من أجل التناسل في التزايد.

كان رقم الفتاة الشابة التي تدعى فيرجيلينا سافيدرا تسعة وعشرين.

*

كانت فيرجيلينا وجدّتها لوكريكتا تعيشان في بيت متداعٍ قبالة السوق. وعندما كانت فيرجيلينا طفلة، تُركت في رعاية جدّتها التي ربتّها لتصبح ربّة

بيت خانعة ومطيعة. وبعد أن بلغت فيرجيلينا الثانية عشرة من عمرها بقليل، بدأت صحة لوكريسيا تتدهور، فأصبح من واجب الفتاة أن ترعاها أيضاً.

كانت العجوز تمضي أيامها وهي تسترق النظر من وراء الستائر إلى النساء في السوق، تخمّن ما يقلنه ويلفقّنه من حكايات مسلّية ثم تحكيها لحفيدتها وكأن النساء أنفسهن كنّ يحكينها لها. وكانت فيرجيلينا تستمع إلى هذه الحكايات وهي تزاول أعمالها المنزلية، وتومئ برأسها بين الحين والآخر. وكان للفتاة روتين صباحي يسير على النحو التالي: تستيقظ عند شقّ الفجر، تتلو صلواتها، ثم تشعل النار في المطبخ، وتعدّ طعام الفطور، وتكنس الأرض بحزمة من أوراق الأشجار، وتستحم إذا توفر ماء. وفي بعض الأحيان، كانت تجلب الماء من النهر، لكنها كانت في معظم الأحيان تعتمد على المطر لملء ثلاثة براميل بالماء خلف المنزل. وبعد أن تفرغ الفتاة من أعمالها المنزلية الروتينية، تتوجه إلى المدرسة حيث أطلقت عليها مديرة المدرسة لقب «أفضل طالبة» على مدى سنتين متتاليتين. وكان لدى فيرجيلينا ثلاثة فساتين فقط، جميعها سوداء ومحافظة، ورثتها عن أمّها المرحومة. كانت ضئيلة الجسم، هادئة، جيدة السلوك، ولم تكن قد تجاوزت الرابعة عشر من عمرها.

تمكنت لوكريسيا من إقناع سيسيليا بأن فيرجيلينا على الرغم من أنها لا تزال قاصراً، فهي تستطيع إنجاب صبي. «لقد أنجبت جدة أمي تسعة عشر صبياً»، قالت لسيسيليا، «وأنجبت ابنة ابنة عمي أحد عشر صبياً. إننا ننحدر من عائلة تعرف كيف تنجب صبياناً».

وكانت سيسيليا، المعروفة بوقاحتها وعنادها، قد استثنتها على نحو يدعو للدهشة. فقد كانت تشعر بالضعف أمام نوعين من الناس، المسنّات والنساء اللاتي يمتدحنها ويطرينها.

في فترات الصباح، كانت لوكريسيا تبدو أشبه ما تكون بالمومياء. فقد كانت مصابة بالتهاب المفاصل، الذي كان يتفاقم بسبب الريح التي تهب ليلاً من خلال الشقوق التي تملأ الأبواب والسقف. لذلك، ففي كلّ ليلة قبل النوم، تدثّرها فيرجيلينا من رقبتها حتى أصابع قدميها بقطعة قماش بيضاء طولها عشرة ياردات. وكانت جدتها تحتفظ بهذه القطعة منذ أن كانت أفضل خيّاطة في ماريكيتا. لكن مهما كان العلاج مجدياً لمفاصلها، لقد أصيبت المرأة العجوز بأمراض ومآسٍ جديدة لا تني تتذمّر منها: إذ كان الطعام لا يوافق معدتها، والضوضاء تسبب لها صداعاً، وتؤلمها كليتاها عندما يهطل المطر. أو شكاوى أتفه: الطقس شديد البرودة، شديد الحرارة، هذه حلوة جداً، هذه شديدة الحلاوة.

منذ أن بدأت جولة الزيارات، أفسحت ثمان وعشرون امرأة مكاناً في أسرّتهن للخوري الضئيل الجسم، الذي، كما سرت شائعات في السوق، حباه الله بقضيب كبير، مع أنه لم يكن عاشقاً كبيراً. «إنه ينتهي قبل أن تلاحظي أنه قد بدأ»، أخبرت مانوليا موراليس صديقاتها أثناء اجتماعهن الليلي في ساحة القرية. وتأخرت الدورة الشهرية لإحدى الأرامل، لكن تبين فيما بعد أنه كان مجرد إنذار كاذب. ولم تذكر أي امرأة أنها قد حملت بعد.

في اليوم الذي جاء فيه دور فيرجيلنا، استيقظت لوكريسيا وراحت تتذمر أكثر من المعتاد. فقد قالت: «إني أتنفّس بصعوبة. أشعر بألم في ساقيّ. اعتراني النعاس. أشعر بالغثيان». أوشكت فيرجيلينا، مرتين على الأقل، أن تطلب منها أن تكفّ عن التذمر، وأن تصمت لدقيقة أو دقيقتين، وأن تغلق منقارها العجوز لأنه ليس لديها اليوم، اليوم بشكل خاص، مزاج في سماع

أنينها. لكنها عوضاً عن ذلك، راحت تركل بقدمها فيديل وكاسترو كلّما اعترضا طريقها، وعندما غادرت فيرجيلنا إلى المدرسة، صفقت المرأة العجوز الباب وراءها بكلّ قوتها؛ وبعد الغداء، عندما استيقظت من قيلولتها المعتادة وهي تبكي وتقول إنها لا تستطيع أن تفتح عينيها، تجاهلتها فيرجيلنا. سحبت كرسياً خارج المنزل وراحت تحيك لحافاً، والقلق يعتريها من الزيارة الوشيكة: ففي هذه الليلة، ستلتقي برجل لأول مرة في حياتها.

وبينما كانت تحيك وتطرّز، راحت تتذكّر، الخطوات السبع التي ابتكرتها جدتها من أجل افتضاضها، خطوة تلو الأخرى، وبترتيب مثالي؛ وكانت قد أرغمت فيرجيلينا على ترديدها مرات ومرات، وفي كلّ مرة، كانت جدتها تطلب منها أن ترددها بالترتيب العكسي، أو أن تدمج خطوتين في خطوة واحدة، أو أن تحذف أو تضيف خطوات جديدة في حال أخفق شيء. وكان قد خُطط لتجربتها الجنسية الأولى بحرص شديد، بحيث لا تدع مجالاً لانطلاق أي حافز أو شهوة جنسية أو عاطفة مفاجئة بدأت تعتريها مؤخراً. ولم تكن فيرجيلينا تعرف سبب ذلك، لكن حلمتيها بدأتا تحكّانها في الآونة الأخيرة. وفي كلّ ليلة، بعد أن تطفئ الشمعة في غرفتها، تجد نفسها تفرك حلمتيها بأطراف أناملها إلى أن تشعر كأن مستعمرة نمل صغير هائجة تزحف داخل كلّ نهد من نهديها، تقرص حلمتها، تلتهمها. وعندما بدأت تحكّ حلمتيها، تخيّلت يدي الخوري تلامسان الجزء العلوي من نهديها الصغيرين، وكان تخيّلها قوياً إلى درجة أنها بدأت تشعر بأصابعه تعتصرهما وتفركهما بقوة. وفجاة سرى تيار كهربائي سريع في أنحاء جسمها، ما جعلها تلقي بيديها وإبرتها في الهواء. نهضت وهرعت إلى داخل البيت، وهي تغطّي نهديها براحتي يديها. لم يخامرها إحساس كهذا

من قبل. استندت إلى جدار المطبخ وأخذت نَفَساً عميقاً، ثمّ نَفَساً آخر، ثم نَفَساً آخر. وأخيراً، أرغمت نفسها على أن تتذكر بأن هذه الأصابع ـ أصابع الخوري ـ موصولة بذراعين مترهلتين، موصلتين بجسد ضئيل ذي بطن ناتئة، موصول برأس أصلع كبير ذي وجه وردي قبيح، وأنف طويل وعينين صغيرتين تشبهان عيني الدجاجة، تغطي نصفهما أجفان متهدلة. وعندما خرجت أخيراً لجلب أدوات الخياطة، أحسّت بارتياح شديد.

بعد الظهر، فركت فيرجيلينا عينيّ جدتها بماء فاتر، لكنها لم تشعر بالتحسن. كانت عينا المرأة مغمضتين بشدة. «سأذهب لإحضار الممرضة راميريز»، قالت فيرجيلنا؛ لكن المرأة العجوز أجابت بأن هذا ليس ضرورياً، وقالت إنها إشارة من السماء، تحذير بأن الله لا يزال غاضباً منها لشيء لا يعرفه أحد سواها.

في وقت لاحق من تلك الليلة، دار الحديث التالي في مطبخهما.

«شكرا للعشاء يا محبوبتي، فالحساء الذي تعدّينه أفضل بكثير من الحساء الذي كانت تعدّه أمّك، لترقد روحها بسلام».

«اشربي قهوتك يا جدتي. الكوب أمامك مباشرة».

«لم أعد أستطيع احتساء القهوة في مثل هذا الوقت المتأخّر. لم يغمض لي جفن ليلة البارحة حتى الفجر وأنا أسمع صيحات أولئك الرجال المساكين».

«أي رجال يا جدتي؟»

«رجال ماريكيتا. ألم تسمعي أصوات أرواحهم المسكينة وهي تطوف أرجاء المكان؟ تغمدهم الله برحمته».

«ليتغمدنا الله جميعاً برحمته. إننا لا نزال هنا نتألم ونعاني».

«يا طفلتي، إنك صغيرة جداً على الحديث عن المعاناة. عندما كنت في عمرك، كنت أسعد فتاة».

«نعم، أعرف. كان هناك رجل وسيم يغازلك، لكن والدك لم يوافق عليه لأنه كان ليبرالياً. وأُرغمتِ بعد سنتين على الزواج من جدّي، الذي كان بالطبع، محافظاً، والذي كان بالطبع، يضربك ليل نهار. أترين؟ لقد حفظت كلّ هذه الحكايات عن ظهر قلب. بدلاً من ذلك، لماذا لا تخبريني مرة وإلى الأبد كيف ماتت أمّي وأبي؟»

«هذا المطبخ شديد البرودة. أين بطانيتي؟»

«إنك متدثرة بها. دعيني أبحث عن قليل من القرفة لأعدّ لك شاياً حاراً. إنه سيجعلك تشعرين بالدفء».

«وعكازي؟ أين عكازي؟»

«إنه في يدك».

«هل أنت مستعدة لاستقبال زائرك يا محبوبتي؟»

«نعم، لكنه لن يأتي حتى الساعة الثامنة».

«لقد سمعت للتو ثمانية أجراس تُقرع».

«عددت سبعة».

«من الأفضل أن تكوني جاهزة قبل الموعد. تذكّري أنه رجل مشغول هذه الأيام».

«أعرف يا جدتي. أين وضعت القرفة؟»

«هل ذررت مسحوقاً أحمر على خديك؟»

«أوووووه».

«هل تتذكّرين جميع الخطوات يا محبوبتي؟ أسمِعيني جميع الخطوات».

«ليس مرة أخرى يا جدتي. بدلاً من ذلك حدثيني كيف ماتت أمّي وأبي. لا أفهم لماذا تعتبرين ذلك سراً من الأسرار».

«هل نظّفت البيت كله كما طلبت منك؟»

«كلّ زاوية فيه».

«وماذا عن الشراشف؟»

«كلّها نظيفة. وأحرقت أوراق شجرة الكينا في المرحاض الخارجي، وجلبت كمية كافية من الماء في حال أراد أن يغتسل. أوه، ها هي القرفة. إنها ممزوجة بالباندا. دعيني أسخّن الماء لك».

«هل أزلتِ صورة المسيح المصلوب من غرفة نومك؟»

«لا. لماذا يجب أن أفعل ذلك؟ قلت إن ذلك سيكون عملاً مقدّساً».

«سيكون كذلك، لكن لا يتعين على الربّ أن يراه».

«إذن سأزيلها، لكن قبل أن أفعل ذلك، أرجوك حدثّيني كيف ماتت أمّي وأبي».

بذلت فيرجيلينا جهداً كبيراً لإقناع جدتها بأن تخبرها، في لحظة صفاء استثنائية، القصّة التي طالما أرادت سماعها. وكانت المرأة العجوز تتفادى التحدّث عنها منذ سنوات، أما اليوم فإن فيرجيلينا ستصبح امرأة، ويحق لها أن تعرف الحقيقة.

«لقد قتل أبوك أمّك»، قالت لوكريسيا ببساطة، كما لو كانت تلك بداية القصّة ونهايتها معاً.

مذهولة، يداها مضمومتان فوق فمها، تهاوت فيرجيلينا على الكرسي الهزاز القديم بجانب الموقد..

ثمّ راحت لوكريسيا تروي لحفيدتها التفاصيل بصوت خفيض وقوي: «في

صباح أحد الأيام، قبل حوالي ثلاث عشرة سنة، استيقظ والدك ووجد طعام فطوره بارداً على المائدة. وبجانب فنجان القهوة، وجد رسالة صغيرة بخطّ أمّك تقول: «زوجي العزيز: هذه هي آخر البيضات التي أسلقها لك. سأتركك وسأذهب إلى شخص لا يضربني. أتمنى لك كلّ السعادة، نوهيمي». استشاط والدك غضباً. وقالت لوكريسيا إن الرجل الغاضب طاف من قرية إلى قرية بحثاً عن زوجته وابنته ـ لقد أخذت نوهيمي فيرجيلينا الصغيرة معها ـ حتى عثر عليهما في مكان قريب من غيراردوت. وأعادهما إلى ماريكيتا في ليلة ماطرة في منتصف شهر حزيران (يونيه). وتابعت لوكريسيا قصتها: «وفي صباح اليوم التالي، وجدت رضيعاً مقمطاً يبكي عند عتبة منزلي. كان ذلك أنتِ. التقطتكِ وهرعتُ إلى بيت نوهيمي الذي لا يبعد سوى شارعين. لكن كان قد قضي الأمر». وقالت إنها عندما وصلت، كان البيت في حالة فوضى فظيعة: الزجاج مهشم في أرجاء البيت، وجميع المزهريات والكراسي محطمة. ووجدت نوهيمي في المطبخ تسبح في بركة من الدم، بعد أن حُزّت حنجرتها، وفي داخل البيت، كان والد فيرجيلينا يتدلى من شجرة، ورسالة نوهيمي ملقاة على الأرض تحت قدميه مباشرة.

عندما أنهت لوكريسيا رواية حكايتها، تساءلت فيرجيلنا: من هو الرجل الذي هربت معه أمّها؟ هل كانت تحبّه؟ ماذا حلّ به؟ أرادت أن تسأل جدتها، لكن المرأة انزلقت خارج صفائها وأخذت تصرخ، وهي تحدق في السقف، «يا إلهي، يا إلهي. اغفر لي لأنني أنجبت فتاة آثمة. اغفر لي، لأنني لم أتمكن من جلب الخاروف الضال إلى قطيعك». ثمّ قالت، متوجهة بعينيها المغلقتين بإحكام نحو فيرجيلنا، وقالت بمرارة، «لقد جلب

سلوك أمّك العار على اسمي. ولهذا السبب لا يني الرب يصبّ المصائب عليّ».

*

قرع الخوري رافاييل باب بيتهما عندما قُرع أول جرس للكنيسة، وعندما انطلقت الرنة الثامنة، كان هو وخادم المذبح يجلسان في غرفة الجلوس مع فيرجيلنا. جلس الخوري يلفّ ساقاً على ساق، وأمارات السعادة تعلو وجهه الوردي، وكأنه تناول لتوّه قطعة من الحلوى. أما وجه هوشي منه المدوّر، فقد خلا من أي تعابير. وكان الكتاب المقدس الضخم راقداً في حضنه، وكان يرخي ذراعيه المكتنزتين فوقه. ومن الممكن أن يظهر الكتاب المقدس مسحة من ابتسامة أكثر مما كانت تظهر عليه. كان ضوء الشمعة على المنضدة ينير وجه فيرجيلنا، الملطّخ بأحمر الخدود، ما جعل قسمات وجهها الخائفة مشهداً دراميأ.

عندما سُئل، غمغم هوشي منه بأنه ليس جائعاً ولا عطشاً، وأنه لا يرغب في احتساء شاي القرفة أو القهوة. قال إنه يشعر بأنه على ما يرام هكذا. قال الخوري إنه يريد أن يرتشف «رشفة» من الماء. مجرد «رشفة، «لأنه يعرف مدى صعوبة نقل الماء طول الطريق من النهر. قال ذلك بتواضع، مخاطباً نهديّ فيرجيلنا، مبتسماً بشبق. غابت الفتاة في المطبخ، حيث تجلس جدّتها هامدة متدثرة ببطانيتها مثل تمثال سيء الصنع.

«إنه يريد ماء»، قالت فيرجيلينا متذمّرة. راحت تدور في المطبخ، تبحث عن الوعاء الذي تحتفظان فيه بالماء الصالح للشرب. كان فوق المنضدة الوحيدة، أمام عينيها، لكنِ الفتاة المضطربة لم تره. «أين وضعتِ الماء؟» سألت بنبرة لتغطية مزاجها المعكّر. أدارت المرأة العجوز رأسها إلى اليمين

ثم إلى اليسار، لكنها لم تلق بالاً بالسؤال. استقرت عينا فيرجيلينا على كومة الثياب التي كانت جدتها ترتطم بها وبالقدور والطاسات والمقلايات، لكنها لم تجدها. «أين الماء؟» صرخت. لم تجب لوكريسيا. سارت فيرجيلينا نحوها، وأمسكتها من كتفيها وصاحت مكررة السؤال ذاته.

ودفعتها لوكريسيا جانباً، ولوّحت بعكازها وكأنه سيف. «ماذا؟ ماذا حدث؟» قالت بصوت مكسور خفيض، «من هناك؟»

«هذا أنا! أين وعاء الماء اللعين؟»

«من هناك؟ قولي شيئاً»، كرّرت لوكريسيا.

«أوه، يا إلهي»، زفرت فيرجيلنا.

يبدو أن إلههم قد قرّر، خلال الدقائق القليلة الماضية، وفوق كلّ شيء آخر، أن يسلبَ سمع جدتها. جلست فيرجيلينا إلى المائدة، وأجهشت بالبكاء، ثمّ رأت الوعاء ينتصب أمامها. تراجعت بضعة خطوات، صبّت الماء في كوب، بصقت فيه، حرّكته بسبابتها وركضت من المطبخ، تتعثّر على طول الممر المعتم الذي يفصل الغرف. عندما ذهبت، فتحت لوكريسيا عينيها على وسعيهما، واتجهت نحو الباب وضغطت أذنيها عليه لتسمع الحديث الدائر في غرفة الجلوس.

«شكراً يا طفلتي»، قال الخوري، وأمسك الكوب بكلتا يديه. بسرعة جرع كل ما فيه. «هل ستنضم جدتك إلينا لتلاوة الكتاب المقدس؟»

«إنها متوعكة».

«يؤسفني أن أسمع ذلك. هل أستطيع أن أقدم لها أية مساعدة؟»

«لا شيء، إلا إذا كنت تستطيع أن تصنع معجزات. هل تستطيع يا أبونا؟» قالت فيرجيلينا بفظاظة ملحوظة.

قرّر الخوري أن يتلقى ردّ الفتاة بصمت. طلب من هوشي منه أن يفتح الكتاب المقدس على الآية ١ :٢٨ من سفر التكوين، وعندما فتحها، نقل الفتى الكتاب المقدس إلى حضنه، فوضع نظارات القراءة وبدأ يقرأ تحت ضوء الشمعة المرتعش:

وباركهم الله، وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. رسم الصليب، ووضع نظارته في جيب مخفي في الجانب الأيسر من ردائه، وأضاف، «الشكر للرب!»

«هل هذا كل شيء؟ هل يمكنني أن أذهب الآن؟»سأله هوشي منه. وافق الخوري، فهرب الصبي ومعه والكتاب المقدس من دون أن يحدثا نسمة هواء وراءهما.

خلال الثواني القليلة التي مرت بين اللحظة التي صفق فيها هوشي منه الباب واللحظة التي قال فيها الخوري: «أنبدأ يا طفلتي؟» راحت فيرجيلينا تناقش، في عقلها، هل كانت أمّها مخطئة عندما هجرت زوجها أم لا. وحتى عصر ذلك اليوم، لم تكن قد سمعت إلا أموراً جيدة عن أمّها. فقد كان أهالي القرية يثنون على صفات وخصال نوهيمي العظيمة، لكنهم نادراً ما كانوا يذكرون والدها. يا لشدّ ما كانت نوهيمي زوجة وأمّاً رائعة! لشدّ ما كانت كاثوليكية تقية، نوهيمي! يا لروحها الطيبة والسخية نوهيمي! لشدّ ما كانت إنسانة رائعة، نوهيمي! كانوا يمتدحون نوهيمي كثيراً، ويتكلمون عنها بعطف شديد، إلى حد أن فيرجيلينا التي لم تر قط صورة أمّها، وبدأت تتخيّلها. . . بأنها امرأة ملائكية ذات شعر طويل، ووجنتين ورديتين، وابتسامة دائمة. وقد أقامت مذبحاً لأمّها في زاوية غرفة نومها، وكانت

تصلّي لها في كلّ ليلة. وكان المذبح يتألف من ثلاث طبقات، وينتصب فوق صناديق مكدسة بعضها فوق فوق. وفي الطبقة العليا وضعت صورة صغيرة لمريم العذراء ـ التي تمثّل أمّها ـ سبّحة، وشمعة بيضاء لا تشعلها إلا عندما تقدم أضحية. وفي الطبقة الوسطى، وضعت زبدية بلاستيكية فيها قليل من الحساء تقدّمه لأمّها يومياً وكانت نوهيمي تحبّ الحساء كثيراً ـ وتضع زهرة مخملية صفراء، عندما تجد واحدة، زهرة الموتى. وفي الطبقة السفلية، وضعت فيرجيلينا كأساً مليئة بالماء وعدداً من التعاويذ والحلي الرخيصة التي كانت تشتريها من السوق، إكراماً لروح أمّها.

أما اليوم، بعد اعتراف جدتها، فقد انهارت صورة نوهيمي بسرعة في مخيّلة فيرجيلنا. وراحت تفكر كيف يمكن أن تكون زوجة هجرت زوجها امرأة جيدة؟ وكيف يمكن أن تكون أمّاً صالحة جازفت بحياة ابنتها وعاشرت شخصاً لا يعرف من هو إلا الله؟

«أنبدأ يا بنيتي؟» قال الخوري، وهو يتهيأ للنهوض. أمسك الشمعدان بإصبعيه بوقار وأعطاه إلى فيرجيلنا، ثم أشار لها بأن تتقدمه، وتبعها.

ما إن دخلت فيرجيلينا غرفة نومها، والخوري يتبعها مباشرة، حتى شعرت أن كلّ شيء قد أصبح واضحاً فجأة بالنسبة لها. فقد تبين لها أنه كانت لأمّها وجدّتها حرية الاختيار عندما اختارتا طريقيهما. لم تعد تكترث بما كان بوسعهما أن تفعلا أو بما ينبغي لهما أن تفعلا، لأنه كان في رأي المرأتين، في ذلك الحين، في تلك اللحظة، عندما كان عليهما أن تقرّرا أيّ طريق تسلكانه، أنهما اتخذتا القرار السليم، وأنه ليس من حقها، هي فيرجيلنا، إدانتهما.

أحست أن إدراكها هذا زادها قوة، ورأت فيرجيلينا أنه يحق لها هي أيضاً،

أن تتخذ القرارات التي تخصها. في هذه اللحظة بالذات، تجلّت أمامها عدّة سبل: إذ يمكنها أن تمكث في الغرفة مع الخوري، تفعل كما أخبرتها جدتها، من دون تذمر؛ ويمكنها أن تهرب كما فعلت أمّها، من دون أن تنظر إلى الوراء، راجية ألا يعثر أحد عليها. وبإمكانها أن تقول الحقيقة للخوري ـ بأنها خائفة ـ وتطلب منه بكل تهذيب أن يغادر؛ ويمكنها أن تتحمل «ذلك» بصمت حتى «النهاية»، ثمّ تستل أكبر سكين في المطبخ، وتغرزه في صدر الخوري، وتُخرج قلبه من جسده، وتضعه وهو يقطر دماً، في الجزء الأعلى من مذبحه، بجانب الشمعة البيضاء. إذ إن تضحية بهذا الحجم ستهدئ من غضب الله على جدتها، بل حتى تحفّزه كي يعيد لها بصرها وسمعها.

أغلقت الباب بأطراف أصابعها واستدارت، ببطء شديد، لتواجه الخوري المتلهّف، المتهيج.

وضعت فيرجيلينا الشمعدان فوق المنضدة الصغيرة بجانب السرير. راح أحدهما يحدّق في وجه الآخر في ضوء الشمعة المرتعش. لم يكن ثمة شيء يفصلهما سوى السرير. من المكان الذي كان يقف فيه الخوري، استطاع أن يرى جزءاً صغيراً من شفتيّ الفتاة وذقنها، وتكويرة نهدها الأيمن. ومن المكان الذي كانت تقف فيه فيرجيلينا، رأت عينين شهوانيتين مركزتين على نهدها الأيمن، ومنخرين يرتعشان، ونصف فم يبتسم ابتسامة شهوانية.

«تعالي إلى هنا، يا عزيزتي»، قال الخوري، وهو يربت على السرير براحة يده. «تعالي. . .».

غلف الغرفة صمت شديد إلى حد أنها كانت تسمع دقات قلبها. ثم،

بصوت يكاد يكون همساً، بدأ صدى صوت جدتها بالخطوات اللازمة لافتضاض فيرجيلينا يتردد في رأس الفتاة.

الخطوة الأولى: أخبريه أنكِ عذراء لكي يعاملك بلطف.

«أنا عذراء، يا أبونا»، قالت فيرجيلنا.

«عفواً؟»

«أنا عذراء».

ضحك. «لم أكن أتوقع شيئاً آخر غير ذلك يا عزيزتي». وسار حول السرير، مزيلاً الفضاء الفاصل بينهما، ووقف أمامها بثقة. استقرت إحدى يديه فوق وركها، بينما راحت اليد الأخرى تجوس إلى أعلى وأسفل ظهرها بحثاً عن سحّاب. وجدت اليد أزراراً، فراحت تفكّها، وبعد حركتين سريعتين، سقط ثوب فيرجيلينا على الأرض. هزّت جسدها قليلاً ولفت ذراعيها حول صدرها.

الخطوة الثانية: قبّليه من شفتيه، ثمّ أدخلي لسانك في فمه وحرّكيه في شكل دوائر.

من دون أن ترخي قبضتها القويّة من فوق صدرها، كوّرت فيرجيلينا شفتيها كما علّمتها جدتها، وأغمضت عينيها ودفعت وجهها إلى الخارج، مرة تلو الأخرى، مثل طير ينقر فاكهة، راجية أن يصل فمها في نهاية الأمر إلى فمه. مدركاً ما كانت الفتاة تحاول فعله، أخذ الخوري رأسها بين يديه، وبدأ، وهو واقف على أطراف أصابعه، يقبّلها برقة شديدة. تركت فيرجيلينا الخوري يقبّلها، لكنها لم تدخل لسانها في فمه. كيف يمكن أن يخطر ببال جدتها فعل مثل هذا الشيء المقرف؟ لكن الخوري كان يريد أن يتحسّس لسانها. وهكذا اشتبكت شفتاهما في معركة حامية الوطيس: بحركته

الدائرية، سعياً بقوة لفتح شفتيها، في حين بذلت شفتاها جهداً كبيراً لمقاومة شفتيه. كان يخيّل لفيرجيلينا دائماً أن للقبلات نكهات، وأنه عندما يحبّ شخصان نكهة أحدهما الآخر، فإنهما يحبّان بعضهما، ويقبّل أحدهما الآخر إلى أن يموت أحدهما، أو إلى أن تجفّ شفتاهما. لكن طعم قبلتها الأولى كان يشبه طعم البصاق والدم لأن الخوري رافاييل، الذي اعتراه شعور بالإحباط لامتناع فيرجيلنا، عضّ شفتيها بشدة.

الخطوة الثالثة: أمسكي يديه وضعي كلّ يد على نهد من نهديك.

لم تكن فيرجيلينا بحاجة إلى توجيه يديّ الخوري المرتعشتين إلى أي مكان. فقد كانتا تعرفان ما تصبوان إليه، وفي أي اتجاه تذهبان، وماذا تفعلان، ومتى ترتاحان قليلاً، وكيف تمسّدان. راحتا ببطء تجوسان ظهرها، تتوقّفان عند العقدة التي صنعتها بنهايات قطع القماش التي كانت تضعها حمالة للصدر، وفكّها بمهارة شديدة. ثم سحب سروالها الداخلي إلى الأسفل بأسرع مما كان يمكنها أن تقول لا. حاولت فيرجيلينا أن تنفخ بفمها لتطفئ الشمعة على المنضدة الصغيرة بجانب السرير، لكنّها كانت بعيدة جداً عنها. بدلاً من ذلك، أغمضت عينيها بقدر ما تستطيع. ثم أحسّت بشفتيه ثانية، هذه المرة تمتصان النمل الصغير الهائج الذي بدأ يقرص ويعضّ نهديها مرة أخرى، الذي جعل حلمتيها تحكّانها.

الخطوة الرابعة: انزعي ثيابه.

كان الرداء الذي يرتديه الخوري رافاييل في جولات التناسل التي يقوم بها من النوع الذي يرتديه الأساقفة والمطارنة والكاردينالات حصراً، وكان قد اشتراه في أحد المزادات عندما كان شاباً طموحاً، لأنه كان يطمح للارتقاء إلى أعلى مرتبة في مراتب الكهنوت. لكنه عندما فهم أخيراً أنه لا يمتلك

الصلات والتصميم اللازمين للترقي في كنيسة الروم الكاثوليك، بدأ يرتدي الرداء الكهنوتي الخاص عندما يحلو له. كان الثوب مخاطاً من القماش الأسود، وقد طُرّزت أكمامه بسوار إرجواني وذهبي، وفيه خمس ثنيات في المقدمة وخمس ثنيات في الخلف، وشرائط مذهبة، وياقة يمكن خلعها، وصفّ من الأزرار في مقدمة الثوب، وقد أدت دوراً جيداً في واجبات الخوري الليلية.

قررت فيرجيلينا انتظار الخوري حتى ينهض قبل أن تخلع ثيابه عنه. كان الآن جاثياً على ركبتيه، ولسانه اللزج بين ساقيها، فاعترتها رعشات صغيرة في أنحاء جسمها. لكن عندما اتضح لها أن الرجل لن ينهض قريباً، وضعت يديها تحت إبطيه وشدّته إلى الأعلى. وعندما أخذ العرق يتفصد منه بقوة، خلع الخوري الياقة ـ التي كان يحبها كثيراً ـ لأنها تزيل الحاجة إلى ارتداء قميص كهنوتي تحت ثوبه. حلّ الزرّ الأعلى من ثوبه، لكن أصابع فيرجيلينا الماهرة في الحياكة اعترضته على الفور. هذه مهمتنا يا أبتي، بدا أنها تقول، وتحرّكت إلى الأسفل، محرّرة الأزرار السبعة الأولى من عرواتها. ركعت على ركبتيها وواصلت فك الأزرار في الأسفل، أصابعها تنحدر برقة على الشرائط الذهبية. وعندما فكت الزر الأخير، رفعت عينيها، وراحت تراقب الرجل العاري الضئيل الجسم ينسل من ثوبه بحركة مهيبة، مثل ملكة متغطرسة ترخي عباءتها المخملية على الأرض لكي ترفعها خادماتها.

الخطوة الخامسة: تأكدي من درجة إثارته.

واقفة أمامه، تذكّرت فيرجيلينا ما أخبرتها جدّتها بأن تبحث عنه: «آنذاك، سيكون قضيبه منتصباً، ويجب أن تلمسيه لتتأكدي من انتصابه»، وأضافت

المرأة العجوز، «إذا لم يكن قضيبه منتعظاً، فقبّليه أكثر، والمسيه هنا وهناك، كما أخبرتك».

خلصت فيرجيلينا إلى أن الخوري كان مستثاراً، وفي حالة اهتياج شديدة، بعد أن لمست قضيبه المنتفخ وسمعت صوت عوائه. دفعها برفق على السرير، ومن دون أن يخلع جوربه الأبيض، وصندله المهترئ، امتطاها. كان الخوري أصغر حجماً منها وذا كرش، ومع ذلك، وافق جسمه جسمها جيداً: قبضة داخل يد منبسطة.

الخطوة السادسة: سلّمي نفسك للرب واتركيه يقوم بالباقي.

لم توضح جدّة فيرجيلينا ما تقصده بكلمة «الباقي». فقد رأت الفتاة كلاباً وقططاً تتسافد، وظنّت أن «الباقي» سيكون ذات الشيء: لعبة قوة يلعبها اثنان ينتصر فيها الذكر بإيلاج عضوه داخل عضو الأنثى الجنسي، بينما تنتصر الأنثى بالحمل. كان الخوف الذي اعترى فيرجيلينا هو الألم الذي قد تشعر به خلال هذه المباراة ـ كان صياح القطط التي رأتها تتسافد يثير رعبها ـ ولم تمنحها نصيحة جدتها: «عضّي الوسادة وانتظري»، أيّ شعور بالراحة. فقرّرت أن تترك الخوري يحقق انتصاره في الحال، وأن تنتهي اللعبة بأسرع ما يمكنها.

امتطاها الخوري، وراح يهزّ ردفيه بطريقة قد تبدو أنها تمت بصلة إلى كلّ شيء إلا للشهوانية. كان وكأنه ينظّف شيئاً، أو يفرك بقعة من مكان ما.

«هل تحبّين ذلك؟» همس في أذنها. لم تجب. راح يقبّلها من فمها، أنفها، عينيها، ذقنها. «هل تحبّين ذلك؟» قال ملحاً، بصوت أعلى قليلاً هذه المرة، ظناً منه بأنها لم تسمعه في المرة الأولى. ولم تحر جواباً، لم تبدر منها أية حركة. كانت فيرجيلينا تسعى جاهدة لجعل نفسها تظن بأن

الرجل المستلقي فوقها غير الرجل الذي قدم لها القربان المقدس في المرة الأولى منذ فترة ليست بعيدة. واصل عملية الحكّ والفرك والتقبيل، وهو يردد السؤال على نفسه، ويحصل على الجواب الصامت ذاته.

لكنه، بعد قليل، ومن دون سابق إنذار، دفعه فيها بكلّ ما أوتي من قوة، حتى اختفى جزء منه في لحمها، وتدفّقت قطرات من الدم أسفل ساقي فيرجيلنا. صرخت. أحسّت بأن أحشاءها قد تمزقت، بسبب اختراق مسمار ضخم لها، فصرخت ألماً.

«إنه شيء جيد»، قال الخوري، وهو لا يزال مستلقياً فوق بطنها. غرزت أصابعها في ظهره وراحت تصيح، ترجوه أن يُخرج ذلك الشيء من داخلها، «أرجوك»؟ لكنّه لم يسلّه منها، بل أخذ يستلّه منها ويعود ليولجه فيها. حاولت أن تدفعه جانباً. «بحق الله». لم يسمع توسلاتها، بل استمر في لكزها، وقد ازدادت سرعته في داخل جسدها، لذلك خمشت وجهه بعنف وغرست أسنانها في صدره. «توقّف». توقّف فجأة وصاح، «كيف تجرؤين؟» لطمها مرتين على وجهها، ثمّ أمسك بيديها، ومدّ ذراعيها وأمسكهما بيديه بقوة، أصابعه متشابكة في أصابعها، وقبل أن يستأنف حركة ردفيه العنيفة: إلى الأعلى وإلى الأسفل، إلى اليمين وإلى اليسار، ذهاباً وإياباً، وبشكل دائري، ثم يعيد الكرّة (بكت ـ وهي تفكّر بتضحية جدتها)، تغضب، تعضّ، تتكسر، تتمزق، (بكت ـ وهي تفكّر بتضحيات أمّها)، يحرث في لحمها؛ وأخذت حركاته تتسارع أكثر فأكثر، حتى انكمشت ساقاه وتقلصتا، وانفجر في داخلها، وراح يصيح منشداً، «أوه، يا الله؛ أوه، يا الله. أوه، يا الله. . .» (وبكت أكثر هذه المرة، وهي تفكّر بالتضحية التي قدمتها).

الخطوة السابعة: ضمي ساقيك واشبكي قدميك لكي لا تهرب البذرة من داخلك. إبقى في هذه الوضعية لفترة معقولة من الزمن.

أخذت فيرجيلينا تنشج وترتجف وهي مستلقية تحت الخوري. «هل ثمة شيء يزعجك يا عزيزتي؟» سألها الخوري فجأة، عندما لاحظ أنها تنوح وتبكي. هزّت رأسها. بدأ يفلت ذراعيها ببطء، وكأنه يخشى أن تهاجمه ثانية، لكن الفتاة ظلت هامدة. ثمّ نزل عنها، والتقط رداءه ولبسه في الحال، مولياً ظهره لفيرجيلنا. «لقد استمتعت كثيراً»، قال برقة وهو يعقد ياقته، «أرجو أن تسجل جدتك اسمك لزيارة ثانية». وأدخل كلّ زرّ في عروته، منحنياً قليلاً ليصل إلى الأزرار الأوطأ. «أعدك بأنك لن تتألمي في المرة القادمة»، قال مخاطباً الجدار عندما رآه. رأى أمام عينيه صورة المسيح وهو يموت على الصليب، معلقة على مسمار صدئ. فعلى الرغم من مشاعر الضيق والتوتر التي أحدثها اعتراف جدّتها، نسيت فيرجيلينا أن تزيل الصليب من على الجدار. صُعق الخوري لدى رؤيته.

«لقد انتهى»، قالت فيرجيلينا فجأة، ندّت عنها زفرة ارتياح. أثارت كلمات الإنجيل القشعريرة في جسم الخوري. التفت بسرعة، وما رآه ملأه بالرعب: فقد كانت فيرجيلينا مستلقية ورأسها مرتفع ومستدير قليلاً نحو اليمين، وذراعاها ممدودتان على جانبيها، وساقاها مضمومتان معاً، وقدماها متصالبتان، فبدت فيرجيلينا للخوري مثل المسيح مصلوباً، يسيل الدم منها وهي تئن، تحتضر وهي نصف عارية فوق صليب خيالي.

سارع الخوري إلى رسم شارة الصليب وولى هارباً، متعثّراً أولاً بفيديل ثم بكاسترو اللذين كان من عادتهما أن يناما عند الباب. عندما خرج من المنزل، أخذ يجري فوق الأحجار التي كانت بحجم كلاب، وكانت

الكلاب مستلقية في الشارع مثل الأحجار. أخذ يجري ويجري لا يلوي على شيء، وهو يصيح، «إلهي، إلهي، ارحمني. لن أفعل ذلك مرة أخرى، أبداً!»

ومن دون أن تكترث بردّة فعل الخوري، استجمعت فيرجيلينا ما تبقى من قوة لديها، وانتصبت في جلستها على السرير، مجفلة. كان جسدها كله يرتجف، ويداها ترتعشان. جمعت الملاءة البيضاء الملطّخة بالدم من تحتها، ومسحت بها باطن ساقيها، وراحت تفرك القماش السميك بقوة على جلدها. ثم نهضت ببطء وبدأت تطوي الملاءة بعناية شديدة، حتى أصبحت مجرد قطعة مربعة ملطخة من النسيج الأحمر. ثمّ جثت أمام المذبح، ووضعت قطعة القماش في الجزء الأعلى منه، بجانب الشمعة البيضاء التي اخترقت الليلة على نحو متقطع.

وأخيراً، فيما راحت تنتظر بثقة دخول جدتها إلى غرفتها وتصيح أن الرب قد حقق لها معجزة، وأن جميع آلامها قد تلاشت، وأنها أصبحت ترى وتسمع ثانية، شبكت فيرجيلينا يديها تحت ذقنها، وبدأت تتلو صلاة بعد صلاة، حتى ماتت الشمعة البيضاء، وغطى الليل منزلهما بظلام دامس.

بيرناردو روبيانو، ٢٦ سنة
جندي يميني في المليشيا

«ماذا سيحدث لي؟» سألتُ المقاتل. كنت جاثياً على ركبتي، أشرب الماء من جدول عثرنا عليه للتو. كان يقتادني إلى معسكره.

تثاءب وهو يمدّ ذراعيه بين الحين والآخر، ثمّ قال، «إنهم لن يقتلوك، إن كان هذا ما يقلقك». فقد وقعت في كمين نصبه الثوّار وأسرني في وقت سابق من ذلك اليوم. اقترب مني قليلاً وجلس القرفصاء، ممسكاً ببندقيّته بإحكام في إحدى يديه. «لكنهم سيحققون معك»، وأضاف بنبرة خبيثة، «إن قلت كلّ ما تعرفه عن القوات، وعن مكانهم، فلن يؤذونك كثيراً. لكنك إذا لم تعترف ـ» توقّف قليلاً، ورفع سبابته إلى حنجرته وحركّها فوقها، وكأنه يقطعها.

لم يكن يبعد عني مسافة ياردة تقريباً، مقرفصاً. كان نحيفاً وضامراً. خيّل إليّ أنني أستطيع أن أتغلب عليه. تقصّدت أن أجرع المزيد من الماء لأجعله يشعر بالعطش. كوّر يده الطليقة، ومن دون أن يبعد عينيه عني، مدّ ذراعه لتناول القليل من الماء من الجدول. لكنه كان بعيداً عني قليلاً، مدّ ذراعه أكثر، بشكل يكفي لأن يفقد توازنه ويسقط على جانبه. ألقيت بنفسي فوقه، ورحت أضربه بقبضتي. قاوم بشدّة وكاد يجثم فوقي، لاهثاً، متعرقاً

ويصيح بأنه سيطلق النار عليّ، مع أن بندقيته اختفت أثناء العراك. رحت أهدر وأزأر. أخذت أعضّ وأمزّق وأقاتل حتى أصبحت فوقه. ثمّ بدأتُ أضربه على رأسه وظهره ووجهه وبطنه، بكل ما أوتيت من قوة. أخذ يصيح ويلهث والعرق يتصبب منه وهو يتلوّى من الألم، لكنني لم أتوقّف، حتى رأيت البندقية، ملقاة على العشب. قفزت، وأمسكت بالبندقية وصوبتها نحوه.

«أرجوك لا تقتلني»، راح يتوسل ويداه مرفوعتان، «أرجوك». كنت قد سمعت رجالاً كثيرين يتوسلون من أجل الحفاظ على حياتهم، ولم يكن هذا مختلفاً عنهم. «خذ ساعتي هذه». خلعها من يده، ووضعها على العشب ودفعها نحوي بلطف. «أرجوك لا تقتلني. حذائي. خذ حذائي». وبدأ يفكّ أربطة حذائه العسكري الأسود، لكنه تذكّر شيئاً ثميناً أكثر ليبادله. «أتريد هذا؟» ومزّق قميصه، كاشفاً عن سلسلة فضّية فيها صف من التعاويذ والتمائم الصغيرة تتدلى منها، وقال: «إنها ستحميك من المصائب». انزعها من رقبته، وقال: «ها هي»، وألقى بها عند قدميّ. «أرجوك لا تقتلني. أرجوك لا. أرجوك».

وضغطتُ على الزناد. بلطف، لكن الرصاصة اخترقت فمه وأسكتته.

الفصل الثامن

الأوبئة التي أصابت ماريكيتا

ماريكيتا، ٢٠ حزيران
(يونيه) ١٩٩٩

كان إعلان القاضية المتعلق بمرسوم الجيل القادم ينص على ما يلي: «في محاولة أخرى للحفاظ على بقاء مجتمعنا العزيز، وبعد الاستشارات التي أجريتها مع مستشاري، قررت أنا، روزالبا أرملة باتينو، قاضية قرية ماريكيتا، أنه عندما يبلغ جميع الفتيان الأربعة في قريتنا وهم: تشي لوبيز وهوشي منه أوسبينا وفيتنام كالديرون ودور تروتسكي سانشيز، الخامسة عشرة من أعمارهم، يجب عليهم المشاركة في مسابقة، تقرّر فيها نساء ماريكيتا أي فتى من هؤلاء الفتيان سيُمنح الحقّ في الزواج من الأنثى التي يختارها، وإنشاء أسرة للحفاظ على النقاء الأخلاقي والاجتماعي لقريتنا. أما الشبان الثلاثة الذين لن يقع عليهم الاختيار، فسيتم تنظيمهم للعمل منجبين دائمين في ماريكيتا لفترة زمنية غير محددة، لن يكونوا خلالها أفراداً مستقلين ذاتياً، بل سيصبحون جزءاً من ممتلكات الحكومة، عمالاً تنحصر مهمتهم في إنجاب صبية، وسيُوفر لهم الطعام والمسكن طوال الفترة التي نحتاج فيها إلى عملهم».

فور إعلان روزالبا، صدرت أوامر للصبية الأربعة، تحت طائلة النفي، باعتزال النساء حتى يتم تقرير مصيرهم في صباح يوم ٢١ حزيران (يونيه) ٢٠٠٠، أي بعد يوم واحد من بلوغ هوشي منه، أصغر الصبية الأربعة، الخامسة عشرة من عمره.

وبالرغم من أن القاضية هي التي صاغت مرسوم الجيل القادم، فقد كانت تقول لنفسها إن الأمر كله في غاية السخف، وهو أمر غير حضاري؛ وسألت نفسها كيف يمكن لامرأة أن تكون في كامل عقلها، وترغم أحد هؤلاء الأطفال على مضاجعةِ امرأة مثل، لنقل، أوركيدا موراليس. يا للشناعة؟ لكنها أحسّت أنه يتعين عليها إرضاء نساء ماريكيتا للتعويض عن الفشل «الذريع» و«المخزي» الذي نجم عن حملة التكاثر، التي ضاجع فيها الخوري رافاييل تسعاً وعشرين امرأة على مدى ثلاثة أشهر، دون أن تحبل أية منهن. «لقد خدعني الخوري رافاييل عندما جعلني أعتقد أن بإمكانه أن ينجب فتياناً أو فتيات، لذلك»، اعترفت القاضية أمام جمهرة النساء اللاتي احتشدن في الساحة لسماع المرسوم الجديد الذي ستعلنه، وقالت: «ما كنت لأوافق على فكرة الخوري، لو كنت أعرف أنه ـ عقيم كالبغل».

صفّقت جميع مَنْ في الساحة للكلمة التي ألقتها روزالبا. الجميع ما عدا الخوري بالطبع، الذي قال لنفسه إن كلمات القاضية بمثابة إعلان حرب. وانتقاماً منها، لم يعد يصغي إلى الاعترافات، بل رفض تقديم القربان المقدس. كان تأثير وقف هذين السرّين المقدّسين كبيراً، وكان لهما فعل العجائب، وخاصة على الأرامل العجائز اللاتي شعرن بعد أسبوعين من عدم الاعتراف بما أقدمن عليه من هفوات، كأنهن أصبن بالإمساك. ورحن يستجدين الخوري ويطلبن منه المغفرة المرة تلو الأخرى، حتى رضي

الرجل الضئيل الحجم وغفر لهن جميع خطاياهن وأخطائهن، واستأنف منح تلك الألطاف الخفية التي تدعى الأسرار المقدسة. لكن القاضية استمرت في رفض قبول اعتذار منه.

طوال السنة بعد إعلان مرسوم الجيل التالي، لم تكفّ القرويات عن مناقشة هل هنّ بحاجة إلى ذلك أم لا. ومن وراء المنبر، لم يكفّ الخوري عن الإعلان بأنه يعارض هذا المرسوم، وأنه إجراء متهور صادر عن قاضية يائسة. «إن إرغام أولادنا على الانغماس في نشاط جنسي مع نساء لسن زوجاتهم لهو خطأ كبير. إنه منافٍ للمبادئ الكاثوليكية، بل هو انتهاك لحقوق الصبية».

وأدانت النساء العجائز مرسوم الجيل الجديد جهاراً في السوق، خلال مقايضة حلية رخيصة برطل من البصل، أو مقايضة ثمرة بابايا بلوح صابون يدوي الصنع. ولم يفهمن السبب الذي يجعل أية امرأة ـ سواء كانت عجوزاً أم شابة ـ ترغب في إنجاب المزيد من الرجال. هل نسين كيف كان الرجال يسيئون معاملتهن، أو يتجاهلونهن، أو يحطّون من قدرهن؟ ألا يتذكّرن تلك المخلوقات التي تعتمر قبعات مكسيكية واسعة ذات حواف عريضة، الذين يذهبون إلى الحانة لشرب الخمر بدلاً من المكوث في البيت لرعاية ابن مريض؟ تلك المخلوقات ذوات الشوارب غير المشذبة، الذين يفضّلون أن يدفعوا نقوداً لعاهرة في ماخور لا كازا دي إميليا على أن يضاجعوا زوجاتهم المخلصات المحترمات.

وفي السرّ، ناقشت بعض الأرامل المجهولات المرسوم الغريب الذي أصدرته القاضية، في غرف نومهن، وتحت الملاءات التي تفوح منها رائحة الخزامى، بعد ممارستهن الجنس، وقبل أن تتسلل إحداهن في منتصف

الليل، محتمية بجنح الظلام. وكنّ يعربن عن نفس الرأي الذي أعربت عنه النساء العجائز، ويقلن إن عدم وجود رجال لديهن يعني أن وجود ماريكيتا برمته سينتهي في الجيل الحالي، ولعل وجود جيل يسوده الانسجام والتسامح والمحبة أفضل من خلود البؤس والتعاسة ـ ناهيك عن الحروب.

وفي هدأة الليل، بدأت العوانس يتحدّثن أيضاً عن مرسوم الجيل الجديد، وكن يفعلن ذلك وهن جالسات على عتبات بيوتهن، أو هن يغزلن القطن، أو ينتقين حبوب الفاصولياء الجيدة ويفصلنها عن الحبوب الرديئة لإعداد الحساء في اليوم التالي.

كانت آراؤهن متناقضة بعض الشيء حول هذا الأمر. وفي الواقع، كنّ يرحّبن بأن يصبحن أمهات، حتى لو اضطررن إلى الدخول في علاقة حميمة مع شاب عديم الخبرة. لكنهن كن يشعرن، في الوقت نفسه، بأنهن إذا أنجبن طفلاً ـ سواء كان صبياً أم بنتاً، لا يهم ـ فلن يغيّر ذلك من مكانتهن المحتقرة كعوانس. أما الشيء الذي كنّ يرغبن فيه، حقاً، فهو أن تصبح الواحدة منهن خليلة أحدهم، أو خطيبته، أو زوجته. كن يرغبن في أن يكون هناك رجل يمتلكنه، أو يمتلكهن. كنّ يقلن إن أول فعل علمته لهن أمهاتهن لم يكن فعل «الكون» بل فعل «الملك»، لذلك فإن فعل «الملك» يسبق دائماً فعل «الكون».

أما الشابات فلم يتناقشن كثيراً حول هذا المرسوم. بل رحن يتحدّثن عن الصبية. كن يفعلن ذلك كلما رأين مجموعة صغيرة منهم في المدرسة يتعلمون الإملاء على يد المعلّمة كليوتيلد، أو يجلبون الماء من النهر في جرار من الفخار، أو يعملون في بساتين أمهاتهم، أو يلعبون كرة القدم في فريقين. لكن الصبايا كن يتحدّثن عنهم كذلك في كلّ ليلة خلال اجتماعهن

المعتاد بعد الصلاة، عندما يتحلّقن في دائرة كبيرة في وسط الساحة يلعبن بعض الألعاب، يصففن تصفيفة شعر جديدة، أو كما تقول أمهاتهن «يُرضعن البعوض». وكنّ في معظم الأحيان يقيّمن الفتيان، ويمثّلن بأسلوب ساخر المسابقة المرتقبة التي أعلنت عنها القاضية. إذ كان يُطلب من كلّ فتاة، في لعبتهن التي تسمى «سيد ماريكيتا»، أن تصنّف الفتيان الأربعة في فئات، مثل صاحب «أجمل وجه» أو «أجمل ابتسامة» أو «أحلى شخصية»، وما إلى هنالك، ثم يقارنّ النتائج التي توصلنّ إليها وسط دوّي ضحكاتهن.

لكن لم يكن كلّ ما كانت تفعله الفتيات خلال الأشهر التي سبقت المسابقة مسلياً. فقد رأت فيرجيلينا سافيدرا في المرة القادمة فرصة للربح. فقد بدأت تراهن بمبالغ وسلع مختلفة على نتائج المسابقة. وراهنت هي نفسها برواية رومانسية مزينّة بالصور ـ كانت تحتفظ بها ـ بأن تشي لوبيز سيفوز بحق اختيار الزوجة وتكوين أسرة. وفي الوقت نفسه، وزعت مانوليا موراليس ثلاث قوائم احتياطية مختلفة (واحدة لكلّ منجب مجهول) على كلّ واحدة فتاة أن تضع بالترتيب اسم الفتى الذي تتمنى أن يكون عارياً معها في سريرها. وتعمدت أن تخفي القائمة عن العوانس والأرامل، لأنها قالت إنه أتيحت للفئة الأولى فرصة الحصول على رجل عندما كنّ في ريعان شبابهن (وقد بدّدنها)، أما النساء في الفئة الأخيرة، فقد تمتّعن بنصيبهن من الرجال في هذه الحياة. وأدى ذلك، بطبيعة الحال، إلى نشوب مشاجرات، وبروز خلافات، ونزاعات، وملاسنات، بل حتى إنهنّ اضطررن لاستخدام قبضاتهن. وكالعادة، كانت القاضية تتشفّع، تصيغ أولاً، ثم تعلن أحد مراسيمها الذكية: ما دام الحيض يأتي المرأة بانتظام، فلها الحقّ في أن يرد

اسمها في أية قائمة من القوائم الثلاث والزواج من الصبي المؤهّل، إذا ما وقع اختياره عليها. انتهى.

*

كانت مانوليا موراليس أول امرأة تصل إلى الساحة في يوم الأحد القاتل ذاك من شهر حزيران (يونيه) ٢٠٠٠. وصلت إلى هناك قبل بزوغ الفجر بقليل، مرتدية فستاناً لا شكل له كانت قد خاطته بنفسها من قماش الخيش. وجعلت رياح الصباح العاصفة أشجار المانغا تهتز، أما أوراق الأشجار الكثيرة التي سقطت وافترشت الأرض فقد جعلت مانوليا تنزلق وهي تمشي، لكنها لم تقع أرضاً. مدّت بطانية على الأرض، أمام المنصة التي أقيمت البارحة على عجل بأمر من القاضية. ومع أن المسابقة المنتظرة بلهفة وتوق شديدين كانت ستبدأ في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم، فإن مانوليا وعدت أخواتها بأنها ستكون أول من يصل إلى الساحة لتحجز أماكن لهن في الصف الأول.

بعد حوالي نصف ساعة، وصلت لويزا، ، ثمّ تبعتها سانشيز، ثمّ ساندرا فيليغاس ومارسيلا لوبيز، ومع أول صياح للديكة، بدأت النساء يتدفقن ويتوافدن من جميع زوايا ماريكيتا، وكأن الريح تحملهن على أجنحتها. جلسن متحلقات حول المنصة، وقد تشكلت دوائر سوداء تحت عيونهن لأنهن لم ينمن جيداً، وانبعثت من أنفاسهن رائحة الكحول لشدة ما احتسين من شراب الذرة «التشيشا». فقد احتفلن في الليلة الماضية بعيد ميلاد هوشي منه أوسبينا الخامس عشر، في احتفال لم يُر ولم يُسمع مثله في ماريكيتا منذ فترة طويلة. وينبغي القول إن عيد ميلاد هوشي منه كان آخر شيء يخطر ببال النساء (إذ لم يُدع هوشي منه نفسه لهذا الاحتفال بعيد ميلاده). فقد كنّ

ينتظرن بتوق شديد المناسبة التي ستقام في صباح اليوم الذي يلي عيد ميلاد الصبي، المسابقة التي لم يسبق لها مثيل، والتي ستدخل سعادة عظيمة في قلب كل من مانوليا ولويزا وكوبا وساندرا ومارسيلا وبيلار وفيرجيلينا وأوركيدا وباترسيا ونوبيا وفيوليتا وأمبارو ولوز وإلفيرا وكارمينزا، ومرسيدس وإرما وغاردينيا ودورا، والصبايا والأرامل والعوانس الأخريات في ماريكيتا.

عندما تحلقّت النساء حول المنصة في الساحة، ورحن يتبادلن الأحاديث بسعادة، ويحزرن من سيفوز في اللحظات الأخيرة، بدأ القلق والتوتر يعتريان تشي وهوشي منه وفيتنام وتروتسكي بسبب المسابقة التي ستقرّر مصيرهم. فقد كان الصبية الأربعة، لعدة أشهر، موضوع الأحاديث، والتخمينات، والافتراضات، والخلافات، والمشاجرات، والرهانات، بل وحتى النكات. وفي جميع الأحوال، لم يستشرهم أحد ولم يأخذ رأيهم أو يتعرف على حقيقة مشاعرهم في المرسوم الذي أصدرته القاضية. وكان قلقهم يزداد طوال السنة، إلى أن أصبح يتملكهم خوف شديد. وفي صباح هذا اليوم الذي لا ينسى، ومع اقتراب هذا الحدث الهام، جعلهم الشعور بالتوتر والضغط المتزايد للفوز على شفا حفرة من الشعور بالهستريا لأن كل شيء كان ممكناً.

يقولون إن تشي لويز استيقظ في الساعة الثانية من صباح يوم الأحد ذاك، ولم يعد يغمض له جفن. لم يكن مؤرقاً ـ فقد كان بإمكانه أن يغط في النوم لمدة اثنتي عشر ساعة. لكن في الليلة الماضية، قرر أن يستيقظ في الساعة السادسة، أبكر من المعتاد، لأنه كان يريد الفوز بحقّ الزواج من الفتاة التي يختارها، كوبا سانشيز. ولتحقيق هدفه هذا، قال لنفسه إنه يجب أن يشذّب

شعره، ويقلّم أظافره، وأن يضيف، بقطعة فحم وبدقة شديدة، شيئاً من العمق للظلّ الفاهي عند شاربه. كان في الخامسة عشرة من عمره، عيناه سوداوان، وشعره أسود، ووجهه صغير شاحب، وكان في داخل بيجامته القطنية انتصاب كامل.

قلقاً، تمدد على ظهره، محدقاً في السقف، متثائباً. أضاء ضوء القمر المتسلل من فتحة في الستارة الرثة، الانتفاخ في مقدمة بنطاله. راح يفركه براحة يده المفتوحة بقوة، مفكّراً بقشرة البطيخ الأحمر الدافئة الرطبة الطرية التي ثقبها ـ وأولج قضيبه فيها ـ البارحة. فقد أنزل سروال منامته، وأطبق بيده بقوة حول قضيبه، وراح يفركه بحماسة. إلا أن شيئاً لم يكن على ما يرام، فقد بدا له أن يده كبيرة جداً حول قضيبه. ربما لم يكن منتصباً انتصاباً تاماً، قال لنفسه. أمسكه بين إبهامه وسبابته وراح يعصره ليتأكد من صلابته. كان صلباً كقطعة عظم كما ينبغي لقضيب فتى في الخامسة عشرة من عمره أن يكون. تحرّك الفتى إلى اليمين قليلاً لكي ينير ضوء القمر قضيبه، ولوهلة لم يساوره أدنى شك بأنه بدا له أصغر بما لا يقل عن ثلاثة أرباع بوصة عما كان عليه أصلاً. لعل يدي هي التي كبرت، قال لنفسه، وواصل الاستمناء، متخيّلاً قطعاً ريانة من البطيخ الأحمر فوق مائدة المطبخ تنتظر أن يولجه فيها. وبعد قليل، أفلتت من فمه آنّة طويلة قوية، وتوقّفت يده عن التحرّك. لبث ساكناً بضعة ثوان، رئتاه تلهثان طلباً للهواء. لكن شيئاً آخر لم يكن على مايرام، إذ لم يشعر بأيّ سائل دبق يتدفق فوق يده، وكان قضيبه جافاً. بسرعة حرّك جسمه إلى الجانب الأيمن من السرير وأضاء شمعة. نظر بعناية شديدة بحثاً عن أيّ دليل يشير إلى أنه قذف. لم ير شيئاً في قضيبه المنكمش، ولا على يديه، وعلى على ملاءات السرير أو منامته.

مدججاً بالشمعة، أخذ يتفحص الجدران العارية، الأرضية اللامعة، تحت سريره، حتى إنه تفحص السقف ـ لكنه لم يجد شيئاً.

بعد انتهاء الدوام المدرسي في كلّ يوم جمعة، كان تشي والفتيان الثلاثة الآخرون في ماريكيتا يذهبون إلى النهر للسباحة. وفي غالب الأحيان، كانوا يقيسون حجم قضبانهم بمسطرة قبل غمر أجسادهم في الماء البارد. كانت الدهشة تتملكهم دائماً عندما يرون كيف تنكمش قضبانهم بهذا الشكل. قبل أسبوع من ذلك، قرّر الصبية القيام بشيء آخر. فقد أقاموا مسابقة فيما بينهم لمعرفة من يستطيع أن يقذف إلى مسافة أبعد. فقد اختاروا بقعة خالية على ضفّة النهر، وحددوا علامة. وكان أحدهم يقف في البقعة المحددة، يستمني ويقذف. فاز تشي لأنه قذف مسافة سبع أقدام وست بوصات؛ تلاه تروتسكي الذي قذف لمسافة خمس أقدام وثلاث بوصات؛ ثمّ فيتنام الذي قذف مسافة خمس أقدام، وحلّ في المرتبة الأخيرة هوشي منه الذي قذف مسافة ثلاث أقدام وإحدى عشرة بوصة. وأخذ تشي يتفاخر بذلك طوال الأسبوع، حتى إنه دعا إلى إقامة مسابقة ثانية لأنه كان يريد أن يحطم رقمه القياسي، لكن الصبية الآخرين تجاهلوه.

لكن في يوم الأحد ذاك، في الساعة الثانية والنصف صباحاً، ترسّخ لدى تشي الاعتقاد بأن قضيبه قد بدأ يضمر، وأنه لم يعد لديه سائل منوي.

بدأ الفجر يبزغ، وبدأت الرياح العاصفة تغيّر ترتيب الأشياء على هواها في الشرفات والباحات الخلفية: أصص الزهور، والأوعية البلاستيكية، وقطع الثياب على حبال الغسيل، بل حتى حبال الغسيل نفسها تطايرت في الهواء لفترة من الزمن قبل أن تصطدم بحائط، أو تهبط في باحة منزل شخص آخر.

في الوقت نفسه، أخذوا يقولون إن هوشي منه أوسبينا رأى حلماً مخيفاً. فقد رأى فيما يراه النائم أنه يسبح في النهر عارياً مع أصدقائه في المدرسة، في سباق لمعرفة من يصل أولاً إلى الضفة الأخرى. أخذ هوشي منه يسبح مستخدماً ذراعيه وساقيه بقوة، لكن جسمه ـ كان بديناً في كابوسه، كما هو في الحياة الحقيقية ـ لم يكن يتقدّم إلى الأمام. ورأى أصدقاءه يختفون من بعيد، أيديهم وسيقانهم تشق الماء. بذل جهداً أكبر، بذراعيه الممدودتين بكاملهما، وبيديه المقوستين تماماً وهما تشقان الماء بتصميم وعزم، لكنه لم يكن يتقدم قيد أنملة. وفجأة بدأ جسمه يدور في دوامة على سطح الماء، متقدماً بسرعة في كل مرة. وتشكّلت دوامة قوية، وبدأت حركتها الدائرية تمتصّه إلى وسطها. أخذ يكافح بقوة عكس التيار، محركاً ذراعيه وساقيه بأسرع ما يمكنه. وأحسّ بوخزة، ألم شديد في صدره، ربما بسبب الإجهاد والتركيز في عضلاته، لكنه لم يتوقّف عن الحركة. لم يستطع التقدم، وبدأت الدوامة تبتلعه. اشتدّ الألم، وكأن شخصاً يضغط بقوة فوق صدره ويخزُّ حلمتيه. واصل السباحة بعناد في مواجهة الدوّامة، متحملاً الألم، حتى أيقظه صياح الديكة وراء بيته بصياحها الصاخبة.

بعينين مسمّرتين في السقف، اعتراه شعور بالراحة لأن ذلك كان مجرد حلم سيء، حمد هوشي منه الله على الديكة. لكن عندما بدأت باقي أعضاء جسمه تنهض، انتابه ألم حادّ في حلمتيه. وضع يديه على صدره بشكل غريزي، وانتابه ذعر شديد. لم تهبط يداه بشكل مستو فوق صدره، كما كانتا تفعلان عادة، أما في هذه المرة، قال لنفسه، فقد تقوستا فوق هضبتين كبيرتين، مثل دملتين. وثب هوشي منه من فوق سريره، وبسرعة أضاء الشمعة المنتصبة فوق المنضدة الصغيرة بجانب السرير. خفض رأسه

حتى لامس لغده شقّ صدره، يميل قليلاً من اليسار إلى اليمين، ومن اليمين إلى اليسار، وعيناه مفتوحتان على وسعيهما. إن شدة قربه من هذا المشهد جعلته يتخيّل أن صدره أكبر مما هو في الواقع، فأخذ يبكي بصوت مكتوم. كيف يمكنه أن يفسر ذلك لأمّه وأخواته؟ وماذا عن المسابقة؟ إذ سيسخر الجميع منه على المنصة. لا يمكن أن يحدث له ذلك، وهو الصبي، خادم المذبح؛ هو الذي كان يردد «السلام عليكِ يا مريم» و «أبانا الذي في السموات» كلّ ليلة قبل أن يخلد إلى النوم. هو التلميذ النجيب، الابن المطيع، الأخ الطيب مع أخواته، والحفيد الصالح لـ ـ مع أنه كان يسرق بضع قطع نقدية فضّية من محفظة جدته، أمام عينيها الكليلتين، نصف العمياوين، وهي تسبّح بحمد ربها بالمسبحة. لا بد أن هذا عقاب إلهي. وبعد أن ردد بضع صلوات بورع شديد، ارتدى هوشي منه رداء حمّام أبيه المرحوم، وألقى بمنشفة كبيرة وراء رقبته، وحرص على أن تغطي أطرافها صدره. أخذ الشمعة، وفتح باب غرفة نومه قليلاً، ليتأكد من أن الممر خال، وجرى إلى المرحاض الخارجي.

في الخارج، خلع الصبي ثيابه أمام المرآة الكبيرة وأطلق العنان لمخيّلته. رأى نتوءين مكتنزين، في نهاية كلّ منهما حلمة كبيرة، وراح يحدّق فيهما. وضع يديه تحتهما، يزنهما. كانا ثقيلين كبرتقالتين. أخذ يعصرهما بشدّة، محاولاً تفريغهما، لكن شدّة الضغط عليهما آلمته، وبدا أن هذا الألم الجديد الحادّ دليلاً على أنهما لم يكونا جزءاً من جسمه، بل عضوين مستقلين عنه. ربما كانا هناك لأداء وظائف معيّنة. هذا ما قاله لنفسه هوشي منه، الذي أصبح أكثر عملياً. فقد يضمران إذا ما غمرهما في ماء بارد، كما ضمر قضيبه. جرى إلى الشرفة، عارياً، نحو البرميل الكبير الذي تُجمع فيه

مياه الأمطار، وغمر نفسه في الماء، غمر جسمه البدين من الرقبة حتى الأسفل. وخرج بعد بضعة دقائق، مرتعشاً. تصلبت حلمتاه، وتوقف الألم في صدره، مخدّراً من الماء البارد. لكن صدره ظل كبيراً وصلباً ـ أو هكذا خيّل إليه.

في صباح ذلك اليوم، قيل إن فيتنام كالديرون لم يستيقظ إلا عندما بدأت أمّه تدغدغ كعبيْ قدميه. كان الصبي مفعماً بالكسل والتراخي والتأخير، وكان يتصف بجميع الصفات المشابهة التي لا تضيف إلى شخصيته شيئاً سوى أنه لا يصلح لشيء. كالعادة وجد في المرحاض الخارجي، المغسلة والمنشفة التي تتركها له أمّه صباح كلّ يوم. حكّ إبطيه وما بين ساقيه، وهو يكيل لها السباب لأنها تجبره على الاغتسال كل يوم. ثمّ عاد إلى غرفته وارتدى ثياباً نظيفة اختارتها له أمّه. وبعد دقائق قليلة، جلس على المائدة أمام قطعة من خبز الذرة البائتة وكوب من الشوكولاته الحارة. جلست أمّه بجانبه، تمسك فنجان القهوة وهي تردد على مسامعه، للمرّة الأخيرة، «نصائحها المفيدة» لكي يفوز في المسابقة.

«اسمعني يا فيتنام»، أخذت تقول، ونبرة هياج تعلو صوتها، «عندما تقف على المنصة، لا تنكش أنفك أو تفرك بين ساقيك، كما تفعل دائماً». هزّ الصبي رأسه بصورة تلقائية. كان يعتريه شيء من التوتر، لكن أمّه لاحظت أنه لم يكن يبدي أي اهتمام بالمسابقة أو بنصائحها. بل لم يكن يبدي أي اهتمام بأيّ شيء معين. فكلّ ما كان يفعله كان يتسم باللامبالاة مما جعل المعلّمة كليوتيلد تقول إنه قد يصبح سياسياً مرموقاً.

«. . . وأرجوك يا فيتنام، لمرة واحدة في حياتك، ارسم ابتسامة على وجهك. هل تسمعني؟»

«نعم يا ماما»، أجاب أخيراً بصوت مصطنع ذي طبقة عالية مثل صوت فتاة صغيرة. تنحنح وقالها ثانية، «نعم ماما». بدا صوته رهيفاً.

رشفت الأرملة جرعة من قهوتها قبل أن تسأله، «ماذا أصاب صوتك؟»

«لا أعرف. كان. . . » توقّف، وتنحنح ثانية، وحاول مرة أخرى، «كان طبيعياً ليلة البارحة».

«صوتك يشبه صوت فتاة، بحق المسيح!»

«دعيه وشأنه»، قالت ليبوريا، جدة فيتنام، وأضافت، «أصوات الصبية تبدأ في التغير عندما يبلغون الخامسة عشرة من العمر». كانت ليبوريا العجوز ممدّدة في أرجوحة معلّقة بين عامودين في غرفة العشاء. كانت دائماً تستلقي في الأرجوحة، تشيخ ببطء، وهي معلقة في الهواء، مثل قطعة سجق جيدة تتدلى في دكان جزّار.

أخذ فيتنام يرشف الشوكولاته الحارة بجرعات، تاركاً كل رشفة تحرق حنجرته. «كان طبيعياً البارحة»، كرّر قائلاً، بصوت يشبه طبقة السوبرانو.

«توقف عن قول هذا يا فيتنام!» حذّرته أمّه، وسبابتها تهتز أمامه.

احمرّ وجه الصبي. أخذ يسعل ويشخر ويصدر جميع الأصوات الحلقية التي يمكن أن تخطر بباله، ويكرر قائلاً: «كان طبيعياً البارحة».

كان من الواضح أنها انزعجت. أنهت أمّه قهوتها بجرعة واحدة، فنهضت وتوجهت إلى المطبخ.

خلف البيت، تغرغر فيتنام بالماء المالح، وهو واقف أمام المرآة التي علّقها أبوه على الجدار منذ عدة سنوات. «اختبار، واحد، اثنان، ثلاثة»، تغرغر أكثر، «اختبار، واحد، اثنان، ثلاثة». لكن صوته ظل عالي النبرة. بيأس، دفع سبابته داخل حنجرته وراح يحرّكها بشكل دائري حتى تقيّأ الطعام الذي تناوله في الفطور، وطفرت الدموع في عينيه. مسح دموعه

بعقب راحة يده، ثمّ ذهب ليجلب الماء، لينظف الأوساخ التي أحدثها. هناك، عندما كان يجلب الماء من حوض غسيل الثياب، أحسّ فيتنام بجدول يتدفّق بين ساقيه. نسي الماء وهرع إلى المرحاض، ضاماً ساقيه معاً من الوركين حتى الركبتين. أحسّ بحرج شديد لأنه بلّل سرواله الذي، عندما أنزله، لم ير بولاً، بل رأى دماً يلطّخ بنطاله بالأحمر، ويجري فوق باطن فخذيه. نظر إلى قضيبه ولاحظ استمرار انسياب الدم منه. اعتراه الخوف، لا بسبب لون دمه القرمزي فحسب، بل لأنه لم يتمكن من إيقافه إيقافاً تاماً كذلك. صاح منتحباً «إني أموت».

«فيتنااااام!» صاحت أمّه من المطبخ، «هيا عجّل. ستتأخر عن حضور المسابقة!»

«إني قادم يا أمّي»، صرخ.

«توقّف عن التحدث بهذه الطريقة يا فيتنام! إني أحذّرك!»

«دعيه وشأنه»، صاحت جدته بتذمر من أرجوحتها.

يقولون إنه عندما دخلت أمّ تروتسكي سانشيز غرفة ابنها لتوقظه، وجدته يبكي على طرف سريره. استخدم إحدى يديه لتغطية عينيه المائلتين الصغيرتين، وأبقى اليد الثانية منقبضة على صدره، بالقرب من قلبه.

«ما المشكلة يا حبيبي؟»

«...!.....!!.....!!!» همهم تروتسكي.

اقتربت من سريره وراحت تمسّد شعره، وقالت: «إنك خائف لما سيجري في المسابقة، أليس كذلك؟» جلست إلى جانبه، وعانقته وجففت دموعه بمئزرها الأبيض النظيف، وقالت: «قلبي يقول لي إنك ستفوز يا تروتسكي، وقلب الأمّ لا يخطئ أبداً».

فتح الصبي قبضة يده، ونظرت إليها من فوق كتف أمّه: ما كان يخبؤه كان لا يزال هناك. عاد وأغلق يده بإحكام وأطلق صرخة.

«كلّ شيء سيكون على ما يرام يا حبيبي، ماما هنا».

لكن الصبي أطلق العنان لمخيلته لتنقله إلى مكان لم يكن فيه كل شيء على ما يرام. ففي وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، قبل شروق الشمس، استيقظ تروتسكي شاعراً بالرغبة في التبوّل. سحب النونية من تحت سريره ووضعها على الفراش. وقف أمامها، وهو لا زال يغالب النعاس، وأدخل يده اليمنى في سرواله الداخلي، وراح يبحث عن قضيبه. هبطت يده على شعر عانته الذي نبت مؤخراً ومرّرها بسرعة، باحثاً عن عضوه. حرّك يده، وافترشت أصابعه الخمس في جميع الاتجاهات. وجد خصيتيه، دافئتين ومنكمشتين، لكنه لم يجد قضيبه. منزعجاً، أشعل شمعة. راحت عيناه الناعستان ويده تبحث عن القضيب المراوغ، لكنها لم تعثر عليه. أفاق تروتسكي تماماً، استيقظ. أنزل سرواله حتى ركبتيه، وبعينين مفتوحتين على وسعيهما، وبكلتا يديه، أخذ يتفحص منطقة عانته برمتها، مقسّماً عانته إلى أقسام صغيرة. ببساطة، لم يكن قضيبه هناك. في الواقع، لم يكن هناك أي دليل يشير إلى وجود قضيب بين ساقيه. وفي حالة الاضطراب التي اعترته، راح يبحث عنه في الأجزاء الأخرى من جسمه التي لا يمكن أن يتواجد فيها عادة، مثل سرته وتحت إبطيه وخلف أذنيه. فتح تروتسكي عينيه واسعاً، وغطّى فمه بكلتا يديه، بالطريقة التي تغمضهما أمّه عندما يذكر أحدهم الثوّار وقوات الميليشيا. كان لا يزال يشعر بالحاجة إلى التبوّل، لكن كيف؟ ربما انكمش قضيبه واختفى تحت جلده كما تفعل خصيتاه أحياناً، عندما تغادران كيس الصفن ويصبح فارغاً ومجعّداً. رفع سرواله وهرع إلى المرحاض الخارجي.

وقف هناك أمام المرحاض، لا يعرف ماذا سيفعل، إلى أن قرفص على كعبيْ حذائه، راجياً أن يبرز قضيبه من تحت حوضه. لكن بوله وجد مخرجاً آخر من جسمه، بل خرج متدفقاً بثبات عبر كيس الصفن، دافئاً وأصفر كما كان دائماً. راح تروتسكي يبكي وهو عائد إلى غرفة نومه. جلس على حافة سريره ينتظر أن يفيق من كابوسه. حتى إنه قرص ذراعه ليتأكد من أنه مستيقظ. ثمّ رآه: قضيبه! رأى تروتسكي قضيبه ملقى على الأرض، بجانب حذاء مهترئ أسود كان قد ورثه عن أبيه. حائراً، إنحنى لإلقاء نظرة أفضل عليه: ثمرة مجعدة بحجم دودة القز في وسطها شامة داكنة. لقد انفصل من بين فخذيه عندما كان نائماً، وقفز من السرير إلى أرض الغرفة.

تأمّل قضيبه اللامبالي في عين عقله، اكتشف تروتسكي أنه خائف منه. فإن كان بوسعه أن ينفصل عنه، فبإمكانه أن يفعل أشياء أكثر بكثير. فقد يزحف ويلتفّ على نفسه مثل دودة؛ وقد يطير دون أن يُرى، كالخفاش، بل حتى يستطيع كذلك أن يهاجم الصبي، صاحبه. وبعد وهلة، بعد أن أقنع نفسه بأن قضيبه غير قادر على القيام بمثل هذه المهام الصعبة، تغلّب تروتسكي على مخاوفه والتقطه من أرض الغرفة. رفعه بلطف ووضعه في راحة يده، وراح يتأمله من جميع الزوايا الممكنة. لم يبد عليه أنه قُطع، لأن قاعدته كانت مختومة بطريقة تامة، وبدا رأسه تماماً كما كان عندما رآه تروتسكي آخر مرة، رأسه مكسو بقطعة جلد إضافية تنكمش داخل طيّاته. إن حَمْل الصبي قضيبه الطليق في راحة يده جعله يشعر بحزن شديد.

أخذ يبكي بحرقة إلى أن دخلت أمّه غرفته.

يقال إن الفتيان الأربعة التقوا عند باب منزل الممرضة راميرز قبل الساعة

الثامنة بقليل. هرع كل منهم، من دون أن يخبر أحدهم الآخر، إلى المستوصف، الذي كان في واقع الأمر، غرفة الجلوس في بيت الممرضة، تزيّنها شهادات تخرج زوجها المرحوم في كليّة الطب، وصورة كبيرة متشابكة لهيكل عظمي بشري، وكان له كذلك مدخل منفصل يفضي إلى الشارع. فتحت الممرضة باب المستوصف مرتدية بيجاما زوجها الراحل. كانت عامرة الصدر بعض الشيء، وقد تجمعت كتلة لامعة من الضفائر السود حول وجهها المكوّر المكتنز.

«ألا يفترض أن تكونوا جميعاً في طريقكم إلى الساحة الآن؟» سألتهم بصوت فيه صرير حاد، يشي بأنها متضايقة من وجود الفتيان في هذا الوقت المبكّر. أخفوا وجوههم ولم يردّوا عليها. «إنكم خائفون من تلك الفتيات السخيفات ومنافستهن الغبية، أليس كذلك؟ هيا اذهبوا! ستتجاوزون ذلك» أخذ الفتيان ينتحبون، ولم يتحرّكوا قيد أنملة. رمقتهم الممرضة راميرز بعينيها وقالت: «حسناً، حسناً، اللعنة! هل أصيب أحدكم بطلق ناري؟» هزّوا رؤوسهم. «حسن، لأنني لا أستطيع احتمال رؤية الدم. هيا ادخلوا وانتظروا حتى ارتدي ثيابي».

كانت ممرضة ماريكيتا شديدة الحساسية إزاء رؤية الدم، والقيء، والإسهال، والقيح، والطفح، وأعضاء الآخرين التناسلية ـ بينما كانت تجد أعضاءها مرغوبة بشدة. وغني عن القول، أنها لم تكن ممرضة جيدة، بل في واقع الحال، لم تكن ممرضة على الإطلاق. فقد كانت أرملة الدكتور راميرز، طبيب ماريكيتا الوحيد لأكثر من ثلاثين سنة، وقد تعلّمت منه بعض أساسيات الطبّ ـ كيف تقيس نبض المريض وضغط دمه، وكيف تقرأ ميزان الحرارة وتستخدم السماعة، وكيف تزرق الحقن. لكنها رفضت

أن تتعلم طريقة الإنعاش من فم إلى فم. ومنذ ثماني سنوات، بعد هجوم الثوّار في اليوم الذي اختفى فيه الرجال من ماريكيتا، لم تعد هناك فائدة لأرملة الدكتور راميرز. ففي ذلك اليوم، حاولت مساعدة جيرانها وأصدقائها في علاج جروحهم، لكنها شعرت بالتقزز بعد رؤيتها دما غزيراً، وعادت إلى البيت لتحزن على ما منيت به من خسائر. وبعد بضعة أسابيع، اجتاح القرية وباء إنفلونزا شديد، أودى بحياة سبعة أطفال، وثلاث نساء عجائز في الأسبوع الأول. لكنها في تلك المرة، عالجت عدّة مرضى، ونجحت في وقف انتشار الوباء. بل حتى أن أرملة بيريز زعمت أن «الممرضة» راميرز أنقذت حياتها. ومنذ ذلك الحين، كلما جُرح أحدهم، أو مرض، أصبح يستدعي «الممرضة» راميرز.

أثناء انتظارهم عودة الممرضة المفرطة الحساسية، تظاهر الفتيان بأنهم لا ينتظرون الممرضة التي يصعب إرضاؤها في المستوصف. أخذ تشي يتبجح بقوة قذفه الذي يصل إلى مسافة بعيدة. «استعدوا جيداً يا أولاد، لأنني أتمرّن للمسابقة القادمة. وفي كلّ مرة، أقذف مسافة أبعد». تردد التعليق في أذنيّ تروتسكي. حاول أن يلزم الهدوء، مع أنه لم يتمكن من التوقف عن قضم أظافره. «إنها مسابقة سخيفة»، قال متذمّراً، «لن أفعلها مرة أخرى». في هذه الأثناء، شغل هوشي منه نفسه، الذي كان يرتدي قميصاً من قمصان أبيه المرحوم ـ الذي بدا كبيراً عليه ـ وبكتاب ضخم يحمله إلى صدره بإحكام ـ بحفظ أسماء عظام الجسم من صورة الهيكل العظمي عن ظهر قلب. أما فيتنام، من جهته، فقد رفض أن يتكلم، وكتب على قصاصة ورق، «لقد أصبت بالتهاب حادّ في حنجرتي وفقدت صوتي»، ورفع الورقة ليراها أصدقاؤه.

لم تستطع الممرضة راميرز أن تخرج لتفحص الفتيان، بل نادتهم الواحد تلو الآخر إلى مكتبها واستمعت، على انفراد، إلى الأعراض التي تنتابهم. كان ما سمعته مفزعاً، إلى حد أنها حبستهم على الفور في غرفة الانتظار. لم تشك في قرارة عقلها بأنها تواجه وباء فظيعاً غامضاً. ازدادت مخاوفها، فارتعشت يداها من تلقائهما، وتملكتها رغبة قهرية في الاستحمام. نزعت ثيابها، ووضعتها في كيس، وأحكمت إغلاقه، ثمّ دعكت نفسها بإسفنجة، وفركت جسمها كله عدة مرات. ثم ارتدت ثيابها، وأحست أنها ازدادت هدوءاً، وأخرجت من درج مكتبها مرجعاً طبياً قديماً، أثراً قديماً كانت أسرة زوجها تتناقله من جيل إلى جيل. أرادت أن تبحث عن المرض، لكن من أين تبدأ؟ خطر لها أن يتدّخل شخص آخر.

عندما وصلت القاضية وسمعت الخبر السيء، أرادت أن ترى الفتيان، غير أن الممرضة لم تسمح لها بذلك. لكن روزالبا أصرّت بقولها: «لكنكِ لم تفحصيهم. كيف عرفت أنهم ليسوا كاذبين؟»

«كاذبون؟ هل يمكنك أن تكذبي بشيء كهذا، أيتها القاضية؟ ليتك رأيت وجوههم. كانوا مرعوبين. كان هوشي منه يغطّي صدره بكتاب كبير، ذلك المسكين. ولم يستطع فيتنام حتى أن ينبس بكلمة. يا للعار!»

«راميرز، يجب أن أرى الفتيان»، ألحّت روزالبا في طلبها.

«أيتها القاضية، إذا دخلتِ إلى تلك الغرفة، فيجب أن تمكثي فيها مع الفتيان المصابين لمدة أربعين يوماً»، رددت الممرضة راميرز بنبرة قاسية كانت بالنسبة لأذنيّ القاضية الاستبدادية المدربتين دعوة للمواجهة. لكن الظروف المريعة جعلت روزالبا تدرك أنها يجب أن تعالج الأمر بهدوء. أعطت الممرضة كلمة شرف بأنها لن ترى الفتيان لكنها طلبت منها أن

تعطيها مفتاح الغرفة التي يمكثون فيها، لكي تشعر بأنها تسيطر على الوضع. خبأته في صدرها، ثمّ ذهبت لإحضار سارجنت الشرطة أوبالدينا، أرملة ريستريبو.

لم تقدم للسارجنت تفاصيل محددة عن وضع الفتيان الطبي ـ لأن كتمان السر ليس من خصائلها. وأُرسلت للبحث عن رجال ماريكيتا الثلاثة الآخرين (خوليو موراليس، سانتياغو مارين، والخوري رافاييل) وإحضارهم إلى المستوصف لفحصهم فحصاً طبياً شاملاً.

وجدت السارجنت خوليو موراليس ـ خوليا، كما كان معروفاً أكثر ـ بين حشد النساء المنتظرات بدء المسابقة. وكعادته، كان يرتدي ثياب فتاة، ويضع أزهاراً ملوّنة على شعره الأسود. «القاضية تريد أن تراك في الحال»، همست السارجنت في أذن الفتاة. أومأت خوليا بأن تسبقها وأنها ستتبعها. تبعتها، ظهرها منتصب، وردفاها تتأرجحان ذات اليمين وذات اليسار بشكل إيقاعي، كلّ قدم من قدميها الحافيتين تهبط تماماً أمام القدم الأخرى في كلّ خطوة ـ طريقة مشيها الخلابة جعلت السارجنت الخرقاء، بسروالها المصنوع من الكتّان، وقميصها ذي النقوش، وحذائها الطويل الجلدي المهترئ، تشعر بالخجل.

وجد سانتياغو مارين، «الأرملة الأخرى»، في فناء بيته، يعمل في حديقته الصغيرة، حيث زرع أفضل أنواع البندورة في القرية. فمنذ الليلة التي أُرسل فيها عشيقه بابلو في رحلته الأخيرة، دون رجعة، أصبح سانتياغو منطوياً على نفسه وهادئاً. لم يصب بالخرس مثل خوليا، بل لم يعد يتكلم إلا إذا كان لديه شيء هام ذو معنى يريد أن يقوله. اليوم، وبعد أن استمع للسارجنت، ارتدى سانتياغو قميصاً نظيفاً، وأرسل شعره الطويل وتوجّه إلى المستوصف، ترافقه أوبالدينا.

كان الخوري رافاييل آخر رجل يُحضر إلى المستوصف. فقد وجدت السارجنت الخوري وهو يتناول طعام الإفطار في كافتيريا فيليغاس، وبعد أن أخبرته أن ثمة شيئاً فظيعاً يجتاح ماريكيتا، رجاها أن يمكث بضعة دقائق أخرى مع الرب. ثم رافقته أوبالدينا إلى مدخل الكنيسة الخلفي، إذ لم يرغبا في أن يراهما الحشد المتجمّع في الساحة ـ فقد بدأت النساء يتململن بسبب تأخر الفتيان ووهج الشمس اللاهب. انتظرت السارجنت خارج الكنيسة، وراحت تصفّر ألحاناً قديمة، وهي تمسّد عقب المسدّس القديم الذي تحمله في حزامها. وبعد أربع أغاني أخرى، خرج الخوري ورافقها إلى المستوصف.

كما أُرسل في طلب أمهات الفتيان. إذ كان من الضروري إبلاغهن عن حالة أبنائهن الصحية، والحجر الصحي الذي فرض عليهم. طلبت الأرامل الأربع رؤية أطفالهن، وهدّدن بخلع باب الغرفة المحتجزين فيها، إذا لم تسمح لهن القاضية بالدخول. وبينما انشغلت الممرضة راميرز والسارجنت بإمكانية احتجاز الآخرين، قرّرت روزالبا أن الوقت حان لمواجهة حشد النساء في الساحة، اللاتي أصبحن فظات للغاية، واللاتي علا صراخهن إلى حد أن صخبهن وصراخهن كان يُسمع في جنبات ماريكيتا. لم تكن الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً، واشتدت حرارة أشعة الشمس. سارت روزالبا في الشوارع الكئيبة التي تفترشها آلاف أوراق الأشجار التي اقتلعتها الرياح من أغصان أشجار المانغا في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم. لم يكن ثمة أحد على مرمى البصر، فقد شلّت المسابقة نشاطات القرية، علماً أنه لم تكن هناك نشاطات كثيرة في صباح يوم أحد عادي: حفنة من البائعات المتجولات، وبضعة أرامل تقيات يترددن على الكنيسة في الصباح الباكر

للصلاة. تساءلت روزالبا كيف ستكون ردة فعل النساء المجتمعات في الساحة عندما يتناهى إليهن هذا الخبر. لقد ازددن مرونة وازدادت قدرتهن على الصبر والتحمل بعد أن تعرضن للكثير من المصائب والمحن طوال تلك السنوات، إلا أن هذا النبأ سيكون ضربة قاصمة لهن، ويضع حداً لآمالهن. ولو كان ما تقوله الممرضة راميرز صحيحاً عن مرض الفتيان، فلن تتاح للنساء فرصة أخرى للقاء أي رجل في حياتهن، أو لإنجاب صبيان أو بنات، أو أي شئ آخر. فبعد اليوم، يجب أن يقرّرن هل يرغبن في أن يتعفنّ في هذه القرية البائسة، في انتظار أقاربهن الذكور، أو رجالاً يطلبونهن للزواج، قد لا يعودوا على الإطلاق، أو يتجاسرن ويجتزن تلك الجبال المخيفة المحيطة بقريتهن، ويعثرن على قرية، أو مدينة كبيرة لم يخطف الثوّار رجالها، بل يوجد فيها رجال وافري الصحة يجعلهن حبالى، وتتوفر فيها كهرباء ومياه جارية وسيارات وهواتف، بل ربما توجد فيها تلك الأجهزة الكهربائية التي تولّد هواء بارداً يهبّ عليك فينعشك. كانت روزالبا مستعدة لتقديم أيّ شيء مقابل الجلوس بالقرب من واحدة منها الآن.

لكن ماذا ستفعل تلك القرويات المسكينات في مدينة كبيرة ليس فيها أراض يزرعنها؟ وسيكون مآلهن العمل خادمات أو مومسات، وهما المهنتان الوحيدتان اللتان يبدو أن تلك القرويات مؤهّلات لمزاولتهما إذا ما ذهبن إلى المدينة. ماذا ستفعل تلك الفلاحات بين السيدات الراقيات الأنيقات والرجال المثقّفين؟ سيضحك الناس على ثيابهن المهلهلة وأقدامهن الحافية. وسيسخرون من أجسادهن المكتنزة التي تتغذى على الذرة، ومن خشونتهن، وسيقانهن التي تغطيها لسعات البعوض. وإذا قالت

النساء البسيطات بأنهن تجشمن عناء السفر وقدمن من ماريكيتا، فستسأل السيدات الراقيات «ماريكو ماذا؟» وينفجرن في الضحك.

لا. لن تغادر تلك النساء البسيطات الفقيرات ماريكيتا. بل سيبقين هنا، غارقات في تلك الرتابة اليومية حيث يتنشقن الهواء المتعفّن، وحيث يعرف الجميع أسماءهن ونقاط الضعف فيهن، وحيث لا توجد واحدة منهن غنية ولا راقية ـ بل مجرد نساء أقل تمدناً وأكثر فقراً ـ وهو أمر لم يعد يهمهن كثيراً، لأنه كُتب عليهن جميعاً، في نهاية الأمر، أن يعشن مصيراً غاشماً. نعم. سيبقين هنا، في المطهر، بين الجنة والنار. لأن ماريكيتا، هي في حقيقة الأمر، المطهر. لم يدرك أحد ذلك. لا أحد إلا القاضية.

«لديّ أخبار غير سارة»، قالت روزالبا للنساء المحتشدات، وبدت متمالكة نفسها على غير عادتها. «إن الفتيان»، أضافت، وهي تراقب قسمات النساء المشدوهة والمرتبكة، التي ستنقلب بعد ثانية أو ثانيتين إلى معاناة. ومضت توضح بتفصيل شديد ما جرى لكلّ واحد من الصبية، أو ما أخبرتها به الممرضة. وأخبرت النساء عن الأثداء التي ظهرت بشكل غامض، والقضبان التي ضمرت، أو التي غادرت أجسامهم من دون سابق إنذار. لوهلة، فكّرت بأن تستفيد من هذا اللقاء المرتجل لتطلب من النساء أن يكنسن الشوارع والأزقة، لأن أوراق الأشجار جعلت من السير في الشوارع أمراً خطيراً، لكن عندما قوبل إعلانها بصرخات هستيرية، أدركت روزالبا أن الطلب منهن أن يكنسن أوراق الأشجار وإزالتها أمر لا يتسم بالحكمة.

بحزن شديد، استندت مانوليا إلى شجرة صلبة وراحت تبكي. وعلى مسافة ليست بعيدة منها، دفنت لويزا وجهها في صدر ساندرا. وراحت

إلفيرا وكوبا تواسي كلّ منهما الأخرى في أحزانها على كتف الأخرى. وأخفت النساء الأخريات وجوههن وراء أيديهن وأجهشن في البكاء عبر أصابعهن. والآن ماذا؟ كان الصبية الأربعة الأمل الوحيد المتبقي لهن جميعهن. وتلاشت بعد الآن أيّ توقّعات وآمال لديهن. سيجلسن ويراقبن الأيام تتحول إلى أسابيع وأشهر وسنوات... وذات يوم، بعد عمر طويل، سيمتن عوانس تعتصرهن المرارة، فلا يعرفن ما هي المشاعر التي قد تعتريهن عند لقاء رجل، ما عدا الخوري الذي كان ينفث أنفاسه حول رقابهن، ووجهه الخشن الشائك يحكّ أثداءهن، أو بين سيقانهن.

«ماذا حدث لي؟» صاحت مانوليا موراليس، وهي تركل الشجرة البريئة بقدميها وتضربها بقبضتيها. «يا للعار! يا للتعاسة! لن أكون سعيدة». لكن مع نشيجها وشهقاتها، اعتراها شعور بالارتياح: فللمرّة الأولى في حياتها، تواجه مانوليا الفكرة التي طالما شغلت بالها، فراحت تمسّد سطح الشجرة الخشن برقة شديدة، كما لو كانت رجلها وهو يودّعها وداعاً حزيناً. فأجهشت في البكاء.

في تلك اللحظة، وصلت الممرضة راميرز من المستوصف. كان وجهها يلمع من العرق المتصبب منه، وكانت عيناها غائرتين، ثم تبعها الخوري رافاييل وخوليا وسانتياغو. كان سانتياغو يحمل كتاباً كبيراً بين يديه. وقفت الممرضة على المنصة بجانب القاضية، وأعلنت أنها فحصت الرجال الثلاثة. لكن بما أنهم لم يعانوا من أية أعراض، فقد طلبت منهم أن يخلعوا ثيابهم فقط، ومن مسافة محددة، تحقّقت من أن كلّ شيء كان ما يجب أن يكون، وأين يجب أن يكون، وقالت: «لا يفتقد أيّ واحد منهم شيئاً. إنهم كاملون وفي حالة سليمة»، قالت للحشد، يتملكها شعور واضح بأنها تحمل أنباء

جيدة. لكن الأنباء التي تحملها لم تخلّص النساء من الحزن الذي اعتراهن. لم يكنّ يفكّرن بخوليو وسانتياغو بأنهما رجلان ـ لأن خوليو وسانتياغو لم يعتبرا نفسيهما رجلين ـ أما بالنسبة للقسّ رافاييل، فقد أصبح كلّ ذلك ضرباً من الماضي، ماض بغيض مخجل، لم تشأ أية امرأة أن تتذكّره.

لكن الممرضة لم تكن قد أنهت حديثها. فقد ذكرت أنها وجدت شيئاً، شيئاً رئيسياً، في مرجع طبي قديم تعتبره مثل الكتاب المقدس. «أظن أن أولادنا يعانون من حالة تُعرف بـ. . . . وأشارت إلى سانتياغو بأن يقترب بالكتاب. «النر»، قالت، وفتحته على صفحة وضعت عليها علامة بقشرة نبتة ذرة، وأبعدت وجهها قليلاً عن الكتاب لرؤية الحروف الصغيرة على نحو أفضل. «ها هي: بابالوسي ـ بابالوسي. حالة غامضة شوهدت ذات مرة في أواخر القرن التاسع عشر في منطقة نائية في جنوب أفريقيا. ويُعتقد أن بابالوسي ـ بابالوسي حوّلت الأطفال في قبيلة زوكاشاسو شيئاً فشيئاً إلى مخلوقات استثنائية، ليست رجالاً ولا نساء. وفي النهاية، أصبحت هذه المخلوقات، المعروفة بباباس، مستشارين لرئيس القبيلة بسبب نزاهتهم في جميع المسائل».

«أرجوك توقّفي»، قال الخوري رافاييل، «إن الأمر برمته سخيف: هل أنتن عمياوات؟ ألا يمكنكن أن ترين أن هذا عقاب من الله؟»

سار نحو القاضية، وقد بدا كأنه يعاني من ضمور عضلي في وجهه، وهسهس قائلاً: «يجب أن تفعلن شيئاً حيال كلّ هذا الهراء».

«راميرز، أرجوك تابعي»، قالت روزالبا للممرضة.

غاضباً، تنحّى الخوري جانباً. عقد ذراعيه، وهزّ رأسه مرات عديدة. وواصلت الممرضة.

«أكّد مرض بابالوسي بابالوسي، الطبيب الإنكليزي هاري والش الذي بدأ بدراسته خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر. ولسوء الحظ، مات الدكتور والش بسبب الملاريا في عام ١٩٠٣، مخلفاً وراءه نظريات غير حاسمة عن هذا المرض. واعتقد زوكاشاسو أنها معجزة، لكن السجلات الطبية صنّفتها بأنها حالة غامضة لا يُعرف سببها». توقّفت الممرضة، وسألت هل يريد أحد أن يطرح عليها سؤالاً.

«أين هي أفريقيا؟» سألت فرانسيسكا، رافعة يدها في الهواء.

هزت الممرضة كتفيها، ومسحت بعينيها حشد النساء، باحثة عن كليوتيلد. إذ يوجد لدى مديرة المدرسة دائماً جواب على كلّ سؤال.

«تقع أفريقيا في جنوب أوروبا، بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي»، أجابت المرأة العجوز من الوراء. كانت فرانسيسكا على وشك أن تسأل أين تقع أوروبا عندما تكلّم الخوري.

«هل يقول كتابك ماذا حدث لهذه القبيلة المدهشة؟» كانت كلماته مفعمة بالاحتقار.

استمعت الممرضة لسؤال الخوري لكنها تجاهلت نبرته الساخرة. واجهت الكتاب ثانية وراحت تقرأ، «أبيدت قبيلة زوكاشاسو على يد جيرانهم، من أبناء قبيلة شوميتاه، في حرب عرقية أودت بحياة آلاف الأفريقيين المحليين في عام ١٩١٣. إلا أنها تذكر بأنها أحد أنجح المجتمعات التي شهدتها تلك القارة». توقّفت قليلاً ورفعت بصرها، ثم أضافت بصوت ابنة شابة ساذجة، «تخيّلن ذلك: إنسان محايد، شخص لا يأخذ جانب أحد لأنه ليس ذكراً ولا أنثى. أظن أن العالم بحاجة إلى أناس كهؤلاء». أغلقت الكتاب، مقتنعة بأنها ختمت كلمتها بجملة ذات أبعاد عميقة.

ساد صمت مطبق في أرجاء الساحة عندما بدأت النساء يفكّرن. في البداية، حاولن تصوّر كيف يمكن أن تكون هيئة مخلوق محايد. ثم حاولن تخيّل مجتمع لا توجد فيه مشاعر متحيّزة، يحكم بعدالة وأمانة، لكنهن لم يتوصلن إلى شيء، ولم يرين في حياتهن شيئاً من هذا القبيل.

«لا يوجد أحد نزيه مثل الله. إنه لا يحاكمنا»، قطع الخوري أفكارهن، بذات النبرة الوعظية المضجرة التي يستخدمها كلّ يوم في الكنيسة.

«لكن ربك لا يعيش في هذه القرية يا أبانا»، ردت عليه الممرضة راميرز، شاعرة بأنها هي موضع الهجوم، «لقد تخلّى ربك عنا، وأنت لا تزال تؤمن به بعناد».

«ستحترقين في نار جهنم أيتها الكافرة!» صاح الخوري. التفت ليواجه حشد النساء، وقال: «لا تعرن آذاناً صاغية لهذه القصص الخرافية الغبية. إن الكتاب المقدس يقول ـ».

«لا يوجد في الكتاب المقدس شيء نستطيع أن نفهمه أو له علاقة بنا»، قاطعته الممرضة فجأة، خداها تشتعلان غضباً، ومضت تقول: «كم مرّة أمطرت السماء المنّ والسلوى عندما كنا جائعين؟ كم شخصاً من أقربائنا الذين ماتوا عادوا إلى الحياة؟ لم نعد نصدق قصصك الخرافية يا أبانا». التفتت الممرضة والخوري نحو القاضية، وكأنهما يطلبان دعمها، كما التفتت النساء اللواتي شممن رائحة مجابهة لذيذة إلى القاضية (لم يكنّ يشعرن بأن مشاكلهن صغيرة، إلا عندما يرين الصعوبات التي يواجهها الآخرون).

لكن روزالبا لم تجب على الفور. كان يبدو أنها تمعن التفكير في الحجج التي ساقها كل من الخوري والممرضة. كانت تعرف أن ما ستقوله، قد

يهدّئ من روعهما أو يثير غضبهما. ثم قالت: «أقول إننا يجب أن نكتب إنجيلنا الخاص بنا»، اقترحت أخيراً، وأطلقت ضحكة عالية، «ملاك يتحدث إلينا، يحدّثنا عن قرى دمّرها الثوّار والقوات الحكومية. يحدثنا عن قرى منكوبة تعيش فيها أرامل وعوانس اختفت منها قضبان الذكور بين ليلة وضحاها».

باستثناء الخوري رافاييل ـ الذي زاغت عيناه ـ وحفنة من الأرامل التقيات، وجدت النساء المحتشدات أن الفكرة مسلية. هزت النساء رؤوسهن وراحت إحداهن تتم للأخرى، حتى إن بعضهن أخذن يضحكن بصوت منخفض. وبدافع من الاستجابة الإيجابية لملاحظتها الذكيّة، تابعت روزالبا قولها، «إذ إننا نجترح معجزاتنا الخاصة بنا. ألا نطعم أعداداً كبيرة بكمية قليلة من الطعام؟ ألا نسير فوق الماء في تشرين الأول (أكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) عندما تجتاحنا تلك الفيضانات الشنيعة؟» ضحكت.

«إن المعجزة الوحيدة التي لم نتمكن من اتقانها حتى الآن هي كيف نستطيع طرد الشياطين»، قاطعتها الممرضة راميرز، ورمقت الخوري بنظرة شريرة. انطلقت ضحكات عالية من بين النساء على هذا التعليق الأخير.

«أريد إنجيلاً لا يلحق العار بالنساء اللاتي يحببن النساء»، طلبت فرانسيسكا من النساء المحتشدات.

«أو الرجال الذين يحبّون الرجال»، ردّدت الأرملة الأخرى من المنصة.

عندما ازدادت حماسة النساء، رحن يصرخن بحماسة أكبر تأييداً لكتابة إنجيل خاص بماريكيتا، بدأ الخوري يتمتم شيئاً باللغة اللاتينية: "Sanctus Dominus Deus Sabaoth..." وببطء جثا على ركبتيه.

"Misererenobis. Dona nwbis pacem" ومدّ ذراعيه على طولهما.

"Pater nosier, qui es in coelis" ورفع وجهه إلى السماء، آملاً أن تضرب عاصفة رعديّة عنيفة القرية من فورها، لكن السماء لم تكن أكثر صفاء مما هي عليه الآن.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، جاثياً وحيداً على الأرضية العارية في المصلى، قال الخوري متضرعاً: «لماذا، يا أبي الحبيب؟ لماذا تدعهم يسيئون إلى اسمك؟ إنهن يشتمنك لكي لا يواجهن الحقيقة بطريقة مبجلة. لماذا لا تجعل جماعة المصليات القليلة مثمرات ويتكاثرن؟ فكلّ ما نريد أن نفعله هو أن نسير على خطا هديك، يا إلهي، أن نعيد ملء الأرض بالكاثوليك الصالحين، وأن يكون لهم السلطان على كلّ شيء حيّ فيها. لماذا أرسلت هذا الوباء لتبتلينا به؟»

واصل ابتهالاته.

ثمّ حدث حادث غير عادي: فبينما كان يتأمّل لوحة تصوّر موسى وهو يحمل لوحين حجريين خُطَّ عليهما القانون الإلهي، معلقة على الجدار بشكل مائل، كان الخوري يتخيّل الحمل الثقيل الذي حمله موسى المسكين على كاهله، عندما تسلل شعاع شمس متوهجة من خلال النافذة، فأعمى بصره، لكنه في الوقت نفسه، وعلى نحو إعجازي، وضع الحقيقة أمام عينيه. وتذكّر كيف أن الرب في العهد القديم أنقذ شعبه المختار من العبودية باثني عشر وباء، ثم شق مياه البحر الأحمر لكي يتمكن هذا الشعب من الهرب من أرض مصر. لماذا، بالطبع! هذا ما كان يعتزمه الله عندما أرسل الطاعون الأول ذلك، الثوّار، إلى ماريكيتا في سنة ١٩٩٢. فقد جنّد الثوّار عنوة معظم الرجال واختطفوهم، مخلوقات آثمة لا تحضر صلاة

القداس وتذهب إلى بيت الخطيئة ذاك، ماخور دونا إميليا. لماذا، بالطبع! فإن مرض الصبية المفاجئ ما هو إلا السبيل الذي اتخذه الله لمعاقبة النساء على خطاياهن المريعة؛ لأنهن يرقدن مع بعضهن بعضاً، ولا يؤمنّ بالله. لقد اتضح كلّ شيء الآن: العقم الغامض الذي أصابه، ضمور قضيب تشي، ثديا هوشي منه، والحيض الذي أصاب فيتنام، وتحكّم أعضاء تروتسكي التناسلية بذاتها ـ جميعها أوبئة. الأوبئة التي اجتاحت ماريكيتا.

«النور» همهم، وأصبح بصره فجأة حاداً، «إني أرى النور». لعل الله لم يظهر له من وسط لهب، أو يتحدث معه من الأعلى مباشرة (هذا امتياز للقديسين الحقيقيين لا يمكنه أن يتوقّعه)، لكن الله أظهر إرادته للخوري. لقد فعل ذلك بواسطة شعاع بسيط من الشمس تسلل إلى عقله بصورة إعجازية. «لقد اختارني الله لأكون موسى ماريكيتا»، قال أخيراً بنشوة، «حمداً لك يا إلهي».

غمرت الخوري معرفته الجديدة، لكنه لم يكن يعرف تماماً ما هي المهمة التي سيلقيها الله على كاهله في ماريكيتا، لذلك قرّر أن يبحث عن شيء يرشده في كتاب الله نفسه. جلس على مقعد طويل وقبع الكتاب المقدس الضخم في حضنه، وبحماسة شديدة بدأ يقرأ سِفْر موسى الثاني الذي يسمى «سِفْر الخروج». في هذه الأثناء، بدأت أصوات النساء تعلو في الساحة. ثم زحفت الضوضاء السفيهة التي يحدثنها فوق جدران المصلى، وراحت تصدر أزيزاً مثل صوت تيار هوائي عبر الشقوق والصدوع فيه. نهض الخوري وألقى نظرة على الساحة من وراء المشبك المعدني: كانت هناك عشرات النساء يجلسن بجانب المنصة تحت أشجار المانغا، يثرثرن عن الكتاب المقدس الجديد، بابالوسي ـ بابالوسي وزوكاشاسو. قال الخوري

لنفسه إنهن قريباً سيعبدن أصناماً في شكل بشر كهؤلاء الفتيان الذين أصابهم الوباء. بل ـ الأسوأ من ذلك، سيعبدن أصناماً تشبه حيوانات، مثل. . . مثلهن.

عاد إلى المقعد الطويل، وواصل تلاوة سِفْر الخروج بورع شديد، إلى أن وجد، في الإصحاح ٣٢، الآيتين ٢٦ و٢٧، الإجابة على سؤاله. ممتلئاً بالرهبة، وضع الخوري يديه فجأة على فمه، وأغمض عينيه، وظل هكذا بضعة دقائق. ثمّ نهض، عدّل ظهره ورفع ذقنه، مخاطباً النافذة التي تسرب منها شعاع من الشمس أنار الله به بصيرته، قال بصوت منخفض: «لتكن مشيئتك».

*

لم يكن الخوري رافاييل رجلاً خبيثاً، بل غبياً. فقد عششت في رأسه فكرة، فكرتان، في الحقيقة: بأنه موسى هذا العصر، وأن الربّ بعثه في مهمّة مقدسة لإنقاذ أهالي ماريكيتا. لذلك، تغلّب على كبريائه وذهب لزيارة القاضية في مكتبها.

«أريد أن أزور الفتيان زيارة دينية»، قال بشيء من العجرفة. لكنه بعد أن لقي نظرات القاضية الصارمة، غيّر أسلوبه بسرعة، وخفّض نبرته، وقال: «قالت الممرضة إن مفتاح الغرفة التي يمكثون فيها معك، وأظن أنه من المهم أن يتلقوا القربان المقدّس، «يجب أن يكونوا في سلام مع الله، أيتها القاضية».

«لا يمكنك أن تدخل إلى تلك الغرفة أيها المحترم»، أجابت بلا مبالاة.

«لماذا؟ ألأنك تخافين أن يقطع وجودي. . . تحوّل الفتيان إلى ـ».

«دعني من سخريتك يا محترم»، قاطعته روزالبا، «إنني لا أؤمن ببابالوسي

مثلك»، نهضت وسارت ببطء نحو النافذة. وقفت هناك، ذراعاها مثنيتان فوق صدرها، لم تكن تنظر إلى أي شيء محدد.

«لماذا، إني أشعر بالارتياح لسماع ذلك!» أجابها. لقد رفع اعتراف القاضية معنوياته، وأضاف، «لا يمكن لقائدة ذكية مثلك أن تصدّق تفسيرات دنيوية لما أُنزل من السماء».

«ولم أعد أؤمن بربك أيضاً يا محترم»، أجابت روزالبا على الفور وباقتناع تام، وكأنها تتلو السطر الأول من قانون الإيمان المسيحي.

أخذ الخوري رافاييل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بصمت. كان يحرك قسمات وجهه ويديه ورأسه بسرعة، توحي جميعها بأن حديثاً جدياً يدور بينه وبين نفسه. لم يفاجئه كلام القاضية. ففي السنوات القليلة الماضية، بدأ يلاحظ أن إيمان النساء قد تدنى كثيراً. كان معظمهن لا يزلن يحضرن صلاة القداس مرّة في الأسبوع، لكن الخوري كان يعرف أن نصفهن على الأقل كنّ يفعلن ذلك لسبب مختلف. ففي قرية صغيرة تتكون من سبع وثلاثين أرملة، وأربع وأربعين عانساً، وعشر مراهقات، وخمسة أطفال، وخوليا موراليس، وسانتياغو مارين، والخوري نفسه، تُعتبر صلاة القداس واجباً اجتماعياً. إذ يتعين على النساء المجيء إلى الكنسية، وأن عدم حضورهن القداس يعني أنهن يعلنّ بصراحة أنهن غير مؤمنات ـ كما فعلت فرانسيسكا بعد عثورها على ثروة تحت سريرها ـ وهي تتعرض لعقوبة الحرمان الكنسي. إن اعتراف أعلى سلطة في ماريكيتا بصراحة بأنها لا تؤمن بالله، يعني أن عدم حضور الصلاة سيكون مقبولاً اجتماعياً، وسيؤدي ذلك إلى انعدام الحاجة إلى وجود الخوري رافاييل، لكن ذلك لن يثبّط من عزيمته (ألم يتعرض موسى إلى محن مشابهة؟) فقد أوكل الله ذاته مهمّة قدسية إلى الخوري رافاييل، وسيقوم بتنفيذها حتى النهاية.

«أيتها القاضية»، قال بطريقة رسمية، «قلتِ إنكِ لا تؤمنين بحكاية الممرضة، لكنّكِ أيضاً لا تؤمنين بـ. . . ربي. إذاً، هل يمكنني أن أسألكِ كيف يمكنكِ تفسير حالة الفتيان الغريبة؟ لأنك تعرفين أن هذا أمر حقيقي».

«لا، أيها المحترم. لست متأكدة هل هذا حقيقي أم لا. فأنا لم أرهم، وهم لم يذكروا الأعراض التي انتباتهم إلا إلى راميرز، فحجرتهم على الفور، دون أن تفحصهم. إنك تعرف مدى تسرعها وشدة حساسيتها».

«طبعاً. لكن إذا كان الفتيان قد ذهبوا لرؤيتها في المقام الأول، لأن. . . وضيّق عينيه، وخفض صوته، وقال: «لا أظن أنك تلمحين إلى أنهم اختلقوا كلّ هذا؟»

هزّت روزالبا كتفيها، وقالت: «أقول إنهم فتيان أشقياء».

«حسناً، هناك طريقة واحدة فقط لتبديد شكوكك، أيتها القاضية»، قال الخوري بكل ثقة.

فكّرت روزالبا باقتراح الخوري لوهلة، ثمّ استدارت، ودسّت يدها في صدرها، وأخرجت مفتاح القفل الذي جعل الفتيان الأربعة أسرى. قالت: «أريده بعد ساعة»، وأعطته إياه.

عاد الخوري إلى مسكنه الكائن خلف الكنيسة، الذي يتألف من غرفة صغيرة خانقة ذات جدران عارية، ونافذة واحدة سُدَّت منذ سنوات عديدة. لم يكن على جدرانها أية صورة للمسيح أو أي صليب. وكانت تقبع فوق صندوقه سلة مليئة بقطع صغيرة من كعك أريبا، ودورق نصفه ممتلئ بشراب التشيشا. كانت أرملة موراليس تتبرع بالكعك المصنوع من الذرة وشراب الذرة المخمّر (التشيشا) وتحضره له صباح كلّ يوم أحد، وترتّب له غرفته أيضاً.

سحب من تحت سريره صندوقاً خشبياً مليئاً بجميع أنواع الخردة والأشياء الرخيصة: أحواض غسيل بلاستيكية، أنابيب صدئة، قطع حديدية، قناني فارغة بأحجام مختلفة، ملاقط شعر صار يستخدمها عندما بدأ يفقد شعره، ثم صار يضع باروكة عندما فقده كلّه، مصباح منضدة، بل حتى مصابيح تعود إلى الزمن الذي وصلت فيه الكهرباء إلى ماريكيتا. راح يفتّش في الصندوق، وكان من الواضح أنه يبحث عن شيء. ثم أفرغ الصندوق كله قبل أن يعثر على الشيء الذي كان يبحث عنه: قنينة متوسطة الحجم ذات غطاء لولبي ملفوف بإحكام بشريط لاصق. رفع القنينة إلى الضوء المتسرب من النافذة. كان فيها قدر من سائل. «هللوليا الشكر لله!» قال، وهو يقبّلها. ثمّ وضعها في جيب ثوبه.

متجاهلاً الفوضى التي أحدثها فوق أرضية الغرفة، توجّه الخوري نحو الصندوق ذي الأدراج. أمسك الدورق، وحمل سلة الكعك، وهرع إلى الشارع، متجهاً نحو المستوصف.

غمرت هوشي منه وفيتنام وتروتسكي سعادة كبيرة عندما شاهدوا الخوري. فقد كانوا كاثوليكيين مؤمنين، يعرفون أنه إذا ما حدث شيء، فيمكنهم دائماً الاتكال على الله ـ أو على الأقل، على أحد رسله وقديسيه. على الفور أقفل الخوري الباب من الداخل، وبدأ يتفحص الفتيان بدقّة شديدة، الواحد تلو الآخر، بحثاً عن علامة من علامات الوباء الفظيع الذي أرسله الله عليهم. باستثناء عيونهم المحمرّة، وقسمات وجوههم الشديدة الاهتياج، كانوا يبدون طبيعيين تماماً. لكن الخوري كان يعرف أنه يجب ألا يثق بعينيه كثيراً: فالشيطان يستخدم أساليب خادعة في أعماله الدنيئة. وضع السلة والدورق فوق مقعد قديم ووقف خلفه، قبالة الصبية. طلب

منهم الجلوس وبدأ يتكلم عن الله وعن إرادته. تكلّم بلغة الإنجيل، وهي لغة معقدة يصعب عليهم فهمها. كانت تتكلم عن الظلام والممالك، وعن الجنون والأوبئة، وعن الدمار والفوضى. وربما تتحدث عن الملائكة. ثمّ تحدّث عن القربان المقدّس. ومرة أخرى، لم يفهموا ما كان يقوله، إلى حد أن هوشي منه تساءل هل كان الخوري يتكلم بألسنة متعددة. وعندما أنهى كلامه، طلب من أحد الفتيان أن يتوجه إلى زاوية في الغرفة ويردد «السلام عليكِ يا مريم» وأحد أسس العقيدة ثلاث مرات. «للتكفير عن ذنوبكم»، قال مع أنه لم يستمع إلى اعترافاتهم. وفي الوقت نفسه، أخرج القنينة من جيبه وفتحها. وبحرص شديد أفرغ محتوياتها في دورق شراب تشيشا وراح يراقبه وهو يذوب بسرعة. ثم أعاد الغطاء إلى القنينة، وسدّها بإحكام، ووضعها في جيبه.

ما إن أحلّهم من جميع خطاياهم، حتى طلب من الفتيان أن يصطفوا في رتل بالتسلسل أمام المذبح المرتجل. اصطفوا حسب طول قامتهم. فيتنام، الأقصر، في أقصى اليسار، ثمّ تروتسكي وتشي وأخيراً هوشي منه. أحنوا رؤوسهم، وعقدوا أيديهم فوق صدورهم. قال الخوري لنفسه إنهم يشبهون الملائكة، ولكنهم من دون أجنحة ومن دون شعر أشقر. فحتى يكونوا ملائكة حقيقيين، يجب أن يكون لهم شعر أشقر.

رفع الخوري يديه وبدأ يكلّم الله، وقال: «إننا نأتي إليك، يا أبتي، بالمديح والشكر، من خلال يسوع، ابنك»، ورسم الصليب فوق السلة والدورق، ثمّ أضاف، «ومن خلاله نطلب منك أن تقبل وتبارك هذه الهدايا التي نقدمها أضحية لك»، وضمّ يديه، وأغمض عينيه، وصمت للحظة.

عندما لاحظ هوشي منه أن الخوري يتهيأ لكسر قطعة الخبز، بدأ، هو

الذي كان خادم المذبح، المتواضع، الغناء بشكل غريزي، «حملُ الله، خلّص العالم من ذنوبه: ارحمنا...»

أخرج الخوري كعكة أناريبا من السلة، ولعدم وجود طبق القربان المقدس يضعها فيه، كسرها على حافة المقعد. وبحرص شديد، ترك قطعة صغيرة منها تسقط في الدورق، وردد بضعة كلمات غير مفهومة. ثم أخذ الكعكة، ورفعها إلى وجهه، وطلب من الفتيان الاقتراب منه أكثر، وأكثر، حتى التصقت هذه المخلوقات المطيعة بحافة المقعد، ولفحت أنفاس الخوري الحامضة وجوههم. وأخذ قطعة أريبا صغيرة من السلة، وأراهم إياها، وقال: «هذا جسد المسيح».

«آمين»، أجابوا بصوت واحد. وتلقى الفتيان القربان المقدّس، الواحد تلو الآخر.

ثمّ، أمسك الخوري الدورق بكلتا يديه، وأعطاه لفيتنام، وقال: «هذا دم المسيح».

«آمين»، أجاب الفتيان ثانية. ورفع كلّ صبي الدورق إلى شفتيه، ورشف جرعة كبيرة من شراب التشيشا ـ حلواً، عطراً، حاراً قليلاً ـ ثم عاد إلى الزاوية وركع.

«لنصلِّ»، قال الخوري. مدّ يديه وأغمض عينيه بقوة. لكنه بدلاً من أن يصلّي، انتظر حتى يكسر الصمت الذي يشبه صمت الكنيسة أولُ صوت تحذيري.

تسارعت أنفاس فيتنام، ثمّ أصبح بطيئاً وغير منتظم. بدأ يسعل في نوبات مفاجئة.

ثم أنشد الخوري: «ليبارك الله القدير....»

أحسّ تروتسكي بخدر في حنجرته. وبدأ قلبه يخفق بضربات غير منتظمة داخل صدره المنقبض. مرتبكاً وخائفاً، مزّق قميصه، وتمتم بغضب.

«. . . الأب. . .»

أراد تشي أن يصرخ طلباً للمساعدة ـ كانت أحشاؤه تحترق ـ لكن فكّه ظل متصلّباً، وغرقت الكلمات في حنجرته.

«. . . والابن. . .»

صاح هوشي متألماً. تقيّأ بشدة، والعرق يتصبب بغزارة من وجهه.

«. . . وروح القدس. . .»

تمكن الفتيان الأربعة من الوقوف باستقامة وخطوا بضعة خطوات نحو بعضهم البعض. لم يكونوا يرغبون في أن يموتوا على ركبهم.

انهار الواحد تلو الآخر، وسقطوا على أرضية الغرفة، وغاصوا في برك من القيء، قبل أن يُغمى عليهم.

«ادخلوا في سلام المسيح!» أمر الخوري، بنبرة عالية. ثمّ صمت. صمت جنائزي إلى حد أن رعشة باردة سرت في عموده الفقري. فتح عينيه: كانت الغرفة مظلمة، تخلو من أية حياة. أسرع وقبّل سطح المقعد، وأظهر التبجيل المعتاد. ثمّ اتجه نحو الباب. عندما وضع المفتاح في القفل، استدار ورأى من وراء كتفه المشهد المروع: أربعة فتيان وقد جحظت مقلهم، وأصبحت بشرتهم المبللة بالعرق زرقاء داكنة. أربعة فتيان علت الرغوة والدم أفواههم. أربعة لا يزالون فتياناً.

أطلق الخوري زفرة طويلة.

دار المفتاح بسهولة في القفل.

أصبحت الغرفة شديدة البرودة. وفي الهواء السديمي، عبقت رائحة قوية من الخراء واللوز المرّ.

كاميلو سانتوس، ٤١ سنة
خوري من الروم الكاثوليك

كانت «الوحدة» العسكرية التي أُرسلت لمواجهة المذبحة تتألف مني ومن ملازم وستة جنود مسلحين وطبيب شاب مرهف الأحاسيس. سرعان ما عرفت السبب: فلم يعد في القرية إلا بضعة بيوت منهارة تكسوها طبقة متقشرة من الطلاء الأبيض، وبقعة من الأرض لا أشجار فيها ولا تماثيل يطلقون عليها اسم «الساحة». كانت رائحة الموت تنبعث من كلّ ركن فيها.

«لقد تأخرتم كثيراً»، دمدمت امرأة عجوز يخلو فمها من الأسنان، عندما ترجّلنا من الشاحنة. كانت جاثية خلف كومة من الأشلاء البشرية الدامية التي جمعتها، سعياً منها لإعادة كل عضو إلى مكانه الصحيح، وكأنها تركّب قطعاً في إحدى ألعاب الألغاز. كانت قد تناثرت على الدرب الترابي عدّة أجسام وأجزاء مشوّهة. وضع الطبيب الشاب مجموعة الإسعافات الأولية وحقيبته التي تضم الأدوات الطبية على الأرض، واستند إلى شجرة ليتقيأ. أما الجنود، الذين تعودوا على أهوال الحرب، فراحوا يجوبون المكان ويطرحون أسئلة عديمة الجدوى على الشهود الباقين على قيد الحياة، وكأن اكتشاف الجماعة التي ارتكبت هذه المذبحة من أولوياتنا.

«أين الجرحى؟»سألت المرأة نفسها.

«إنك تنظر إليهم»، أجابت، وأشارت إليهم بيد، وأشارت باليد الأخرى إلى مجموعة من النساء ـ أرامل وأمهات وأخوات يجبن المكان، يقلّبن جذوع الرجال على ظهورهم، يلتقطن أشلاء رجالهم، وهن ينشجن. أضافت قائلة: «لقد مات الآخرون كلهم».

وظهرت بغتة فتاة صغيرة من بين حشد النساء الصغير.

«الرأس يا جدتي. لقد وجدت رأس أبي!» قالت بشيء من الحماس. سارت نحو المرأة التي يخلو فمها من الأسنان، وأعطتها رأس الرجل المكسو بالدم. أمسكت المرأة الرأس بكلتا يديها، بهدوء، وراحت تنظر إليه من جميع الجوانب قبل أن تضعه في حضنها، وجهه إلى الأعلى. «لم نجد اليدين بعد»، قالت للفتاة، «لا نستطيع دفنه بدونهما. كانت يداه جميلتان...». حكّت الفتاة رأسها. تطلعت حولها، ثمّ نظرت إليّ، وكأنها تطلب مشورتي عما يمكنها أن تفعله بعد ذلك. تطلعت حولي أنا أيضاً. ولم أعرف ماذا أفعل.

أخذت المرأة العجوز منديلاً، وراحت تنظف الوجه الشاحب الملقى على حضنها من الدم. ثمّ رفعت بصرها وقالت وهي تحدّق في الكتاب المقدس الذي أحمله بيدي، «أيها الأب، نريدك أن تصلي من أجل راحة أنفس رجالنا الأبدية. أرجو أن تبدأ بتلاوة صلواتك الآن».

نظرت إلى المرأة العاجزة، وإلى الطبيب المريض، وإلى الجنود اللامبالين، وأدركت فجأة ما عليّ فعله بعد ذلك. عدت إلى شاحنتنا، وأخذت مجرفة بدلاً من الكتاب المقدس.

في بعض الأحيان، حتى الله يجب أن يأتي في المرتبة الثانية.

الفصل التاسع

اليوم الذي توقّف فيه الزمن

ماريكيتا، ٢٣ حزيران
(يونيه) ٢٠٠٠

قبل بزوغ الشمس، تحلّقت مجموعة مؤلفة من عشر أرامل سراً في المدرسة، لمناقشة كيف يمكنهن أن يقتلن الخوري. أحضرت بعضهن سكاكين وعصياً غليظة من بيوتهن، والتقطت بعضهن أحجاراً كبيرة من الأرض. لم يتوصلن إلى اتفاق على طريقة محددة لقتله، لذلك قرّرن أن تساهم كلّ امرأة منهن في قتل الرجل بأسلوبها الخاص. وانقسمن إلى مجموعتين تتألف كل منهما من خمس نساء. توجهت المجموعة الأولى، بقيادة أرملة سانشيز (أمّ تروتسكي) إلى المدخل الرئيسي للكنيسة، وتوجهت المجموعة الأخرى، بقيادة أرملة كالديرون (أمّ فيتنام) بتصميم وعزم، إلى الجزء الخلفي من المبنى.

مدججة بالحجارة، راحت أرملة كالديرون تقرع الباب الخلفي المفضي إلى غرفة الخوري، وهي تصيح: «اخرج، يا قاتل الأطفال. اخرج الآن، أيها الوغد، وإلا اقتحمنا البيت». عملت النساء الأربع الأخريات الشيء

ذاته، ورحن يوجهن أقذع الشتائم للخوري. وأمرت المجموعة المتقدمة الخوري بالخروج، وهددن بأن يضرمن النار في الكنيسة إن لم يخرج.

مذعوراً، أخذ الخوري رافاييل يقرع جرس الكنيسة بعنف، مصدراً نداء مستميتاً لكي تنجده السارجنت أو القاضية أو أشدّ أتباعه المخلصات ورعاً، أو ربما الله. ولم يهرع لإغاثته إلا القاضية روزالبا وسارجنت الشرطة أوبالدينا اللتان توجهتا إلى مجموعة النساء، وراحتا ترجوانهن بأن لا تجرفهن حدة غضبهن كثيراً.

«يجب أن ننتقم لموت أبنائنا»، صاحت أرملة سانشيز. لن ندع هذا اللقيط يفلت من دون عقاب فقد قتل أولادنا»، ردّدت أرملة لوبيز.

قالت روزالبا للنساء الحانقات إن مبدأ العين بالعين خطأ كبير، وإن دفن أولادهن الأربعة البارحة كان مأساة فظيعة على ماريكيتا كلها. ومارست المرأتان عليهن الضغوط حتى وافقن على أن لا يقتلن الخوري شريطة أن يغادر ماريكيتا في الحال.

دار حديث قصير بين القاضية والخوري من وراء المشبك المعدني الصغير على الباب الرئيسي.

«يجب أن تذهب في الحال»، قالت روزالبا.

«هذا ليس عدلاً، أيتها القاضية»، أجاب بصوت مرتعش، «لقد كرّست ـ».

«ليس لديك حقّ أخلاقي لتتحدث عن العدل أو عن أي شيء آخر»، قاطعته روزالبا، «سأمنحك نصف ساعة للمغادرة، وإلاّ سأدع النساء يدخلن ويقضين عليك». ثم انضمت إلى حشد النساء المتزايد خارج الكنيسة اللاتي كنّ يراقبن الرجل الضئيل وهو يُخرج صامتاً، فراشه الملتفّ، وكرسيه الهزاز، وكتابه المقدس الضخم، وقفص الدجاج الصغير، وأكياس

الخيش، وصناديق، وصرراً وأكياساً، ويحمّلها على بغله العجوز ـ الهدية التي قدمتها له أسرة ريستريبو بمناسبة الذكرى العشرين لخدمة الخوري لماريكيتا في عام ١٩٩١. وعندما انتهى، لم يكد البغل يستطيع أن يقف على قوائمه.

وخشية أن تندم النسوة على ضعفهن، وأن يقمن بسحله وقتله، تردّد الخوري قبل أن يقترب منهن. فقد اصطففن على جانبي الشارع الرئيسي، وأفسحن له مكاناً يكاد يستطيع أن يمرّ منه هو وبغله. أخذ نَفَساً عميقاً، ومتسلحاً بالشجاعة، قاد البغل، وراح يتحرك بين صفيْ النساء بحذر شديد، مطرقاً رأسه لحماية عينيه من الرذاذ الخفيف الذي بدأ يهمي. أثناء عبوره بينهن، اشتد غضب النساء. بصقت أرملة كالديرون في وجهه، ثمّ أجهشت في البكاء؛ وحاولت أرملة أوسبينا أن تثب عليه، لكن امرأتين أمسكتا بها من ذراعيها ومنعتاها من القيام بذلك. «قاتل! قاتل!»، أخذت تصيح، والعبرات تخنق صوتها. بذلت النساء الأخريات جهداً كبيراً ليتمالكن أنفسهن حتى لا يقمن بطعنه، أو ضربه بعصيهن، أو خنقه بأيديهن العارية، بل رحن يدعين عليه بالموت، ميتة شنيعة يتألم فيها ببطء دون أن يجد أحداً يعتني به.

لم يجرؤ الخوري على قول الوداع، حتى للقاضية التي دعمت كنيسته طوال هذه السنوات، وتحمّلت تدخّله في شؤونها باستمرار. أخذت كتفاه المستديرتان، وساقاه المقوستان تصغران وتصغران، حتى تلاشى أخيراً في الضباب الذي غلّف الطريق المفضي جنوباً. عندما ابتعد، تنفست القرويات الصعداء، واستدرن وسرن ببطء نحو الكنيسة، نحو لا شيء.

سرعان ما تبين لهنّ أن الخوري رافاييل قد أخذ معه كلّ شيء تستطيع

دابته أن تحمله. وبالإضافة إلى أغراضه الخاصة، سرق أيضاً الثريات واللوحات والرسوم والصلبان والشموع والكأس والحاجز القابل للطيّ الذي كان يجري الاعترافات خلفه منذ سنوات عديدة، والبدلة الرسميّة المهترئة وثوب الزفاف الرثّ اللذين كان يرتديهما الأزواج الذين يعقد قرانهم في ماريكيتا منذ١٩٧٠، وانتقاماً للعداء الذي أظهرته القرية بأسرها له، وهو ـ رسول الرب القدير ـ أخذ معه شهادات ولادة جميع من ولدوا في القرية، ولم يترك شيئاً إلا المقاعد الخشبية الطويلة التي نخرها الدود، والكراهية العميقة للكاثوليكية التي كانت تتردد على لسان كل امرأة في ماريكيتا.

بعد أن غادر الخوري، واصلت المؤمنات المتبقيات التردد على الكنيسة كعهدن. وكنّ يطفن حول المبنى القديم، وينظرن إلى الثقوب في الجدران العارية حيث كانت المسامير الصدئة فيها تحمل صور القديسين المحببين لهنّ، ويركعن أمام ظلال خلّفتها صلبان ضخمة، ويرددن بهمس «السلام عليكِ يا مريم» ويدمدمن تراتيل وأدعية أخرى.

تسلمت كليوتيلد غوارنيزو، مديرة المدرسة، مسؤولية قرع جرس الكنيسة في الساعة السادسة من صباح كلّ يوم، وعند الظهيرة، ومرّة ثالثة عند الساعة السادسة مساء. وفي صباح أحد الأيام، بعد مرور بضعة أسابيع، برزت أمامها عقبة: فقد توقّفت ساعة الكنيسة الليلة الماضية بعد دقيقة الواحدة من منتصف الليل. ولم يعد باستطاعة المعلّمة، التي لم يكن معها ساعة، معرفة الوقت بدقة. وبحثت عبثاً عن المفتاح الفضّي الكبير لتعبئة الساعة، لكنها لم تجد سوى علبتها الفارغة. فأدركت أن الخوري قد أخذ المفتاح كذلك. «الخوري اللعين»، تمتمت غاضبة.

عندما سمعت القاضية هذا الخبر السيء، كلّفت سارجنت الشرطة أوبالدينا بالطواف في البيوت بيتاً بيتاً بحثاً عن أية قطعة تدلّ على الزمن أو أي راديو ترانزستور. وجدت أوبالدينا أن رقاصات الساعات جميعها قد توقفت في الوسط، أو كانت مكسورة، ووجدت أن عقارب جميع الساعات، عقارب الدقائق والثواني، قد توقفت ولم تعد تتحرك، وقد تكدّس الغبار فوق جميع أجهزة راديو الترانزستور المركونة على الرفوف العليا أو على المناضد في الزاويا، بعد أن فرغت بطارياتها وهمدت منذ فترة طويلة. وكانت العديد من الأرامل قد فككن أجهزة مذياعهن وأصبحت قطعاً صغيرة. فعلى سبيل المثال، استعملت أرملة موراليس المفاتيح أزراراً للفساتين، وحوّلت القطع المعدنية والأسلاك إلى أساور قايضت بناتها بها لقاء الحصول على قليل من البيض في السوق. وغرست الأرملة فيليغاس وردة بنفسج جميلة داخل مذياعها، ثمّ وضعته على حافة نافذة الكافتيريا البسيطة التي تملكها، حيث كانت تتبرعم أربع مرات في السنة، إلى جانب صورة قديمة للبابا يوحنا الثالث والعشرين.

وبالطريقة ذاتها، استبدلت إلويسا، أرملة صاحب الحانة، أجزاء ساعة يدها الداخلية بصورة باهتة لوجه زوجها المقتول. وعندما كان أحدهم يسألها عن الوقت، كانت تنظر إلى الصورة داخل الساعة، وتطلق تنهيدة طويلة، وتقول أخيراً بنبرة ميلودرامية، «من المبكر جداً أن أحبّه، وقد آن الأوان لكي أنساه». كان يخيّل إلى النساء الأخريات أن ردّ الأرملة مرح، وكنّ غالباً ما يوقفنها في الطريق لسماعها تقول ذلك. لكن إلويسا، الرأسمالية بالفطرة، حوّلت اختراعها إلى فرصة عمل تجاري، فحوّلت ساعات اليد التي لا تعمل إلى إطارات للصور لقاء جميع أنواع الطعام.

وقبل أن يهبط الليل بقليل، ذهبت السارجنت إلى مكتب القاضية لتخبرها بما وجدته، أو بالأحرى ما لم تجده.

«مع كلّ الاحترام الواجب، أيتها القاضية»، قالت أوبالدينا، «اقترح أن ترسلي أحداً إلى المدينة على الفور لشراء ساعة أو بطاريات جديدة للساعات القديمة».

وقفت القاضية تحدّق يائسة عبر النافذة في ساعة الكنيسة المتوقفة، وتخيّلت أن ماريكيتا قد تجمّدت بفعل الزمن: قرية من الأرامل والعوانس اللواتي لن يسمعن ثانية صوت صرخات مولود جديد. قرية بائسة رزئت بفقر أبدي. فلا شيء فيها سوى بضعة أكواخ خربة تفتقر إلى مياه جارية أو كهرباء، متناثرة تحت سفح جبل كبير يوشك أن يبتلعها.

«ربما كنتِ محقّة»، قالت القاضية بتجهم، «ربما يتعين عليّ أن أرسل أحداً في الحال...» لكن حلمها نقلها إلى منعطف آخر: ماريكيتا، التي جمّدها الزمن، قرية لن ترى الرجال ثانية، سواء أكانوا مقاتلين لا يعرفون الرحمة أم مجرمين. قرية تسكنها نساء شجاعات مكتفيات بأنفسهن يعملن في الأرض منذ شروق الشمس حتى غروبها، لن يستسلمن أبداً، حتى في أشد الظروف فظاعة. قرية أهملتها الأمراض والمآسي، ونسيها الموت.

ارتسمت على وجه القاضية ابتسامة رضا عندما أضافت، «أو لعلي يجب أن أنتظر عدداً من الشموس الأخرى».

بعد شروق شموس عديدة، توجهت السارجنت إلى مكتب القاضية ثانية، هذه المرة لتخبرها أن الديكة، جميعها، قد توقّفت عن الصياح. وقد اعتراها الارتباك»، قالت أوبالدينا بثقة تامة.

«هذا شيء سخيف»، ردّت القاضية، «ما هذه الديكة الغبية التي لا تعرف متى تشرق الشمس؟»

«ليس للديكة أدمغة مثلي ومثلك أيتها القاضية»، قالت أوبالدينا، وراحت تنظر إلى وجه روزالبا المتجهم، «لقد اعتادت على رؤية النشاط والحركة خلال النهار، والهدوء في الليل: أما الآن، فلم يعد هناك فرق بين الليل والنهار».

في الواقع، لم يعد النهار في ماريكيتا نهاراً. فبعد أن تحررت النساء من طغيان ساعة الكنيسة، لم يعدن يقايضن سلعهن في السوق، أو يصلين في الكنيسة، أو يعتنين بحدائقهن، بل حتى إنهن لم يعدن صاحيات تماماً. وعندما يهبط الليل، لم تعد النساء ينمن، أو يتقلّبن على السرير، أو يضاجعن سراً امرأة أخرى، أو يرددن صلوات همساً في الظلام. فقد أضحى الفرق بين النهار والليل في داخل كلّ امرأة، وكان يتغيّر من لحظة إلى لحظة. ولم يعد يُتوقع حدوث شيء في ماريكيتا، مثل عاصفة ثلجية في منتصف حزيران (يونيه)، ولم يعد أحد يتذكّر متى كان حزيران.

*

في الصباح الذي توقّفت فيه الديكة عن الصياح، هرعت القاضية خارج بيتها لتتحرى أوضاع الزمن. ارتدت ثوب يوم الأحد، الذي لم يعد لونه، بعد أيام الأحد العديدة، أبيض بلون الحليب كما كان، بل إصفرّ وبلي واهترأ عند الردنين. فقد حدثت مؤخراً أشياء كثيرة، إلى درجة أنها لم تعد تعرف عدد الأيام أو الليالي التي مرت، لذلك بدا لها أن ارتداء ثوب يوم الأحد أمر صحيح. فقد اختارت أن تظل وفية لحساب نظام الليل والنهار التقليدي، لأنها شعرت أنه يقع على عاتقها على الأقل تسجيل الأحداث بواسطة لون السماء. وبدا أن الكلب الأبيض الذي يقعي وسط الشارع الرئيسي ويهرش جلده بسبب البراغيث، يؤكد قناعة القاضية بأن كلّ شيء في ماريكيتا كان على ما يرام.

ماذا لو لم تشأ تلك الديكة الغبية أن تصيح؟ سالت نفسها وهي تجوب الشوارع. إذا كان بإمكاننا أن نتعلم العيش من دون رجال، فإننا نستطيع أن نتعلّم العيش من دون الديكة. في تلك اللحظة، لمحت امرأة عارية تجري نحوها. شعرها طويل أسود لامع، وبدا لها أنها تعوم من مسافة بعيدة، وثدياها المترهلتان تصعدان وتهبطان بالتناوب، مثل أرجوحة. توقّفت روزالبا على الفور، وكأنها رأت مقاتلاً يعترض طريقها. لكن ما إن اقتربت المرأة العارية من القاضية، حتى عرفت أنها مانوليا موراليس.

«ماذا تظنين أنك تفعلين»، زمجرت القاضية، «تجوبين الشوارع عارية مثل مجنونة في هذا الوقت المبكر من الصباح؟»

«وكيف عرفتِ أننا في الصباح الباكر؟» سألتها مانوليا، وجهها أحمر، مُجهدة، تتنفس بصعوبة.

«حسناً، لقد أشرقت الشمس».

«الزمن غير موجود إلا في عقلك أيتها القاضية». كان صوت مانوليا ناعماً، مريحاً، وأضافت، «قيل لنا إنه عندما تشرق الشمس، يكون الصباح، وعندما تغرب الشمس، يأتي الليل. قيل لنا إننا يجب أن نستيقظ عند الفجر وأن نخلد إلى النوم عندما يهبط الليل، وأننا يجب أن نتناول طعام الفطور والغداء والعشاء في أوقات محددة. لكن، أيتها القاضية، حاولي أن تطلبي من شجرة مانغا بأن لا تُنضج ثمرتها حتى انتهاء موسم البرتقال. حاولي أن تطلبي من وردة بأن لا تذبل حتى تكلّ عيناك من جمالها». ثم أخذ صوتها يرتفع شيئاً فشيئاً، «اطلبي من بقرة أن تدر قدراً أكبر من الحليب»، وفجأة بدأت تصرخ، «لا أسمح لأحد بعد الآن أن يخبرني متى أفعل أيّ شيء! لقد تحررت من الزمن، كالوردة». وبعد أن

أنهت كلامها، فرفصت على كعبيها، ومن دون أن تبعد عينيها عن وجه القاضية المنزعج، أفرغت أمعاءها على الأرض، وارتسمت على وجهها ابتسامة تشي بالرضا الخالص.

أرادت القاضية أن تقول لها شيئاً. ربما أرادت أن تقول لها إنه ليس لدى أشجار المانغا والورد، مثلها مثل تلك الديكة الغبية، عقل، لكنها عندما أدركت ما كانت تفعله الفتاة، قرّرت أنه ليس لمانوليا عقل أيضاً. فابتعدت مشمئزة، وغطت أنفها بيد، وراحت تجفف حبات العرق من جبهتها باليد الأخرى.

انعطفت روزالبا يميناً عند أول ناصية صادفتها وراحت تغذّ الخطا في الشارع المقفر. ولم تقطع مسافة طويلة، حتى رأت أرملة بيريز العجوز في ثوبها المعتاد: ثوب أسود، طويل، ذو أكمام طويلة، محافظ للغاية، وبياقة من الدانتيلا، كبير عليها بما لا يقل عن قياسين. كانت جاثية على ركبتيها، تقتلع أزهار الربيع من باحة بيت أرملة جاراميليو. «صباح الخير يا سيدة بيريز»، قالت القاضية بأدب شديد، «ما هو اليوم؟»

نظرت المرأة العجوز إلى روزالبا من وراء كتفها، كما لو كانت القاضية ظلّها، ثمّ هزت كتفيها، وقالت: «عندما تصبحين عجوزاً مثلي، ستعيشين اليوم ذاته كلّ يوم».

«إني أفهم ذلك»، قالت القاضية بلطف شديد، «لكن أخبريني، هل نحن في الليل أم في النهار؟»

«إن كلّ لحظة هي لحظة مناسبة لامتداح المسيح إلهنا». دحرجت روزالبا عينيها، وأخذت نفساً عميقاً، ثمّ حاولت مرة أخرى وسألتها، «هل نحن في فترة الإفطار أم العشاء؟»

هزت الأرملة كتفها مرة أخرى، وزمّت شفتيها، وقالت: «أترين تلك الطيور هناك؟» وأشارت بذقنها الحادّة إلى حمامتين تنقران قطعة من ثمرة جوافة ملقاة تحت إحدى الأشجار، وقالت: «إنني مثلهما تماماً. آكل عندما أجد شيئاً يؤكل». استوت واقفة، وأدارت ظهرها للقاضية، وراحت تمشي بتثاقل، حاملة بيدها اليسرى باقة جميلة من الأزهار.

لم تعرف روزالبا ماذا تقول. سارت وراء المرأة العجوز حتى خطرت لها فكرة.

«إلى أين أنتِ ذاهبة بهذه الأزهار؟»

«إلى الكنيسة»، أجابت المرأة العجوز دون أن تلتفت، «سأقدمها للربّ».

حاولت القاضية أن تتذكر هل قدمت شيئاً إلى الربّ طوال حياتها. فقد كانت في الماضي كاثوليكية ورعة تحضر صلاة القدّاس كلّ يوم تقريباً، وتتلو الصلوات كلّ ليلة تقريباً، وكانت تلتزم بكل وصية من الوصايا العشر. لكن هل قدمت شيئاً إلى الرب؟ لا، في الواقع، كانت تغضب في أحيان كثيرة عندما كانت ترى قطعاً من خبز الذرة المتعفنة، أو ثمرات الجوافة أو المانغا أو البصل أو البندورة (الطماطم) المتعفّنة فوق المذابح المرتجلة داخل الكنيسة. «إنها مقرفة وغير صحيّة»، كانت تقول للخوري، الذي كثيراً ما كان يعدها بتنظيف المذابح لتحاشي الهوام.

«هل تقدمين وعداً للربّ، يا سيدة بيريز؟»

«لا». قالت السيدة بيريز متبرمة، وأضافت، «إني أرتاد الكنيسة كل يوم، وأقدم له الأزهار».

«كلّ يوم؟ وهل قدم لكِ أيّ شيء بالمقابل؟»

توقّفت الأرملة فجأة واستدارت، وتحوّلت قسمات وجهها الورع إلى

قسمات شرسة، ثمّ قالت: «أنا لست مثلك، أسعى للحصول على الثروة أو السلطة. إن جائزتي أكبر بكثير: إنني أضمن لي مكاناً جيداً في الجنة، وعندما أنتقل إلى هناك، سيكون عندي مكان أفضل بجانب أطهر الأرواح وأشدها ورعاً». بعد أن قالت ذلك، استدارت الأرملة ثانية ومضت، وهي تردد أنشودة للربّ.

استندت القاضية إلى عامود مصباح ـ أو بالأحرى عامود، لأن جزء المصباح كان قد سُرق منذ عدة سنوات ـ وراحت تراقب العجوز وهي تبتعد. إنه أمر محزن، قالت لنفسها. فقد أمضت هذه المرأة المسكينة حياتها كلها يعشش في رأسها هدف واحد وهو أن تكون مستعدة للموت!

بدا للقاضية أن الشمس بدأت تلعب معها لعبة الغميضة. لقد أرت الشمس وجهها مرّتين فقط، أو ربما ثلاث مرات، لكن باستثناء القاضية، لا يبدو أن أحداً في ماريكيتا قد لاحظها.

«طابت ليلتك، أيتها القاضية»، صاحت فرانسيسكا عندما مرت روزالبا. كانت ترتدي ثوب نومها، تمشط شعرها الطويل أمام النافذة المفتوحة، وكأن الشارع مرآة. لم تجب روزالبا. بل كوّرت يدها ووضعتها على جبهتها، مظلّلة عينيها، وراحت تنظر إلى الشمس. وقفت هكذا قليلاً، ثمّ تابعت سيرها.

«مساء الخير، أيتها القاضية»، نادت فيرجيلينا سافيدرا، الجالسة مع لوكريسيا، جدتها الخرفة، في كرسيين متداعيين، خارج بيتهما. كانت الفتاة تحيك لحافاً، وكانت المرأة العجوز تأخذ قيلولة، أشبه ما تكون بالميتة. ابتسمت لهما روزالبا نصف ابتسامة، وواصلت طريقها.

«صباح الخير، أيتها القاضية»، قال سانتياغو مارين، *الأرملة الأخرى*.

كان جالساً على درجات بيته، من دون قميص، حافي القدمين، وشعره الطويل منسدل حول كتفيه. أحست روزالبا بالارتياح عندما سمعت أحداً يقول أخيراً، كلمة صباح.

«صباح الخير يا سانتياغو!»، قالت مغردة، «هل يمكنك أن تقول لي كم الساعة الآن؟»

«هه، لنر». نهض سانتياغو ومدّ يده تحت خرقة وسخة، وسحب كيساً ورقياً في داخله شموع من الشحم، وراح يعدّها، وهو يهزّ رأسه. ثمّ نظر إلى الشمعة التي تحترق على الأرض قبل أن يقول: «إنها أربع شمعات وثلاثة أرباع الشمعة».

انتظرت روزالبا بفارغ الصبر لكي تترجم الهراء الذي قاله سانتياغو عن الشموع إلى شيء مفهوم، لكنها قالت لنفسها إنه لا داعٍ لذلك. أخرج شمعة من الكيس الورقي وأشعلها من لهيب الشمعة الذاوية على الأرض. ثمّ وضع الشمعة الجديدة فوق الشمعة القديمة، وابتسم لروزالبا بشفتين مزموتين.

«إذاً؟ كم الساعة الآن؟» سألت ثانية، ونبرة غاضبة في صوتها.

عندها فقط أدرك سانتياغو أنها لم تألف طريقته في حساب الوقت بعد. تحرّك نحوها ببطء وبدأ يشرح لها، «أترين أيتها القاضية، ففي الطريقة التي أحسب فيها الوقت، تستمر الأحداث باستمرار اشتعال الشمعة». رفع الكيس الورقي في الهواء، وقال: «إني أحرق شمعة كلّ مرة، وأحرق عشر شمعات في كلّ شمس. إني أشعل أول شمعة عندما أستيقظ، وقبل أن تحترق، أقوم برعاية مزرعة الخضروات؛ وأحرق عادة شمعتين أخريين عندما أعمل، وشمعة أخرى عندما أطهو طعام الغداء، وأخرى بعد الغداء،

عندما آخذ قسطاً من الراحة. وأشعل شمعتين أخريين عندما أعمل قبل أن تغرب الشمس، ثم شمعتين أخريين قبل أن أخلد إلى النوم».

«هذا يجعلها تسع شمعات فقط»، قالت القاضية بحدّة.

«الشمعة الأخيرة من أجل مريم العذراء».

«وماذا يحدث إذا أطفأت الريح إحدى شمعاتك، ألا ترى ذلك؟»

«لا يحدث شيء. أشعلها ثانية عندما تنطفئ».

«وماذا لو استغرقتَ في النوم؟ ماذا لو استيقظتَ عندما تصبح الشمس فوق رأسك؟»

«عندها استخدم عدداً أقل من الشمعات»، أجاب سانتياغو المنزعج بطريقة ساخرة، ثمّ أزاح شعره الطويل الجميل إلى الوراء، واختفى داخل بيته.

مهانة، أخذت روزالبا تجيل النظر في الشارع، ويداها مستندتين إلى وركيها. وعندما تأكدت من عدم وجود أحد ينظر نحوها، انحنت، وأطفأت شمعة سانتياغو الخامسة ومضت، وفي كلّ خطوة، كانت عجيزتها الكبيرة تتأرجح مع هبوب النسيم.

عندما وصلت القاضية، كانت كافتيريا دو فيليغاس، المطعم الوحيد في القرية، فارغة. وكانت صاحبتها، أرملة فيليغاس، منحنية فوق كرسي خشبي قديم، تحدّق في زهرة بنفسج هشّة في أصيص قائم على حافة النافذة. وكانت الكافتيريا قد أقيمت أصلاً لتقديم الطعام إلى أسر العمال الزراعيين الخمس التي ليس لديها من يطهو لها طعامها، والتي كانت تدفع ثمن وجبات طعامها بما تنتجه من مزروعات.

«ما هو طعام الغداء؟» سألت القاضية.

«لم أطبخ شيئاً بعد»، قالت الأرملة بمرارة، من دون أن ترفع عينيها عن النبتة.

«لكن لماذا؟ لقد أصبحنا في منتصف النهار! لا بد أن تأتي زبوناتك قريباً»

فقالت: «لم يعد يأتي أحد. إنهن يأتين عندما يرغبن. فإحداهن تطلب طعام الغداء، وأخرى تطلب طعام الفطور، وثالثة تريد أن تعرف ماذا يوجد على العشاء. كلّ شيء متخلف في هذه القرية اللعينة»، وبدا عليها غضب شديد، «إني غاضبة جداً».

«إنني أتضور جوعاً»، قالت روزالبا، «لا يهم ماذا تطهين لي». سارت إلى الطاولة، وصبّت ماء من وعاء في كوب بلاستيكي أزرق وأحضرته إلى طاولة بجانب أرملة فيليغاس، وجلست قبالة صورة قديمة للبابا يوحنا الثالث والعشرين.

«لولا وجود زهرة البنفسج، لفقدت أنا أيضاً مسار الزمن»، قالت أرملة فيليغاس، «هل تعرفين أن زهرة البنفسج هذه تزهر كلّ تسعين شمساً؟»

«هل لديك على الأقل قليل من الرزّ؟ إن الجميع يأكلون الرزّ مع كلّ وجبة طعام».

«لقد راقبت العملية بكاملها ثلاث مرات، ولم تخفق أبداً. ولكي تزهر البراعم بالكامل، تحتاج إلى عشر شموس، وإلى عشرين شمساً أخرى حتى تبهت، وعشر شموس أخرى حتى تموت الأزهار. وتكون أحياناً أرجوانية، أو مائلة إلى اللون الأزرق، لكنّها تظل جميلة دائماً».

«في إيطاليا لا يأكلون الرزّ كثيراً»، قالت روزالبا، وهي تتأمّل صورة البابا البدين، «إنهم يأكلون سباغيتي ليل نهار»، وتخيّلت البابا وهو يتناول زبدية مليئة بالسباغيتي على الفطور، «إني لا أعرف ماذا تحبين، لكنني أحب الرزّ».

«إنني أفضّل اللون الأرجواني»، ردّت الأرملة. انتظرت بضعة ثوان قبل أن تواصل كلامها، وقد خفت صوتها كثيراً الآن، «وحسب حساباتي، ستكون لديّ أزهار لسبع عشرة شمساً أخرى، وهذا يعني أن بناتي يستطعن أن يبدأن الحراثة بعد خمس وعشرين شمساً. ثم...» توقّفت، وبدأت تعدّ بصمت على أصابعها، وقالت: «وبعد ثلاث وثلاثين شمساً يستطعن البدء في البذار! من الأفضل لي أن أدوّن ذلك». وأخذت تمشي إلى الوراء واختفت وراء ستارة من الخرز.

غضبت روزالبا. كيف تتجاسر على تجاهل طلب القاضية بتحضير الطعام. انتقلت عيناها من الكوب المليء بالماء المركون على طاولتها إلى زهرة البنفسج الهشّة، ومن زهرة البنفسج الهشّة، إلى صورة البابا، ثم من صورة البابا إلى الكوب المليء بالماء، عدة مرات، وكأنها تناقش قراراً يقلق ضميرها.

بعد قليل، ظهرت أرملة فيليغاس ثانية، وشعرت بالارتياح عندما رأت أن القاضية قد غادرت. ثمّ لاحظت أن الكوب البلاستيكي المركون على حافة النافذة فارغ. حزنت عندما أدركت أن أصيص أزهارها مغمور بمستنقع مياه، وكانت زهرة البنفسج الثمينة لديها تعوم فيه.

عندما عادت القاضية إلى بيتها، بدأت تُعدّ قِدراً من حساء البطاطا، عندما تذكّرت أنها استخدمت الملح في مطبخها هذا الصباح. قطفت من بستانها ست ثمرات مانغا، ووضعتها في سلة، وتوجهت إلى السوق لمقايضتها بالملح. كان السوق مثيراً للكآبة. كانت هناك كميات قليلة من البندورة الصغيرة واليكا والبرتقال الجاف ملقاة فوق أكياس فارغة ممدودة على الأرض. سألت القاضية عن إلفيا، أرملة لوبيز، المعروفة أيضاً بامرأة

الملح، التي تعلّمت من أسلافها الهنود، كيف تجمع الملح من نبع ماء مالح فوق سفح تل بالقرب من ماريكيتا. فقد كانت تغلي مياه النبع في مقلاة نحاسية كبيرة لمدة ساعات حتى تتكثّف، وعندما يبرد الماء، يترسب ملح خشن في قعر المقلاة. كان مرّاً ومحبّباً، لكنه يصلح لتتبيل الطعام وحفظه.

«امرأة الملح لم تصل بعد أيتها القاضية»، قالت لها امرأة فقدت جميع أسنانها الأمامية.

«هل ستأتي قريباً؟»

«لا أعرف أي نظام توقيت تتبع» أجابت المرأة، بلا مبالاة.

لقد أصبح هذا النوع من الردود عن نظام التوقيت الذي تتبعه كل امرأة أمراً شديد الشيوع، وكان سماع ذلك على نحو متكرر يزعج القاضية كثيراً.

قايضت ثمرات المانغا ببضعة حبات من البندورة، وغادرت.

سارت القاضية في شوارع ماريكيتا الخاوية، مطرقة الرأس، مقوسة الكتفين، القنوط يعتريها: فقد تحوّلت قريتها إلى بابل لكن من دون برج. كيف يمكنها أن تحكم نساء يعتبرن الزمن شمعة، أو نبتة، أو حركة أمعاء أحدهم؟ كيف يمكنها أن تضطلع بالأعباء الكبيرة التي تخطط لتنفيذها من أجل قرية الأرامل التي تحكمها، عندما لا تستطيع أربع وتسعون امرأة أن يتفقن على متى يكونِ الصباح صباحاً، ومتى يكون الليل ليلاً؟ لعلها لو أغمضت عينيها وسارت في الطريق الآخر، لأمكنها أن تنسى كلّ هذا. ربما كان هذا هو السبيل الوحيد لتمضية الحياة. نعم، ربما تمكنت روزالبا من حلّ لغز الوجود: ففي كلّ مرّة تصادف عقبة في طريقك، كلّ ما عليك فعله هو أن تغمض عينيك وتمشي في الاتجاه المعاكس. لعل أمّ روزالبا كانت مخطئة عندما كانت تقول إنه لا عماء أسوأ من عماء من يرفضون رؤيته.

لعله لا حاجة لروزالبا إلى أن ترى، أن ترى حقاً الأمور السيئة التي تجري حولها، أو التي لعلها هي التي صنعتها.

راحت القاضية تذرع الشوارع الساكنة، التي كانت تبدو أشبه بنملة بذراعيها وساقيها النحيلة، وعجيزتها الواسعة، وأحست أنها امرأة فاشلة، عندما رأت أخيراً، رأت حقاً، نساء منهكات يعملن في حقول جافة تحت الشمس الحارقة، يقصمن ظهورهن لكي لا تتضور أسرهن جوعاً، وأكواخاً قديمة تتحدّى الجاذبية بجدرانها المتصدّعة المكسوة بالأعشاب؛ وكلاباً وقططاً هزيلة بدأت تختفي على نحو غامض بعد أن شحّ الطعام...

سارت القاضية في شوارع ماريكيتا الخاوية، مطرقة الرأس، مقوسة الكتفين، منهارة، عندما سمعت أخيراً، سمعت حقاً، نقيق دجاجات الأرملة سانشيز، التي تدرّبت على أن تبيض في سرير الأرملة؛ ونخير خنازير أوبالدينا، التي جُمعت كلها داخل بيت المرأة لكي لا تُسرق...

في أصيل يوم مشمس لا يتذكّره أحد، في قرية لا يتذكّر أحد وجودها، كانت قاضية مسكينة ترتدي ثياب يوم الأحد تجوب شوارعها، تبدو مثل نملة، تشعر بالإخفاق.

روجيليو فيلاميزار، ٢٥ سنة
جندي في قوات المليشيا اليمينية

كان اسمه غونغورا، ولم يكن سوى فلاح جاهل، مثلي. لكنّه انضم إلى صفوف القوات العسكرية منذ أمد بعيد وأصبح قائد فرقة؛ وقد أُلحقتُ بفرقته. وهكذا أصبحتُ شاهداً على ما سأخبركم به.

كنّا نطارد فلول المقاتلين في الغابة منذ أيام عديدة، وبدا أن النباتات البرّية ابتلعتهم، وكنّا على وشك أن نيأس ونعود أدراجنا إلى قاعدتنا، عندما صادفنا مجموعة صغيرة من الهنود، خمسة أو ستة منهم. وكنّا نعرف أن الهنود القاطنين في تلك المنطقة يقدمون الطعام إلى الثوّار ويخبئونهم غالباً في قراهم. كان الهنود عراة، وكانت أجسامهم مطلية. ركضوا عندما رأونا، لذلك أطلقنا النار على سيقانهم. تمكّنوا جميعاً من الهرب إلى الدغل الكثيف، باستثناء واحد، جعلته الألوان اللامعة التي طلى بها بشرته هدفاً سهلاً. كان رجلاً صغير الحجم، ذا شعر طويل، وبدا أصغر حجماً عندما ربطناه إلى شجرة. أصابته رصاصة في فخذه الأيسر، فراح يتلوى من الألم. تنحّينا جانباً وتركنا قائد فرقتنا يفعل ما يريد.

«أين الثوّار»، سأله غونغورا. فغر الهندي فاه وكأنه يريد أن يقول شيئاً، لكن لم ينبعث منه أي صوت. توجه غونغورا إليه، ولطمه لطمتين على

وجهه ـ لا شيء يهين الهندي أكثر من لطمة على الوجه. أعاد غونغورا السؤال نفسه: هذه المرّة، لم يكن ردّ الهندي سوى صوت غرغرة. بانزعاج شديد، ضربه غونغورا على وجهه بعقب مسدّسه. أصدر الهندي ذلك الصوت الرهيب ثانية، وتلوّى ووجهه تعلوه قسمات الألم الشديد. أخذ الدم يتدفّق من أنفه وفمه، وأصرّ على ألا يخبر قائدنا بما كان يريد أن يسمعه.

انطلق من فم غونغورا سيل من الشتائم على الهندي، ثمّ وضع فوهة مسدّسه على حاجب الهندي وقال: «بدأ صبري يعيل. أين اختفى الثوّار الملاعين؟» بدأت تنبعث من الهندي تلك الأصوات المزعجة أكثر وبصوت أعلى، وفجأة، اغرورقت عيناه بالدموع. كان معظم الأسرى يتكلّمون عادة بعد كل ذلك، إن لم يكن لشيء، فلكي لا يطيلوا فترة تعاستهم: فهم يعرفون جميعاً أنهم بعد أن يعترفوا بكل شيء، سيُقتلون على أية حال. ولذلك فقد أُعجبت إعجاباً شديداً بولاء هذا الهندي وشجاعته. كانت الأصوات التي يصدرها، لشدة إزعاجها، تبدو الطريقة الوحيدة التي يمكنه من خلالها التعبير عن خوفه بسلامة من دون خيانة أحد.

رجع غونغورا بضع خطوات، ووجّه مسدّسه إلى رأس الهندي. نظرت إلى عينيْ الهندي: كان يحدّق بعينين تخلوان من التعابير في قائدنا، وفينا. ثمّ نظرت إلى رفاقي، ثم إلى غونغورا. لكنه عندما ضغط على الزناد، أشحت بنظري.

بعد ذلك اكتشفنا أن الثوّار كانوا قد قطعوا ألسنة الهنود.

الفصل العاشر

اليوم الذي أصبح فيه الزمن أنثى

ماريكيتا، التاريخ غير معروف

اعتكفت القاضية في غرفة نومها لمدة شموس عديدة، بعد أن اعتراها اكتئاب شديد. فقد هُزمت في محاولتها الحثيثة لحكم ماريكيتا. فهي امرأة متوسطة العمر، أنانية، متغطرسة، غبية، عديمة القيمة، أتيحت لها فرصة حياتها، لكنها أخفقت فيها إخفاقاً ذريعاً. فقد انتهى الحدثان الرئيسيان اللذان ميّزا ما يُدعى إدارتها وهما: حملة التكاثر ومرسوم الجيل القادم، بكارثة حقيقية. ولا تزال القرية تعاني من انقطاع المياه الجارية والكهرباء، ولا يعمل فيها خط هاتف، وامتلأت جميع الطرق المؤدية إليها بالأعشاب والشجيرات الكثيفة. ولعل ماريكيتا قد مُحيت أيضاً من على خريطة البلاد.

هذه الأمور جميعها جعلت روزالبا تشعر بالذنب، مع أن الشعور الذي كان يهيمن عليها هو الشعور بالخوف: الخوف من أن تذهب أدراج الرياح الفترة التي عملت فيها قاضية. فلا بد أن يخطط أحد للإطاحة بها قريباً، أحد يصغرها سناً، مؤهل أكثر منها، وله من الذكاء ما يفوق ذكاءها.

طوال فترة كآبتها تلك، رفضت روزالبا رؤية صديقاتها ومعارفها المعدودات على أصابع اليد. ولم تسمح لأحد بالدخول إلى غرفة نومها إلا خادمتها فاكا التي كانت تجلب الطعام لها ثلاث مرات كلّ شمس، وتقدم لها تقارير دورية عن النساء اللاتي يأتين لزيارة القاضية أو للسؤال عن صحتها، وكانت تستمع بنفاذ صبر إلى روزالبا وهي تجلد ذاتها وتنتقص من قدر نفسها. وفي صباح أحد الأيام، ذهبت فاكا لرؤية الممرضة، بعد أن ملّت من سماع أنين روزالبا وتذمرها.

«لم تعد القاضية تحبّ نفسها»، قالت الممرضة راميريز بعد أن أصغت إلى القائمة الطويلة من الأعراض التي عِدّدتها فاكا. ووصفت لها أن تتناول كوباً من شاي السمسمق ثماني مرات في الشمس الواحدة، وأن تستحم عدة مرات في اليوم باستخدام اسفنجة، وأن ترتدي ثياباً نظيفة، وأن تتبرج، هذا إذا عثرت على أيّ مكياج في السوق. لذلك، عندما عادت فاكا إلى البيت، سحبت روزالبا من السرير إلى الباحة، وغسلتها بماء بارد، وجعلتها تستلقي عارية في الشمس، مثل ملاءة مغسولة مبللة حتى تجفّ. ثمّ ساعدت روزالبا على ارتداء ثوب أحمر، وعقصت شعرها الأشيب على شكل شينيون في مؤخرة رأسها، بوصة ونصف البوصة أعلى من المعتاد، لكي تظهر رقبة روزالبا من الخلف.

ثم شربت اثنين وثلاثين كوباً من شاي السمسق. . . وبدأ الليل ينشر جناحه بوهن فوق ماريكيتا. وعندما دبّ النشاط في جسم القاضية ثانية، خرجت فجلست على درجات بيتها. كان الشارع مقفراً، ولم يكن يُسمع إلا صوت دقات متواصلة من بعيد. لا بد أن أوسبيناس تطحن الذرة الصفراء، قالت روزالبا لنفسها. وتخيّلت الأرملة أوسبينا ذات الجسم القوي وهي تدقّ حبات الذرة بمدراس ثقيل.

قطع صوت خطوات تقترب سلسلة أفكار روزالبا. انحنت إلى الأمام، وأغمضت عينيها نصف إغماضة وراحت تنظر إلى الظلّ القادم، حتى عرفت وجه مديرة المدرسة، الخالي من أية تعابير. لم تأت كليوتيلد لزيارتها خلال هذه الفترة على الإطلاق، بل حتى إنها لم تسأل عن صحة القاضية. لكن روزالبا لم تستطع لوم المرأة العجوز على لامبالاتها تجاهها. فإذا استطاعت أية امرأة في القرية أن تدّعي بأن القاضية قد أساءت معاملتها، فهي كليوتيلد.

«مساء الخير يا آنسة غوارنيزو»، قالت روزالبا بودّ غير معهود. ردّت المعلّمة بحركة من رأسها فقط، وتجاوزتها بأسرع مما تتيح لها السنوات الأربع والسبعون من عمرها، وأصابع قدميها المصابة بداء النقرس. «هل تريدين أن تشاركيني في تناول قليل من الحساء، يا آنسة غوارنيزو؟» صاحت روزالبا، «إن فاكا تصنع كمية إضافية دائماً».

فجأة، توقّفت كليوتيلد. أرادت أن تقول نعم، فذلك يسرّها كثيراً، لكن هذا العرض فاجأها ـ فهي لا تتذكّر آخر مرة دعتها فيها القاضية إلى بيتها ـ وعلى الرغم من فصاحة المعلّمة الطبيعية، لم تخطر على بالها أية كلمة لتردّ بها عليها.

«أرجوك آنسة غوارنيزو»، بدا قدر من التواضع في صوت روزالبا، «إني بحاجة إلى نصائحك الحكيمة في بعض الأمور التي تقضّ مضجعي».

نصائح حكيمة، نصائح، نصائح... تردد صدى هذه الكلمات في رأس المعلّمة. استدارت، غير مقتنعة تماماً بما قالته لها القاضية. لكن المشهد المثير للشفقة الماثل أمام عينيها، أزال جميع شكوكها: فقد كانت القاضية التي كانت متغطرسة، جالسة وحيدة تماماً، وعيناها مسمّرتان على قدميها ـ

المشققتين والمتورمتين في الصندل الرث الذي تنتعله ـ أمام واجهة بيتها المهلهلة، وقد بدت عليها أمارات الحزن والكآبة. أطرقت كليوتيلد برأسها وأنزلت نظارتها بسبابتها، وقالت: «يسرّني سماع أن توصياتي تلقى آذاناً صاغية وتقديراً في هذه القرية».

ضحكت روزالبا ضحكة خجولة، ثمّ، موّجهة كلامها إلى ركبتيْ المعلّمة، قالت: «إن توصياتك لا تلقى التقدير فقط يا آنسة غواميزو، بل إنها عزيزة وقيّمة».

عزيزة وقيّمة، عزيزة وقيّمة، عزيزة وقيّمة... راح صدى كلمات الإطراء هذه يتردد في أذنيْ كليوتيلد على طول المدخل المفضي إلى غرفة طعام روزالبا.

بعد أن تناولت كل منهما زبديتين من الحساء، وبعد أن اعتذرت القاضية عدة مرات لأن فاكا تعوزها موهبة الطهي. جلست المرأتان على كرسيين من الخيزران موزدين بمساند في غرفة الجلوس، وراحتا تحتسيان القهوة وتحلّلان «التأثيرات الفادحة»، حسب ما تردد على لسان كليوتيلد، و«معضلة الزمن»، حسب ما رددته روزالبا، على ماريكيتا إذا لم تعالج على الفور.

«هل فكّرت بأيّ حلول محتملة؟» سألت كليوتيلد.

«أوه، حلول عديدة»، كذبت روزالبا، «لكنني لا أفرح بأيّة حلّ منها. أظن أننا نستطيع، أنا وأنتِ، أن... لعلنا نتوصل إلى بعض الحلول هذه الليلة».

«يعجبني ذلك»، أجابت المعلّمة، «لكن الوقت متأخر، ويجب أن أحضّر درس الأخلاق ليوم غد. سأعود بعد ظهر غد».

بسخط جليّ، نهضت روزالبا وراحت تذرع الغرفة بشكل دائري، وهي تنظر إلى العدد اللا متناهي من القوائم المعلّقة بترتيب شديد على كلّ جدار من جدران بيتها: قوائم بالأولويات، إحصاءات حديثة عن عدد الأرامل والعوانس، برامج ومخططات لتنظيف بيوت القرية وتعقيمها، جردة بالأدوية اللازمة للمستوصف، سجلات عن رواتبها غير المدفوعة والمتأخرة منذ فترة طويلة، قوائم بالكلاب والقطط الضالّة مع وصف كامل لها ـ تُحدَّث بين الحين والآخر، لكنها كانت تختفي باستمرار على نحو غامض ـ وقوائم بالقوائم. لقد دوّنت تاريخ ماريكيتا بالكامل منذ أن اختطف الرجال، في صحيفة مليئة بقوائم سخيفة لا فائدة منها.

وفجأة، خطر على بالها أن سبب إخفاقها هو أنها أمضت جميع أيام حياتها كقاضية في التخطيط لأشياء كانت تريد أن تنفذها في اليوم التالي. لقد ضحّت بيومها من أجل الغد الذي سرعان ما يصبح اليوم، الذي كانت تضحي به ثانية من أجل غد آخر، وهكذا دواليك، من دون توقف.

«لا، يا آنسة كليوتيلد»، قالت روزالبا التي أصبحت مفعمة بالنشاط، «فزمن ماريكيتا لا يمكنه الانتظار حتى الغد. يجب أن نحلّ هذه المشكلة الآن».

«لكن. . . ماذا عن المدرسة؟»

«أوه، تغيبي عنها».

«لكن تلميذاتي سـ. . .»

«قولي لتلميذاتك إنك كنتِ مريضة، أو أنك كنتِ مشغولة بشيء آخر. إنه مجرد درس عن الأخلاق، بحق الله!»

قطّبت مديرة المدرسة جبينها عندما سمعت هذه الملاحظة الأخيرة.

*

أمضت القاضية ومديرة المدرسة الليلة مع عدد قليل من الشموع وهما تفكّران وتتشاوران في مسألة «الزمن». تحدّثتا عن شموع سانتياغو مارين المشتعلة، وعن زهرات البنفسج المتبرعمة للأرملة فيليغاس، وأقرّتا بضرورة تأسيس نظام واحد يتيح لجميع من في القرية قياس فترة الأحداث التي تجري بطريقة متساوية.

«لا أزال أرى أنه يجب أن تبعثي أحداً إلى المدينة لشراء تقويم وساعة»، قالت مديرة المدرسة، «إذ يُستخدم مفهوم الزمن العالمي بنجاح منذ مئات السنين». وأيدت توصيتها بالتحدث بتفصيل دقيق عن نظريات استنبطها رجل يدعى إسحق نيوتن ورجل يدعى ألبرت اينشتاين، وذكرتهما بكثير من الألفة وعدم الكلفة فظنت القاضية أن الرجلين قد ناقشا فرضياتهما ونظرياتهما مع هذه المرأة العجوز.

«إن ما تقترحينه»، قالت روزالبا ما إن أتاحت لها المعلمة الفرصة للكلام، «هو أن نعود إلى مفهوم الزمن التقليدي الذي اخترعه الرجال، وهو الزمن الذي يركّز على الإنتاجية».

«بطريقة ما، نعم».

«إني أرفض تكرار هذا المفهوم يا آنسة غوارنيزو. إننا نعيش في عالم لا ذكور فيه». توقفت برهة، ترتب أفكارها، ثم مضت تقول: «إنك تعرفين ما أريد أن أفعله؟ أريد أن أضع مفهوماً أنثوياً للزمن: نظرية زمن أنثوية استنبطتها روزالبا أرملة باتينو وكلوتيد غورانيزو». وخلال حديثها، طارت يدها في الهواء وكأنها تطبع كلماتها على سطح غير مرئي. بدأت الأشياء تبدو للقاضية واعدة أكثر. قالت لنفسها بما أنها تمكنت من تذليل هذه العقبة، فلا بد أنها ستتمكن من أن تثبت للقرويات أنها لا تزال امرأة مؤهلة، واسعة الحيلة.

لدى مناقشة مفهوم الزمن الأنثوي، رفضت القاضية والمعلمة استغلال التغيرات الدورية التي تحدث في بيئتهما، مثل هجرة الأنواع، وانتشار البعوض المتكرر، أو التحولات التي تطرأ على الفراشات الحمر والصفر المنتشرة في منطقتهما. «ماذا لو انقرضت؟» سألت روزالبا. فهي تدرك أن اختلاف الليل والنهار وسيلة طبيعية وملموسة لمعرفة الزمن، الزمن الذي تريد أن تستخدمه.

«وماذا عن المناخ؟» اقترحت كليوتيلد، «فلدينا فترتان متناسقتان ثابتتان لهطول المطر والجفاف».

«لا أعرف شيئاً عن ذلك»، أجابت روزالبا، «ففي السنوات الأخيرة، لم يعد بالإمكان الاعتماد على الطقس، لأنه حتى الأشجار اعتراها الاضطراب والتشوش. فلم تعد تعرف إن كان عليها أن تطلب من أزهارها أن تتبرعم وتتفتح أو أن تسقط أوراقها.

عند ذلك لمعت فكرة في رأس كليوتيلد.

«وماذا عن الحيض؟» قالت، وانتابها على الفور شعور يغمره بالرضى. فقد كانت متأكدة من أن الحيض، لكونه حالة أنثوية محضة، سيكون فكرة ملائمة لمفهوم أنثوية الزمن الذي خرجت به القاضية، لكنها اقترحته برغبة ملتوية للانتقام من روزالبا، التي، لم يكن لدى المعلّمة أدنى شكّ، بأنها تمرّ حالياً في سن اليأس. فقبل حوالي عشرين سنة، طرأت على حياة كليوتيلد نفسها تغيرات هامة، وعانت من المتاعب والازعاجات الجسدية التي رافقتها، لكن الأعراض العاطفية فاجأتها وأرغمتها على الدخول في حالة اكتئاب شديد. واعتراها شعور بأنها امرأة ناقصة الأنوثة، نصف امرأة، غير ناضجة تماماً، وحدست أن القاضية قد بدأت تنتابها الآن ذات الأحاسيس.

«هممم!» همهمت روزالبا بعد أن سمعت اقتراح المعلّمة، «لا أعرف هل باستطاعة الزمن في قريتنا أن يعتمد على فترة الحيض. فدورة كلّ امرأة تختلف عن الأخرى». لكن المرأتين كانتا تعرفان أن الدورة الشهرية لجميع النساء متماثلة. فبعد أن توقف الزمن في ماريكيتا، أصبحت فترات الحيض الشهرية عند نساء القرية تأتي في وقت واحد. فقد حدث ذلك فجأة، وكأن الطبيعة، التي توقّعت الفوضى التي ستحدث في أعقاب انعدام الزمن، قد أحسّت بأن من واجبها أن تمنح جميع النساء وسيلة دقيقة للإبقاء على جدول الزمن نفسه. ومع أن الطبيعة لم تنجح في تحقيق هدفها النهائي، منذ ذلك الحين، كانت حبال الغسيل جميعها في ماريكيتا تعرض كلّ ثمانية وعشرين شمساً، قطع القماش المستطيلة البيض التي ترتديها النساء ثياباً داخلية خلال فترة دوراتهن الشهرية.

«إن كان ثمة شيء تستطيع النساء في هذه القرية الاعتماد عليه، فهو الحيض»، قالت كليوتيلد، «بالطبع، لن تعرفي أكثر من ذلك». توقّفت قليلاً لتلقي نظرة متواطئة على روزالبا، مضيفة بهمسة مشجعة، «اطمئني أيتها القاضية، فلن أخبر أحداً. فإننا نمر جميعاً في هذه المرحلة في فترة ما».

قرّرت روزالبا أن تتجاهل الملاحظة التهكمية التي أبدتها مديرة المدرسة، وقالت: «إن فكرتك لا تقدم شيئاً جديداً للنظرية التي نريد أن نضعها». لم تقبل بها، لكن الشيء المتعلق بتقويم الحيض الذي كان يقلقها حقاً هو أنه يجب أن يعتمد على النساء الأخريات ـ النساء الشابات الولودات ـ اللاتي عليهن أن يخبرنها هل هو اليوم الثالث أو اليوم العشرين. لو كنت أصغر بعشر سنوات، قالت لنفسها، لما كنت قاضية ماريكيتا فقط، بل لكنت أيضاً تقويمها المتنقّل.

«ربّما كان الأمر كذلك»، أجابت الآنسة كليوتيلد، «لكن تقويماً فيه ثلاثة عشر شهراً، وفي كل شهر ثمانية وعشرون يوماً، سيجعل حساب الزمن وتسجيله بسيطاً للغاية. بالإضافة إلى ذلك، إذا تمكنّا من إبقاء الزمن متزامناً مع أطوار القمر، فإن تقويم ماريكيتا سيظل مستخدماً ودقيقاً حتى المستقبل البعيد».

قهقهت روزالبا، وقالت: «هل تعتقدين حقاً أن لدى حفنة من النساء اللاتي يلاقين حتفهن ببطء في زاوية ركن قصيّ في العالم أيّ مستقبل؟»

«طبعاً لدينا مستقبل. أما هل الأمر جيد أم سيء، فهذا شيء آخر»، ودفعت نظارتها إلى أعلى أرنبة أنفها.

«يكمن المستقبل فقط في... في أحلام اليقظة التي نحلمها»، قالت روزالبا بنزق.

«هذا أمر سخيف»، تنهدت كليوتيلد، وهزّت رأسها عدة مرات، «إن لم يكن لدينا مستقبل، فيمكننا أن نعكس الزمن، أن نعود إلى الماضي. وبهذه الطريقة، على الأقل، يمكننا أن نعرف إلى أين نمضي».

كان لهذه الملاحظة، مع أنها مثيرة للضحك، تأثير كبير على روزالبا. فقد بدا أن القاضية، في البداية جدّية، ثمّ تأمّلية، ثمّ مشوّشة، ثمّ منبهرة، ثمّ جدّية مرة أخرى. ولوهلة، كانت الأصواتِ الوحيدة المسموعة في الغرفة هي أصوات نقرات قطرات المطر التي بدأت تقرع النافذة بقوة. وبغتة، قالت روزالبا: «إنك بارعة، يا آنسة كليوتيلد! ذكية جداً! سنعود بالزمن إلى الوراء». نعم، إننا سنعتمد تقويم الحيض الذي اقترحتيه، لكننا سنجعل الزمن يمضي إلى الوراء».

«لكن، أيتها القاضية، لا يمكننا أن نجعل الزمن يمضي إلى الوراء. إنه مجرد ـ».

«سيبدأ تقويمنا الأنثوي في آخر يوم من شهر كانون الأول (ديسمبر) وينتهي في أول يوم من شهر كانون الثاني (يناير). بل، ومن الأفضل، أن نستبدل بأسماء الأشهر المملّة تلك، ثلاثة عشر اسماً من أسمائنا».

بحماسة شديدة، نهضت روزالبا من على الكرسي.

بقلق بالغ، نهضت كليوتيلد أيضاً، وقالت: «كنت أعرض مناقشة افتراضية، أيتها القاضية. لم أكن أقصد أن تأخذي الأمر بحرفيته».

«ماذا لو بدأنا بشهر روزالبا، وتابعنا حتى شهر كليوتيلد؟ هل هذا عدل؟ لأنك إن رغبتِ، يمكننا أن نبدأ بشهر كليوتيلد. هذا الأمر لا يهمّني».

«أيتها القاضية، إن ما أقصده هو أن ـ».

«أعرف ما تقصدين قوله يا آنسة كليوتيلد. تقصدين أن تقولي إنه عندما يعود الزمن إلى الوراء، تتاح للناس الفرصة لتغيير مسار حياتهم. إنها فكرة رائعة! سنعود بالزمن إلى الوراء، ونصلح المشاكل الكثيرة التي شهدناها في تاريخنا، ونخلق مستقبلاً ناجحاً لنا جميعاً».

أخذت كليوتيلد نفساً عميقاً وهي تهز رأسها.

«الآن، إلى أي مدى في التاريخ يجب أن نمضي؟» تابعت روزالبا، «أولاً، أريد أن ألغي جميع حروبنا الأهلية الغبية. حقاً، لا يوجد هناك سبب يدعونا للتقاتل فيما بيننا. والأمر ذاته ينطبق على معركة الاستقلال السخيفة التي وقعت في عام ١٨١٠: فلن نكون مستعمرين لأحد، لذلك، لم يكن يجب أن تقع تلك المعركة أبداً. وماذا عن يوم الاكتشاف؟ كم كان فظيعاً! أريد حقاً أن أمحي كل ذلك من تاريخنا. لم يكن من المفترض أن نُكتشف إلا بعد ألف سنة أخرى أو حوالي ذلك. أو ربما كان ينبغي لنا أن نكون نحن من يكتشف أوروبا. ما رأيك يا آنسة كليوتيلد؟»

خيّل إلى الآنسة كليوتيلد أن القاضية فقدت صوابها. كانت على وشك أن تقول ذلك عندما دخلت فاكا الغرفة، وهي تحمل صينية عليها زبديتان وملعقتان.

قالت: «طعام الإفطار».

قالت كليوتيلد: «إنني جائعة. ما هو الأكل؟»

«حساء ساخن».

«مرة أخرى؟» بدت منزعجة، وأضافت، «أتناول دائماً بيضة في الصباح. ألا يوجد عندك بيض؟»

«لو كان عندي بيضة، لأكلتها أنا»، قالت فاكا، ووضعت الصينية.

«حسناً، آمل أن يكون فيها على الأقل أي نوع من أنواع اللحم»، وأصرّت كليوتيلد، «هل يوجد فيها؟»

«ربما»، ردت فاكا، وهزّت كتفها اليمنى.

«يوجد لحم في ساق بعوضة أكثر مما يوجد في هذه الشوربة»، احتجت كليوتيلد محتجة بمرارة، وراحت تحرّك المرق الصافي الذي تعلوه طبقة من الكزبرة. حاولت أن تتناولها بالملعقة، لكن لم يكن فيها شيء صلب، فرفعت الزبدية وجرعت الشوربه في جرعة واحدة. عندما انتهت، نهضت مديرة المدرسة، ومسّدت شعرها القصير بظاهر يديها.

«لا أظنك تغادرين يا آنسة كليوتيلد؟» قالت روزالبا لنفسها، فإذا غادرت مديرة المدرسة، فلن تعود حتى الشمس التالية، هذا إن عادت أصلاً. وعندها يفقد المشروع زخمه.

«نعم، أيتها القاضية، سأغادر. فلديك الحلّ لأكثر المشاكل استعصاء. هذا إن كنتِ تطلقين على تقويم يمضي إلى الوراء حلاً لكلّ شيء. إني واثقة من أنك ستتوصلين وحدك إلى حلّ».

«أظن أن مكوثك ضروري»، قالت روزالبا، بنبرة بدا تحذيراً أكثر منها طلباً، «فكيف يمكنك أن تدّعي بأن الزمن الأنثوي في ماريكيتا هو نصف فكرتك إذا لم تساعديني في صياغة وثيقة نوضح فيها خصائصه بالتفصيل؟»

بدت الجملة الأخيرة أشبه بصفعة على وجه المعلّمة. «إنها نصف فكرتي»، زمجرت، «إني أنوي مساعدتك في صياغة الوثيقة. لكنني أحتاج إلى قليل من النوم قبل البدء في التفكير في هذا الأمر». خلعت نظارتها، ومسدت عينيها بظاهر سبابتيها.

«خذي قيلولة في سريري»، اقترحت روزالبا»، إنه مريح جداً».

كانت كليوتيلد تكره النوم في فراش الآخرين. فقد كانت حاسة الشمّ لديها حادّة، مما جعل من المستحيل أن تنام في سرير آخر قد تنبعث من وسائده وفراشه روائح كريهة. وعلى الرغم من أنها كانت تشعر بالإرهاق، فقد فضّلت أن تعمل على تلك الوثيقة الآن، على أن تنام في سرير القاضية النتن. عقدت يديها وراء ظهرها، وراحت تذرع الغرفة، مغرقة في التفكير. وبعد لحظات، وضعت قصاصة ورق وعقب قلم رصاص على المنضدة أمام القاضية، وقالت: «روزالبا، سأملي عليك».

«عفواً؟» أجابت القاضية. لم تعرف ما الذي فاجأها أكثر، دعوتها باسمها الأول فقط، أم الطلب بأن تملي عليها.

«اكتبي هذا يا عزيزتي: بغية إنشاء لجنة لتحديد الزمن تتألف من خمس عضوات، فاصلة ـ «توقّفت لتتيح لروزالبا الفرصة لكتابة العبارة، لكن القاضية، التي كانت لا تزال مشوّشة، دمدمت شيئاً غير مفهوم. متجاهلة ارتباك القاضية، واصلت كليوتيلد إملاءها، . . . صحّية، فاصلة ـ».

«المعذرة آنسة كليوتيلد»، حاولت روزالبا أن تعترض.

«عزيزتي، أرجو أن ترفعي يدك إذا كنت تريدين طرح سؤال أو إن كنت ترغبين في أخذ الإذن». انتظرت مديرة المدرسة بضع ثوان حتى ترفع روزالبا يدها، ولم ترفع القاضية يدها، فقد انتقلت إلى العبارة التالية. في النهاية، بدأت روزالبا في تدوين الشروط، فتشطب وتعيد الكتابة حتى أصبحت لديهما مسوّدة قانون شعرتا بأنهما راضيتان عنها.

لن يكون تنفيذ الزمن الأنثوي مهمة سهلة، قالت القاضية لنفسها. وخاصة بعد أن تتبع كلّ امرأة جدولها الزمني الخاص بها. إن مجرد جمع القرويات معاً للإعلان عن هذا المرسوم سيكون مهمة صعبة. وكانت روزالبا تعرف أنها ستواجه مقاومة من القرويات الأشد عناداً. وتعين عليها أن تبذل جهوداً حقيقية لإقناعهن بأن وجود جدول زمني عام لهن سيساعد على تحسين معدل الإنتاج في ماريكيتا، وبذلك تتحسن الظروف المعيشية لكلّ أسرة. لكن عليها أن تبذل جهداً كبيراً لإقناعهن بأن يكون لديهن تقويم قمري يعود فيه الزمن القهقرى ويساعدهن في نهاية الأمر في الحصول على فرصة ثانية على كوكب الأرض.

«لكن هل تؤمن بذلك حقاً؟ سألت روزالبا نفسها. هل تعتقد حقاً أن تقويماً زمنياً قديماً يعود إلى الوراء سيكون صالحاً للجميع؟ ربما لا. ما الأهمية التي ستعود على شخص مثل مانوليا موراليس التي تقول إن الزمن غير موجود إلا في عقل المرء؟ ربما لا شيء. وهل سيروق لأرملة بيريز وضع تقويم منتظم، وهي التي أعلنت أنها تعيش اليوم ذاته كلّ يوم؟ بالتأكيد لا. لعل مانوليا والأرملة بيريز كانتا محقتين في أساليبهن الغريبة الأطوار. إن النساء مثاليات ورومانسيات بطبيعتهن، ومع أنّ الرجال يعتبرون هذه الخصائص عيباً، ربما حان الوقت لأن تبجّلها النساء باعتبارها صفات أنثوية

فريدة، وأن يستخدمنها في حياتهن اليومية. قالت روزالبا إن الزمن الأنثوي ينبغي أن يتيح لعدد لامتناه من التفسيرات الفردية، بحيث يمكن اعتباره النظام الرسمي للقرية برمتها، وغير مربوطة بما قبلها بشكل جيد في العقل المثالي والخصب والرومانسي الذي تمتلكه كلّ امرأة.

تبادلت القاضية هذه الآراء مع كليوتيلد، التي كانت لا تزال تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ويداها معقودتان وراء ظهرها.

«لقد أعجبتني هذه الفكرة»، قالت المرأة العجوز، «لكنني أعتقد أنه يجب أن يكون لدى القرويات مقياس واحد على الأقل، وإلاّ انتهى الأمر بوجود عشر نساء مثل مانوليا يجرين عاريات، يدّعين أن الزمن هو... حلمة عارية أو شيء من هذا القبيل. أقترح أن نطلب من كلّ امرأة في كلّ شهر أن تختار فضيلة تريد أن تتقنها أو عيباً تريد أن تتخلص منه، وأنّ تركّز تفكيرها عليه». غاصت الآن في الكرسي، مقتنعة بأن ما قالته مهم ومحدد.

بعد قليل، انهمكت المرأتان في حديث طويل عن المبادىء الأخلاقية، والعدالة، والإيمان، والكرامة، والاستقامة، والكرم، والتسامح، والتفاني، والتصميم، والصبر، والقوّة، والأمل، والمسؤولية، والثقة، والتفاؤل، والحكمة، والتعقل، والفهم، والذوق، والحدس، والإحساس، وعن العديد من الأمور الأخرى التي يعتبرانها فضائل. ثم تحدثتا عن الرذيلة، والإثم، والشر، والخبث، والسخرية الجارحة، والفساد، والفسق، وسوء المعاملة، وسوء الطوية، والظلم، والخوري، والبغض، والاستعلاء، والانحلال، والانغماس في الشهوات، والغل، والمرارة، والخمول، والأنانية، وأشياء عديدة كثيرة أخرى يعتبرانها عيوباً. وبعد الاستفاضة في الحديث عن الفضائل والعيوب، قررت روزالبا

وكليوتيلد أنه بدلاً من كلمتيْ «الأشهر» و«السنوات» ـ التي اعتبرتاهما كلمتين لا معنى لهما ـ تحديد الزمن الأنثوي باعتباره «درجات» و«سلالم» بغية تحسين الذات. لكن بخلاف السلالم نحو النجاح أو الشهرة المخيفة التي أرساها الرجال، فإن هذه السلالم تهبط إلى الأسفل والأسفل لأنه، كما قالت كليوتيلد، «باستثناء الله، لم يصل أحد إلى أعالي المجد». لن تشعر نساء ماريكيتا بالقهر أبداً لعدم صعودهن، بل سيُشجّعن على الهبوط إلى الحضيض، حيث يلتقي العقل والشخصية والروح بالكمال، والأهم من كلّ ذلك، حيث ينطوي الكمال على تعاريف كثيرة بعدد النساء.

*

بغتة، سُمعت أصوات من الخارج: علا هرج ومرج في الشارع. وتناهى إلى روزالبا وكليوتيلد، من بعيد، أصوات نساء ماريكيتا الصاخبة تعيد وتكرر العبارة ذاتها.

«ماذا يقلن؟» سألت روزالبا.

«لست متأكّدة»، أجابت المعلّمة، وكوّرت يدها حول أذنها تصيخ السمع، «لكنهن غاضبات».

تنهّدت روزالبا، «هناك دائماً شيء ما».

«ألا يجب أن نعرف ماذا يقلن؟»

«لتقتل إحداهن الأخرى. فلا يمكننا أن نغادر هذا البيت حتى نضع مخططاً مقبولاً للتقويم»، وأعطت كليوتيلد قصاصة ورق، وبدأت تبري قلم رصاص بسكين مثلمة تحتاج هي نفسها إلى شحذ، «هل تستطيعين رسم يد مرفوعة يا آنسة كليوتيلد؟»

قبل أن تتمكن مديرة المدرسة من الإجابة بالقول «طبعاً» أنها تستطيع،

سُمعت خبطات قوية على الباب، وفي الحال، اندفعت فاكا إلى الغرفة.

«أيتها القاضية، يجب أن تخرجي فوراً»، قالت فاكا، وهي تلتقط أنفاسها. قالت إن عدداً من القرويات، مستغلات غياب روزالبا، ذهبن إلى سيسيليا وطلبن منها أن تجري تصويتاً لانتخاب قاضية جديدة. حاولت سيسيليا أن تثنيهن عن ذلك، لكنهن اشتكين بأن روزالبا لم تفعل شيئاً لصالح ماريكيتا، وبأن ما يزرعنه لا يكفي لتوفير الطعام لجميع نساء القرية، وأن معظمهن قد نسين طعم الحليب. علاوة على ذلك، اتّهمت الشابات القاضية بأنها سمحت للأب رافاييل أن ينفذ مخططاً لخداعهن، بينما اتهمتها النساء الأكبر سناً بأنها تركت الخوري يفلت من أيديهن بعد أن قتل أولادهن الأبرياء. وضغطن على سيسيليا للدعوة إلى إجراء «انتخابات سريعة» تُنتخب فيها سارجنت الشرطة أوبالدينا القاضية الجديدة لماريكيتا. وقد أعلنت سيسيليا ذلك»، قالت فاكا.

«لا زلن يجبن الساحة وهنّ يحملن أوبالدينا على أكتافهن ويهتفن بحياتها».

هكذا، من دون سابق انذار، أُرغمت روزالبا على مواجهة أعظم مخاوفها. لكن لحسن الحظ، أصبحت الأشياء مختلفة كثيراً الآن. وللمرة الأولى، بعد عدّة شموس، أحست روزالبا بأنها تسيطر على الوضع، فهي لم تستعد ثقتها بنفسها فقط، بل كانت على وشك أن تنجز شيئاً استثنائياً من أجل ماريكيتا. لكنها هذه المرة، لن تسمح لأحد أو لشيء أن يهدمه. ستخرج إليهن وتتفاهم معهن. كانت على ثقة من أنهنّ سينتخبنها ثانية بالتزكية.

*

في الخارج، كانت الحرارة خانقة. إذ إن المطر الخفيف الذي هطل، جعل الهواء ثقيلاً ودبقاً. كانت نوافذ معظم البيوت مشرّعة على مصاريعها، لا لتدخل نسائم خفيفة، بل لتُخرج الحرارة. وعندما سارت روزالبا في الشارع مع فاكا وكليوتيلد، لم تصادف إلا كلبين متكورين على نفسيهما نائمين تحت ظلّ شجرة، وصفّ طويل من النمل الدؤوب. ولم يكن هناك شيء حيّ آخر يسير في الشوارع.

عندما وصلت النساء الثلاث إلى الساحة، سمعن غناء وشاهدن مرحاً صاخباً حول أوبالدينا. فقد أهملت القرويّات أعمالهن الفردية، وتجمّعن للاحتفال، في حفل صاخب، بانتخاب القاضية الجديدة. حاولت روزالبا أن تتحدث مع عدد منهن، لكنّهن لم يكدن يعترفن بوجودها. لم يأبهن بها، وأحست أنها بدأت تتضاءل شيئاً فشيئاً. وبسرعة تخلّت روزالبا عن فكرة التفاهم معهن بالمنطق وانتقلت إلى الخطة باء. سحبت مسدّسها من حافظته، ووجّهته نحو السماء وأطلقت إحدى الرصاصتين المتبقيتين. وكما لو كان هناك سحر كامن في صوت الطلقة المدوّي، توقّفت النساء عن الاحتفال، وهرعن إلى الكنيسة، المكان الوحيد الذي يشعرن فيه بالأمان ـ بعد رحيل الخوري. لبثت سيسيليا غوارايا واقفة في مكانها في وسط الساحة، تمسك الورقة التي تضم نتائج التصويت.

«ماذا فعلت لكِ حتى تخونيني؟» سألت روزالبا سيسيليا. كان المسدّس الحار يهتزّ في يدها.

«أرجوك يا روزالبا، لا تغضبي مني»، قالت سيسيليا متوسلة، موجّهة كلامها إلى مسدّس القاضية، «فقد كانت نساء هذه القرية مصممات على العصيان. لم أوافقهن على الدعوة لإجراء انتخابات إلا إذا كان اسمك في

قائمة الاقتراع»، ومدّت قصاصة الورق إلى روزالبا وقالت: «إن اسمك يأتي في المرتبة الثانية».

انتزعت روزالبا الورقة من يد سيسيليا ونظرت إليها. «عظيم!» قالت بازدراء، «لقد أتيت في المرتبة الثانية، بصوتين لا قيمة لهما»، وكوّرت قصاصة الورق في شكل كرة، ورمتها عند قدميْ سيسيليا. أعادت مسدسها إلى حافظته وتوجهت إلى الكنيسة، برفقة فاكا وكليوتيلد.

داخل بيت الربّ، سارت روزالبا في الممر بمهابة ووقار. أثار الجانب الاستبدادي فيها خوف النساء، لا عطفهن. لم يصدر أي صوت أو حركة سوى حركة الرموش التي كانت تتابع روزالبا وهي تسير نحو المنبر، حيث وقفت وراء المنضدة العارية نصف المتعفّنة، حيث كان الخوري رافاييل يؤدي الصلاة. وقفت كليوتيلد إلى جانبها.

«لقد أتيت إلى هنا لأقول إنني أتحمّل المسؤولية بكاملها على جميع أخطائي وهفواتي»، بدأت بتواضع، «فمنذ أن عُيّنت قاضية، بذلت كلّ ما بوسعي لأسيطر بالكامل على قريتنا، ولكي أذلل جميع العقبات، وأخلق لنا حياة جديدة من دون رجالنا. لقد ضللت طريقي في معتقداتي، وارتكبت بعض الأخطاء. كانت هناك أشياء أخرى كان عليّ أن أفعلها لكنني لم أفعلها. لكنني الآن، بدأت أرى أخيراً أن عملي في ماريكيتا، مع أنه عمل غير مأجور، يكمن في تنظيم قريتنا، للتأكد من ألاّ يبقى لدى عائلة موراليس بقايا طعام، بينما تأكل أرملة بيريز الفقيرة ما تجده من فتات عندما تعثر عليه. وحرصاً على أن تتمتع بيريسترويكا بالصحة حتى تدرّ حليباً ليحصل كلّ منّا على قنينة كاملة على الأقل كلّ أسبوع. ولضمان أن يتوفر لكلّ أسرة بيت، وأن يكون لكلّ بيت سقف، وأن يقي كلّ سقف من في

البيت من المطر. لقد تعلّمت أشياء عديدة ستجعل مني الآن قاضية أفضل بكثير لقريتنا. كلّ ما أطلبه منكنّ أن تفسحن لي فرصة أخرى لكي أصوّب الأخطاء التي يمكن تصويبها، والتكفير عن الأشياء التي لا يمكن إصلاحها. وإذا وافقتن على أنني أستحقّ الحصول على فرصة أخرى، أرجو أن تتقدمن خطوة». حدّقت بإخلاص في النساء المحتشدات.

ساد صمت طويل بينما تمعنّت القرويات في كلمات القاضية، وساور الشكّ بعض النساء. فقد أعادت لهن نبرة روزالبا ذكريات بغيضة عن سياسيين دمثين مجاملين، ووعود نكثوا بها، وامتيازات لم يحققوها. لكن بعضهن الآخر صدّقن صراحة روزالبا ونواياها الصادقة، ولاسيما الآن، حيث بدا أن مديرة المدرسة ـ التي لم تشب مصداقيتها أية شائبة ـ أنها تؤيدها.

إنك «تستحقين فرصة ثانية»، قالت فاكا من مقعدها في الصف الأول. وسارت باتجاه روزالبا وتوقفت أمام المنضدة.

«أنا معك أيتها القاضية». جاء الصوت من الوراء تماماً. «بالنسبة لي، كنت وستكونين دائماً القاضية الوحيدة». كانت سيسيليا، التي تبعت روزالبا، والتي بدأت تسير في ممر الكنيسة. توقفت كذلك عند المقعد أمام المنضدة. رمقتها روزالبا بنظرة متعاطفة.

بعد برهة من الانتظار، ظهرت دونا فيكتوريا أرملة موراليس، وقالت بصوت عال، «نحن أيضاً نظن أنك تستحقّين فرصة ثانية». ودفعت ابنتيها الأكبر سناً ـ أوركيدا وغاردينيا ـ إلى الأمام؛ ثم أضافت قائلة: «وأنت تحظين بدعمنا غير المشروط». وبدأت تكافح مع ابنتيها الأصغر ـ مانوليا وخوليا ـ المعروفتين بعنادهما. همست دونا فيكتوريا جميع أنواع

التهديدات في أذني الفتاتين، لكنهما قاومتا بعنف حتى استسلمت الأرملة. ثم تقدمت الممرضة راميريز وإلويسا أرملة دي سيفوينتيس، ثم تبعتهما لوكريسيا وفيرجيلينا سافيدرا. وواحدة تلو الأخرى، بدأ المزيد من النساء ينضممن إلى المجموعة، رؤوسهن مطرقة خجلاً، وقدّمن دعمهن إلى روزالبا.

تجمّعت مانوليا وخوليا موراليس، وأوبالدينا وأمهات الفتية الذين ماتوا في الجانب الأيمن من الكنيسة. لبثن واقفات وأمارات التحدي في وجوههن، رؤوسهن شامخة. أدركت روزالبا أنه يتعين عليها أن تغير استراتيجيتها إذا أرادت أن تكسب المنشقّات إلى صفها.

«يا له من شيء محزن»، قالت بصوت خفيض، كأنها تكلّم نفسها أكثر مما تكلّم النساء أمامها، «إذا قيّض لأرواح أحبائنا فيتنام وتروتسكي وتشي وهوشي منه أن تبعث الآن من جديد، فسيخيب أملها. لقد كانوا يريدون أن نعيش في حالة من الانسجام المثالي». توقفت عن الحديث قليلاً، وتحسست حنجرتها بيدها، كأنها تعاني من مشكلة في البلع. ثمّ واصلت كلامها، قائلة: «فشبابهم لم يوقفهم عن تعليمي، من خلال أعمالهم النبيلة، أن الإخلاص والاحترام والتعاون هو الرد على النجاح. من المحزن جداً أنهم ضحوا بحياتهم البريئة من أجل لا شيء. فلتغفر أرواحهم لكنّ».

إن مأساة أمهات الفتية وحّدتهن، فشبكن أيديهن وأجهشن في البكاء معاً. وفي النهاية، تحرّكن ليقفن في صفّ النساء اللواتي أيّدن سلطة روزالبا، ولم يتركن لأوبالدينا الخيار إلا أن تنسى طموحها في أن تصبح القاضية، وأن تنضمّ إلى باقي النساء. عندما خاب ظن مانوليا وخوليا بأوبالدينا، غادرتا الكنيسة.

أحست روزالبا بالرضا على الأسلوب الذي عالجت فيه هذا الوضع الدقيق والحرج. لكنها هذه المرة، لم تسمح للزهو أن يمنعها من رؤية الحقيقة: إذ إن العصيان ليس حادثة منعزلة، بل تحذير خطير للمدى الذي تستعد فيه القرويات للقتال في سبيل الحصول على الطعام والمأوى، اللذين هما من أهم حقوق الإنسان. اقتربت من النساء وشكرتهن شخصياً على اختيارهن لها بأن تكون السلطة المطلقة في القرية. ثمّ، مستغلّة هذا الاجتماع المرتجل، أوضحت هي وكليوتيلد للقرويات الموضوع الذي كانتا تعملان عليه. ووعدتا بأن يكون التقويم الأنثوي جاهزاً في صباح اليوم التالي، وبأنه سيكون بداية عصر جديد ورائع لماريكيتا.

*

بعد عودتهما إلى بيت روزالبا، تناولت روزالبا وكليوتيلد وجبة من العدس المطبوخ والرزّ الأبيض، وبدأتا تعدان جدول التقويم الأنثوي لماريكيتا على قطعة ورق حال لونها إلى الأصفر.

في البداية، رسمت روزالبا سلّماً بثلاث عشرة درجة، وأطلقت اسماً أنثوياً على كلّ درجة، كتبته بخط يدها الأنيق. وبالطبع، أطلقت اسم روزالبا على أعلى درجة ـ هذه المرة لم تعبأ بسؤال مديرة المدرسة عن رأيها. وأطلقت اسم كليوتيلد على الدرجة التالية، ثمّ بالترتيب أسماء أوبالدينا، وسيسيليا، وإلويسا، وفيكتوريا، وفرانسيسكا، وإلفيا، وإرليندا، وروبيلا، وليونور، ومارياس وفلور.

ورسمت على كلّ درجة، أربعة صفوف عامودية من الأرقام المحاطة بدوائر (ستّة في كلّ منها)، بادئة بالرقم أربعة وعشرين ومنتهية بالرقم واحد. كانت تمثّل شموس كلّ درجة، ويرمز صفّ خامس محاط بأربع

دوائر فارغة إلى متوسط فترة الحيض. ووافقتا على تسمية هذا الصفّ الأخير، اسم «التحوّل»، الذي سيكون أهم فترة في كلّ درجة.

تسلل شعاع خافت من ضوء القمر عبر الزجاج المكسو بالسخام، مذكّراً المرأتين بهبوط الليل.

«هل أستطيع أن أبوح لك بسرّ أيتها القاضية؟» قالت كليوتيلد، ورفعت نظارتها فجأة. رفعت روزالبا عينيها من على المخطط، وأومأت، «أذكر أنني كنت أشعر بالقذارة ويعتريني الخجل عندما كانت تأتيني الدورة الشهرية»، قالت كليوتيلد، وأضافت، «وكانت تمر عليّ أوقات كنت أشعر فيها بالخجل إلى درجة أنني كنت أتمنى لو كنت رجلاً».

كما باحت لها روزالبا بأحد أسرارها: «كان زوجي ينام في غرفة منفصلة عندما تأتيني الدورة الشهرية، كما لو كنت مصابة بمرض معدٍ. كان الحيض لعنة بالنسبة لي».

«حسناً، لن يعود لعنة بعد الآن»، قالت كليوتيلد مبتهجة، «من الآن فصاعداً، ستكون الدورة الشهرية فترة احتفال بالأنوثة».

نهضت المرأتان ووقفتا قبالة بعضهما بعضاً، جسداهما منتصبان، قدماهما متباعدة قليلاً، ويداهما على خصرهما. وقد تناثرت على الطاولة الكبيرة التي كانت تفصلهما قصاصات الأوراق التي تجسد المبادئ الأساسية التي سيقوم عليها الزمن الأنثوي، والرسم التوضيحي النهائي لأول تقويم أنثوي يوضع في التاريخ، سيسير في حركة تراجعية عند الفجر. وقفت روزالبا وكليوتيلد هناك، تبدوان مثل تمثالين لبطلتين وطنيتين. وبدا مظهر الثقة الذي تلألأ في عيونهما يؤكد أنهما كانتا كذلك امرأتين حققتا مآثر جديرة بالإعجاب، النسخة الأنثوية من سيمون بوليفار ـ محرر كولومبيا المجيد، وأول رئيس لها.

«هل من شيء آخر يجب مناقشته؟» سألت كليوتيلد، من باب المجاملة.

هزّت القاضية رأسها. استخدمت شفتيها لتؤشر إلى قصاصات الورق المتناثرة على الطاولة، وقالت: «أظن أن الوقت قد حان لنضع كلّ ذلك موضع التنفيذ». وعرضت على كليوتيلد مرافقتها نصف الطريق. راحتا تغذان الخطا في الشارع المقفر حتى وصلتا إلى مبنى الكنيسة الذي بدا جميلاً في ضوء القمر. وقفتا هناك دون أن تأتيا بحركة، في مواجهة بعضهما بعضاً، كما كانتا تفعلان دائماً: باستقامة، وحاجبا كلّ منهما مقوسان، ونظرة تحد في عينيهما. في هذه المناسبة المحددة فقط، لم يكن يفصلهما سوى بضعة بوصات والهواء غير المرئي.

«أشكرك جزيل الشكر يا آنسة كليوتيلد»، قالت روزالبا بكل صدق، مع أن قسمات وجهها الجامدة والصلبة لم تشِ بأي تقدير، «بصراحة لم يكن بإمكاني أن أفعل ذلك من دونك».

«يسعدني أنني تمكنت من مساعدتك ومساعدة ماريكيتا»، أجابت كليوتيلد. كانت هي أيضاً صادقة في ما قالته. وهي أيضاً لم تظهر صدقها على وجهها.

ودّعت المرأتان إحداهما الأخرى وقالتا: «طابت ليلتك»، وبدأتا تسيران الهوينى في اتجاهين متعاكسين في الشارع المقفر. ألقى جسداهما، مع أن هيئة كل منهما تختلف عن هيئة الأخرى، ظلين متطابقين يقترب أحدهما من الآخر، بينما كانتا تتباعدان. صعد الظلان فوق واجهة بيت الله البيضاء البالية، ووصلتا إلى البرج، حيث تنتصب ساعة منسية ساكنة لا تأتي بحركة. وأخيراً، عندما اختفت المرأتان في الغسق، أصبحتا ظلاً ضخماً انتشر فوق سماء ماريكيتا، يغطّي بالتساوي كلّ شخص فيها، وكلّ شيء تحته.

بلنيو تيباكويرا، ٥٩ سنة
فلاح

انتقل ابني إلى المدينة عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره. قال إنه يريد عملاً لا يحمل فيه منجلاً يربطه حول خصره. والتقى هناك بأصدقائه الثوريين. في المرة التالية التي وصلتني منه أخباره، كان في السجن. سافرت يوماً كاملاً مشياً على القدمين، وأمضيت يوماً آخر في الحافلة، لكنني عندما وصلت إلى السجن، قالوا لي إنه لا يُسمح بزيارة الثوّار. يمكن زيارة اللصوص! ويمكن زيارة المجرمين القتلة! لكن لا يسمح بزيارة الثوّار! طلبت أن أكلم السارجنت المسؤول. جعلوني أنتظر في الخارج. ظنّوا أن الشمس والحرارة ستجعلانني أدوخ وأعود أدراجي إلى البيت. أراهن أن لا أحد منهم قد ربى ابناً.

قال لي السارجنت الشيء ذاته: لا يُسمح بزيارة الثوّار. قلت له، «عفواً ياسيدي، لكن ابني بحاجة إليّ الآن أكثر من أي وقت مضى. أستطيع أن أشعر بذلك. فأنا أبوه. كما ترى، فللثوار آباء أيضاً» كنت أبكي وأنا أقول له هذه العبارة. لم يحر جواباً، لكنه أمر أحد رجاله بمرافقتي لرؤية ابني، وقال للرجل: «لمدة خمس دقائق فقط». تبعت جندياً شاباً عبر العديد من البوابات والممرات الطويلة. كانت هناك زنزانات على كلا الجانبين تفوح

منها رائحة النتن، ووراء قضبانها الصدئة، تقبع وجوه، وجوه خالية من القسمات، وجوه رجالٍ لم تكن لابني.

أخيراً، أشار الجندي الشاب إلى زنزانة مظلمة، وقال: «هناك». وقفت وراء القضبان، ورحت أضغط بوجهي بينها، لكنني لم أر شيئاً لعدم وجود نور في داخلها. لذلك همست اسمه، فيليب. ثلاث مرات همست اسمه قبل أن أسمع صوتاً، عويلاً. «هذا أنا، يا بني. أبوك. لقد جئت من أجلك». انبعثت تلك الضوضاء الفظيعة ثانية، هذه المرة، أعلى. كان يقول لي إنه سعيد للغاية لأنني زرته، لكنه يتألم ألماً مبرحاً.

الفصل الحادي عشر

البقرة التي أنقذت قرية

ماريكيتا، ٥ روزالبا، السلّم
٢٠٠٠

في صباح ذلك اليوم، غدت القاضية امرأة في غاية الوّد والطيبة، فوزّعت على النساء المحتشدات مراوح من سعف النخيل صنعتها بنفسها، وصبّت لهن بنفسها أكواباً من الماء البارد لمساعدتهن على التخفف من الحرارة التي لا تعرف الرحمة. وصافحت كلّ امرأة دفعها فضولها إلى الاقتراب من المنضدة الكبيرة التي وضعتها خارج مكتب البلدية، ووعدتهن جميعهن بأنهنّ لن يندمن إذا ما وقّعن على الوثيقة ذات الصفحتين التي ما برحت تلوّح بها تحت أنوفهن.

«هذه هي الاتفاقية العامة لماريكيتا»، قالت، والكلمات تنسال من فمها انسيالاً، وكأنها تقدّم لهن أعزّ صديقاتها، «وبالتوقيع عليها، فإنكن تلتزمن بمنح جميع ممتلكاتكن إلى قرية ماريكيتا بأسرها».

جعل غموض هذا التفسير قسمات النساء تتغير. إذ إن معظم الأرامل العجائز لا يعرفن القراءة ولا يكدن يعرفن كيف يوقّعن أسماءهن، لذلك،

عندما وصل الأمر إلى توقيع الوثائق، شعرن بالارتياب من الجميع ـ لا سيما القاضية، بجملها المدروسة باتقان، ومراسيمها الخرقاء التي كانت تعرّض كلّ واحدة منهن، إن لم يكن جميعاً، إلى مشاكل. ورحن يرمقن روزالبا بارتياب، وبدأت كل واحدة منهن تهمس في أذن صاحبتها، وكنّ يتناوبن بين الإيماءات وهزّ رؤوسهن. وأخيراً، جازفت أرملة سولورزانو، صاحبة بيريسترويكا، وقالت: «نريد أن نعرف ما معنى كلمة «تخويل، أيتها القاضية».

«آه، إن كلمة «تخويل» كلمة غريبة»، قالت روزالبا على الفور، ورفعت يدها في الهواء وقالت: «إنها شيء مثل... مقايضة، لكنها أفضل لأنك هنا تعطين لمرة واحدة فقط، لكنك تجنين الفوائد طوال حياتك». وافترّت عن ابتسامة تكاد تكون أمومية.

«همم...»، همهمت الأرملة كالديرون التي تمتلك ثلاثة بغال، تؤجرها لنقل المنتجات الزراعية لقاء نصف المنتجات التي تحملها البغال، وقالت: «وبأي شيء سأتاجر؟»

«بكل ما تملكينه يا كالديرون»، أجابت روزالبا، وهزت كتفها بلا مبالاة، «أيّ شيء». بذلت جهداً كبيراً لكي تبدو عفوية حول نتائج الاتفاقية المخفية.

«وماذا سنحصل بالمقابل؟» استفسرت الأرملة سانشيز، التي كانت تمتلك عدداً من الدجاجات والدجاجات الحاضنة التي تكسب منها قوت يومها ويوم ابنتيها وأمّها العجوز.

«كلّ ما لا تملكينه يا سانشيز»، أجابت روزالبا. ثمّ، وبحركة استراتيجية ذكية، وضعت الوثيقة جانباً، وأمسكت دورق ماء، وأضافت، «إن التخويل

شيء جيد للجميع»، وبدأت تملأ أكواب النساء مرة أخرى بالماء العذب، «إنه حقاً شيء رائع للجميع». وظلّت تكرّر هذه العبارة مرات ومرات وهي تسير بين عشرات المراوح المصنوعة من سعف النخيل التي كانت تتحرّك بشكل إيقاعي في أيدي النساء، ينفخن كلمات روزالبا لتهبّ مع الهواء السميك الرطب.

قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء، وقعّت جميع القرويات، بمن فيهن روزالبا، على الاتفاقية العامة، ولمّا كنّ أمّيات، فقد ردّدن بصوت مرتفع، «لقد قبلت»، أمام مديرة المدرسة، التي كانت توقّع أسماءهن وتعمل بمثابة شاهد رسمي.

وباستثناء القاضية، عادت جميع النساء إلى بيوتهن لتفادي أشعة الشمس اللاهبة. وفضّلت روزالبا أن تستلقي تحت ظلّ شجرة في الساحة، راجية أن تهبّ عليها نسمة غير متوقعة. وسعدت كثيراً عندما أدركت، على نقيض توقعات الآنسة غوارنيزو، أن إقامة نظام اقتصادي جماعي في ماريكيتا سيصبح مهمّة سهلة. وبدأت ترسم في مخيلتها، الخطة العامة التي ستساعدها على تحقيق هذا الهدف. إذا إنها ستجمع أولاً جميع الحيوانات الأليفة وتضمها إلى البقرة بيريسترويكا في الباحة الخلفية لمنزل الأرملة سولورزانو، التي ستصبح أول مزرعة جماعية في ماريكيتا؛ ثمّ تقسّم الأراضي الصالحة للزراعة إلى أراض بمساحات وأحجام مختلفة، وتخصّص كلّ قطعة منها لمجموعة من النساء وتصدر إرشادات وتعليمات معيّنة بما يجب عليهن زراعته؛ ثمّ تعقد اجتماعاً مبكراً لإبلاغ القرويات أنّ على كلّ امرأة منهن أن تعمل وتنتج شيئاً، كلّ منهن حسب طاقتها، لها وللقرية برمتها. أما اللاتي لا يتمتعن بمهارات خاصة، مثل الأرملة

جاراميليو نصف المجنونة، فإنهن سيُكلّفن بتنظيف بيوت النساء اللاتي يعملن وغسل ثيابهن، أو كنس الشوارع والأزقة. وإذا كانت المرأة مسنة أو ذات إعاقة جسدية، مثل الأرملة بيريز، فسيُطلب منها تسلية القرويات كلّ أمسية بأن تحكي لهن قصصاً قديمة أو قصصاً شعبية، لكي تظل تقاليد ماريكيتا حيّة في أذهانهن. كانت غارقة في أفكارها إلى درجة أنها لم تعد تشعر بلهيب حرارة الظهيرة القائظة، ولم تعد تسمع طنين البعوض الذي لا يطاق في أذنيها، أو تشعر بلسعاته المؤلمة، التي تركت، بالرغم من مضي سنوات عديدة، جروحاً متقيّحة على بشرتها البيضاء. قالت لنفسها إن الأسوأ قد انتهى بالنسبة لماريكيتا، فقد بدأت العاصفة تهدأ أخيراً.

لكن عندما بدأت روزالبا وسيسيليا وكليوتيلد ينتقلن من بيت إلى بيت لجمع الحيوانات الأليفة، واجهن مقاومة شديدة من القرويات.

«لو لمستِ أية دجاجة من دجاجاتي، للويت عنقك»، قالت الأرملة سانشيز.

«قصاصة الورق تلك التي وقّعتها لم تذكر اسم بيريسترويكا»، جادلت الأرملة سولورزانو. حتى أوبالدينا، سارجنت الشرطة، رفضت أن تتخلى عن خنازيرها.

صُفقت الأبواب؛ وأُطلقت التهديدات؛ وعلت الشتائم والإهانات.

في صباح اليوم التالي، دعت روزالبا إلى عقد اجتماع في الساحة لتوضح، وللمرة الأخيرة، أن «تخويل المرء ممتلكاته لقرية ماريكيتا كلها»، أمر جديّ وكذلك النتائج التي ستتمخض عن توقيع الاتفاقية. إلا أن الاجتماع سرعان ما انقلب إلى شيء غير سار. فعندما سمعت النساء فحوى خطة روزالبا بكلمات بسيطة غير منمقة، انقسمن إلى مجموعتين: الأغلبية

التي لم تكن تملك شيئاً إلا القليل من الثياب، فأيّدت الخطة؛ ومجموعة أصغر مؤلفة من سبع عشرة امرأة ادعيّن أنهن ضُلّلن ووقعّن وثيقة غامضة جائرة تهدف إلى حرمانهن من القليل الذي يملكنه. وبينما هتفت المجموعة الأولى ثلاثة هتافات دعماً للقاضية، ثارت المجموعة الثانية، وأعلنت أنها امرأة كاذبة وسارقة.

لبثت روزالبا هادئة حتى هدأت حدة التوتر، ثمّ أدلت بتصريح غير متوقع: «هناك خياران أمام كل واحدة منكن: البقاء في ماريكيتا والالتزام بأحكام الاتفاقية التي وقّعتموها، أو مغادرة القرية. وإذا قرّرتن الذهاب، فإني أمنحكن فرصة لجمع ممتلكاتكن حتى شروق الشمس غداً والمغادرة من دون رجعة». توقّفت قليلاً لتزيل الكتلة التي تشكّلت في حنجرتها، ثمّ، أخذت ترفع صوتها شيئاً فشيئاً، «الآن، إذا قرّرتن البقاء، فاعلمن أنكنّ ستصبحن جزءاً من مجتمع مزدهر لن تفتقد أحداكن وجبة طعام مرة أخرى. هيا اخترن».

بعد المواجهة مباشرة، عقدت القرويات المتمردات اجتماعاً سرياً في بيت أوبالدينا.

«إذا قررنا المغادرة، فيجب أن نغادر بسرعة»، قالت أوبالدينا، «إذ إن روزالبا امرأة ماكرة وحقودة تحبّ الانتقام، وستؤلب القرية كلها علينا».

«لقد فعلت ذلك للتو»، قالت الأرملة سانشيز بصوت امرأة ناجحة، صوت أرملة بدأت بدجاجة حاضنة واحدة، وأصبح لديها الآن اثنتا عشرة دجاجة، سبع عشرة دجاجة، وعلى الأقل ست بيضات صباح كلّ يوم. «أكره فكرة التخلّي عن بيتي، لكنني أكره فكرة مشاركة الجميع في ما كسبته وحدي».

أُبديت تعليقات، وقُدمت تفسيرات، وطُرحت أسئلة وأُجيب عنها، وفي النهاية، توصلن إلى قرار مفاده: «سنغادر قبل الغروب. فلتذهب كلّ منكن، وتحزم أمتعتها».

عندما أُبلغت القاضية بخطة المنشقّات بالمغادرة بسرعة، عقدت اجتماعاً سرياً مع مديرة المدرسة لوضع خطة.

«يجب أن نفعل شيئاً لاستبقائهن، يا آنسة غوارنيزو»، بدأت روزالبا بنبرة شديدة الاهتياج، «فإذا ذهبن، فقد لا تتمكن ماريكيتا من الاستمرار في الحياة. إنهن سيأخذن حليبنا وجبننا وزبدتنا، وخنازيرنا وعنزاتنا، وبيضنا».

أنصتت كليوتيلد لما قالته القاضية بعناية، دون أن تقاطعها، وعندما توقّفت، قالت: «أظن أن الطريقة الأخلاقية لمعالجة هذه الأزمة هي أن ـ».

«لا يهمني هل الأمر أخلاقي أم لا»، قالت روزالبا، «فلم أنجز شيئاً في حياتي من دون ان أكذب على أحد أو أغشه»؛ ثم أدارت ظهرها لكليوتيلد، وراحت توجّه كلامها إلى الجدار الصامت، «وكلما حاولت أن أفعل شيئاً بطريقة صحيحة، فشلت فشلاً ذريعاً. إنني أحاول أن أكون صادقة مع الجميع وأعيش حياة مليئة بالمبادئ الأخلاقية الجيدة، لكنني لا أستطيع».

«حسناً، لعلك تستطيعين استخدام قدراتك على الإقناع لإقناع المتمردات على البقاء»، اقترحت كليوتيلد.

لكن روزالبا قالت إن الحالة خطيرة جداً ولا يمكن معالجتها بشرف؛ وبعد أن اقترحت عدداً من السبل المخادعة لتحقيق مآربها (تراوحت بين اختطاف الأرامل الثلاث الأكثر تأثيراً ونفوذاً، وبين استخدام الرصاصة الأخيرة المتبقية في مسدسها لتهديدهن) انتهت باستخدام قدراتها «السيئة

السمعة» على الإقناع لإقناع كليوتيد في مشاركتها في الكذب، وقالت: «كذبة بيضاء صغيرة من أجل ماريكيتا».

قبل الغروب، انطلق موكب طويل بسرعة في الشارع الرئيسي، بقيادة سانتياغو مارين «الأرملة الأخرى»، وأمّه وأختيه، تتبعهن مجموعة من الشابّات اللاتي يحملن على ظهورهن صرراً كبيرة مليئة بالذرة، وحزماً من القطن الخام. أما المنتجات الثقيلة من الياكا والبطاطا والموز وحبوب البنّ - فقد وضعنه في أكياس، ووزّعنها بين بغال أرملة كالديرون الثلاثة. وسارت وراء البغال مجموعة من النساء من ذوات الأجساد الممتلئة اللاتي كن يحملن بطانيات ملفوفة على أكتافهن العريضة، ويربطن قدوراً ومقلايات وأباريق في المكان الذي كان يفترض أن يكون خصورهن. وبذلت الأرملة سانشيز جهداً كبيراً لتحمل على رأسها صندوقاً من الورق المقوى مليئاً بالثياب، كان يبدو كما لو أن مزرعة دواجن كاملة مخبأة فوق رأسها. أما الأرملة سولورزانو فكانت تسحب بيريسترويكا وراءها على طول الشارع، أو لعل بيريسترويكا - المحمّلة بممتلكات صاحبتها - هي التي كانت تسحب الأرملة. وسارت أرامل أخر ترافقهن الخنازير والماعز والقطط والكلاب وحتى ببغاء عجوز يستطيع أن يعدّ حساء جيداً، في الشارع في وداع صاخب ملّون بألوان ماريكيتا الزاهية المتعددة.

وفي نهاية الشارع الرئيسي، انعطفت القافلة إلى درب طويل، ضيّق، صعد بهم إلى تلة صغيرة، وانتهى «بالحدود»، حيث تتنصب أجمة من الأشجار والشجيرات المنيعة في المكان الذي يتشعب فيه الطريق نحو الجنوب، والذي أصبح الآن يستخدم لفصل، أو بالأحرى، لإخفاء ماريكيتا عن باقي العالم. لكن عندما همّ سانتياغو مارين وأمّه بالتوغل في

الأجمة الكثيفة، سمعا صوتيْ روزالبا وكليوتيلد اللذين لا يمكن لأحد أن لا يميزهما. «توقّفوا! توقّفوا!» صرختا عدة مرات. حاولت النساء أن يسرعن، لكن نعال أحذيتهن كانت قد رقت كثيراً وبدأن يشعرن بأنها أضحت مثل جوارب في أقدامهن، فبدأن يتحركن ببطء وبصعوبة على الطريق غير المعبّد.

«ماذا تريدان منّا؟» قالت آراسيلي أرملة مارين.

«أظن أننا يجب أن نواصل سيرنا»، اقترحت إحدى بنات أوسبينا، «لقد أصبح الجو غائماً».

«لننتظرهما. لعلهما تريدان أن تأتيا معنا»، قالت سانتياغو، ضاحكة.

وافقن جميعهن وبدأن يُنزلن صررهن وأكياسهن ويضعنها على الأرض.

عندما وصلت روزالبا وكليوتيلد إلى الحدود، وقفتا بجانب بعضهما أمام المجموعة. «قبل كل شيء، أريد أن أشكركن لأنكن توقفتن عن... رحلتكن فجأة»، بدأت روزالبا كلامها بنبرة تصالحية. كانت تضم إلى صدرها كتاباً ضخماً، وأضافت، «بما أن السماء ستمطر على ما يبدو، ولأنني أعرف أنكنّ ترغبن في الوصول إلى مكان آمن قبل هبوط الليل، سأكون مقتضبة في كلامي. فبعد ظهر اليوم، كنت أنا والآنسة كليوتيلد نتصفح أحد كتب التاريخ فوجدنا فصلاً يروي حادثة هامة في تاريخ قريتنا. أليس هذا صحيحاً، يا آنسة كليوتيلد؟»

«آه..»، قالت مديرة المدرسة، مخاطبة النساء وحيواناتهن، الذين وقفوا جميعاً في فوضى صاخبة فوق التلة الصغيرة. «إنها قصّة رائعة يجب أن تعرفها جميع نساء ملريكويتينا. ونتمنّى أن نقرأها لكُنَّ قبل أن تغادرن القرية». نظرت سانتياغو والنساء كلّ منهن إلى الأخرى، قائلات،

بتعابيرهن الصامتة، بأنّهن لن يتوقفن لسماع محاضرة أخرى من محاضرات القاضية المملة. «أرجوكن»، قالت المعلّمة تستجديهن، محدقة في سانتياغو. كانت تعرف أن لا أحد يستطيع أن يرفض طلب سيدة مسنّة، ولاسيما طلباً قيل بنبرة فيها توسل.

جلس سانتياغو، الذي بدا عليه الغضب، فوق حزمة الذرة الكبيرة التي كان يحملها. وكان تصرفه هذا يعني أنّ على النساء أن يفعلن ما فعله. فبدأن يجلسن فوق البطانيات الملفوفة والقدور والصناديق، وجلسن أخيراً على شكل نصف دائرة بجانب أغراضهن. وانتحت بيريسترويكا والبغال جانباً لرعي الأعشاب الطويلة وأوراق الأشجار. أعطت القاضية الكتاب الذي تحمله للمعلّمة، وهمست، «أظن أنه من الأفضل أن تبدأي أنتِ. إني اشعر بشيء من التوتر». كانت روزالبا قد تعمدت أن تكذب كلّ أنواع الأكاذيب على جميع ضروب الناس في حياتها، لكنها لم تستطع أن تتذكّر شيئاً مهماً بأهمية مستقبل ماريكيتا الذي كان يعتمد على أحد افتراءاتها. في هذه اللحظة، ارتابت في تأثير القصة التي سترويها هي وكليوتيلد، وأحست بالندم لأنها لم تختلق أمراً أكثر إثارة.

رفعت كليوتيلد يدها إلى نظارتها التي تركتها مؤخراً تتدلى من سلسلة فضّية حول رقبتها، وضعتها، تنحنحت، وفتحت الكتاب (أطلس لكلّ الأشياء) على صفحة كيفما اتفق، وبدأت تقرأ القصّة:

«في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، في قرية صغيرة تدعى. . . تاريبو، تُعرف حالياً باسم ماريكيتا، كانت تعيش فتاة شابة جميلة تدعى. . . كاتوركا، كانت الطفلة الوحيدة لزعيم هندي مشهور. وفي صباح أحد الأيام، بعد أن عادت كاتوركا من جولة في قريتها، توجهت إلى أبيها

وسألته، «أبي، لماذا توجد على طاولتنا بقايا طعام في الوقت الذي لا يوجد فيه عند بعض مواطنينا شيئاً يأكلونه. كان أبوها رجلاً حسن النية، لكنه لم يكن على درجة شديدة من الذكاء، لذلك لم يتمكن من الإجابة على أسئلة كاتوركا. طرحت الفتاة الشابة على مستشاري أبيها الأسئلة ذاتها، لكنهم كذلك لم يكونوا بذلك القدر من الذكاء».

اعتادت كليوتيلد طوال حياتها على مخاطبة حشود صغيرة وكبيرة من الناس. فقد كانت تعرف متى ترفع نبرة صوتها ومتى تخفضها، ومتى تتوقّف، ومتى تنظر إلى المستمعين إليها، وأية كلمات تؤكدها. إذاً لم يكن مفاجئاً أن الجميع، كانوا في هذه اللحظة، مفتونين بحكايتها.

«في صباح اليوم التالي، برفقة مجموعة من الخدم، غادرت كاتوركار ماريكيتا بحثاً عن إجابات على أسئلتها. وجابت في بلاد غريبة واطلعت على العديد من الثقافات والعادات والمعتقدات والحكومات المختلفة. وعاشت مع أناس مدقعي الفقر، وأناس شديدي الثراء، وأمضت شموساً بين الشعوب المتمدنة وغير المتمدنة؛ وأجرت أحاديث مطولة مع مثقّفين ومع جهلة من الريف. وعندما عادت كاتوركا أخيراً إلى ماريكيتا، لم تعد فتاة شابة ساذجة، بل أصبحت امرأة مثقفة، حكيمة. وتنازل أبوها، الذي أصبح الآن عجوزاً، ضعيفاً، ونصّبها رئيساً جديداً على القرية».

هنا توقّفت كليوتيلد، وقالت: «ستواصل القاضية الآن». تناولت روزالبا الأطلس بكلتا يديها وقلبت الصفحة، وكأنها تبحث عن بقية القصّة. وظهرت أمامها خريطة شمال وسط أوروبا، ولم يكن أمامها من خيار سوى أن تواصل روايتها.

«خلال عهد توركا ـ».

«كاتوركا»، قاطعتها المعلّمة، «كان اسمها كاتوركا».

ابتسمت روزالبا ابتسامة مصطنعة، وانطلقت مجدداً، «خلال عهد حكم كاتوركا، أصبحت قريتها أنجح القرى وأكثرها ازدهاراً في المنطقة. فقد حرّرت العبيد وألغت الرق، ومع أنها ظلت زعيمتهم، فقد أعلنت أن جميع القرويين متساوون: وأعادت توزيع جميع الأراضي والبيوت ليصبح لكلّ أسرة بيت تسكن فيه، وقطعة أرض تعمل فيها. وطلبت من النساء تعليم الرجال الطهي والتنظيف، والقيام بالأعمال المنزلية الأخرى، وطالبت أن يعلّم الرجال النساء الفلاحة والصيد وصيد السمك. ثمّ بدأ الرجال والنساء يتناوبون على العمل في الأرض والأعمال المنزلية، وأصبح القرويون أكثر احتراماً وتقديراً لبعضهم البعض».

بدا على النساء التململ وتشتت الانتباه. ولاحظت الأرملة سانشيز بروز خط جديد على راحة يدها اليسرى، وتساءلت ماذا ينبئ ذلك عن مستقبلها. وفي تلك الأثناء، راحت أوبالدينا تراقب، باهتمام متزايد، كلباً يحاول امتطاء أحد خنازيرها.

«عندها فقط اتخذت كاتوركا الخطوة الأخيرة التي تجعل نظام حكمها كاملاً: فقد ألغت منصب الزعيم وأصبحت واحدة من المواطنين الهنود العاديين في القرية، وظلت هندية عادية حتى بلغت سن الشيخوخة الناضجة».

أغلقت روزالبا الكتاب بطريقة مثيرة، وارتسمت على وجهها تعابير الفرح والابتهاج، وسألت، «ألن يكون رائعاً أن تعود ماريكيتا إلى نظام حكم كابوركا؟» ورمقت الحشد بعينيها باحثة عن جواب، «ماذا تظنون جميعكم؟»

«أظن أنك أخطأت في لفظ الاسم الهندي ثانية»، قال سانتياغو مارين بقسوة، «إنه كاتوركا. كا تور كا». وراحت الأختان أوسبينا تقهقهان.

«هل يمكنك أن تفكّر بشيء. . . أفضل تقوله؟»، قالت روزالبا بنبرة تحدٍ.

«بالتأكيد. أظن أن المطر سيهطل، ويجب أن نواصل طريقنا». نهض، ونهضت النساء، وبدأن في جمع أغراضهن وحيواناتهن بهدوء لمتابعة رحلتهن. أما القاضية، فقد شعرت بأن لامبالاتهن هذه كانت كأن أحداً بصق في وجهها. وانتابتها رغبة في أن تقذفهن بجميع أنواع الشتائم والإهانات ـ وأن تقول لهن إنهن لسن سوى عقبان ضارية غليظة القلوب؛ وأنهن أشد غباء من والد كاتوركا ومستشاريه؛ وأنها، بالمناسبة، هي والآنسة كليوتيلد، قد اختلقتا هذه القصّة المضحكة عن توركا أو بوركا أو كاتابوركا، أو أي اسم يردن إطلاقه على تلك الهندية اللعينة؛ وأنها تتمنى في قرارة نفسها أن يذهبن جميعاً إلى الجحيم هن ودجاجاتهن الضامرة وعنزاتهن الهزيلة النتنة، وكلباتهن الجشعة القبيحة الأنانية. . . لكنها كانت قد وعدت كليوتيلد بالحفاظ على رباطة جأشها ومعالجة هذه الحالة الخاصّة بالهدوء والرزانة اللتين يجب أن تتسم بهما سيدة مرموقة مثلها.

وهكذا وقفت روزالبا المسكينة هناك صامتة، وقد بان الكلل على وجهها، وهي النتيجة المحققة للتوتّر الناجم عن مواجهة النساء وشدة الحرارة. اتخذ جسمها وضعية مسترخية، مريحة، وكأنها تنتظر أن ترفعها الريح. وعندما بدأت النساء يتهيأن للانطلاق في رحلتهن، أخذت روزالبا تتكلم فجأة بصوت رقيق لكن حازم: «هل تظنّن حقاً أنكن ستجدن بانتظاركن وراء تلك الجبال جنّة لا يوجد فيها عنف أو فقر؟» هزّت رأسها عدّة مرات، «في مكان كهذا، يجب أن تخلقن أنفسكن. ولا يمكنكن عمل ذلك بهذا العدد القليل من الأشخاص. إن ذلك يحتاج إلى قرية

بأسرها، مثل القرية التي تخيّلتها أنا وآنسة كليوتيلد من أجل ماريكيتا. فعندما تخيّلنا تلك القرية، كنّا نعتمد على استعدادكن للتضحية لنخلق هنا، حيث ولدتن وولد أطفالكن، تلك الجنّة التي يخيّل لكن أنها تنتظركن في مكان آخر.

«وإن كنتن لا تزلن راغبات في المغادرة، فأنا أتمنّى لكن حظاً سعيداً، لكن يجب أن تدركن أنكن لا تفعلن شيئاً سوى استبدال تعاسة بأخرى، وفي النهاية، فإن اختيار نوع التعاسة الذي يمكنكن التعايش معها سيكون الحرية الوحيدة المتبقية لكُنَّ». أعطت روزالبا الأطلس إلى كليوتيلد ولمست برفق كتف المرأة العجوز تعبيراً مرهفاً عن شعورها بالامتنان لأنها كذبت عليها، ثمّ بدأت تهبط التلة، عائدة إلى ماريكيتا، بعد أن دمّرها الحزن.

أُعجبت كليوتيلد بما قالته القاضية. فقد كانت روزالبا معروفة بعجزها وعدم كفاءتها، وإصدارها المراسيم الغريبة الأطوار والمزاجية التي لم تحلّ أي مشكلة بل عقّدت كلّ شيء، ولم تقل في خطاباتها الطويلة كلها شيئاً ذا معنى. أما الخطاب الذي ألقته للتو، فقد صدر من روزالبا مختلفة ـ روزالبا الأكبر سناً، المحنكة، والأنضج فكرياً، التي، كما أحست كليوتيلد بدأت تدرك بشكل متزايد التأثير المتآكل لمرور السلالم فوق لحمها، لكنها، بدلاً من البحث عن الخلاص والراحة في آلهة غير مرئية، ربطت نفسها بقوة بالواقع، وقامت بالعمل الذي يبرّر وجودها، والذي يشجّعها أيضاً على مواصلة العيش.

وفجأة هطلت أمطار غزيرة. راحت تهطل بسرعة وبقطرات كبيرة، وفي الوقت نفسه، أخذت تشق عنان السماء خيوط من البرق. أمسكت النسوة

حاجياتهن وركضن إلى أقرب مبنى، المبنى المهجور الذي كان ماخور دونا إميليا، يأوين إليه.

ثم وقع حادث غريب. فبحركة غير متوقعة، خلّصت بيريسترويكا نفسها من قبضة الأرملة سولورزانو، وراحت تهبط التلة وراء القاضية، تجرّ وراءها حبلاً غليظاً مربوطاً حول رقبتها، مصدرة خواراً عالياً. ثمّ، وكأن خوار البقرة كان دعوة سرية إلى التمرّد، انطلقت البغال والخنازير والماعز والقطط والكلاب والببغاء والطيور الطليقة الأخرى، وعبرت الطريق للانضمام إلى بيريسترويكا وروزالبا. تركت النساء مبنى الماخور السابق ورحن يركضن وراء حيواناتهن، يصرخن فيها لتعود. لم تتوقف إلا الكلاب، لا لتظهر الطاعة، بل لتكشّر عن أنيابها، مبدية استعدادها لنهش سيقان صاحباتها إذا ما اقتربن منها. أما الحيوانات الأخرى، المربوطة، فقد ازداد اهتياجها، وراحت تشخر وتنخر، وتهدر وتنبح وتعوي، وأصدرت كلّ صوت يمكنها أن تصدره في تضامن مفتوح مع الحيوانات الأخرى. وانبعث ضجيج جعل النساء تخشى أن ينتهي كلّ شيء بوقوع مأساة مؤسفة، وأطلقن سراح الحيوانات المحتجّة. وعلى الفور انضمّت المخلوقات إلى القافلة الهائجة بقيادة القاضية.

لم تتمالك روزالبا نفسها من عدم التأثر بمظهر الولاء هذا؛ وتذكّرت فجأة قصّة مشهورة من الكتاب المقدس كانت قد سمعتها مرات كثيرة. فمع أنها لم تعد تؤمن بالله، فقد سمحت لنفسها أن تشعر وكأنها نوح يقود الحيوانات إلى ملاذ آمن بعيداً عن الفيضان الذي سيغرق العالم. تابعت سيرها بثقة متزايدة وكانت ابتسامة فرح تلمع على وجهها مع كلّ لمعة برق.

وفي هذه الأثناء، انضمت النساء إلى مديرة المدرسة تحت إفريز

الماخور. وقفن إزاء جدران الجصّ المتقشرة، ورحن يتأمّلن المطر الذي لا يرحم وهو يجرف أوراق الأشجار، واختلطت الأغصان وجذوع الأشجار بالتراب والحصى والأحجار. «لم أر في حياتي شيئاً مثل هذا»، قالت أرملة كالديرون، «فقد تصرّفت الكلاب وكأن مسّاً أصابها».

«لا يمكننا أن نغادر من دون حيواناتنا»، قالت أرملة سولورزانو. توقّفت لتجفف الماء الفائض من جبينها بكمّ ثوبها المهترئ، «فهي السبب الذي جعلنا نقرّر مغادرة ماريكيتا».

«لا أعرف عنك شيئاً، لكن إذا كانت بيريسترويكا تريد أن تمكث هنا، فسأمكث معها»، قالت أرملة سولورزانو، «إني أفضّل أن أتقاسم حليبها مع الآخريات على أن أفقدها».

عم المجموعة هدوء، وبعد فترة صمت طويلة لم يملؤها إلا المطر، أعربت أرملة سانشيز عن رأيها، «أظن أنها على حقّ. فإذا لم تتبعني دجاجاتي فإني سأتبعها. فكلّ ما أطلبه هو أن أحصل على أربع بيضات عند بزوغ كلّ شمس، واحدة لي، وواحدة لكلّ ابنة من ابنتي، وواحدة لأمّي. وبإمكانكن تقاسم الباقي فيما بينكن».

«نستطيع أنا وأختي أن نصنع أريباس وتامالاس للجميع»، قالت إرما فيليغاس، ونظرت إلى أختها في انتظار موافقتها على ما قالته.

«نعم، بالفعل»، أجابت فيوليتا فيليغاس، «طالما استطعنا الحصول على ذرة صفراء كافية وعلى قليل من اللحم».

«يمكنكما الحصول على الكمية التي ترغبانها من الذرة الصفراء لدينا»، تطوّعت أرملة أوسبينا قائلة.

«حسناً، إذن ينطبق الشيء ذاته على خنازيري»، قالت أوبالدينا بشيء من

الخجل، «أظن أنني أفضّل أن أتقاسم لحمها مع أهالي قريتي على أن أبيعها للغرباء».

«إذا أراد أحد منكم شيئاً من البندورة (الطماطم) أو البصل أو اليوكا أو البطاطا، فأرجوكن تعالوا إلينا»، عرضت «الأرملة الأخرى».

وبدا أن الرغبة في المشاركة كأنها تنتقل بالعدوى. فقد أعلنت كلّ أسرة عما ستساهم به: المنتجات الزراعية التي تزرع في الحقل أو في حديقة البيت، والطعام المطهو في البيت، والسلع المصنعة، والأشياء المحاكة. وسرعان ما أدركن أنه لن تكون هناك كميات من كلّ شيء تكفي كلّ امرأة في القرية، وقرّرن أن ذلك لن يكون عدلاً. لذلك اتفقن على زراعة المزيد من الفواكه والخضراوات والحبوب المغذّية. «سنحتاج إلى عدد أكبر من الأشخاص للعمل في الأرض»، قالت أرملة أوسبينا، وعلى الفور، تطوعت فتاتان قويتا البنية. ووافقت النساء أيضاً على زيادة إنتاج الحيوانات المنزلية ومنتجات الألبان، بل ربما على إنشاء مزرعة يستطعن فيها تربية جميع الحيوانات، وجمع البيض، وتربية الدجاج والديك الرومي والخنازير، وحلب البقرة بيريسترويكا وصنع الزبدة والجبن. «يسرّني أن أقوم بإدارة المزرعة» قالت أرملة سولورزانو، «لكنني سأحتاج إلى. . . »

انظري إليهن، قالت كليوتيلد لنفسها. إنهن يتحدّثن عن إقامة مزرعة للحيوانات، وعن تقاسم منتجاتهن والعمل معاً، وكأنها فكرتهن الأصلية. يا لهن من عبقريات!

لكن بالصعوبة نفسها، احتفظت كليوتيلد بأفكارها لنفسها. دعيهن يعتقدن أن هذه الفكرة هي من بنات أفكارهن، ليأخذن هذا الشرف. وخلصت إلى القول إن هذا ما تفعله النساء الحكيمات.

«أظن أننا كنّا جشعات بعض الشيء»، قالت أوبالدينا للمجموعة، بصوت يشوبه الندم، «ألا توافقن؟»

في تلك اللحظة، لمع البرق بالقرب من المكان الذي يقفن فيه. وأعقب ومضات البرق قصف شديد للرعد الذي يصم الآذان مما جعل النساء يعتقدن بأن الطبيعة، بطريقتها العنيفة، قد استجابت لطلب أوبالدينا. وبهدوء تام، جمعن أغراضهن وهبطن التلة الزلقة، وسرن بأسرع ما بوسعهن للحاق بالقافلة الطويلة التي كانت على وشك أن تنعطف إلى الشارع الرئيسي.

وضعت كليوتيلد الأطلس المفتوح على رأسها وراحت تمشي تحت المطر بطريقة سيرها المتميزة، بخطوات أبطأ من خطوات الآخريات، لكن بخطوات راسخة ومتأنية. كانت تترطش الماء وهي تسير في الدرب الوعر الموحل الذي سرعان ما سيقود النساء الثلاث والتسعين بالإضافة إلى سانتياغو إلى مكان إستثنائي: قرية ماريكيتا الجديدة المزدهرة.

خاسينتو خيمينيز الابن، ٢٦ سنة
جندي من الثوار

كنّا نجوب الجبال بحثاً عن جنود الميليشيات عندما صادفنا قافلة من الهنود الحمر المُشرَّدين. كان المسّنون منهم يسيرون في المقدمة، يجرّون أجسامهم فوق الدرب، يتدافعون فيما بينهم. ثمّ تلاهم الأطفال، وجميعهم عراة. وكانوا يلقون على أكتافهم بطانيات ملفوفة، ويقودون قطعاناً صغيرة من الخنازير والماعز. ثم أعقبتهم النساء، يحملن أطفالهن على أذرعهن، وقد ربطن القدور والمقلايات والكراسي على ظهورهن بحبال من القنب. وأخيراً، كان هناك في الرتل الطويل رجال، حوالي عشرة رجال، يعتمرون قبعات صوفية مخروطية، وعباءات ملوّنة، ويحملون أشياء ثقيلة على ظهورهم في بطانيات كبيرة ربطوها حول جباههم.

«إلى أين أنتم ذاهبون؟» صاح كورتيز، قائدنا، في الرجال من بعيد.

واصل الهنود طريقهم، بهدوء، وكأنهم لم يسمعوا أو يفهموا السؤال.

صرخ فيهم كورتيز أمراً بالتوقف. «إلى أي مكان لعين أنتم ذاهبون؟» بدا الغضب في صوته.

«إلى أي مكان»، أجاب رجل متوسط العمر، ذو وجه حزين ونظرة تخلو من التعابير، بصوت خافت، من دون أن يتوقف أو حتى أن يرفع عينيه عن

الأرض. كان زعيمهم. كانت قبعته أطول وعباءته بيضاء، وكان الشخص الوحيد الذي لديه بغل لحمل أمتعته.

«توقّف!» صاح قائدنا مرة أخرى.

توقّف الرجال فجأة.

اقترب كورتيز من المجموعة بخطواته اللا مبالية، «هل أنتم هاربون من قوات المليشيا أم من الثوار؟» سأل، مخاطباً الزعيم الهندي.

لبث الهندي واقفاً إلى جانب دابته، محدّقاً في الأرض، وكأنه يفكّر. كان يعرف أن أي جواب خاطئ قد يعرضه هو وجماعته للقتل.

«هل أنتم هاربون من قوات الميليشيا أم من الثوّار؟» كرّر كورتيز سؤاله، بنبرة أعلى هذه المرة، ووضع فوهة مسدسه على صدغ الرجل. ووقف الهنود الآخرون مذعورين.

ازدرد الزعيم الهندي لعابه مرتين أو ثلاثاً، لكنه لم يتمكن من الردّ. كان طرف وجهه الذي استطعت رؤيته مبللاً بالعرق.

أعاد كورتيز لاقطة الأمان في المسدس إلى الوراء.

«من ـ من الحرب، يا سيدي»، تلعثم الرجل أخيراً. إننا هاربون من الحرب».

نزع كورتيز قبعة الزعيم الهندي ووضعها على رأس الدابة. ثمّ نظر إلى الهنود الآخرين وكشف عن بضع أسنان في فمه، وكأنه يبتسم.

«الآن تستطيعون أن تذهبوا»، قال زعيمنا أخيراً، واضعاً مسدسه جانباً.

الفصل الثاني عشر

أرامل عاشقات

ماريكيتا الجديدة، ١
أوبالدينا، سلم ١٩٩٨

كدأبها، نهضت إلويسا أرملة دي سيفوينتيس من السرير قبل بزوغ الفجر، وكعادتها، رتبت ثلاث وسادات كبيرة وصفّتها بجانب بعضها بعضاً في وسط فراشها وغطّتها بملاءة. في عتمة المدخل الخفيفة، وبرأسها المائل قليلاً إلى اليمين، أوهمها الانتفاخ الحاصل بأن القاضية روزالبا مستلقية تحت شراشفها المعطّرة برائحة الخزامى.

وقفت عارية بجانب الباب تتأمّل المشهد الذي اختلقته، وتخيّلت أنها هي والقاضية قد فرغتا للتو من ممارسة الحبّ. ولم يكن من غير المألوف بالنسبة لإلويسا أن ترى الانتفاخ في الجزء الأوسط وهو يزداد انبلاجاً. وبعد لحظات، وبعد شيء من التمعن، اعترفت لنفسها بأن هذه الحركات لم تكن إلا خدعة بصرية. وفي كلّ صباح، قبل أن تحتسي أول كوب من القهوة، كان عليها أن تعيش هذه التهويمات كلها، مهما بدت جنونية.

كانت إلويسا مغرمة بروزالبا، لكن لم يكن أحد يعرف ذلك، ولا حتى روزالبا نفسها.

بدأ جرس الكنيسة يقرع من بعيد: مجموعة واحدة مؤلفة من خمس دقّات تشير للقرويات إلى أن وقت الاستيقاظ والاستعداد للعمل قد حان. وضعت إلويسا، داخل مطبخها، بضع حطبات فوق الرماد في الموقد ووضعت فوقها الإبريق. في تلك اللحظة، أحسّت بسائل دافئ رطب يسيل على ساقيها. أزلقت يدها فوق باطن فخذها اليمنى وتأكد لها، بقلق شديد، أن دورتها الشهرية قد جاءتها هذه المرة أبكر بشمس واحدة.

كانت إلويسا إحدى عضوات لجنة الزمن. وكان أحد واجباتها يتمثل في إبلاغ القاضية عن أول تدفق للدم كلّ ثمان وعشرين شمساً، وكان يجب أن يتزامن ذلك مع الدورة الشهرية لعضوات اللجنة الأربع الأخريات. بعد أن احتست إلويسا كوباً مترعاً بالقهوة، خرجت إلى الشرفة بعد أن ألقت منشفة على كتفها. وقفت أمام البرميل الكبير الذي تجمع فيه ماء المطر، ورأت أنه فارغ. تذكّرت أنها كانت قد رأته مليئاً في الليلة الماضية. لا بد أن أرملة بيريز الأنانية التي تشاركها السكنى في البيت، قد استيقظت قبلها واستخدمت كلّ الماء للاستحمام.

بدأ الشعور بالإرهاق يعتري إلويسا بعد قبولها أن تشاطرها أرملة بيريز الإقامة معها في بيتها، بعد أن حطّمت العاصفة كوخ المرأة العجوز منذ عدّة درجات. كانت تكره أن يشاركها أحد في بيتها ـ خاصة أرملة بيريز ـ لكنها لم تتذمر ـ لأنها، أي إلويسا، وقعّت تلك الاتفاقية المشتركة اللعينة، وهي امرأة تفي بوعودها. واستناداً إلى الوثيقة، «لا يملك أحد شيئاً لأن الجميع يملكون كلّ شيء»، أو هذا ما فهمته إلويسا، على الأقل، من الخطاب الذي ألقته روزالبا. أما بالنسبة لإلويسا، فقد كان توقيع قصاصة الورق تلك يعني كذلك أنه يتعين عليها أن تشاركها ثلاث نساء أخريات في العمل في

قطعة الأرض التي هُجرت منذ أن اختفى الرجال. ويتمثل العمل الشاقّ الذي تقوم به النساء الأربع في تزويد القرية بحبوب البنّ والأفوكادو والبابايا والقرع، بل كنّ ينتجن كمية إضافية لتخزينها مع المواد الغذائية الجافّة الأخرى، والخيوط التي تصنع منها البطانيات، في مخزن مشيّد من الطين أقامته القاضية فوق أنقاض بيت مهجور. إلا أن القانون الجديد لم يكن على هذه الدرجة من السوء. فعلى سبيل المثال، لم يعد يتعين على إلويسا مقايضة النساء الأخريات لقاء الطعام، بل لم يعد عليها أن تعدّ طعاماً. ففي صباح كل يوم، كانت المسؤولات الثلاث يستلمن من القاضية سلة كبيرة مليئة بالخضراوات والثمار والحبوب الطازجة، والبيض واللحم، عندما يتوفر كل ذلك. ويهيئن طعام الفطور والعشاء. أما الخضراوات النيئة فلم يكنّ يتناولنها إلا عند وجبة الغداء.

*

بعد أن لعنت إلويسا أرملة بيريز في سريرتها، عادت إلى غرفة نومها. بللّت المنشفة بالماء الذي كانت قد وضعته على المنضدة بجانب سريرها، وفركت جسمها في الأماكن التي تحتاج إلى الفرك. ثمّ انطلقت، عارية كما هي، لتبلغ القاضية بمجئ دورتها الشهرية في وقت مبكّر.

منذ بضعة درجات، أصبحت إلويسا أول أرملة تخرج عارية تماماً أمام الملأ، وقالت: «لقد استغرق جسد الأنثى آلاف الأجيال حتى وصل إلى درجة الكمال، فلماذا علينا أن نخفيه تحت الثياب؟»

كان من الممكن أن تعاقبها القاضية بتهمة التعرّي في أماكن عامة، لكن جسدها اعتراه الخدر وجفّ فمها إعجاباً ورغبة عندما رأت ثديَيْ إلويسا، وقالت إنهما رائعان: لونهما الأسمر الفاتح، متانتهما وصلابتهما، حجمهما

وشكلهما اللذان يبدوان مثل ثمرتي غريفون قسمتا من الوسط. كانا رائعين إلى حد أنه لا بد أنهما استغرقا آلاف الأجيال حتى وصلا إلى هذه الدرجة من الكمال.

وفي إحدى المناسبات، بعد أن ضغطت عدة نساء تقيّات في القرية على روزالبا، أوقفت إلويسا في الشارع وقالت لها إنه يجب ستر بعض أجزاء جسد الأنثى، إن لم يكن لشيء، فلأنها أجزاء ذات حساسية عالية. إلا أن إلويسا جرّدت القاضية من سلاحها عندما أجابتها: «لا أظن أنه يوجد جزء في جسد الأنثى أدنى حساسية وأكثر إساءة للاستخدام من المؤخرة، ومع ذلك، فقد سترتها النساء منذ فجر التاريخ».

بعد أن لم تعد إلويسا ترتدي ثيابها الكاملة، أصبحت تبدو غريبة الشكل، غير طبيعية. واعتبرت بعض النساء هذا الأمر حلاً عادلاً وعملياً لمشكلة إنفاق الطاقة المتزايدة في حياكة ثياب جديدة، في حين اعتبرت نساء أخريات أن النساء هنّ المخلوقات الوحيدات في العالم التي يجب عليهنّ أن يسترن الجزء العلوي والسفلي من جسدهن. أما المسنّات، فقد كنّ متحفظات وحذرات، إذ كنّ يرين أن التعرّي مجرد موضة ـ كما كان شأن التنورات القصيرة ذات يوم ـ وأن هؤلاء النساء سيصبحن أضحوكة في القرية عندما يكشفن عن مؤخّراتهن التي جفّت، وأثدائهن الضامرة، وحلماتهن التي أصبحت على مستوى سررهن. ورحن يقصصن أردان بلوزاتهن ويقصّرن تنانيرهن، بقدر ما يستطعن.

*

قُرع جرس الكنيسة للمرة الثانية. مجموعتان تتألف كلّ منهما من خمس دقّات، تشيران إلى أن الوقت قد حان لكي تتوجّه القرويات إلى المطبخ

العمومي الذي خُصص لهن لتناول أولى وجبات الطعام. وكانت مديرة المدرسة هي التي وضعت رمز دقات الجرس، والتي تطوّعت كذلك لقرع الجرس حتى لم تعد لديها القوّة الكافية لشدّ الحبل الطويل المربوط بلسان الجرس.

عندما قرصها الجوع، قالت إلويسا لنفسها إنه يمكن تأخير إعلام روزالبا بدورتها الشهرية، وهرعت إلى الشارع متجهة إلى مطبخ موراليس فوصلت إليه مع وصول القاضية، التي كانت تتناول طعامها بصورة عشوائية في أي مطبخ من المطابخ العمومية الثلاثة لتتأكد من جودة الطعام وسرعة الخدمة المقدمة. ولمتعة إلويسا ومفاجأتها، ظهرت القاضية عارية تماماً، مع أنها كانت تغطي عانتها بكتاب المواعيد. وكلما كانت القاضية تمتدح إلويسا على بشرتها الهندية ذات اللون الزيتوني، كانت إلويسا تجيب، بغنج، بأنها واثقة من أنه توجد شامات عديدة مخبأة تحت ثياب القاضية. وشيئاً فشيئاً، بدأت ثياب روزالبا تقصر قليلاً هنا، وقليلاً هناك، حتى وصلت في نهاية الأمر إلى ملابسها الداخلية.

«إن جسدك يجعل سماء الصباح الزرقاء تشعر بالخجل، أيتها القاضية»، قالت إلويسا بحماسة. وهي الكلمات ذاتها ـ أو مع إدخال تعديل طفيف عليها ـ التي استخدمها زوج إلويسا ذات يوم في قصيدة نظمها لها. رفعت روزالبا عينيها ونظرت إلى سماء الصباح الزرقاء. لم يكن فيها شيء سوى شمس خاملة، وسرب من الطيور البيضاء التي راحت تطير على شكل دوائر فوق القرية. ثمّ نظرت إلى الأسفل وضحكت بعصبية، وأحست كأن عريها طفح جلدي بدأ ينتشر فجأة في أنحاء جسمها. تنحّت إلويسا جانباً وأشارت بذراعها الممدودة بكاملها، وقالت: «بعدك». ودخلت روزالبا بشكل جانبي

من الباب وهي تضغط الكتاب على بطنها، وجلست على أول طاولة صادفتها، وتبعتها إلويسا وجلست لصقها.

كان جزء من الطاولة الطويلة مكسواً بغطاء بلاستيكي أبيض، عليه عدّة ذبابات سوداء بدت كأنها التصقت به. ظهرت أوركيدا، أكبر بنات أرملة موراليس، من المطبخ مرتدية إحدى بلوزاتها المحافظة البنيّة ذات أردان طويلة، وتنورة طويلة ذات لون مطابق، وحاملة ثلاث سلال كبيرة مليئة بخبز الأرياس. توقّفت فجأة أمام القاضية وهزّت رأسها مستنكرة. وزّعت السلال على نحو متناسق تقريباً على طول الطاولة، وسرعان ما اختفت في المطبخ. بعد لحظة، استرقت اختاها غاردينيا ومانوليا والأرملة نفسها النظر من المدخل، وضحكن ضحكة مكتومة. لم تلحظ روزالبا ذلك، لأن إلويسا كانت منهمكة في حديث معها عن تاريخ الوحمة التي لها شكل قلب، القابعة تحت ثدي إلويسا الأيمن.

وضعت خوليا، أصغر أطفال أرملة موراليس، قطعة من الزبدة التي كانت تتراقص في صحن مكسور، وصحنين من حساء البيض الحار على طاولة القاضية. كانت ترتدي ثوباً أحمر ضيّقاً ذا فتحة صدر واسعة (مع أنه لا يوجد الكثير الذي يمكنها أن تكشفه)، وقد ثبتّت زهرة إرجوانية صغيرة طازجة وراء أذنها. عندما وضعت خوليا الصحنين على الطاولة، نقرت على كتف روزالبا، وببضعة إيماءات بسيطة، وبعينيها المعبّرتين، تخبرها أنها تبدو رائعة وهي عارية من دون ثياب، وأنها هي ـ خوليا ـ تؤيد قرار القاضية من كلّ قلبها، وأنها هي ـ روزالبا ـ يجب ألا تعير أيّ اهتمام لأختيها لأنهما كانتا عانسين بدينتين، قبيحتين، وضيعتين، حسودتين، أو شيئاً من هذا القبيل.

سرعان ما امتلأت غرفة الطعام؛ وبخلاف ما كانت روزالبا تتوقّعه، لم يحظ عريها بانتباه كبير. أما النساء اللواتي وصلن متأخرات ولم يجدن مكاناً يجلسن فيه إلى أي من الطاولات الثلاث، فقد حملن طعامهن وخرجن، وجلسن فوق دلاء وأصص أزهار فارغة. وبما أن مطبخهن لم يحصل على الحليب في ذلك الصباح، احتسين جميعهن القهوة بدون حليب. وتظاهرت فرانسيسكا بأنها تعصر حلمتيها الداكنتين المكشوفتين في فنجانها. كانت نكتة قديمة، لكنها لا تزال تُضحك النساء الأخريات.

سُمعت ثلاث مجموعات من الرنات الخمس، تطلب من القرويات التوجّه إلى أماكن عملهن المحددة لهن. وبدأت الأخوات موراليس ينظّفن الموائد، بينما نهضت النساء بانتظام، دون أن يقطعن أحاديثهن وقهقهاتهن المرتفعة. واتفقت إلويسا وروزالبا على أن تظلا جالستين حتى تخرج معظم النساء. وهنا اغتنمت إلويسا الفرصة لإخبار القاضية، بنبرة مفعمة بالأسف، بأن دورتها الشهرية قد أتتها في ذلك الصباح. إذ ينصّ القانون بأن يستعاض عن عضوات لجنة الزمن اللاتي لا تأتيهن الدورة الشهرية بانتظام بأخريات وأن لا ينظر في أمر تسلمهن هذه المهمّة ثانية. وكانت تخشى الشعور بالمهانة من جانب النساء الأخريات إذا ما أُبعدت عن اللجنة.

«لاتقلقي»، همست روزالبا في أذن إلويسا، «سأخرق القانون هذه المرّة فقط».

عندما تحدثت روزالبا، حطّت يدها الهرمة المكسوة بالنمش فوق فخذ إلويسا العارية، وانزلقت بسرعة إلى ركبتها، ثمّ، وبالسرعة نفسها، عادت فوضعتها على الطاولة. بالنسبة لها، كانت ذلك مداعبة، أما بالنسبة لإلويسا، فكان يبدو ذلك كما لو كانت القاضية تزيل الفتات من فوق ساقها.

راحت القاضية تذرع مكتبها جيئة وذهاباً، كابحة مشاعرها السرية تجاه إلويسا. هل كان ذلك مجرّد انجذاب جسدي؟ افتتان؟ حبّ؟ مهما كان الأمر، فليس هذا صحيحاً. إذ أن روزالبا ترى في ممارسة الجنس بين امرأتين أمراً غير طبيعي. كانت تعرف أن بعض نساء القرية ينمن مع بعضهن بين الحين والآخر، وقد قرّرت ألا تتدخّل في شؤونهن الجنسية ما دمن يفعلن ذلك سراً. كان ذلك قبل أن ترى ثدييْ إلويسا. إذ كانت تعتقد أنه يجب أن يكون هذان الثديان شعاريّ ماريكيتا الجديدة، ويجب أن يوضعا كرمزين بارزين على علم ماريكيتا الجديدة وأن يُرسما على درعها، بل يجب أن يكونا هما درع ماريكيتا الجديدة كله. قالت روزالبا لنفسها إن عليها ألا تقلق كثيراً بشأن مشاعرها إزاء دورة إلويسا الشهرية. إذ أن تقدير جسد إلويسا، ومراقبة الطريقة الحسّية التي تبلّل فيها إلويسا شفتيها بلسانها وهي تتكلّم، وتحسّ ببشرة إلويسا عندما تلامس جلدها أثناء الإفطار لم يكن سوى منابع صغيرة من المتعة، مثل ربط عقد في خيط قبل حياكة شال. ومع أن روزالبا لم تنسج شالاً في حياتها، فقد بدأت العشرات منها. إذ كانت مرحلة عقد العقد هي التي تمنحها المتعة، تشكيل العقد الصغيرة في خيوط الصوف. وفي الواقع، من الممكن أن تهدم عملية النسج نفسها متعتها. ربما كان عليها أن تدير الأمور مع إلويسا بهذه الطريقة: المحافظة على عمل الأشياء الصغيرة التي تجلب لها المتعة، من دون التوقف عن النسيج.

كانت روزالبا غارقة في أحلام اليقظة عندما دخلت سيسيليا إلى مكتبها. قالت سيسيليا: «لقد جاءت أرملة سولورزانو لتخبرنا أن إحدى عنزاتها أنجبت جدياً مفعماً بالصحة صباح هذا اليوم».

«سيتي، صديقتي، هناك شيء أريد أن أسألك إياه»، قالت روزالبا، متجاهلة الخبر الذي نقلته لها، «لنفترض أن لديك مشاعر معيّنة تجاه أحد، أي أحد، لكن هذه المشاعر ليست من النوع الطبيعي. ماذا تفعلين؟»

«ألديك مشاعر تجاه إلويسا؟»

لم تكن هناك فائدة من إنكار الأمر لسكرتيرتها الذكية، فقالت: «نعم. أظن ذلك...». كان صوت روزالبا مفعماً بالشعور بالذنب، وكأنها تعترف بارتكاب جريمة.

«تبدو إلويسا امرأة عاطفية ورومانسية كثيراً»، قالت سيسيليا، ثم قدمت لروزالبا النصائح التالية، الأولى: «أن تقدم لها باقة من الأزهار»؛ والثانية: «أن ترسل لها قصيدة مكتوبة على ورقة معطّرة»؛ والثالثة والأهم: «ألا تخبر أحداً بذلك».

في هذه الأثناء، بدأت إلويسا وفرانسيسكا عملهما، في الحقل، وقد حملت كلّ منهما سلة كبيرة معقودة حول خصرها، وراحتا تقطفان حبوب البنّ. كانت إلويسا قاطفة بنّ ماهرة، فهي تقطف أكثر من سبعين باونداً من حبات البنّ في الشمس الواحدة، أي ضعف ما تجمعه قاطفات البنّ الأخريات.

«إنك لا تسألينني، لكنني أظن أن القاضية مغرمة بك»، قالت فرانسيسكا بصوت منخفض. كانت المرأتان تعملان في خطين متوازيين. وبسبب الأشجار المنتصبة بينهما، لم تكد إحداهما ترى وجه الأخرى.

«إنك محقّة»، أجابت إلويسا، «إنني لا أسألك».

تجاهلت فرانسيسكا هذا الردّ القاسي، وقالت: «أتساءل كيف يبدو الأمر عندما تغرم امرأة بامرأة أخرى»، وأردفت، «هل تظنين أن هذا خطأ؟»

«لا. إن الحبّ شيء جميل لا يمكن أن يكون خطأً، كما أن الحقد لا يمكن أن يكون شيئاً جيداً».

صمتت فرانسيسكا، ولبثت واقفة بصمت لوهلة، لكنها فجأة قالت وكأن فمها لم يعد يستطيع احتواء الكلمات، «أنا وسيسيليا نهيم حباً ببعضنا بعضاً». عندما سمعت نفسها تقول ذلك بصوت مرتفع، أحسّت فرانسيسكا بأنها تحرّرت. «أنا وسيسيليا نهيم حباً ببعضنا بعضاً، أنا وسيسيليا نهيم حباً ببعضنا بعضاً»، كرّرت هذه الجملة مرات ومرات، حتى رأت إلويسا تقف أمامها، تضحك بشكل هستيري. وضعتا سلتيهما على الأرض، وراحت فرانسيسكا تروي لإلويسا قصة حبها الطويلة مع سكرتيرة القاضية. فقد قالت فرانسيسكا: «إننا على علاقة معاً منذ سلّم، وستّ درجات، وثلاث عشرة شمساً الآن»، وأضافت، «وقد بدأ كلّ شيء قبل نشوء ماريكيتا الجديدة، عندما كانت لا تزال تقوم بالأعمال المنزلية لسيسيليا لقاء إقامتها في بيتها، «فذات شمس، كنت أمشّط شعر سيسي فانكسر المشط وسقط منه سنّ صغير على صدرها. ضحكت، وتبادلنا بعض النكات السخيفة حول هذا الأمر، لكن سيسي قالت تتحداني هل يمكنني أن أبحث عن سنّ المشط. قلت لها نعم، لكن شريطة أن تدعني أبحث عنه بأسناني. وهكذا توطدت علاقتنا منذ ذلك الحين». وعندما دخلت اتفاقية المشاع حيز التنفيذ، قالت فرانسيسكا إنها هي وسيسيليا قدمتا طلباً للسماح لهما بالبقاء معاً تحت سقف واحد، وقالتا إنهما تشعران بالانسجام معاً ويمكنهما تقاسم البيت والاضطلاع بواجباته بالتساوي. «لكن هناك مشكلة»، أضافت فرانسيسكا، «فأنا أريد أن أقف في منتصف الساحة وأصرخ بأعلى صوتي بأننا عاشقتين، أما سيسيليا فتريد الحفاظ على الأمر سراً. إنها تعتبر أن ما نفعله إثماً».

عندما انتهت فرانسيسكا من رواية قصتها، اعترفت إلويسا بأنها تكنّ مشاعر عميقة تجاه روزالبا، وقالت: «لكن لا توجد قصّة في حكايتها». ووعدت إحداهما الأخرى بكتمان السرّ حتى تصبح الظروف مناسبة لأربعتهن جميعاً.

قرّرت القاضية العمل بموجب ما اقترحته عليها سكرتيرتها، لكنها عكست ترتيب الخطوات. فقد قالت لنفسها إن قصيدة الشعر هي الطريقة المثالية للشروع في مغازلة إلويسا. وحبست نفسها طوال فترة بعد الظهر في بيتها، وراحت تكتب أشعاراً غزلية ثم تعيد كتابتها. وقبل أن تأوي إلى الفراش، قرأتها وقرّرت أنها ليست إلا قائمة مقفاة بالأشياء التي تحبّ أن تراها في إلويسا. حاولت كتابتها مرة أخرى وأخرى، إلى أن توصلت إلى قائمة تختلف عن القائمة الأولى، ذات لحن أفضل، لكنها ظلت قائمة. جلست على حافة سريرها، وحاولت أن تتذكر أيّة قصيدة تعلمتها أو سمعتها خلال مسيرة حياتها. لم تتذكّر إلا شيئاً واحداً: قصائد وطنية مكررة كانت ترددها في المدرسة.

عندما آوت روزالبا إلى الفراش في وقت مبكر، تذكرت القصائد التي كان زوجها الراحل يكتبها لها عندما كان يغازلها، وقد حافظت عليها مع الرسائل والبرقيات القديمة التي كان يرسلها لها في المناسبات القليلة التي كان يسافر فيها. وكانت على قناعة بأن القصاصات المصفرّة تلك هي الاثبات الوحيد للأجيال القادمة بأن الرجال كانوا يقيمون ذات يوم في هذه القرية التي تُعرف الآن باسم ماريكيتا الجديدة. سحبت صندوقاً ثقيلاً من تحت سريرها، فتحته، وراحت تبحث في الأوراق المكتوبة، بحرص شديد لكي لا تثني أو تمزّق أيّة وثيقة من هذه الوثائق الثمينة. كانت الرسائل مملّة، لكن

القصائد لا تزال تسحرها، وتمنحها رغبة عميقة في أن تعشق وفي أن تُعشق ثانية. وقد لفتت إحدى القصائد انتباهها، لأنه خيّل إليها أنها تصف مشاعرها تجاه إلويسا وصفاً أجمل وأوضح بكثير من أيّ شيء يمكن أن تكتبه في حياتها كلها. كانت قصيدة مؤلفة من شطرين عنوانها: «قولي إنكِ تحبينني»، مكتوبة بخط أنيق بأحرف متصلة، وموقّعة في الأسفل: «حبيبك، نابليون».

نسخت روزالبا القصيدة حرفياً على قصاصة ورق معطّرة بالخزامى. عندما انتهت، لفّت الورقة، وربطتها بشريط أحمر، ووضعتها في أحد الأدراج، ثمّ آوت إلى الفراش، وغطّت في نوم عميق.

أوبالدينا، أول شمس الانتقال،

أعلن قرع جرس الكنيسة المتواصل بداية دورة الشمس الرابعة التي تدعى *الانتقال*. إذ ينصّ الزمن الأنثوي على أنه يتعين على النساء أن يكتبن في أول شمس الانتقال، أهدافهن الشخصية للحلقة التقويمية التالية، ولإتاحة الوقت للتقييم الذاتي.

في صباح هذا اليوم، لم تستيقظ إلويسا على صوت جرس الكنيسة، بل على صوت ضربات قوية على باب غرفة نومها. قبل أن تتاح لها الفرصة لفتح الباب، دلفت رفيقتها إلى غرفة النوم.

«جاءت القاضية منذ قليل وطلبت مني أن أعطيك هذه»، قالت المرأة العجوز، وألقت الورقة الملفوفة على السرير، ثم أغلقت الباب بقوة واختفت بسرعة لتتحاشى التوبيخ اليومي على ما كان يبدو من تمتعها بصفق الأبواب.

حلّت إلويسا الشريط بسرعة وقرأت القصيدة.

قولي إنكِ تحبينني

(قصيدة مهداة إلى إلويسا الرائعة)

مفاتنك هزمتني،
حبيبتي، أريد أن أعرف،
هل تحبينني، هل تحبينني،
كما أحبّك أنا؟
أرجوكِ قولي إنك تحبينني،
قولي إنك ستكونين لي إلى الأبد،
قولي إنك تحبينني، قولي إنك تحتاجين إليّ،
وإلى السماء سنصعد معاً.

محبوبتك،
روزالبا أرملة باتينو
(قاضية قرية ماريكيتا الجديدة)

قرأتها إلويسا ثلاث مرات، وفي كلّ مرة، كانت تبكي مبتهجة. فمن يقدر على التعبير عن مشاعره بهذه الطريقة الرومانسية، لا بد أن يكون عاشقاً عظيماً. وكانت إلويسا، مثلها في ذلك مثل القاضية، تحتفظ أيضاً بالرسائل والقصائد التي كان ماركو توليو، زوجها المرحوم، قد كتبها لها. وكانت ترى أن الرسائل والقصائد الغزلية، مثل الأزهار، يجب عدم رميها، بل استبدال قصائد جديدة بها، وقبل هذا الصباح، لم يقدم لها أحد رسالة أو قصيدة غرامية جديدة، بل حتى باقة أقحوان تحّل محّل أقحواناتها الذابلة.

بعد أن قرأت إلويسا القصيدة، قرّرت في هذا الصباح، أن لا تصنع من

وساداتها وبطانياتها روزالبا زائفة. وفي الحال، نزلت من سريرها وتوجهت إلى الشرفة راقصة، وهي تضم إليها شريكاً خفياً.

*

في مزرعة البنّ، أخبرت إلويسا فرانسيسكا لاحقاً، خبر القصيدة التي أرسلتها لها روزالبا. ضحكتا ضحكات مكتومة، وتبادلتا بعض النكات مثل تلميذتيْ مدرسة. «كنت أظن دائماً أن القاضية امرأة لا مشاعر لها ولا أحاسيس»، اعترفت فرانسيسكا، «لكن بعد أن سمعت ما كتبته لك، لم يعد لدي أدنى شكّ بأنها امرأة عاطفية رومانسية». ثم أخبرت إلويسا بالأمرين اللذين يجب أن تفعلهما وهما: الأول، «الردّ على قصيدتها بقصيدة تكتبينها على ورقة معطّرة»، والثاني، «أن تقدمي لها باقة من الأزهار النضرة».

جلست القاضية إلى طاولتها في مكتبها، وراحت تدوّن أهدافها الشخصية للدرجة التقويمية القادمة: الأول: أن تكون إلويسا آخر شيء أراه عندما آوي إلى السرير. الثاني: أن تكون إلويسا أول شيء أراه عندما أستيقظ.

لكن لا يمكن حدوث ذلك. فقد كان هدفاها يعنيان أنها يجب أن تنام مع إلويسا وربما تمارس الجنس معها، وتذكرت أنه ربما كان ذلك أمراً سيئاً مثل عملية حياكة شال. بالطبع إلا إذا، نامت مع إلويسا دون أن تلمسها، أو لعلهما تتلامسان قليلاً: فمن الممكن أن تلامس ذراع ذراعاً أخرى؛ وقد تلامس ساق بلطف ساقاً أخرى؛ وقد تتلامس شفتاهما، المزموتان بعض الشيء، برقة وتفترقان على الفور دون أن تصدرا ذلك الصوت المفرقع الذي يحوّل الملامسة إلى قبلة. لا قبلات. فالقبلة أشبه بشيء يربط خيطين معاً، وروزالبا غير مهتمة بالحياكة.

عندما فكّرت القاضية بأهدافها، ازداد إحساسها بالقلق وازداد عقلها

تشوّشا ولبساً. فلم تسمع رداً من إلويسا، وبدأ شعورها بالقلق يتزايد ويتحول إلى خوف من الرفض، وهو أمر لم ينتبها منذ أن كانت عذراء. لعلها تسرعت في إرسال القصيدة. ربما كانت سيسيليا محقّة، وربما كان ينبغي لروزالبا أولاً أن تقدم الأزهار إلى إلويسا. أو لعل الأمر برمته كان خطأً كبيراً، فما كان يجب أن تخطر لروزالبا الفكرة بأن إلويسا، وهي المرأة الشابة الجميلة ذات النهدين الرائعين، تهتم بالنوم مع امرأة تكبرها سناً، تعوزها الفضيلة، ذات شعر أشيب متناثر، ومؤخرة كبيرة.

نهضت وراحت تنظر من النافذة إلى حقول الذرة الصفراء وحقول الرزّ البعيدة. لم تذهب إلى هناك منذ فترة سلّمين. ففي ذلك الوقت، كان كلّ ما يمكنها رؤيته من نافذتها هو البؤس والخراب. وتذكّرت أنه خلال انتقالات عديدة، كانت تصرّ على تسجيل الهدف الوحيد نفسه في قائمتها، وهو أن أرى من نافذة مكتبي حقلاً مليئاً بأكواز الذرة الذهبية الكبيرة، فيما كانت أكثر أهداف القرويات تنصبّ على أن يجدن في أنفسهن القدرة على مغادرة ماريكيتا، وبدء حياة جديدة في مكان آخر، أو العثور على أزواجهن القدامى، أو على أزواج جدد.

في ذلك الحين، كان كلّ ما تحتاج إليه روزالبا من أجل تحقيق هدفها هو العثور على يدين قويتين وإرادة قوية. أما الآن، فقد اختلف الأمر. فلكي تحقق أهدافها الحالية، قالت لنفسها، فإنها بحاجة إلى شباب ومفاتن لم تعد تمتلكها، فكيف لها أن تنافس جمال ورقة شابات مثل فيرجيلينا سافيدرا؟

كانت تبكي وهي واقفة إلى جانب النافذة عندما سمعت قرعاً على الباب، أعقبه صرير مفصلات صدئة، وتلتها خطوات صغيرة، أعقبها سؤال طُرح

بصوت متردد لم تعرفه روزالبا: «أيتها القاضية، هل أنتِ هنا؟»

جففت روزالبا الدموع من عينيها بظاهر كفها، وسألت، «من هناك؟»

«فرانسيسكا، أيتها القاضية. هل أستطيع الدخول؟» عندما جاءت فرانسيسكا في المرة الأخيرة إلى مكتب روزالبا، كانت تلتمس نصيحتها بعد عثورها على ثروة تحت سريرها.

«ماذا تريدين؟» صاحت القاضية من داخل مكتبها، لكن فرانسيسكا كانت قد فتحت الباب المفضي إلى مكتب القاضية. «أليس من المفروض أن تكوني منهمكة في العمل على أهدافك الشخصية يا فرانسيسكا؟»

«لقد جئت لأعطيك هذه»، قالت، وقدمت لها قصاصة ورق مطوية.

«ما هذه؟»

«إنها رسالة من إلويسا، أيتها القاضية، لكنني أقسم بأنني لا أعرف ما فيها».

اختطفتها روزالبا منها ورمتها في الدُرج، وقالت: «حسناً، شكراً جزيلاً»، وأضافت «أعذريني الآن، فلديّ أهداف يجب أن أدوّنها».

انتظرت روزالبا حتى سمعت صوت الباب يُغلق، ثم أخرجت الرسالة المطويّة من الدرج وراحت تقرأها.

قبليني برقة

(هذه القصيدة مهداة، من كلّ قلبي، إلى الجميلة والمرحة دائماً روزالبا، أرملة باتينو، قاضية قرية ماريكيتا الجديدة)

ليلة البارحة حلمت بقبلاتك

أوه! كانت قبلاتك شديدة الحلاوة

وعندما فتحت عيني

وجدت سكراً على شفتي

لا أحتمل الانتظار حتى هبوط الليل

لذلك سآخذ قيلولة

ما أشدّ ما أتمنى أن تقبّليني في أحلامي،

قبّليني برقة، لا توقظيني.

محبوبتك،

إلويسا أرملة سيفونتس

رقم بطاقة الهوية ٧٩.٤٥٤.٢٤٨ من إباجو.

قرأت روزالبا القصيدة، ثمّ قرّبت قصاصة الورق من صدرها بحنان، وقالت: «إنها تحبّني. طبعاً إنها تحبّني. فأنا امرأة لطيفة». كيف يمكن لامرأة ذكية مثل إلويسا أن تقاوم قضاء ليلة مع روزالبا؟ وكيف لها ألاّ تكون قد لاحظت أن القاضية امرأة ذكية وشجاعة، ومحبّة وأنيقة؟ لا، صحيح أن ثديَيْ روزالبا مترهلان، لكنهما جميلان بالقياس إلى عمرها. وصحيح أيضاً أن مؤخرتها كبيرة، لكن قلبها كبير كذلك.

أوبالدينا، ثاني شمس للانتقال

في ثاني شمس من الانتقال، يُتوقع أن تتبادل النساء أهدافهن مع راعية يخترنها تسمى *العرّابة*، يُتوقّع منها أن تقدم للمرأة التي ترعاها النصح حول السبيل الصحيح لتنفيذ أهدافها.

في بيتهما، المؤلف من غرفتين بنافذتين أماميتين تغطيهما ستائر سميكة مسدلة على الدوام، استلقت سيسيليا وفرانسيسكا، في سريريهما الملتصقين معاً، وراحتا تتحدثان عن أهدافهما.

«إن هدفي الجديد هو أن أعلن على الملأ أن كلا منا تحبّ الأخرى»، قالت فرانسيسكا.

انتصبت سيسيليا في جلستها على سريرها، وأدارت وجهها نحو محبوبتها، «فرانسيسكا، ألم نتحدّث في هذا الأمر من قبل؟ فما يجري في هذا البيت ليس من شأن أحد. وإذا أفشيتِ سرّنا إلى أحد، فإني أقسم بأنك ستندمين على ذلك. لقد حذّرتك، وانتهى الأمر!»

لكن الأمر لم يكن قد انتهى. فقد نهضت فرانسيسكا، ووقفت أمام سيسيليا، ذراعاها متصالبان فوق صدرها، وساقها اليمنى مدفوعة قليلاً إلى الأمام، وقالت: «لقد أخبرت إلويسا».

نهضت سيسيليا لمواجهة فرانسيسكا، وقالت وهي تلهث: «كيف تجرؤين على إخبار إلويسا بأمرنا وقد طلبت منك ألاّ تخبري أحداً؟ ماريا فرانسيسكا تيكورا رودريغيس، أرملة غوميز، لقد خنتِ ثقتي بك». وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، واضعة رأسها بين يديها. ثمّ، ومن زاوية الغرفة، قالت: «لن أغفر لك ما حييت». ومن الزاوية المقابلة، أضافت بمرارة، «ولن أفرك قدميك الوسختين بعد الآن».

«حسناً!» أجابت فرانسيسكا، وهي تضع يديها على خاصرتيها، «مع أنك لا تجيدين ذلك. والآن لنتوقف عن الحديث في هذا الأمر»، واندفعت خارجة من الغرفة.

على الأقل في تلك الشمس، كان هذا ما حدث حقاً.

خرجت إلويسا وروزالبا، كل على حدة، لتقطف أزهاراً للأخرى. تذكّرت إلويسا أنّ أزهار الأقحوان التي كان زوجها يدسّها بين ثدييها كان يقطفها من باحة بيت أرملة جاراميليو، لذلك توجهت إلى المكان ذاته.

وبينما كانت تقطف الأزهار، تخيّلت أصابعها الرهيفة الطويلة وهي تدسّ كلّ زهرة بين نهدَيْ القاضية، كما كان يفعل ماركو توليو اللطيف ثم يضعها في شق صدرها. عندما قطفت قدراً كافياً من الأزهار، قرّرت أن تأخذ الباقة إلى بيت القاضية.

وبينما كانت تقطف أزهار السحلبية في الحرش، خطر لروزالبا أن إلويسا ربما كانت تفكّر كما كان يفكّر نابليون، زوجها الراحل، الذي لم يكن يقطف أزهاراً لروزالبا، بل كان يقدم لها أصيص أزهار البنفسج المتفتحة. وكان يقول، «لو أراد الله أن تُستخدم الأزهار أساور، لجعلها تنمو وراء آذان النساء». كانت تنمو في فناء بيت روزالبا زهرة بنفسج وزهرة كاميليا، فقررت أن تأخذ إلى إلويسا الأصيص الذي نبت فيه أكبر عدد من الأزهار.

لبثت فاكا واقفة تحت نبات الألوا المتدلية من الباب لجلب الحظ السعيد. وباستثناء عظم فكّها الناتئ ـ الذي لم يكن يتوقف عن العمل ـ لم يكن لديها شيء آخر يتحرك. فقد أصبحت تجسّد خير تجسيد اللقب الذي يطلق عليها. إذ كان أصل اسمها الحقيقي هندياً: كان اسماً طويلاً يصعب لفظه. لذلك عرفها الناس باسم فاكا، مع أنهم كانوا يسمونها في حضورها دونا.

«أهلاً بك يا دونا»، حيّتها إلويسا بصوت رخيم. خفضت فاكا عينيها الكبيرتين، وثبّتتهما على باقة أزهار الأقحوان التي كانت تضعها إلويسا قريباً من صدرها. «بماذا يمكنني خدمتك؟»

«لقد جئت لزيارة القاضية».

فكّرت فاكا لبرهة، ثم قالت: «للقاضية مكتب وسكرتيرة. ولدى روزالبا بيت تعيش فيه نزيلة. عمن تبحثين؟»

«إني أبحث عن روزالبا».

«إنها ليست هنا».

«هل تقدمين لها أزهار الأقحوان بالنيابة عني؟»

من دون أن تجيب بصوت مسموع، أخذت فاكا باقة الأزهار من إلويسا واستدارت بسرعة ودخلت إلى البيت.

«أرجو أن تضعيها في ماء عذب»، صاحت إلويسا من وراء الباب، لكن الجسم الضخم كان قد اختفى عن بصرها.

ولم يكن إرسال الأزهار من القاضية إلى بيت إلويسا تجربة لطيفة أيضاً.

«توقفي عن قرع الباب، بحق الله!»، زمجرت أرملة بيريز من داخل البيت قبل أن تظهر عند الباب. وقفت روزالبا على الدرج، تحمل بكلتا يديها أصيص أزهار كبيراً فيه شجرة زهرة كاميليا صغيرة تتبرعم فيه أزهار صفرٌ مبهرجة. وراحت أرملة بيريز، المرتدية كامل ثيابها، ترمق القاضية العارية بنظرها من الأعلى إلى الأسفل، ثم زوت ما بين عينيها. «نعم؟»

«جئت لرؤية إلويسا، يا سينيورا بيريز».

وضعت سينيورا بيريز قبضَتيْ يديها على خصرها ورمقت روزالبا بنظرة استهجان. «هل هذا كلّ شيء؟ لقد قطعت صلاتي لأنك تريدين رؤية إلويسا؟»

«في الحقيقة، أريد أن أعطيها شجرة الكاميليا هذه. أليست جميلة؟»

انبعثت من أرملة بيريز تنهيدة تنم عن نفاذ الصبر، وقالت: «إلويسا ليست هنا، لذا يمكنك أنت وشجرتك أن تذهبا وتبحثا عنها في مكان آخر».

«أفضّل أن أترك الشجرة عندك. إن لم يكن لديك مانع».

«نعم، عندي مانع»، ردت المرأة، «أحضريها بنفسك، وضعيها حيثما تشائين». دخلت، وهي تدمدم متذمرة.

وضعت روزالبا أصيص الأزهار في المدخل وغادرت.

أوبالدينا، ثالث شمس للإنتقال

في بداية الزمن الأنثوي، أصرّت القاضية ومديرة المدرسة على أن تبحث كلّ امرأة، في ثالث شمس للانتقال، في نفسها عما يجعلها لا تشعر بالسعادة وأن تركز تفكيرها على ذلك. لكن النساء قرّرن ألاّ يفعلن ذلك، وادَّعين أنه مالم تؤثر صفات امرأة على علاقاتها بالأخريات، فعليها تقبّل نفسها كما هي. لم تسعد روزالبا وكليوتيلد بالقرار، لكن ما دامت الأغلبية قد وافقت عليه، فقد قبلتاه. وبذلك، أصبح للقرويات نصف شمس لأنفسهن في ثالث شمس للانتقال.

كانت روزالبا تعرف أن إلويسا تحبّ السباحة في وقت فراغها. وبينما كانت روزالبا متجهة إلى النهر، تخيّلت إلويسا خارجة من الماء، والشمس تتلألأ على جلدها المبلل، والماء البارد يقطر من شعرها الأسود الطويل على ظهرها. وعندما وصلت روزالبا إلى ضفة النهر، وقفت إلى جانب صخرة كبيرة، وجالت بعينيها فوق المياه الرقراقة، بحثاً عن المرأة التي تريد رؤيتها. ورأت خمسة رؤوس تطفو فوق سطح الماء مثل فقاعات كبيرة، وبدت الأجساد المرتبطة مشوهة في الماء، ولم تكن إلويسا بينهن.

«تعالي إلى الماء، أيتها القاضية»، صاحت فيرجيلينا سافيدرا، «إنه لطيف ودافئ».

لوّحت روزالبا لها وابتسمت لكنها لم تتحرّك. أحسّت بعدم الثقة من نفسها بحضور الفتاة. وكانت فيرجيلنا، الفتاة الصغيرة النحيفة التي وضعت حداً ذات يوم لحملة التكاثر التي اضطلع بها الخوري رافاييل، قد كبرت وأصبحت أجمل امرأة في ماريكيتا. صمّمت روزالبا على العودة إلى البيت، لكنها عندما استدارت، رأت إلويسا قادمة في الطريق.

«لم أكن أعرف أنك تحبين السباحة، أيتها القاضية»، قالت إلويسا.

«أوه، إني أحبّ السباحة. لكنني لا أسبح».

«هيا لنسبح إذاً».

وسرعان ما وجدت روزالبا نفسها محاطة بستّ نساء يصغرنها سناً، الأمر الذي جعلها تشعر بانزعاج شديد. وأبقت جسمها منخفضاً بقدر ما تستطيع، ولم ترفع سوى رأسها فوق الماء، حتى إنها لم ترفع ذراعيها فوق سطح الماء، لأنها أدركت فجأة وجود طبقة جلدية رخوة تتدلى من تحت إبطيها. وتذكّرت بشيء من الحنين، أن جسدها هو نفس الجسد الذي أفقد صواب عزاب ماريكيتا الثلاثة، الذين قرروا رمي قطعة نقدية في الهواء لمعرفة من هو سعيد الحظ الذي سيقترب من روزالبا ويتحدث إليها أولاً. إنه نفس الجسد الذي جعل زوجها نابليون، يمكث في البيت لا يبارحها، بينما كان معظم الرجال المتزوجين يعودون سكارى من حانة الرينكون دي غارديل؛ أو يذهبون لمضاجعة المومسات في ماخور لا كازا دي إميليا. لقد كبر هذا الجسد وازدادت نعومته الآن، وأصبح مربع الشكل بعض الشيء وأوسع عند الوركين. لقد ارتكبت خطأ كبيراً لأنها جاءت إلى النهر، وانتابتها الرغبة في أن تذوب في الماء، لكنها لم تستطع، فتركت التيار يجرفها قليلاً بعيداً عن المجموعة، ولحقت بها إلويسا.

«شكراً لزهرة الكاميليا الجميلة، أيتها القاضية». غطت المياه الرقراقة جسمها حتى تحت ثدييها بقليل، مما أبرز شكلهما ولونهما.

«شكراً للقصيدة ولأزهار الأقحوان الجميلة يا إلويسا، وأرجوكِ أن تطلقي عليّ اسم روزالبا».

«أريد أن أسميك شيئاً آخر».

تضرّج وجه روزالبا خجلاً، وسألتها: «ما هو؟»

«لا أعرف... ربما كورازونسيتو؟»

«ها، ها». مسحت روزالبا الماء الفائض من وجهها بكلتا يديها، وقالت: «أظن أنني أفضّل أن تأتي بكلمة. كلمة لي فقط».

«لكن لماذا؟ يجب أن تكون كورازونسيتو أحلى كلمة في العالم كلّه».

«في العالم الذي خلقته مع ماركو توليو»، أجابت روزالبا، شاعرة بشيء من الغيرة من زوج إلويسا المتوفى.

فكّرت إلويسا بالأمر لوهلة، وقالت: «إنك محقّة. لم أفكر في الأمر على هذا النحو أبداً. ماذا عن... تيكو؟ لا، تيكتيكو؟ ما رأيك بتيكتيكتي؟»

«تيكتيكو؟ هل تعني شيئاً؟»

«لقد اختلقتها للتو. إنها تعني حبيبتي يا عزيزتي روزالبا».

«حسناً، إذاً فهي تعجبني».

وضعت إلويسا يديها على كتفَيْ روزالبا، وعندما عدّتا إلى الرقم ثلاثة، غطّستا معاً في الماء، مثل فتاتين صغيرتين. كوّرت إلويسا يديها وأزلقتهما بلطف بين ثديَيْ روزالبا، اللذين طفيا برقة فوق الماء. ما أروع وما أثمن أن يكتشف المرء كيف يمكن للأيدي أن تتلائم وتتناغم مع الأثداء على نحو رائع. ضغطت أصابع إلويسا، شاعرة بخلجات جلد روزالبا، ثمّ أفلتتهما، تاركة عليهما عشرة أخاديد خفيفة سرعان ما تلاشت من جلد روزالبا الأبيض.

ارتفع رأساهما فوق سطح الماء الآن، وارتعشت شفتاهما عندما ابتسمت إحداهما للأخرى بشيء من التوتر. والتقت يداهما تحت الماء، وتناوبتا في أن تَلمسا وفي أن تُلمسا، بسرعة، على نحو أخرق، وشرعتا تتحركان وفق

بواعث وأهواء برّية لم يعد بوسعهما احتواؤها: كانت إلويسا وروزالبا أرملتين عاشقتين.

أوبالدينا، رابع شمس للانتقال

عند الشمس الأخيرة للانتقال، لم يعمل أحد، ولا حتى الطاهيات: فقد شُجِّعت القرويات على تناول الفواكه الطازجة والخضراوات النيئة. وعند الغروب، طُلب من الجميع القدوم إلى الساحة للمشاركة في احتفال لتكريم الأنوثة. وعندما شعرت روزالبا بعدم الارتياح في سريرها، عرفت أنها لا تشعر بالرغبة في المشاركة في أي احتفال. وأدركت أن مشاعرها تجاه إلويسا أقوى بكثير مما كان يخيّل إليها، مما جعلها تشعر بالخوف وجعل ينتابها قليل من الغضب. فبالنسبة للسلالم، كانت مهووسة بربط عقد صغيرة في خيط دون أن تحيك شالاً حياكة جيدة، لكنها عندما حاولت تطبيق الفكرة ذاتها على مشاعرها تجاه إلويسا، اكتشفت أن القيام بالأشياء الصغيرة التي تجلب لها السعادة فقط، دون الرغبة في المضي إلى أبعد من ذلك، هو أمر مستحيل حقاً. لقد أرادت الآن أن تمارس حبّاً جميلاً معها. لكنّ الأمر ليس طبيعياً. هل هو كذلك حقاً؟ وهي القاضية، شخصية عامة، لكنني أمتلك مشاعر مثل أي شخص آخر. وأمضت الشمس بكاملها في السرير، وهي تحاول التوصل إلى حلّ لمشكلتها. وفي النهاية، توصلت إلى حلّ.

في كلّ درجة، كانت تكُلّف كلّ أسرة من الأسر بمسؤولية تنظيم الاحتفال. وفي هذه الليلة، تجاوزت أسرة أوسبيناس جميع التوقّعات. فقد أنيرت الساحة إنارة جيدة، وأحيطت جوانبها بشموع الشحم، وزُيّنت بسلسلة من الأزهار. وكانت أزهار السحلبية ذات اللون الأرجواني، وأزهار

الأقحوان الصفر، والزنابق البيض، تتدلى من أوطأ أغصان أشجار المانغا.

عندما وصلت النسوة، انقسمن إلى أربع مجموعات. للوهلة الأولى، بدا كأنهن قد انقسمن بصورة مرتجلة، لكن في الواقع كانت النسوة قد قررن ذلك منذ مدة طويلة، حسب أعمارهن، وإلى درجة أقل، حسب العمل الذي تقوم به كلّ منهن، وحبّهن للبطاطا، أو عدم حبّهن للبصل، أو أنواع الأمراض التي تصيبهن باستمرار، وعوامل أخرى كثيرة.

كانت إقامة الاحتفال متوقّعة تماماً، ولم تكن هذه الدرجة استثناء. فقد بدأ، كما يبدأ دائماً، بالشراب. ووقفت النساء في رتل للحصول على كأس مترعة من شراب الشيشا الذي تقدمه أرملة فيليغاس.

كانت الأرملة قد حضّرت شراب الذرة الصفراء المتخمّر لما لا يقل عن خمس شموس قبل إقامة الاحتفال للتأكد من نكهته المميّزة اللاذعة الحادّة. وكدأبها، جعلت مديرة المدرسة جميع الحاضرات يتثاءبن فقد راحت تتلو عليهن قصائد للشاعرة ألفونسينا ستورني. وعندما أنهت كليوتيلد قراءتها، انصبّ الانتباه على فرانسيسكا التي راحت تسلّي الحاضرات بنكاتها العادية وتقليد أشخاص آخرين. «قلّدي لنا المعلّمة»، قالت إحداهن، فراحت فرانسيسكا تمشي بخطوات وئيدة، وظهرها منتصب باستقامة، ورقبتها مدفوعة إلى الأمام، وهي تفتل شارباً غير مرئي بإصبعين من أصابعها. ثم قلّدت فرانسيسكا أرملة بيريز وفاكا وموراليس والقاضية؛ ومع أن أحداً لم يطلب منها ذلك، قلّدت امرأة غادرت منذ مدة طويلة: دونا إميليا، مدام القرية. وعزفت فرقة الأخوات موراليس الأربع مقطوعات موسيقية، ولأنّ الفتيات لم يكنّ يعرفن سوى عدد قليل من الألحان، فقد رحن يكررن عزفها بآلاتهن الموسيقية الغريبة، المصنوعة من قدور طهي ومقلايات

وأغطية قديمة. وغنّت النساء ورقصن على إيقاع الفرقة الحيوية. وعندما توقّفت الموسيقى، جلست مجموعات النساء الأربع بسرعة ليستمعن إلى الكلمة المعتادة التي ستلقيها القاضية. وقد دأبت على بدء كلمتها بالجملة نفسها: «درجة جديدة على وشك أن تبدأ، وتأتي معها فرصة جديدة لنحسّن أنفسنا كأفراد. . .» وقد حفظتها معظم النساء الآن عن ظهر قلب.

نهضت روزالبا من وسط الحشد وتقدّمت ببطء نحو الصف الأمامي، حيث ستلقي كلمتها. وكانت قبل مغادرتها البيت، قد طلت جسمها كله بزيت الأوكالبتوس المعطّر لطرد البعوض والحشرات الأخرى عن جسدها. وبينما كانت تسير بين النساء، انعكس ضوء شموع الشحم المترجرج على جلدها اللمّاع، مما جعلها تشبه إلهة أسطورية على وشك أن تحترق.

وقفت أمام حشد النساء، وبدت في عينيها نظرة سعيدة، وراحت تتكلم:

«أودّ أن أعرب عن امتناني لأسرة أوسبينا على الجهد الذي بذلته في تنظيم احتفالنا هذا بالأنوثة». لقد أثارت النبرة المتغيرة في خطابها شكوك القرويات على الفور وعرفن أن القاضية تريد أن تقول شيئاً. وبدأت تقول: «لا أظن أن ساحتنا كانت أجمل أو أكثر راحة منها هذه الليلة». تطلعت حواليها، وهي تبتسم برقة للأزهار المتنوّعة المتدلية من الأشجار، وواصلت قولها: «وأريد أن أصرّح بشيء». تأكدت القرويات الآن من أن روزالبا ستفاجئهن ببيان مريع: لعله مرسوم جديد شنيع. حبسن أنفاسهن وأصخين السمع.

«إني مغرمة بإلويسا»، قالت بوضوح وبساطة، شامخة برأسها إلى الأعلى. حدّقت فيها النساء بصمت، مندهشات، ثمّ رحن يخفضن رؤوسهن، ببطء، وكأن شعوراً متنامياً بالخجل قد اعتراهن.

«وأنا مغرمة بروزالبا»، صاحت إلويسا من الخلف. أدارت النساء رؤوسهن، مرة أخرى ببطء، باتجاه الصوت. ولاحقت عيونهن المحدّقة إلويسا وهي تسير باتجاه روزالبا، وتطبع قبلة على فمها».

«أنا مغرمة بسيسيليا»، قالت فرانسيسكا، بصوت مرتفع.

هذه المرّة، لم تلتفت النساء إلى العاشقة المعترفة، بل إلى امرأتها. كان الضغط شديداً إلى درجة أنه لم يعد أمام سيسيليا سوى النهوض. كانت عيناها مطرقتين إلى الأرض، واعترفت بإثمها: «إني... مغرمة بـ... فرانسيسكا».

«أنا وفيرجيلينا نحبّ بعضنا أيضاً»، أعلنت موراليس. ونهضت المرأتان ولفت كل منهما يدها حول خصر الأخرى، وابتسمتا.

«وأنا وإرليندا»، قالت الممرضة راميريز، ومدّت يدها إلى أرملة كالديرون، ونهضتا معاً من على الأرض.

وكشفت نساء أخريات بحياء عن أسرارهن، وعندما انتهين، بدأ عدد من النساء العازبات يعلنّ عن حبّ كلّ واحدة منهن للأخرى. كان هذا الشعور معدياً إلى حد أن بعضهن قررّن، في تلك اللحظة بالذات، أنهن يعشقن النساء الجالسات بجانبهن وإخبارهن بذلك. حتى النساء العجائز اللواتي لم يحببن أحداً ولم يحبّهن أحد منذ أمد بعيد، أحسسن مرة أخرى بعواطف لاهبة تسري في أجسادهن المنكمشة.

بالإضافة إلى العاشقات القديمات، بدأت العاشقات الجديدات يتوارين شيئاً فشيئاً وراء الأبواب، أو يختفين في ظلمة الليل. وسرعان ما عادت النساء القليلات اللاتي ظللن عازبات، سواء باختيارهن أم دون اختيارهن، إلى بيوتهن، وإلى غرف نومهن بأسرّتهن وشراشفهن النظيفة التي لن تُبقّع بدم أو عرق أحد سوى دمهن وعرقهن هنّ.

ولم يبق في الباحة إلا سانتياغو مارين وخوليا موراليس، تحيطهما أزهار السحلبية والأقحوان والزنبق، ولهيب الشموع التي بدأت تنطفئ. تمدّدا على الأرض، وراحا يحدّقان في السماء، بانتظار أن تشرق نجمة متلألئة حتى يعبّرا عن أمنيتيهما. وعندما ظهرت أخيراً، تمنّى سانتياغو أن يتمكن، ذات شمس، في مكان ما، من الالتقاء ببابلو. وتمنتّ خوليا من الشمس، عندما تستطيع أيضاً، أن تصبح، كما فعلت النسوة هذه الليلة، أن تعشق ـ رجلاً فقط.

انطفأت الشموع المحيطة بالباحة، الواحدة تلو الأخرى، وانبعث من كلّ منها صوت هسهسة، أعقبه انطلاق شرارات زرق وصفر بسرعة.

تجمّد الشحم الذائب على الأرض، مخلّفاً رائحة قوية للدهن المحروق الذي ذاب تلاشى للتو في الأثير. وابتلعت هذه الليلة المليئة بالنجوم تأوهات نساء ماريكيتا الجديدة القوية الشهوانية، وهمهمات أراملها العاشقات الرقيقة.

جيراردو غارسيا، ٢١ سنة
جندي من المليشيا اليمينية

حُفر قبر جماعي، وألقيت فيه معظم جثث أعدائنا. لم تبق سوى جثّة مقطّعة واحدة ملقاة على الأرض، لإحصائها. كنت جاثياً على ركبتي بجانبها، وأبعد قليلاً على يميني، كان يجلس «ماتاسيت»، القائد المعروف بقسوته (كان يعتبر آلة الحرب الذي يقتل الثوّار ثم يجلس ليتناول طعامه بجانب جثثهم) يدخّن سيجارة. كانت مهمتي أن أعرّي الجثث، وأبحث عن بطاقات هويات أصحابها، أو وحمات، وألوان شعرهم وعيونهم، والسمات المميزة الأخرى، وأبلغ ماتاسيت الذي كان يدوّن هذه النتائج في دفتر ملاحظات كبير لنقلها إلى سجلاتنا لاحقاً.

كانت الجثة المسجاة أمامي الآن صغيرة، جثة فتى. كانت قد فقدت الساقين من الركبتين حتى الأسفل، بالإضافة إلى الذراع اليسرى. لم أتبّين كثيراً معالم الوجه، المهشم تماماً. «إنه شاب صغير»، قلت لماتاسيت، «في السابعة عشرة من عمره، بل ربما أصغر». كانت جيوب سترته فارغة، لكنني وجدت سكيناً عسكرياً مخبأ لم يُعثر عليه عندما فتّش الجندي عن الأشياء الثمينة. دسسته في جيبي.

«جرّده من ثيابه»، قال ماتاسيت بلا مبالاة. نزعت سترة الفتى الممزقة، وما تبقّى من بنطاله. كان جذعه ملطّخاً بالدم اليابس. كانت صورة صغيرة

مغلقة للمسيح الطفل تتدلى من حبل حول رقبته. لم يكن أمراً خارجاً عن المألوف (إذ نحمل نحن الجنود كلّ أنواع الرقى والتعويذات)، لكن بدا لي أن هذه الصورة تشبه الصورة التي أحملها: نفس الحجم والطول، ذات الحبل الجلدي البني، وعلى قفاها، نفس صورة أمّي بالأبيض والأسود.

لقد أعطتنا أمّي أنا وأخي الصغير تعويذات متماثلة عندما كنّا صغاراً لتحمينا من سوء الطالع. شعرت فجأة بكتلة في حلقي. لقد بلغ السادسة عشرة من العمر للتو. (متى انضمّ إلى صفوف أعدائنا؟ لماذا لم أبق على اتصال معه؟) لا أستطيع أن أعترف لماتاسيت بأنه أخي ـ عندها سيعتبرونني مخبراً للثوار، وعلى الأغلب فإنهم سيعدمونني ـ لكنني لا أستطع كذلك أن أترك أخي يصبح مجرد شخص آخر «غير معروف» في قائمتنا التي تتزايد باستمرار.

«غارسيا فيداليس»، غمغمت، متظاهراً أنني أقرأ لوحة اسمه.

«ماذا؟ ارفع صوتك»، أمر ماتاسيت.

شعرت بالاختناق ثانية، انتظرت قليلاً، ثمّ قلت: «غارسيا فيداليس خوان ديغو. ولد سنة ١٩٨٢». ارتعش صوتي قليلاً. دوّن ماتاسيت المعلومات، ونهض وأشار إليّ بأن أتخلص من الجثة وألقي بها في القبر. اعترتني فجأة رغبة في أن أشمّ الأزهار، الزهرة المخملية والقرنفل، لأن أخي الصغير كان على وشك أن يُدفن، وهذه هي الرائحة التي تفوح عندما يدفن شخص مسيحي. لكنني لم أشمّ إلا رائحة الدم والموت.

«اغفر لي يا ديغويتو»، همست. كنت أعرف أنه يسمعني. سحبته إلى الحافة من ذراعه الوحيدة ودفعته برفق بروؤس أصابعي. راقبت جسده وهو يهوي على الجدار ويحطّ أخيراً على الأرض بشكل أخرق فوق جثث رفاقه.

ثمّ أخذت أهيل التراب على قبره، وأصلي صلاة الربّ في سريرتي.

الفصل الثالث عشر

الغرينغو الفضولي

ماريكيتا الجديدة، ٢٠
فرانسيسكا، السلّم ١٩٩٦

أمضت خوليا موراليس طوال فترة الصباح مستلقية في أرجوحة معلّقة بين شجرتين في وسط الساحة، تبرم إحدى أصابعها، وتأخذ نفساً عميقاً، ثم تنظر نحو الجنوب. كانت ترتدي رداء ضيقاً أزرق باهتاً يكشف عن فخذيها. وكانت، بين الحين والآخر، تتأرجح بدفعة خاملة من إحدى قدميها الرهيفتين الملامستين للأرض. وما إن لفح نور الشمس وجهها، حتى نهضت وحملت أحد جانبي الأرجوحة إلى شجرة أخرى، ثمّ استلقت ثانية، وراحت تحدّق بحنين نحو الجنوب، الاتّجاه الذي تنبعث منه الرائحة.

الواحدة تلو الأخرى، جاءت أخواتها الثلاث اللاتي يكبرنها سناً وطلبن منها أن تكفّ عن التخيّل وأن تتوجه إلى العمل. «رائحة؟ أية رائحة؟» سألتها أختها الكبرى أوركيدا بفظاظة، «إن الشيء الوحيد الذي أشمّه هو رائحة خمولك». واتخذت غاردينيا موقفاً أشد عدوانية، وقالت: «انهضي

الآن، أيتها البقرة الكسولة. سأعطيك شيئاً تشمّينه. هيا شمّي هذه»، وكشفت لخوليا عن مؤخّرتها العارية. قالت مانوليا التي تتمتع بموهبة رؤية كلّ شيء يتعلق بها: «إني لا أشمّ شيئاً. وإذا كان ثمة شيء يمكن شمّه، فلن أكون أول من يشمّه».

لم تتأثر خوليا بما قالته أخواتها بأي شكل من الأشكال. فقد كانت تعرف ما تشمّه، حتى لو لم يكن باستطاعة أحد اكتشافه: مزيج قوي، لاذع بعض الشيء، جذاب، من رائحة الليمون المقشّر، وأملاح معدنية، ورائحة عرق ومسك. . . كميات كبيرة من المسك. أفعمت الرائحة الهواء، وازدادت حدتها بعد أن بدأت الشمس تميل إلى الغروب. لم يساورها أدنى شكّ في أن ثمة رجلاً يقترب من القرية، وعزمت على أن تكون أول من يستقبله في قرية ماريكيتا الجديدة.

*

كان الصحفي الأمريكي يرتدي قميصاً فاتح اللون فضفاضاً، ذا جيوب كبيرة، وبنطال خاكي واسعاً قُصَّ تحت الركبتين، وقد تدلت خيوطه المهترئة عند الحواف. وكان يلقي على كتفه اليسرى قربة ماء ممتلئ نصفها. كان شعره طويلاً أصفر اللون دهنياً، جمعه على شكل ذيل حصان، وقد نمت في ذقنه لحية خفيفة لم يحلقها منذ أسبوعين؛ وكان حذاؤه الرياضي يكاد يختفي تحت طبقات الطين الجديدة والقديمة، ما جعل من المتعذر معرفة لونه الحقيقي أو ماركته. وكانت قدماه قد امتلأتا بالبثور، ولاسيما القدم اليسرى، فأصبح يعرج في مشيته. وكان ثمة مسحة من النقاء والذكاء على وجهه، وجه لوّحته حرارة الشمس بقوة، وذي عينين زرقاوين بزرقة السماء، وأنف صغير. وكان يجوب أرجاء الريف منذ ستة

أشهر، يجري مقابلات مع الثوار، ومع جنود من المليشيا، ومع أفراد من الجيش الوطني، بالإضافة إلى مدنيين تأثروا بالنزاع الكولومبي. كان في الحادية والثلاثين من العمر، ويدعى غوردن سميث.

كان يسير أمامه صبي حافي القدمين وبغل هزيل ينوء تحت أكياس سميكة صفراء متوسطة الحجم. كان الصبي يحب أن يُطلق عليه اسم بيتو، وأن يطلق على بغله اسم بيتا. كان بيتو يعتمر قبعة ذات حواف مقضومة، ويرتدي بنطالاً قصيراً مهلهلاً مهترئاً. ليس غير.

«تمهل»، صاح غوردن لبيتو، «أرجوك».

«لقد أوشكنا على الوصول، دون مستر غوردو»، قال الصبي. وقف مباعداً ما بين ساقيه، وغاصت قدماه في الطين البرتقالي اللون، وتساءل لماذا يصرّ الغرينغو الذي يتكلم بطريقة مضحكة على أن يُدعى «غوردو» مع أنه ليس بديناً.

نظر غوردن إلى ساعة يده. إنه يسير منذ حوالي سبع ساعات. «سمعتك تقول ذلك ثلاث مرات»، أجاب، ورمق الصبي بنظرة مريبة.

تجاهل بيتو التعليق والنظرة، وقال: «من المؤكد أنك لا تريد أن تركب بيتا مرة أخرى؟ مع أنه عجوز بعض الشيء، لكنه لا زال قوياً جداً».

«غراسياس»، هزّ غوردن رأسه. لقد جعله ركوب الدابة عصبياً ويشعر بالدوار، لكن كبرياءه لم يسمح له بأن يعترف بذلك، فقال للفتى إن الدابة ليست قوية على الإطلاق، وأنه يشعر بالحزن عليها، وهذا صحيح. فقد بدا أن بيتا يتضور جوعاً، فقد كان قوائمه ضعيفة، وكان لم يُسقَ حتى يروى، وكان حدوته مرخية في حافره الخلفي الأيمن.

واصلا رحلتهما وراحا يصعدا ويهبطا التلال، واجتازا مسافات شاسعة من

الغابات وممرات ومفازات ضيّقة، قلما يطرقها أحد، تتقاطع عشوائياً، وغالباً ما تتحول إلى مناطق موحلة، مما يجعل من المتعذر توقع ما يمكن أن يحدث فتغدو الرحلة مربكة. وبين الحين والآخر، كان غوردون يُخرج من جيب قميصه قصاصة ورقية رُسمت عليها خريطة بخطوط رديئة عن المنطقة التي يعبرونها، يحدّق فيها، يقلبها رأسا على عقب، ثم يتطلع حوله، ويعيدها إلى جيبه.

قبل يومين فقط، عندما كان يجري مقابلة مع أحد الثوّار الشيوعين الفارين في قرية فيلاهيرموسا، تعرّف غوردون على رجل عجوز، مصاب بمرض عصبي، ذي وجه وردي اللون، ادّعى أنه يعرف قبيلة من النساء المحاربات الشرسات اللاتي يعشن في قرية صغيرة نائية. مسحوراً بما سمعه، وافق غوردون على أن يشتري له بضعة كؤوس من المشروب لقاء أن يحكي له القصّة كلها.

«إنهنّ نساء أمازونيات»، قال الرجل الذي بدا مختل العقل وهو يقضم أظافره بأسلوب قهري. «اسمع ما سأقوله لك: فقد اختفت الخنازير والأبقار والخيول، وكذلك الرجال من أمثالي وأمثالك. نعم، لقد اختفوا جميعهم من على وجه الأرض بعد أن شوهدوا في أماكن قريبة من المكان الذي تعيش فيه تلك المخلوقات. جميع الفلاحين يخشونهن. قبائل هندية كاملة هاجرت إلى أقصى الجنوب هرباً منهن. حتى الثوّار والمليشيات لا يقتربون من قريتهن. صدقني عندما أقول لك ذلك أيها الغرينغو. إنهن سليلات الأمازونيات». وكان احتساء الرجل كأساً جديداً من البيرة، يزيد القصّة روعة وتشويقاً. وعندما انتهى هذا اللقاء، قرر غوردن، الذي ثمل قليلاً، أن ينطلق وللبحث عن تلك القبيلة الغريبة من النساء الكارهات

للرجال، اللاتي لا يؤمنَّ بالله، ويأكلن لحوم البشر، واللاتي يملكن أجساداً شديدة الضخامة.

في اليوم التالي، بعد أن أفاق من سكرته، اعترف غوردون بأنّ القصّة تنافي المنطق والعقل وتثير الضحك. لكن بالرغم من ذلك، كان فيها شيء سحَرَه، شيء يبدو معقولاً تماماً في بلد تدور فيه الحرب منذ أربعين سنة تقريباً: قرية مأهولة بالنساء فقط. توجه إلى بيت الرجل العجوز العصابي، ودفع له مبلغاً من المال ليرسم له خريطة عن المنطقة التي يفترض أن قبيلة النساء تعيش فيها، ثمّ استأجر فتى ودابة لنقله إلى تلك المنطقة.

في تلك اللحظة، بعد رحلة استغرقت سبع ساعات، قال غوردون لنفسه إنها تبدو متشابهة من جميع الجهات. ولحسن الحظ، لم يكن بيتو بحاجة إلى خريطة لأنه يعرف كلّ الدروب والمسالك المختصرة، لأنه كان يرعى الأبقار ويقودها عبر هذه الدروب منذ أن كان طفلاً، ولأنه أمضى السنوات الأربع الأخيرة في نقل رسائل سرية مشفّرة إلى مجموعات الثوّار المتناثرة في أرجاء المنطقة الجبلية. فقد كان أسرع ساعٍ وكان محط ثقة الثوّار. إلا أن تواجد الجيش الوطني بكثافة في الآونة الأخيرة، أرغم الثوّار على هجر المنطقة، فلم يعد بيتو يعمل، لذلك وافق على مرافقة غوردون في الجبال.

كانا قد اجتازا مسافة طويلة عندما وصلا إلى سهل منبسط. أخذت الدابة تسير بسرعة، وسرعان ما عرف بيتو سبب ذلك: فقد كان هناك جدول رقيق من الماء يجري بهدوء على امتداد السهل. غسلا وجهيهما وشربا قليلاً من الماء الذي كان له طعم معدني.

«حسناً، هذا هو»، قال بيتو، «انظر إلى تلك الغابة هناك؟» وأشار إلى أجمة من الأشجار والشجيرات في نهاية تل شديد الانحدار.

«ما هو؟» سأل غوردون، زاوياً بين عينيه ليرى ما يشير إليه الصبي بشكل أفضل.

«المدخل! قال ذلك الرجل إنها تقبع عند نهاية أول تل. تريس كروسيس. إنه سهل تريس كروسيس، لذلك لا بد أن يكون المدخل هناك».

تأمّل غوردون المشهد للحظة، وقال: «يبدو أننا سنحتاج إلى مناجل أو إلى شيء من هذا القبيل لنتمكن من شق طريقنا. يبدو أنه منيع بعض الشيء».

«دون مستر غوردو»، قال بيتو، بنبرة جدّية، «لقد استأجرتني لأوصلك إلى هذه البقعة بالذات، لا لأساعدك على العبور إلى الجانب الآخر».

هذا النذل الصغير يريد المزيد من النقود، قال غوردون لنفسه. وأخرج من بين ساقيه كيساً بلاستيكياً صغيراً يحتفظ فيه، داخل لفّة مربوطة بشريط مطاطي سميك، برزمة من الأوراق النقدية. بدأ يفك الرزمة.

عندما أدرك الصبي ما كان يفعله الغرينغو، هزّ رأسه، وقال: «لن أذهب إلى هناك مهما أعطيتني من نقود. لقد قيل لي ذلك هناك. النساء هناك يأكلن البشر مثلي ومثلك على طعام العشاء».

أطلق غوردون ضحكة عالية، وقال: «لا تقل لي إنك تصدق ذلك».

«نعم أصدّقه. ومن الأفضل لك أن تصدّق ذلك أنت أيضاً. إنك لا تعرف شيئاً عن هذا البلد». بشيء من الوقار على وجهه الهندي الصغير، أفرغ الحمولة من فوق ظهر بيتا، وأعطى غوردون الحقيبة الصوفية الخشنة.

بعد تبادل الكثير من عبارات الشكر، وإمساك الأيدي والمصافحة مرات عديدة، وقف بيتو جانباً، وراح يراقب غوردون وهو يصعد ببطء التل

الشديد الانحدار حاملاً الحقيبة على ظهره. «برعاية الله، يا دون مستر غوردو»، همس لنفسه. واقترب من بيتا وأمسك رسنه، لكنه لم يمتطه، بل ظل يحدّق في غوردون، متمنياً أن يثوب الغرينغو إلى رشده ويعود أدراجه إلى البلدة. قال بيتو إنه إذا عاد، فإنه سيأخذ منه نصف السعر.

لكن غوردون لم يتوقّف. إذ لم يجتز كل هذه المسافة ليدبَّ فيه الخوف فيعود في آخر دقيقة. بالإضافة إلى ذلك، كان بحاجة إلى قصّة جديدة، إلى شيء مثير للاهتمام. برسوخ هذه الفكرة في رأسه، بدأ يشقّ طريقه عبر الأشجار والنباتات المتشابكة، يقتلع أوراق الكرمة بيديه الكبيرتين الطريتين، مبعداً بيديه الأوراق السميكة والأغصان المتشابكة حتى اختفى وراءها.

*

أثناء طعام الإفطار في ذلك الصباح، حصلت دونا فيكتوريا أرملة موراليس على إذن لابنتها من روزالبا وقالت لها إن خوليا متوعكة وأنها ليست على ما يرام، ووعدتها بأن تقوم بناتها الثلاث الأخريات بعمل خوليا في المطبخ العمومي إلى أن تتماثل للشفاء.

قالت أوركيديا لأمّها محتجة: «إذاً يتعين عليّ أن أكدح طوال الصباح في ورشة النجارة، ثم آتي خلال فترة استراحتي لأقوم بعمل هذه الكسولة؟»

«هذا صحيح»، أكدت دونا فيكتوريا، وألقت بسلة مليئة بالبصل الأحمر فوق المنضدة، وأضافت، «هيا افرمي البصل قبل أن تذهبي».

في الآونة الأخيرة، نُقِلت أوركيديا من مطبخ أمّها إلى ورشة النجارة كجزء من حملة جديدة أطلقها مجلس ماريكيتا الجديدة، تشمل تدريب جميع العاملات على أداء مهام متعددة مختلفة. فأُرسلت غاردينيا إلى

الحقول، وكُلِّفت مانوليا بالعمل مع فريق إصلاح الأسقف. أما خوليا فقد سمح لها بأن تظل تعمل في المطبخ، لأن دونا فيكتوريا تمكنت من إقناع عضوات المجلس الخمس بأن لمسات خوليا الخاصة هي التي تجعل الأطباق التي تخرج من مطبخها لذيذة جداً.

كانت أخوات خوليا موراليس، أجمل فتيات موراليس الأربع، يكرهنها بسبب جمالها. فقد كانت عيناها كبيرتين مدورتين، بلون البندق مشوبتين بلون رمادي، تتوهجان إزاء بشرتها السمراء. وكان أنفها صغيراً ومرفوعاً قليلاً عند طرفه، مثل أنف دمية، وشفتاها مكتنزتين بارزتين. وكانت مشيتها تشي بجمال خاص، إذ كانت رؤيتها وهي تمشي وحيدة في أرجاء الساحة، أهم حدث في فترة الشمس. وكانت خوليا أطول قامة من معظم نساء القرية، وكانت تتصرف برقي ملحوظ. كما كان شعرها أسود جميلاً، يتموّج في أمواج طويلة حتى خصرها، وكان قضيب كبير يتدلى بين ساقيها.

كان تحويل خوليا المدهش نتاج مثابرتها وانضباطها الذاتي وتفانيها. فقد أمضت شموساً كاملة وهي تتبع أمّها وأخواتها، تولي انتباهها للطريقة التي يتحركن فيها، فتعلمت أجمل خصالهن الأنثوية. ومع أن خوليا لم تكن تستطيع أن تتكلم بوضوح، كانت تنصت باهتمام شديد إلى الطريقة التي تتكلم فيها أخواتها، وتترجمها إلى سلسلة من الحركات الناعمة والمرهفة في جسدها وأطرافها. وقد أسفر كلّ ذلك عن استنباطها لغة إشارات أنيقة ودقيقة ربما بدا لعينَيْ أجنبي أن خوليا موراليس تؤدّي رقصة غامضة من أرض بعيدة.

*

من البقعة التي كان يقف فيها، رأى غوردون قرية كما تظهر في الأحلام،

ذات بيوت بيضاء اللون وأسقف مكسوة بالآجر المتلألئ باللونين البرتقالي والأحمر، تحيطها أشجار المانغا التي تفتحت براعمها، وعدد قليل من المسالك والدروب الواضحة المعالم، وكنيسة كسر برجها التناغم الرائع والمثالي للمشهد. ونهضت تلال خضراء وراء القرية؛ وتخللت الحقولَ حقولٌ صغيرة من الذرة الصفراء والرزّ والبنّ وصفوف من البطاطا على امتداد الحقول على سفوح التلال.

لم تكن هناك أمازونيات على مرمى البصر، أو نساء أو ما يشبه الأمازونيات. نظر غوردون إلى راحتيْ يديه: كان الدم يسيل منهما. ذراعاه ورجلاه المجروحة وبنطاله الممزّق، تشهد جميعها على كفاحه في شقّ طريقه عبر النباتات والشجيرات السميكة المتشابكة. مسح يديه بقميصه، وأحسّ بالجروح الدامية على نسيج قميصه الخشن. لم يُصب وجهه بأذى، فقد استخدم حقيبته الصوفية السميكة لحماية وجهه من الشجيرات الشائكة وأوراق الأشجار الضخمة المكسوة بالأشواك التي غالباً ما كانت ترتد إليه بعد أن يبعدها عنه.

عندما بدأ غوردون يتحرك ببطء إلى الأمام، سمع صيحات وضحكات أنثوية من مسافة بعيدة، لكنه لم ير أحداً. ولاحظ أن ارتفاع البيوت عادي، فتخلى عن إمكانية رؤية نساء عملاقات، وقد كان استبعدها في الأصل. واصل انحداره من التلّ، بحذر، مفكّراً في ما سيقوله عندما يلتقي بأول مجموعة من النساء، متسائلاً كيف سيكون استقبالهن له. لا بد أن يفاجأن ويعتريهن الذهول، لكن هل سيرحّبنَ به أم سيلاقينه باحتقار؟ وماذا لو سألنه عن سبب قدومه إلى قريتهن؟ هل يعترف لهن بأنه صحافي؟ ربما جعلهن ذلك يتخذن موقفاً دفاعياً؛ ربما كان عليه الادعاء بأنه ضلّ طريقه ويريهم يديه النازفتين. لا بد أنهن لن يؤذين رجلاً جريحاً.

دخل القرية وهو يعرج على إحدى قدميه وسار في شارع صغير. كانت جميع البيوت التي مرّ أمامها متشابهة: فكانت ذات واجهات بيض ولكل منها باب أمامي ونافذة كبيرة، طُليت هياكلها بلون أخضر. كانت جميع الأبواب والنوافذ مفتوحة، فانتاب غوردون إحساس غريب بأن ثمة أشخاصاً يراقبونه من وراء الستائر. لم يعد يسمع الصيحات والضحكات التي تناهت إليه منذ قليل. وفجأة رأى شيئاً يتحرّك من بعيد في أسفل الطريق: كانت هناك كتلة كبيرة معلّقة بين شجرتين حاوية على شيء ينبض بالحياة. واصل غوردون سيره، متوجساً قليلاً، وهو يتلفت إلى الوراء بين الحين والآخر. وقبل أن يصل إلى ناصية الشارع، تبينّ له أن الكتلة لم تكن إلا أرجوحة فيها شابة جميلة نائمة. دنا منها غوردون، بتؤدة وصمت، لأنه لم يشأ أن يوقظها. في تلك اللحظة سمع صيحة عالية من الخلف. عندما نظر إلى الوراء، رأى جيشاً من النساء العاريات يخرجن من بيوتهن، وهنّ يصرخن بغضب، ويركضن نحوه حاملات عصياً وحجارة.

عندما أفاق غوردون، لم ير شيئاً إلا سقفاً أبيض يلمع. خيّل إليه أنه ميت، وأن روحه تحلّق في الهواء بين السحب. وشيئاً فشيئاً بدأ يتذكر تسلسل الأحداث التي أفضت به إلى هذه اللحظة. المرأة المستلقية في الأرجوحة. الصرخات. جيش النساء العاريات يصرخن ويلوحنّ بأيديهن. ثمّ حلّ سواد دامس.

إذاً أين هو الآن؟ لم يكن هناك سوى ردّ واحد: لقد أسرته النسوة، وهو سجين لديهن الآن.

تسلل نور باهت من أشعة الشمس من نافذتين صغيرتين. كان غوردون لا يزال يشعر بالدوار، عندما انتصب في جلسته وراح يتفحص جسمه. لم يكن

هناك أي جرح. لم تكن في جسمه جروح أو إصابات جديدة، وكان يستطيع تحريك أطرافه كلها. تطلّع حوله فرأى مكاناً كبيراً وفارغاً. لا يشبه سجناً، بل يشبه كنيسة، لكنه يخلو من المقاعد والصلبان والتماثيل، ومن أية صورة دينية مهما كانت. كانت الجدران عارية تماماً، وكانت الأرضية الإسمنتية التي يستلقي فوقها غوردون نظيفة تماماً تنبعث منها رائحة الخزامى. كان غوردون يستلقي هناك بملابسه الوسخة وحذائه المهترئ، وجروحه التي لا تزال تنزف، وخيّل إليه أنه الشخص الوسخ الوحيد في هذا المكان.

عندما أدرك أنه وحده، نهض واتجه نحو الباب، متكئاً على الجدار. انحنى قليلاً لينظر إلى الخارج عبر الحاجز الشبكي المعدني الصغير، وفتح عينيه على اتساعهما على المشهد الغريب الذي رآه: عدد كبير من النساء العاريات يقفن في الطرف الآخر من الشارع، يثرثرن بصوت منخفض، يمسك بعضهن بأيدي بعضهن الآخر كالعاشقين. وكانت مجموعة مؤلفة من خمس نساء أكبر سناً، أربع منهن عاريات، يفتشن في حقيبة غوردون. ورأى إحداهن تستل قمصانه، الواحد تلو الآخر، وترفعها نحو الضوء مثل أفلام نيجاتيف، ثم تمررها إلى النساء الأخريات. بدا أنهن لم يبدين أي اهتمام بجهاز التسجيل الصغير الموجود في حقيبة غوردون، فقد تفحصته النسوة من جميع أطرافه، ثم وضعنه جانباً، غير قادرات على تفسير الفائدة منه. لكن علبة الكوكا كولا أثارت هرجاً ومرجاً. فقد أمسكنها ورفعنها بشكل أفقي، بكلتا اليدين، وأدرنها، وهن يبتسمن ويهززن رؤوسهن. وراح غوردون يراقب هذه العملية بفضول حقيقي، لكن بحذر أيضاً.

انبعث صوت صرخة يصمّ الآذان، فالتفتت جميع الرؤوس، بما فيها رأس غوردون نحو مصدر انبعاثه. لقد انبعث هذا الدويّ من الفتاة الشابة

التي ترتدي ثوباً أزرق ضيقاً، والتي كانت نائمة في الأرجوحة. أمسكت امرأتان الفتاة بينما راحت امرأة ثالثة تحاول تكميمها بمنديل. أخذت الفتاة تتلوّى مثل دودة، وراحت تركل وتكزّ على أسنانها وتصدر أصواتاً حلقية عالية. قال غوردون لنفسه إنها رائعة الجمال. بغتة توقّفت الفتاة عن المقاومة، وتحوّل غضبها إلى صرخة طويلة يائسة تفطر نياط القلب. عندما أُنهكت المرأتان بسبب الإمساك بها، أرختا قبضتيهما عنها، فتحررت الفتاة على الفور، وألقت بهما أرضاً، ثمّ جرت نحو باب الكنيسة.

كان لدى غوردون وقت كاف للتنحي جانباً قبل أن تفتح الفتاة الباب بعنف. جالت عيناها في أرجاء الغرفة الطويلة، الفارغة، وعندما رأته، ألقت بنفسها فوقه، وطوّقت رقبته بيديها وطبعت قبلة محمومة على فمه. في تلك اللحظة، بدأت النساء الأخريات يدخلن المبنى في مجموعات صغيرة، ورحن يتدافعن لكي تتسنى لهن فرصة رؤية الأجنبي ذي العينين الزرقاوين، بينما تعلّقت به الفتاة المتمردة مثل لزقة لا يمكن اقتلاعها.

«خوليا موراليس»، صاحت امرأة ذات حجم مهيب، وشفتين عريضتين، وهي تشقّ طريقها بمنكبيها، «اتركي المستر وتنحّي جانباً». فعلت الفتاة ما أُمرت به، لكن ليس من دون أن تعبس وتزمّ شفتيها. وقفت المرأة ووضعت يديها على خصرها أمام غوردون الذي لبث مسمّراً في مكانه.

«من أنتَ؟ ومن أين أتيت؟ ومن أرسلك؟ وما الذي جعلك تأتي إلى هذا المكان؟» قالت، بنَفَسٍ واحد، كما لو كانت الأسئلة الأربعة جميعها ذات أهمية متساوية.

لم ينبس غوردون ببنت شفة، فقد عقدت الدهشة لسانه فلم يستطع أن يعرب عن نفسه بلغته، فما بالك باللغة الإسبانية. بدلاً من ذلك، أخذ ينظر

بفضول إلى عري النساء المتناغم ـ أثداؤهن التي لوّحتها الشمس، والتي تنتهي بحلمات كبيرة بلون الشوكولاته؛ وجذوعهن الطويلة، وبطونهن الداكنة، التي بعضها مسطح، وبعضها الآخر ناتئ؛ وشعر أسود قصير لا يكاد يغطي عانتهن، وأطرافهن الناعمة والمتماسكة. خيّل إليه أنّهن جنس رائع.

«حسناً؟» قالت امرأة ذات وركين عريضين، والتفتت نحو الحشد، «يبدو أن صديقنا هنا أخرس».

عندها أدرك غوردون أنها إحدى النساء الخمس اللاتي كنّ يفتشن حقيبته. كانت تبدو عليها سمات السلطة والحزم، وأنها لا تقبل الجدل. وقال لنفسه إن كان بوسعها أن تظهر هذه الخصائص وهي عارية، فلا بد أنها القانون.

«أنا لست أخرس»، أجاب بنبرة استرضائية.

«أوه»، همست النسوة بصوت واحد.

«إذاً من أنت؟» سألت المرأة ثانية.

«اسمي غوردون سميث»، أجاب. انبعثت بضعة ضحكات من الحاضرات.

«تعال معي إلى المكتب البلدي، سينور إسميس»، قالت نفس المرأة، «يجب أن تشرح لمجلس قريتنا طبيعة عملك».

سارت أمامه، واضطرت النسوة الفضوليات إلى إفساح طريق لهم. سار غوردون برجل عرجاء وراءها، وجميع عضلاته وعظامه ومفاصله تؤلمه. ورأى هذه المرة، بإعجاب متزايد، الساحة الصغيرة التي تظلّلها أشجار المانغا الضخمة، المحاطة بمقاعد خشبية، نصفها باتجاه الشرق، ونصفها الآخر باتجاه الغرب؛ وطراز البيوت المتجانس، بواجهاتها البيض وزخارفها البراقة المصنوعة على شكل أزهار تتدلى من النوافذ؛ ونظافة

الأرصفة والدروب غير المعبّدة. وفي وسط هذه المشاهد التي تكاد تبدو طوباوية، ظهرت الفتاة التي تدعى خوليا، وسارت مع الحشد، أمام غوردون، تتلفت إليه بين الحين والآخر من وراء كتفها بشيء من الغنج والدلال. قال لنفسه إن قسمات وجهها رائعة ومرهفة، كالنساء من بني جنسها. لكن كان ثمة شيء وحشي، همجي بعض الشيء، في عينيها المدوّرتين الملونتين بلون البندق المرقطتين ببقع رمادية، وكان ثمة شيء فاتن في شعرها السميك الأسود ـ الأزرق وبشرتها السمراء البراقة. كان يتمنّى لو كانت هي عارية أيضاً.

عندما دخل غوردون المبنى، تطلع حوله بسرعة. كانت هناك غرفتان، الأولى صغيرة وفارغة، والأخرى مؤثّثة بمنضدة مستطيلة طويلة وأربعة مقاعد، كلّها مصنوعة من الخشب المكسو بلحاء الشجر، وقد انتصب مصباح في وسط المنضدة؛ وكانت الجدران عارية، ماعدا الجدار الخلفي الذي غطت نصفه بقعة رطبة كبيرة، فأوضحت المرأة، أنها مشكلة متكررة لم يتمكن السماكرة من حلّها حتى الآن. «هل تعرف شيئاً عن السمكرة، يا سينور إسميس؟» سألته. فقال غوردون إنه لا يعرف، واعتذر عن عدم معرفته. كما كان للغرفة المؤثّثة نافذة واحدة تظهر وتختفي منها عدّة وجوه صغيرة، تنفخ قبلاً وتقهقه. وتعرّف غوردون على وجه خوليا من بينهن، ولوّح لها بيده بشهامة. هرعت المرأة ذات الردفين العريضين وأغلقت النافذة، وحالت بينه وبين الفتيات المغازلات وما تبقى من أشعة الشمس.

أمسكت المصباح ونزعت عنه الغطاء الزجاجي المكوّر لتشعل الفتيل. «أنا روزالبا»، قالت فجأة، «كنت قاضية القرية. المرأة الوحيدة التي تتّخذ القرارات. أما الآن، فقد أصبحنا نحن الخمسة، نتخذ القرارات. ونطلق

على أنفسنا اسم المجلس». أشعلت الفتيل وأعادت الغطاء الزجاجي، وقالت: «كان هذا مكتبي، لكنه كان أفضل بكثير من هذا. كانت طاولتي مصنوعة من خشب الماهوغوني الخالص. كانت في غاية الجمال. كانت تقبع هناك». رفعت المصباح بيد، وأشارت باليد الأخرى إلى الحائط ذي البقعة الرطبة. نظر غوردون إلى الحائط، وقوّس حاجبَيْ عينيه في تعبير مبهم قد يكون إعجاباً أو مجرد لامبالاة. وسرعان ما سمعا قرعاً على الباب. فقالت روزالبا: «لا بد أن العضوات الأخريات قد وصلن». وضعت المصباح على المنضدة واتجهت نحو الباب. دخلت الغرفة ثلاث نسوة، اثنتان منهن تحملان حقيبة غوردون الصفراء وأعطتاها له. وتبعتهن امرأة رابعة، عجوز، ترتدي كامل ثيابها، تضع نظارات سميكة، وتتكئ على عكاز، بخطوات بطيئة. «أيتها السيدات، أرجو أن تأخذن أمكانكن» قالت روزالبا. جلست اثنتان منهنّ في كلّ جانب. وجلست روزالبا على رأس الطاولة وأشارت إلى غوردون بأن يجلس قبالتها، على الجانب الآخر. وبدأت تقول: «سينور إسميس، إننا مجلس ماريكيتا الجديدة: هنا سيسيليا، وهناك الآنسة كليوتيلد، وهذه سارجنت الشرطة أوبالدينا، وهذه الممرضة راميريز، وأنا القاضية السابقة روزالبا».

«يسرّني لقاؤكن»، قال غوردون بشيء من الخجل، مطرقاً رأسه. يبدو أن هذه اللفتة المهذبة أعطتهن انطباعاً جيداً، ماعدا المرأة ذات المظهر الهندي التي تدعى أوبالدينا، سارجنت الشرطة.

«ما الذي جعلك تأتي إلى قريتنا يا سينور غوردونميس؟» استفسرت أوبالدينا، ورمقته بنظرة مريبة.

تفحّص وجوه النسوة لثانية أو ثانيتين، وقال يبدو أنهن نسوة طيبات،

ماعدا سارجنت الشرطة. لم يكن هناك سبب يدعوه إلى الكذب عليهن، فقال: «أنا صحفي. وأعمل مراسلاً، أكتب أخباراً ومقالات للمجلات والصحف. وإنني أغطي الحرب في بلدكن منذ فترة. وقد أجريت مقابلات مع عدد من الثوّار وجنود من المليشيا والجيش، بالإضافة إلى عائلاتهم، وكتبت مقالات عنهم. وإني أبيع هذه المقالات للصحف والمجلات وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأبيعها أيضاً إلى ـ».

«من أرسلك إلى هنا؟» قاطعته أوبالدينا، «وماذا تريد منّا؟»

«قبل بضعة أيام التقيت برجل، رجل معتوه أخبرني عدداً من الأكاذيب عنكنّ وعن قريتكنّ. فقد قال إنه تقطن هذه القرية نساء عملاقات ذكوريات يكرهن الرجال ويطلقن لحاهن وشواربهن، ويستطعن إخصاب أنفسهن. وأخبرني أنكنّ غير مؤمنات ومولعات بتعذيب أعدائكن قبل أن تأكلونهم أحياء. لم أصدّق معظم ما قاله لي، لكنني أظن أن الجزء المتعلق بأن هذه القرية مأهولة بالنساء فقط صحيح. ويخيّل إليّ أن الكتابة عن هذا الموضوع أمر مثير للغاية: «قرية من النساء في أرض الرجال». توقف قليلاً ليحدث تأثيراً دراميأً، ثم أضاف، «لذلك طلبت منه أن يرسم لي خريطة ويدلّني على مكان القرية، وهكذا وصلت إلى هنا». توقف، ورفع وجهه، وألقى نظرة سريعة على أزواج العيون الخمسة التي تحدّق به، «هذه هي الحقيقة أيتها السيدات»، قال ورفع يده اليمنى، وكأنه يؤدي قسماً في قاعة محكمة.

لم يبد الاندهاش على وجوه النساء الخمسة، ولم يقلن شيئاً.

«هكذا. . . لقد أوضحت، لكنّ السبب الذي جعلني آتي إلى هنا، وأودّ أن أطلب السماح لي بأن أعيش في قريتكن لفترة قصيرة»، قال غوردون، «أريد أن أكتب قصة عن قريتكن، وإني مستعد للعمل لقاء إقامتي وطعامي».

«ما اسم الرجل الذي أخبرك عنا كلّ ذلك؟» سألت أوبالدينا الصحفي، متجاهلة طلبه.

«رافاييل، رافاييل بوينو. قال إنه كان قسيساً وأن هذه القرية كانت تابعة لأبرشيته لفترة طويلة، حتى إنهن حاولن أكله حياً».

نظرت النساء إلى بعضهن، وبدت على وجوههن أمارات الغضب الشديد.

«هذا السافل الحقير»، قالت أكبر النساء سناً، السينيوريتا، وضربت الأرض بعكازها.

«كان علينا أن نوسعه ضرباً».

«كان علينا أن نقتل ابن الزنا اللئيم».

«نعم، ونلقي به طعاماً للكلاب».

«أو للخنازير».

كان من الواضح لغوردون أن رافاييل بوينو قد ألحق ضرراً شديداً بالنساء، لكنه لم يسألهن ما هو هذا الضرر. ليس الآن، في أي حال. فعليه الآن أن يقدم طلبه إلى المجلس ويأمل أن يتلقى رداً إيجابياً.

«يجب أن نناقش طلب هذا الرجل»، قالت أوبالدينا، ثم أضافت، موجّهة كلامها إلى غوردون، «سراً». أمسك حقيبته واتجه صوب الباب.

«خوليا موراليس ستأكله حيّاً هناك»، قالت روزالبا محذّرة عضوات المجلس. توقّف غوردون بغتة والتفت إلى الوراء، فقالت: «لم أقصد ذلك حرفياً يا سينور إسميس»، وأضافت ضاحكة، «أطمئنك بأننا لا نأكل لحم البشر».

بعد أن أدركت عضوات المجلس أن طرد الصحفي سيؤدي إلى مزيد من

الاضطراب والبلبة، طلبن من غوردون البقاء في الغرفة، وخرجن. راح يراقبهن من شقّ في الباب. كن قد وقفن معاً تحت شجرة مانغا، تحيط بهن النسوة القلقات، ورحن يتبادلن الآراء، ويهززن برؤوسهن مثل دجاجات مضطربات. بعد قليل، عدن إلى المكتب البلدي وقد كست وجوههن تعابير الرزانة والوقار، وجلست كل منهن في مكانها المخصص دون أن يعطين الصحفي فكرة عن القرار الذي توصلن إليه. وبخلاف ما كان يتوقّعه، كانت أوبالدينا، لا روزالبا، هي التي نهضت في نهاية الأمر، وتكلّمت.

«سأكون صريحة وصادقة معك يا سينور غوردونميس. فأنا مسؤولة عن الحفاظ على السلم والأمن في قريتنا. إن حضورك المفاجئ أثار اضطراباً بالغاً، وبصدق شديد، لا يمكننا أن نتوقّع شيئاً إيجابياً من شخص أرسله الرجل الذي قتل أربعة من أطفالنا. إننا نطلب منك المغادرة على الفور، لكنّ بما أن الظلام بدأ يهبط، وبما أن رجلاً أبيض مثلك يمكن أن تراه بسهولة جميع أنواع المخلوقات الليلية الخطرة، فقد قرّرنا أن نمنحك فترة حتى شروق الشمس غداً كي تغادر قريتنا، ونأمل أن لا نراك هنا ثانية».

«سينيورا أوبولتينا، أؤكد لك بأنني ـ».

«أوبالدينا»، قالت، «اسمي أوبالدينا».

«لقد جئت بسلام، يا سينيورا أوبالدينا. أنا رجل طيب».

«لا يأتينا شيء جيد من وراء تلك الأجمة»، ردّت أوبالدينا، ثم جلست وقد شبكت ذراعيها، مشيرة إلى إنهاء المناقشة.

قبل أن يتمكن غوردون من قول المزيد، طلبت منه المرأة التي يطلقون عليها اسم الممرضة راميريز أن يتبعها إلى مستوصف القرية، وقالت: «أنا

المسؤولة عن رعاية الشؤون الصحية في القرية، لذلك سأنظّف جروحك وبثورك وأضمدّها».

«بعد ذلك، ستتبعني»، قالت المرأة التي تدعى سيسيليا، «بما أنني المسؤولة عن توفير الغذاء للقرية، سآخذك إلى أحد مطابخنا العمومية لتتناول وجبة طعام دافئة».

«وأنا المديرة»، قالت روزالبا، «أشرف على كلّ شيء، ولا سيما الزراعة والإسكان في قريتنا. سأحرص على حصولك على غرفة نظيفة تحتوي على كلّ ما يمكن أن تحتاج إليه في هذه الليلة».

«وأنا مسؤولة عن مدرسة القرية وقرع جرسها»، قالت الآنسة كليوتيلد العجوز، «بمعنى آخر، فأنا ساعة ماريكيتا الجديدة. وسأحرص على أن تستيقظ مبكراً لكي تغادر قريتنا قبل شروق الشمس».

بعد أن خرج غوردون من المستوصف، اقتيد إلى ثاني أفضل مطبخ في القرية: مطبخ فيليغاس. كان مطبخ موراليس يحتل المرتبة الأولى، قالت سيسيليا، إلا أنه طُلب إبعاده عن خوليا موراليس.

عندما وصل غوردون وسيسيليا، لم يكن في غرفة الطعام إلا ثلاثة أزواج، تطعم أحداهن الأخرى ما تبقى من وجبات طعامهن. رحبت فلور (أرملة فيليغاس سابقاً) وزوجها إلفيا (أرملة لوبيز سابقاً) اللتان كانتا تغطيان جسديهما العاريين بمناديل، بغوردون وأجلستاه وحده إلى طاولة في الزاوية. أُعجب الصحفي بالقرية وبنظامها وبأهلها وبعاداتها. ولما منعته أوبالدينا من التحدث إلى أيّة من القرويات أكثر مما هو ضروري، أملى أفكاره، بالإنكليزية، في جهاز تسجيله الصغير. لم تعترض سيسيليا على ذلك. فقد كانت ودودة ولطيفة معه للغاية، وسرعان ما فهم غوردون السبب:

«سينور إسميس، قلت إنك تجري مقابلات مع الثوار. كنت أتساءل ربما... ربما التقيت بابني. اسمه آنخيل ألبرتو تاماكا، ابني الذي التحق بالثوّار منذ فترة بعيدة. إنه طويل القامة، و ـ».

«هل أنتِ متأكدة من أنه... هل أنتِ متأكدة من أنه... لا يزال على قيد الحياة؟»

«قلبي يقول لي إنه لا يزال على قيد الحياة»، قالت، وأردفت، «هل تظن أن هناك وسيلة يمكنني أن أوصل بها خبراً بأنني لا أزال على قيد الحياة أيضاً؟»

«لديّ بعض الاتصالات. اكتبي له رسالة وأعطني جميع المعلومات عنه. سأفعل ما كل بوسعي لأسلمها له. إن كان حياً يرزق، كما تعرفين؟»

أخذت النسوة الحاضرات ينظرن بفضول إلى غوردون، وكأنهن فوجئن عندما رأينه يتناول نفس الطعام الذي يتناولنه هنّ: وجبة من الرزّ، يوكا مقلية، وقطعة صغيرة من شيء يشبه اللحم المشوي ذات نكهة لاذعة لم يجرؤ على السؤال عن أصلها لأنه خشي أن يعرف الجواب. وعندما أنهى طعامه، أثنى على الطاهيات. وقالت إلفيا إنه لشرف كبير لهنّ أن يتناول رجل محترم مثله طعامه في مطبخهن المتواضع.

كان غوردون وسيسيليا يستعدّان للمغادرة عندما وصلت خوليا موراليس. كانت ترتدي الآن ثوباً أحمر من قماش البولكا المنقّط. كان الثوب عتيقاً ومرقعاً، لكنه ضيّق في المنحنيات المناسبة. وقفت الفتاة بجانب الباب، واضعة يديها على وركيها، ورمقت غوردون بنظرة جريئة، مبدية له ابتسامة خجولة، أربكته. كان من الواضح أن ذلك جزء من خطة إغراء محكمة ناجحة. فقد بدأ جفنه يرتعش، وهذا الأمر، بالإضافة إلى الانتصاب الذي

لم يكن مرئياً بسبب بنطاله الفضفاض، يشيران إلى شدة رغبته فيها. أسرعت سيسيليا ووقفت أمام الصحفي، وكأن جسدها الصغير سيمنع الرجل ذا الساقين الطويلتين من رؤية شيء. «أسرع يا بني»، قالت لغوردون، مع أنها كانت توّجه كلامها إلى خوليا. «إن روزالبا تنتظرنا في الكنيسة». شبكت خوليا ذراعيها وأسندت ظهرها إلى هيكل الباب، وأفسحت لهما لكي يعبرا. عندما مرّ من أمامها، كان كل ما فعله غوردون أن غمزها. مشى وسيسيليا إلى جانبه، ولسان حاله يقول إن خوليا أجمل مخلوق رآه في حياته.

كان الجزء الخلفي من الكنيسة قد جُهّز بأرجوحة وبطانية. وإلى جانبها، فوق صندوق خشبي مقلوب استخُدم منضدة صغيرة، انتصب مصباح مضيء بجانبه خرقة وقطعة صابون.

«هل يوجد هنا حمّام؟» سأل غوردون.

«لا، مستر إسمفس. ليس هنا»، قالت روزالبا، «لدينا حمّام واحد فقط في القرية كلها. إنه حمّام عمومي فيه عشر مقصورات للدش وعشرة مراحيض، وهو نظيف إلى درجة لا يمكن أن تصدقها».

«عظيم! هل يمكنك أن تريني إياه؟»

«أنا آسفة يا مستر إسميس، لكن لا يسمح لك باستخدامه. وهذا قرار آخر اتخذه المجلس. يجب أن تستعمل ذلك الدلو الفارغ». وأشارت إلى دلوين، أحدهما مليء بالماء، مركونين على الجانب. ثم أردفت قائلة: «هناك المزيد من البطانيات في تلك الزاوية إذا احتجت إليها. فقد بدأ البرد يشتد في الليل. أتمنّى لك ليلة سعيدة ورحلة عودة آمنة غداً»، قالت ذلك وابتسامة ترتسم على وجهها. وتباعدت شفتاها وكأنها تريد أن تقول شيئاً

آخر، لكنها لم تنبس بكلمة. انتظرت ردّ غوردون ـ ابتسامة بشفتين مزمومتين ـ ثم استدار ومشى صوب الباب، وأمارات الحزن بادية على وجهه.

تبعها بعينيه حتى غادرت المبنى، ودُهش عندما أدرك أنه لم يكترث بعريها. قال لنفسه من المدهش كيف تستطيع العين البشرية أن تتأقلم بسرعة، وللحظة تخيّل نفسه هو ومئات الأشخاص يسيرون عراة في الجادة الخامسة في مدينة نيويورك، يتوقفون بين الحين والآخر، لرؤية أعضائهم التناسلية وأردافهم المنعكسة على واجهات المخازن الزجاجية الطويلة اللامعة التي تبيع كلّ شيء إلا الثياب. ضحك، ثمّ توجه نحو الدلو الفارغ وتبوّل فيه، ثم خلع حذاءه الرياضي الوسخ، وجوربيه وصعد إلى الأرجوحة ودلّى ساقيه الطويلتين من الجانبين، وبيده نسخة مهترئة من رواية «مائة سنة من العزلة» لغارسيا ماركيز، التي دأب على قراءتها وإعادة قراءتها منذ زمن. استلقى في الأرجوحة ممدداً، محدّقاً في السقف الأبيض الذي أحدث فيه ضوء المصباح بقعة شمسية ضخمة ذات ألوان صفراء ناعمة. قرأ لفترة قليلة، ثمّ أطفأ ضوء المصباح، وفي الظلام الدامس تأرجح قليلاً بقدميه إلى أن جعله الاهتزاز يغطّ في النوم.

استيقظ غوردون في منتصف الليل مبللاً بالعرق، وخلع ثيابه بدافع من الغريزة، ثم راح يتقلّب في الأرجوحة، وهو عار تماماً، يتنفّس بصعوبة ويئن. إنه مريض. فجأة، أحسّ بيد صغيرة رقيقة تلامس جبينه وخدّيه الملتهبة بالحرارة، ثمّ أحسّ بقطعة قماش مبللة، تطبطب فوق وجهه ورقبته وذراعيه وصدره. لا بد أنه حلم، قال لنفسه وهو يهذي. وسقطت بضع قطرات من الماء على شفتيه اللتين افترتا لها لتدخل. أحسّ بمزيد من

الطبطبة على وجهه ورقبته، وسقطت نقاط من الماء على شفتيه، ثمّ أحسّ بقبلة: شفتان مكتنزتان ناعمتان تضغطان برقة على شفتيه، ثم تنتقلان إلى أذنه، وإلى رقبته، لتعودا إلى فمه، حيث راحتا تجوسان فوقه. رائحة بريّة فاحت في الهواء جعلته يفكّر بخوليا، وبسرعة أدرك أنه لم يكن يحلم. فقد قفزت إلى الأرجوحة، وأحسّ بجسدها الخفيف الناعم يحاول امتطاءه بصعوبة. كانت تحرّك ردفيها النحيفين وتلويهما مثل قطة. حرّك غوردون ردفيه أيضاً، بحماسة وشهوانية في البدء، ثم بقوة ـ لأنه أحسّ للتو بانتفاخ غير مرغوب فيه وغير متوقع في الجزء الأوسط من الجسد المستلقي فوقه. كانت معركتهما حامية الوطيس، معركة ارداف مهتاجة، فقد فيها غوردون في نهاية الأمر، بعد أن غدرت به شهوته الجنسية، جميع قواه في المقاومة. هبطت الآن اليدان الناعمتان والصغيرتان اللتان كانتا تمسدان جبهته منذ قليل بحزم إلى صدره، بينما طوّقت ربلتا ساقين مكسوتين بالعضلات خصره بحركات متأرجحة. جلست خوليا بين ساقيه وراحت تترافص بطريقة مغرية، تشدّه كلّه نحوها بقوة متزايدة، وكأن شيئاً في داخلها يريد أن يتملكه. لذلك أخذ يتحرّك في داخلها وراحت هي تصرخ، وبدأت تتلوّى وتتأفعى، وبعد أن أطبقت بربلتيها القويتين حول خصره وهي تدفع نفسها إلى الأسفل، راحا يتحركان معاً بتناغم وكأنهما يرقصان رقصة المامبو، والأرجوحة تتأرجح تحت ثقل جسديهما الشبقين، هو يتأوه، وهي تصرخ، حتى اعترتهما رعشة قوية، وقذفا كلاهما، هو في داخلها، وهي على أسفل بطنه، وملأت رائحة قطة بريّة الغرفة الفارغة في الحال.

انسلّت خوليا فوق جسم غوزدون وأسندت رأسها بهدوء إلى صدر الرجل، تنصت إلى خفقات قلبه. وأخذ يمرر أصابعه الطويلة في شعرها

الطويل، الكثيف. «ما اسمك الحقيقي؟» سألها. لم تجب أو ربما أجابت بلغتها الخاصة المتمثلة في حركاتها الرشيقة التي لم يرها غوردون لانعدام وجود ضوء يمكنه من رؤيتها. وهكذا استلقيا هناك بصمت محموم، يستمع أحدهما إلى دقات قلب الآخر، حتى غطّ غوردون في نوم عميق، منعه من سماع صوت قرقعة الباب عندما غادرت.

*

قبل شروق الشمس، وجدت المعلّمة كليوتيلد غوردون مستلقياً وهو عار خارج الكنيسة، يرتعش. وقد أحاط بجسمه جيش من النمل الأحمر، فصمّمت على حمله وإعادته إلى عرينه. جثت المرأة العجوز وراحت تتحسس جبهته: كان ملتهباً بالحمّى. كانت شفتاه ترتعشان، وأسنانه تصطك وكان يغمغم بكلمات غير مفهومة. أمسكته من إحدى ذراعيه لتسحبه إلى داخل المبنى، لكن عظامها كانت هرمة وثقيلة. تجهمت نظرتها تحت نظارتها السميكة، ولم تكن تهمها حالة الصحفي أكثر مما كانت تهمها استحالة مغادرته القرية عند شروق الشمس تنفيذاً للأمر الصادر. دخلت إلى الكنيسة وقرعت الجرس، مشيرة إلى أن وقت النهوض قد حان، ثمّ توجهت إلى بيت روزالبا وإلويسا وأخبرتهما بأن الصحفي مريض، وقالت: «أقترح أن ندعو عضوات المجلس لعقد اجتماع واتخاذ قرار بما يمكن عمله حيال ذلك الرجل».

«لا يوجد وقت لعقد اجتماعات»، أجابت روزالبا بنبرتها القاضية السابقة، التي كانت تظهر بين الحين والآخر وبشكل تلقائي، مما كان يزعج عضوات المجلس الأخريات، وأضافت، «أنا وإلويسا سنساعد مستر إسميس. اذهبي وأحضري الممرضة راميريز»، أمرت كليوتيلد، وأضافت،

«بسرعة». لم تعد لدى كليوتيلد الشجاعة الكافية لمواجهة روزالبا كما كانت تفعل. انطلقت وهي تضرب بعكازها الأرض، وتتذمر بكلمات غير مفهومة. خارج الكنيسة، جرفت روزالبا النمل من فوق جسم غوردون، ثم أمسكته من ساقيه، بينما أمسكته إلويسا من ذراعيه. وحملتاه معاً إلى الداخل. اختلست المرأتان نظرات إلى العضو التناسلي الكبير للرجل، لكنهما تصرفتا كما لو كانتا تريان قضباناً وخصى كلّ شمس. ولم تتمكنا من حمل غوردون وإعادته إلى الأرجوحة، لذلك كدستا عدداً من البطانيات في إحدى الزاويا، ومددتاه فوقها، وحاولتا أن تغطياه بملاءة زرقاء رقيقة، لكن جسده كان ينضح عرقاً غزيراً فرفضه. كان يشتكي من صداع في رأسه وألم مبرح في عضلاته ومفاصله ووراء عينيه.

وسرعان ما وصلت كليوتيلد مع الممرضة راميريز، التي لم تكن ترتدي شيئاً سوى قناع وقفازين صنعتهما منذ زمن بعيد من مفرش مائدة بلاستيكي أبيض مرمي، رُسمت عليه مجموعة من الثمار والخضراوات الملوّنة. وأحضرت معها المرجع الطبي القديم الذي يخص زوجها المرحوم وحقيبة الأدوات، ودفتر ملاحظات تسجّل فيه النتائج التي توصلت إليها، والعلاج بالأعشاب لكلّ داء ومرض تعرفه وطريقة معالجته. عندما رأت الممرضة الرجل العاري مستلقياً فوق كومة من البطانيات، وقفت مذهولة. فقد كان الرجل العاري الوحيد الذي رأته في حياتها هو زوجها المرحوم. وقد أثارت فيها رؤية رجل عار آخر بعد سلالم عديدة شيئاً، نوعاً من الرغبة، تشبه ـ مع أنها ليست نفسها تماماً ـ ما كان يعتريها كثيراً من مشاعر تجاه إرليندا، شريكتها الحالية. لكن الفرق كان في شدة هذه المشاعر. فقد كانت الشهوة التي تملكتها الآن أقوى بكثير، حتى كاد كبتها أن يكون

مستحيلاً، مخزياً. بذلت جهداً كبيراً كي لا تكشفها أمام النساء الثلاث الأخريات في الغرفة. وبحاجبها الذي أخذ يتعرّق، وبيديها المرتعشتين، جثت الممرضة راميريز على ركبتيها إلى جانب غوردون، وراحت تفحصه بدقة بقدر إمكانها. عندما وضعت أذنها على صدر الرجل لسماع دقات قلبه، لامست حلماتها المستثارتين جلد الرجل المحموم، مما جعل إشاراتها الحيوية تخرج عن السيطرة. وتبيّن لها أن نبضات قلب الرجل سريعة، وضغط دمه منخفض، وأن حمّى شديدة تعتريه. (لم تستطع أن تعرف شدة الحمّى، لأن جميع الخطوط والأرقام فوق الأربعين درجة مئوية كانت قد امحت وبهتت من على ميزان الحرارة الذي كان زوجها يستخدمه لكثرة استخدامه ولمرور الزمن). عندما أنهت فحصها، غطّت غوردون من خصره حتى الأسفل بملاءة وسألته عدداً من الأسئلة، لا علاقة لبعضها بالمحنة التي يعاني منها، مثل، «هل جميع الأشخاص في بلدك بيض مثلك؟» ودوّنت إجاباته في دفتر ملاحظاتها، بما في ذلك، «لا، إنهم أكثر بياضاً»، ثم قارنتها بالملاحظات السابقة وبالمرجع الطبي. وأخيراً، من خلال قطعة البلاستيك التي تغطي فمها أعطت تشخيصها: حمّى الضنك.

«أرجوكِ قولي إنه ليس مرضاً معدياً»، قالت روزالبا.

أجابت الممرضة إنه ليس مرضاً معدياً. إذ أن فيروس حمّى الضنك لا ينتقل إلا بواسطة لسعة بعوضة مصابة، ولا يمكن أن ينتقل الفيروس إلى البعوضة إلا بعد أن تلسع إنساناً مصاباً. لذلك يجب التأكد من أن لا يلسع المستر أي نوع من البعوض.

«هل هي حمّى ضنك نزفية؟» سأل غوردون بصوت واهن. فقد كان يعرف أن هذا النوع من حمّى الضنك مميت في أغلب الأحيان.

قالت إنها ليست حمّى ضنك نزفية، لكنها قد تصبح كذلك إذا لم يتوخوا الحذر. وقالت إنها ستعد شراباً للتخفيف من حدّة أعراضه، لكن عليه أن يعلم أنه لا يوجد علاج محدد لحمّى الضنك. يجب أن يرتاح ويشرب الكثير من السوائل كي يتماثل للشفاء، وقد تستغرق فترة الشفاء من عشر شموس إلى خمس عشرة شمساً.

وأصدرت روزالبا أمراً إلى كليوتيلد بأن تطلب من فريق الصيانة والتنظيف إغلاق نافذتي الكنيسة، وتعليق ناموسية كبيرة فوق فرشة غوردون التي صُنعت على عجل. استأذنت إلويسا وغادرت إلى عملها. فقد كانت ترأس فريقاً من السمكريات القويات اللاتي تنكّبن المهمّة شبه المستحيلة المتمثلة في ترميم قناة جر الماء القديمة. وطلبت الممرضة راميريز من روزالبا أن تراقب المستر لفترة من الزمن، لأنه يتعين عليها أن تجمع الأعشاب اللازمة لإعداد الدواء، ثم زيارة أرملة بيريز التي بعثت برسالة تقول فيها إنها تحتضر فعلاً هذه المرة.

«هيا اذهبي يا راميريز»، قالت روزالبا، «افعلي ما يحب ان تفعليه. وأنا سأعتني بمستر إسميس ريثما تعودين».

عندما سمعت خوليا موراليس الخبر عن وضع غوردون الصحي، توجهت إلى الكنيسة حاملة قِدراً من الحساء وأومأت لروزالبا بأنها تريد أن تتطوّع لرعايته.

«لسنا بحاجة إلى مساعدة للاعتناء به»، قالت روزالبا لخوليا من وراء المشبك المعدني الصغير، «ضعي الحساء على الدرج إذا أردت، وسأخبر مستر إسميس بأنك أنتِ التي أتيت بها».

هزّت خوليا رأسها، فقد أرادت أن تطعمه الحساء بنفسها، بنفسها، بنفسها. قالتها ثلاث مرات وضربت على صدرها براحة يدها.

«لقد قلت لك يا خوليا. ضعي الحساء على الدرج وعودي إلى عملك».

تضرّج وجه الفتاة حمرة من شدة الغضب. وبدأت ترسم سلسلة من الحركات السريعة بيدها الطليقة وخاصة بإصبعها الوسطى ـ أكملتها بمجموعة من الأصوات الغريبة العالية النبرة. وجلست أخيراً على الرصيف ووضعت قِدر الحساء بين ساقيها، ودفنت وجهها بين يديها، وأخذت تنشج. عندما رأت روزالبا هذا المشهد المثير للشفقة، رقّ قلبها وقالت إنها تسمح لها بذلك شريطة أن تغادر حالما يتناول غوردون الحساء. وافقت خوليا ودخلت، وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة بعد نوبة غضبها. وضعت بطانية بجانب غوردون، تحت الناموسية، وراحت تطعمه ببطء شديد لكي تبقى أطول فترة ممكنة لرعايته. وجعلته يشرب كوباً بعد كوب من عصير العنب الداكن الذي قدمه زوج لويز فيليغاس. «فيروس قاتل طبيعي»، قالت فلور فيليغاس. غطّ غوردون في النوم، وعندما أفاق أخذ يحدّق في خوليا بلا مبالاة، كما لو كانت مرسومة على الحائط. لكن ذلك لم يثبّط من عزيمتها، بل وضعت خرقة رطبة على وجهه الذي لفحته الشمس، جالبة الراحة إلى عينيه الحمراوين المنتفختين الجافتين، وشفتيه المتشققتين.

ومن الزاوية المقابلة، كانت روزالبا الجالسة على كرسي خشبي قابل للطيّ تسند ذراعيها إلى بطنها، تراقب الفتاة البسيطة بإشفاق. الفتاة الساذجة المسكينة! قالت لنفسها. عندما يتماثل هذا الغرينغو للشفاء فإنه سيذهب، وستبقين أنتِ محطمة الفؤاد. وحتى لو أحبّكِ الآن، فإنه عندما يكتشف ما بين ساقيك، سيكرهك وسيحتقرك لأن لديه الشيء ذاته.

قبل أن تعود خوليا إلى البيت، منحت غوردون قبلة محمومة على فمه ـ

قبلة ضائعة لم يقرّ بها ولم يلحظها أحد، لأن متلقيها كان في حالة هذيان، وغطّت روزالبا في النوم وهي جالسة في الكرسي. وبعد فترة، عندما استيقظت روزالبا، وجدت غوردون جاثياً على ركبتيه يتصارع مع الناموسية، يبذل جهداً لينهض. . . فجرت إلى جانبه.

«ماذا تفعل يا مستر إسميس؟ ستؤذي نفسك».

«أريد أن أبول»، غمغم، مغطياً عضوه التناسلي بيده.

«هنا، إفعلها هنا». أمسكت الدلو الذي فاحت منه رائحة بول غوردون من الليلة الماضية، ورفعت طرفاً من الناموسية وأعطته له.

أخذ الدلو بيد واستدار على ركبتيه، وأخذ نفساً عميقاً. وملأ الغرفة صوت طرطشة مرتفع طويل.

«الجو معتم هنا»، قال، ووضع الدلو عند الطرف الأوطأ من الفراش، داخل المنطقة التي تغطيها الناموسية. «كم الساعة الآن؟»

لم يسأل أحد روزالبا هذا السؤال منذ عدة سلالم، فقالت: «إنه نهاية يوم العمل تقريباً». لاحظت أن غوردون بدأ يفتش داخل حقيبته، يبحث عن شيء. أخرج سروالاً قصيراً وارتداه بسرعة. إنه يمر في لحظة زوال الحمّى، قالت لنفسها، لكن قبل أن يهبط الليل اشتعلت نار الحمّى ثانية في جسده.

كان غوردون لا يزال جاثياً على ركبتيه، عندما أخذ يتفحص بدقّة كلّ زاوية من زوايا الغرفة الواسعة. قال فجأة، «ما الذي يجعل هذا المبنى كنيسة؟ فلا يوجد فيه شيء يجعلني أفكّر بالله».

تطلعت روزالبا أيضاً في أرجاء الغرفة وابتسمت، من الواضح أنها كانت مسرورة من خواء المشهد. قالت: «تعوّدنا أن نطلق عليها الكنيسة لأنها كانت كذلك عندما كنا ندعو الله والجنة جنة».

«وماذا تسميان الله الآن؟»

«لا نسميه أي شيء. إنها مجرد كلمة فارغة، مثل هذه الكنيسة».

«والجنة؟»

«فارغة أيضاً. من دون الله لا توجد جنة أو جهنم. إن الحياة أفضل هكذا».

حدّق غوردون فيها بفضول، وسألها، «هل تعبدون شيئاً؟»

«الطبيعة. لقد تعلّمنا أن نقدّر جمال أرضنا ونباتاتنا وحيواناتنا وما نجنيه من فوائد منها».

جلس غوردون على الفراش مسنداً ظهره إلى الحائط. وقد بلغ منه التعب مبلغاً لم يكن يرغب معه في مواصلة المناقشة عن الإيمان. قال: «إلى أين ذهبت؟»

«من؟» مدت روزالبا يدها لتتناول المصباح.

«الفتاة التي كانت هنا من قبل».

«خوليا؟ أظن أنها عادت إلى العمل». أضاءت المصباح ووضعته على الصندوق المقلوب بجانبه.

إن قرب الضوء لم يمكّن غوردون من رؤية ما وراء الناموسية جيداً، إلا أنه مكّنه من رؤية كلّ ما حوله بوضوح شديد. لاحظ عدّة فتحات في الناموسية. «إنها لا تستطيع أن تتكلم، أليس كذلك؟»

«لا».

«ما اسمها الحقيقي؟ أقصد، اسمه الحقيقي؟»

حدّقت روزالبا في الصحفي من خلال فتحات الناموسية، كأنها تريد أن ترى أو تعرف شيئاً شخصياً وفريداً عنه. إذاً فهو يعرف عن خوليا، قالت

لنفسها. قد يكون غرينغو من نوع مختلف: فضولياً، يرغب في تجريب أشياء جديدة، أحاسيس جديدة. فلا يمكن أن يكون جميع الغرينغو ماديين، ضيّقي الأفق، متعجرفتين.

«خوليو»، قالت روزالبا بنبرة تأكيد، اسمه خوليو كذا. لا أذكر اسمه الأوسط. إننا ندعوه خوليا منذ مدة طويلة إلى حد أنني ـ».

«منذ متى؟»

«همم». هزت كتفيها، وقالت: «لقد نسيت. كلّ ما أعرفه أنّ كلّ شيء بدأ في اليوم الذي اختفى فيه الرجال».

«الرجال، حسناً. كيف اختفوا؟»

«الثوّار».

«هل قتلهم الثوّار جميعاً؟»

«ربما فعلوا ذلك».

«لقد اقتادوهم، أليس كذلك؟»

«إنها قصة يطول الحديث فيها»، قالت، باذلة جهداً لكي لا تبدو مرهقة وغير مهتمة.

كانت تلعب لعبة يصعب التعامل معها. كان غوردون واثقاً من ذلك. بإمكان اثنتين أن يلعبا تلك اللعبة. قال: «لاتقلقي إذاً»، ربما في وقت آخر». ترك جسمه ينسل من الحائط حتى أصبح ظهره مسطحاً على الفراش، وغطى جزءاً من جسمه بالملاءة الزرقاء الرقيقة. بعد ذلك بقليل، أعلن الجرس نهاية يوم العمل. خمس قرعات مدوّية، بدت من داخل الكنيسة الفارغة وكأن بداية نهاية العالم قد بدأت.

بينما كان صدى رنين الجرس الأخير لا يزال يدوّي في آذانهم، صاحت روزالبا، «هل تريد أن تسمع حقاً كيف اختفى رجالنا؟»

«إذا أردتِ أن تخبريني القصة»، صاح، وابتسامة مخادعة ترتسم على وجهه.

استقامت في جلستها، وعدّلت عمودها الفقري على ظهر الكرسي، لتنقل وزن جسمها الزائد. رفعت عينيها ونظرت إلى السقف الأبيض، وكأنها تستمد منه إلهاماً، ثمّ بدأت تروي قصّتها:

«بدأ اليوم الذي اختفى فيه الرجال مثل صباح أي يوم أحد نموذجي في ماريكيتا...»

توقفت إلوسيا، والممرضة راميرز وزوجها إرليندا كالديرون بعد العشاء. كانتا ترتديان معطفين من الخيش خاطتهما لوكريسيا العجوز، لجميع القرويات لارتدائها في الأمسيات الباردة. قبّلت إلويسا تيكتيكو وقدمت لها طبق عشائها ومعطفاً آخر.

«كيف حال المستر؟» سألت الممرضة. حاملة وعاء طينياً صغيراً في يديها.

«كان يقظاً تماماً لفترة طويلة بعد الظهر»، قالت روزالبا، «حتى أنني حكيت له حكاية، وقد أحبّها كثيراً. لكنه أخذ يهذي مرة أخرى».

«هذه حالة نموذجية من حمّى الضنك»، قالت الممرضة. اتجهت نحو غوردون، وارتاحت عندما رأت أنه يرتدي سروالاً قصيراً الآن. تحسست جبهته وفحصت جسمه للتأكد من عدم وجود طفح جلدي، أوضحت أنه أحد الأعراض النموذجية للمرض. هل تقيّأ؟ لا؟ جيد جداً! هل اشتكى من صداع؟ حسناً، هذا شائع. ألم في العضلات؟ بالتأكيد، هذا شائع أيضاً. صبّت الممرضة راميريز في كأس قليلاً من المحلول الذي أعدّته ـ منقوع من زهر العسل والأقحوان، وأوراق النعناع والماريوانا، وبذور اليانسون

والرقطيون ـ وحشرت المزيج السميك بقوة في فم غوردون: سأهتمّ به غداً»، تطوّعت.

«جيد»، قالت روزالبا، «سأحرص على أن يتناول الكثير من العصائر، ربما حساء جيداً من مطبخ موراليس. وسأعود بعد العشاء لأحكي له قصّة أخرى» أطفأت ضوء المصباح وغنّت، «طابت ليلتك يا مستر إسميس». وبعد قليل ذهبن جميعهن.

*

بعد أن استمع إلى الحكاية الأولى، قال غوردون لروزالبا إنه يريد أن يؤلف كتاباً عن ماريكيتا الجديدة. لذلك، دأبت روزالبا مساء كلّ يوم، طوال إحدى عشرة شمساً متتالية، على رواية حكاية لغوردون عن قريتها التي تعيش فيها الأرامل، ودأب غوردون على الاستماع إليها وتسجيلها، وعندما كان يستعيد شيئاً من قوته، كان يدوّن ملاحظات: وغطّت ذاكرة روزالبا المتميّزة جزءاً هاماً من تاريخ ماريكيتا منذ ما قبل اختفاء الرجال بفترة طويلة، لكن حكاياتها لم تكن موثوقة إلى درجة كبيرة، إذ كانت مجموعة من تجاربها الخاصة مقترنة بروايات عديدة مختلفة ـ وهذا الجزء هو الذي لا يمكن الركون إليه ـ افتراضات جمعتها في غياب الحقائق. ولحسن الحظ كان من السهل على غوردون أن يعرف، عندما كانت روزالبا تروي قصصها بنبرة تخلو من أي إحساس أو تخلو من أي تفاصيل، لكن أيضاً لأن روزالبا ـ التي كان من الممكن أن تكون، لولا ذلك، حكواتية موثوقاً بها ـ كانت تتعثر بالكلمات، أو تنظر إلى الجهة الأخرى وهي تحكيها. وكلما كان الشك يساور غوردون، كان يضع سراً علامة استفهام بجانب السطر الذي يشك في صحته، أو يبطئ قليلاً أثناء تسجيله على

الشريط. وكان يدقّق روايتها إزاء رواية خوليا ـ صديقته الخاصة ـ عندما تتاح له الفرصة.

وكانت رواية روزالبا تُقاطع مرات عديدة في كلّ ليلة. فقد كانت عضوة المجلس أوبالدينا مثلاً تتوقّف في أحيان كثيرة لتفحص غوردون وتقيّم مدى تحسّنه. كما كانت النساء المهتاجات من مختلف الأعمار يأتين في كلّ مساء بعد العشاء، أملاً في أن يتمكّن من إلقاء نظرة على الرجل نصف العاري، يجلبن له هدايا من الأزهار، والمانغا، والبرتقال، والموز، وأطباق من الحساء اللذيذ أو نقانق مليئة بالدم والحلويات ـ كانت رؤيتها تثير اشمئزاز غوردون. وكان هو نفسه يقاطع روزالبا في أحيان كثيرة لكي يكرر كلمة لا يعرفها أو لم يسمعها من قبل، ويسألها أسئلة محددة عن الحكاية، أو لتوضح له حكاية ملتبسة، أو يطلب منها أن تكرّر جزءاً من الحكاية التي أحبّها. ولم يكن من غير المعتاد أن تقفز روزالبا من حكاية إلى أخرى، أو أن تستطرد أو أن تحيدَ عن النقطة وتبدأ مناقشات لانهاية لها عنها. وفي تلك المناسبات، كان الصحفي يضطر للجوء إلى أساليب الصحفي الماهرة لكي يعيدها إلى صلب الموضوع: «هذا أمر جدير بالاهتمام كثيراً، يا سينيورا روزالبا، لكنكِ كنتِ تقولين إن...».

وهكذا عرف غوردون قصة اختفاء الرجال من ماريكيتا، وكيف تحوّل خوليو إلى خوليا، والأزمة التي حدثت عقب خروج الرجال من القرية: فترة الجفاف الطويلة، واستطاع قطع الكهرباء، وشح الطعام والماء، ووباء الإنفلونزا الذي أودى بحياة عشرات الأشخاص، ومغادرة نصف السكان الكبار مع أطفالهم القرية مع مرور الزمن. وعرف من روزالبا قصة اللجنة العسكرية التي جاءت إلى القرية وعيّنتها قاضية جديدة للقرية، والمحاولات

اليائسة التي بذلتها المدام للاستمرار في عمل الماخور في قرية الأرامل والعوانس. وعرف منها أيضاً عن مديرة المدرسة الغامضة التي رفضت أن تعلّم التاريخ، وكيف أصبح سانتياغو مارين «الأرملة الأخرى» في القرية، وقصة الخوري المنافق الذي وضع خطة التكاثر والتناسل في البداية، والذي تسبب في مقتل فتيان القرية الأربعة الوحيدين. وقصة الأرملة التي عثرت على ثروة تحت سريرها عندما كان اقتصاد القرية يعود ببطء إلى نظام المقايضة. وأخبرته عن اليوم الذي توقّف فيه الزمن، وعندما أصبح التوقيت الشمسي أنثوياً، وكيف أنقذت بقرة تدعى بيريسترويكا خطة القاضية في إعادة الهيكلة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي حوّلت القرية من قرية ضئيلة متعفّنة إلى قرية مزدهرة ذات اكتفاء ذاتي.

بالطريقة نفسها، كانت روزالبا تروي حكاية واحدة للصحفي كلّ مساء، وكانت خوليا موراليس تختلق قصّة أخرى، بالاشتراك مع غوردون، لكي يكتبها عنهما. ففي كلّ ليلة، بعد أن تخلد نساء القرية إلى النوم، كانت خوليا تنطلق في الشوارع المقفرة صوب الكنيسة. وفي الليالي الأولى، كانت تكتفي بتمرير أطراف أصابعها الرهيفة على جسم غوردون في ظلام الغرفة الدامس، عندما يكون غافياً بتأثير المخدّر الذي كان يحدثه الدواء الذي تعدّه الممرضة. لكن عندما بدأت صحة الرجل تتحسن، بدأت الفتاة تطلب المزيد من يديه وأصابعه، ومن وركيه ومن لسانه وشفتيه. وعندما كانا يقبّلان بعضهما ويمارسان الجنس، وتمتصّه، كانت تتنشق الهواء الذي يزفره، وتملأ نفسها به ليلة بعد ليلة.

*

بعد اثنتي عشر شمساً، أبلغت الممرضة راميريز عضوات المجلس

الأخريات بأن غوردون قد تماثل للشفاء تماماً. وقد أعلنت ذلك أثناء تناول الفطور في مطبخ موراليس العمومي.

«حسناً، إذاً، من الأفضل أن أرافقه إلى الأجمة الآن»، قالت أوبالدينا، «أريد أن أتأكد من مغادرته بشكل نهائي». وضعت قطعة الأريبا التي كانت تتناولها على الطاولة واستوت واقفة.

«عندي اقتراح»، قالت روزالبا فجأة، ونظرت إلى أوبالدينا، وأشارت إلى المقعد الخشبي، طالبة منها الجلوس ثانية. أدارت النساء الثلاث الأخريات عيونهن الفضولية إلى روزالبا. «كما نعرف جميعاً، فإن مستر إسميس هو أول رجل حقيقي نراه بعد سلالم عديدة». دفعت روزالبا رأسها إلى الأمام، وخفضت صوتها كيلا تسمعها النساء الآخريات الجالسات إلى الطاولة بجانبهن. «ومن الطبيعي أن تبدي بعض من أجمل نسائنا اهتماماً به، لذلك، فإني أقترح أن نستغلّ وجوده هنا لكي تحمل منه امرأتان أو ثلاث نساء. وإني متأكّدة من أن مستر إسميس لن يمانع في تقديم هذا المعروف لنا بعد كلّ ما فعلناه له». بدت أوبالدينا على استعداد للمعارضة، لذلك مضت روزالبا تهمس الأسباب التي تدعو عضوات المجلس إلى أخذ اقتراحها بعين الاعتبار. «لقد بدأت نساء قريتنا يشخن، ومع مرور كلّ سلّم، تفقد امرأة أخرى في قريتنا القدرة على الحمل. وبعد حوالي أربعين سلماً، ستدخل فتياتنا الشابات في مرحلة سن اليأس، وسنكون جميعنا قد متنا، ولن يبقى ليواصل ما بدأنا به». ومرة أخرى، حاولت أوبالدينا أن تبدي رفضها، لكن روزالبا لم تنه حديثها، وواصلت حديثها، «بالإضافة إلى ذلك، هل تستطعن تخيّل كيف سيكون أطفال مستر إسميس جميلين، بشعره الذهبي وعينيه الزرقاوين؟ وبأنفه الصغير وبشرته البيضاء؟ ولاسيما بشرته البيضاء. سيكونون في غاية الجمال والروعة!»

نظرت الممرضة وسيسيليا إلى لون أطرافهما وبطنهما وثنيتا ذراعيهما على نحو أخرق، وغطتا جزءاً صغيراً من عريهما الأسمر. لبثت كليوتيلد صامتة، فقد عاشت ببشرتها هذه طوال هذه السنوات لا لكي تخجل منها الآن فجأة. أما أوبالدينا، أشدّ النساء الخمس سمرة، والتي تبدو هندية الأصل أكثر من أية واحدة أخرى، فقد بدا لها أن تعليق روزالبا إهانة لها. فقالت بطريقة مبجلة، «أشعر بأنني محظوظة جداً بأن أبدو كما أبدو». ورفعت ذقنها لكي تظهر عظام خدّها الجميلة، «إني أقول إنها بركة من الآلهة، أعتقد بقوة أن أجيالنا القادمة يجب أن تشبهنا: شعر أسود وعيون بنية، ذات أنوف تشبه أنوفنا، ويجب أن تكون بشرتهم داكنة لتتحمّل الظروف القاسية، وسميكة تقاوم وتدوم أطول مدة ممكنة».

شعرت روزالبا الآن بأنها هي التي أصبحت موضع تمييز، فقد استبُعدت بشرتها البيضاء وعيناها الخضراوان من النموذج الذي حددته أوبالدينا لسكان ماريكيتا في المستقبل. «لقد ذكرت مستر إسميس فقط لأنني أظن أنه رجل وسيم، لكن إذا لم توافقن، فإني لا أمانع. ولا أزال أرى أن أحداً هنا يجب أن يحمل طفلاً أو طفلين من الذكور إذا أردنا أن يكتب لقريتنا البقاء».

«أقول إننا يجب أن نجرّب حظّنا مرة أخرى مع الرجل الموجود معنا»، قالت أوبالدينا، مشيرة إلى تلك المناسبة، منذ سلّمين، عندما أُقنع سانتياغو مارين وخوليو موراليس بأن يبذلا مجهوداً لمضاجعة امرأة يختارها كل منها لإنجاب طفل منها. واختار سانتياغو مانوليا موراليس، بينما اختار خوليو، وكأنه يردّ الجميل، أمبارو مارين، أخت سانتياغو الصغرى. وطلبت أمّ الفتاتين منهما أن تعاملا الرجلين برقة، لأن سانتياغو وخوليو لا يستجيبان

إلا برقة وحبّ. وحدث اللقاءان في بداية قمر الأول من السلّم، عندما كانت احتمالات حبل الفتاتين في أوجها. وفعلت مانوليا وأمبارو كلّ ما بوسعهما، واستخدمتا كل ما تعرفانه لإثارة الرجلين وتهييجهما، لكن لا رقتهما ولا نعومتهما أولاً، ولا شهوانيتهما ولا فجورهما لاحقاً، أثارت أيّ استجابة في الرجلين.

أطلقت روزالبا ضحكة مصطنعة، وقالت: «افعلي ذلك. جربي حظّك مرة أخرى مع هذين الاثنين»، ودفعت طبق طعامها الذي لم تلمسه بعيداً عنها. في تلك اللحظة بالذات، تقدمت خوليا موراليس إلى مائدتهما وهي تحمل قِدراً جديداً من القهوة، وملأت أكوابهن.

عندما قالت كليوتيلد العجوز بشكل قاطع «يجب أن يذهب المستر اليوم»، بدأت يد خوليا، اليد التي كانت تمسك قِدر القهوة، ترتعش، لكن عضوات المجلس كنّ منهمكات في مناقشتهن فلم يلحظن وجود الفتاة. «لكن يجب أن ننتظر حتى ينتهي طعام الفطور، عندما تعود النساء إلى العمل، وإلا فإن مغادرته ستحدث هياجاً وصخباً».

أشارت الممرضة راميريز وأوبالدينا برأسيهما بأنهما توافقان على ما قالته كليوتيلد. ولبثت سيسيليا صامتة، محايدة. «إذاً فالمسؤولية تقع عليكن»، قالت روزالبا، وألقت بيديها في الهواء. أما خوليا، فقد اختفت بسرعة عبر باب المطبخ.

*

نظر غوردون إلى الأعلى ورأى غيوماً داكنة ضخمة تملأ السماء. كان جالساً على مقعد في الساحة، واضعاً حقيبته الخيش في حضنه، مسنداً ذراعيه عليها، مثل مسافر مذعن ينتظر وصول حافلته. كان قد استحم

وحلق ذقنه وارتدى ثياباً نظيفة كانت خوليا قد غسلتها له. وكانت الفتاة المجدّة قد نظفت حذاءه الرياضي أيضاً، فعاد شعار «نايكي» يظهر على الحذاء الذي بهت لونه الأزرق. وقد تلاشت الأكياس الداكنة تحت عينيه، وتورّدت خدّاه.

كانت رائحة القهوة الطازجة لا تزال تعبق في الهواء، مع أن طعام الفطور كان قد انتهى منذ فترة طويلة. فقد وصل طعام إفطاره إلى الكنيسة من مطبخ موراليس، فيه مفاجأة صغيرة: رسالة مطوية بمهارة مخبأة تحت قطعة أريبا ثخينة. كانت الرسالة موجهة من خوليا، وقد كتبت فيها: «اليوم يومنا».

لذلك عندما رأى غوردون أوبالدينا تظهر من الناصية، وابتسامة ساخرة على وجهها المتجهم، تتبعها روزالبا وسيسيليا والممرضة راميريز وكليوتيلد، لم يفاجأ على الإطلاق.

«لقد ولىّ زمنك يا مسترا» صاحت أوبالدينا من بعيد. وراحت تهشّ بظاهر يديها بسرعة وعلى نحو متكرر. لبث غوردون جالساً على المقعد، هادئاً، متمالكاً نفسه، محدقاً في المرأة الهندية الصغيرة الحجم وهي تقترب منه. كان يعرف أن رباطة جأشه ستثير أعصابها، لذلك قرّر أن ذلك سيكون انتقامه الصغير من شعورها المستمر بالعداء وغير المبرّر تجاهه. لكن المرأة، بعد أن شعرت بأنّ غوردون يضمر لها شيئاً، توقّفت على مسافة بضعة أمتار، وأبرزت أكثر الوجوه التي يمكنها أن تظهرها بشاعة ورعباً: وقد جحظت عيناها الحولاوان وكادتا أن تخرجا من محجريهما، وكشف فمها الممتد عرضاً عن أسنانها الأربعة أو الخمسة المتبقية ـ المدببة والناتئة والمتباعدة بحيث بدت كأنها خناجر أكثر من كونها تستخدم للمضغ ـ وامتد لسانها الطويل خارج فمها، وراح يتلوى بشكل منفّر، تسحبه إلى داخل فمها ثم تخرجه ثانية، مثل سحلية.

رأى غوردون المشهد مسلياً، وقال: «سأغادر الآن، يا سينيورا أوبالدينا». أسند حقيبته على المقعد واستوى واقفاً، «لكنني أريد أولاً أن أوّدع السيدات الواقفات وراءك».

«حسناً، من الأفضل لك أن تسرع»، قالت أوبالدينا بنزق، وأضافت «يبدو أن السماء ستمطر». وتنحّت جانباً، وأشارت إلى غوردون بحركة مهذبة، بأنه يستطيع أن يمرّ من جانبها بأمان، صوب النساء الأخريات.

لم يكن ثمة شيء استثنائي في وداع الصحفي. فقد انحنى باحترام ـ أمام كلّ امرأة ـ بمن فيهن أوبالدينا ـ وقبّل أيديهن، وهو يردد كلمة «غراسياس». أعطته سيسيليا رسالة يفترض أن يسلمها إلى ابنها آنخيل ألبرتو تاماكا، وصرّة طعام بحجم رأس الرجل. «ستقيم أودك لمدة يومين»، قالت بنبرة أمومية. قبّل غوردون يدها مرة ثانية. ثم اقتربت من المقعد وحملت حقيبته وسارت باتجاه التل. وقفت النساء الخمس عند السفح. وقبل أن يلج غوردون الأجمة، ألقى نظرة أخرى إلى ماريكيتا الجديدة، وكأنه يريد أن يثبّت صورة القرية في ذاكرته ليتأكد من أنه لم يكن يتخيّلها. وإزاء السماء الرمادية، بدت القرية مثل لوحة متعددة الألوان. فقد رأى جميع الأسطح الحمراء، والبيوت البيضاء، والدروب الرمادية، والساحة الخضراء، والكنيسة العاجية اللون، وحقول الذرة الصفراء، وحقول الرزّ والبنّ، والنساء اللاتي يعملن فيها. وكانت أغصان أطول الأشجار تتمايل في الريح، ولوهلة خيّل إلى غوردون أنه رأى جميع نساء ماريكيتا الجديدة يتوقفن عن عملهن، ليلوّحن له بأيديهن، فلوّح لهنّ بيده.

*

كان المطر ينهمر بغزارة. رفعت خوليا موراليس تنورتها الفضفاضة إلى ما

فوق ركبتيها وخاضت في الماء الطيني وبين أوراق الأشجار والأغصان التي أسقطتها الأمطار التي صاحبتها عاصفة شديدة. وقد عقدت حول خصرها صرة صغيرة فيها بعض الثياب وصرة أصغر فيها بعض الطعام، وغطتهما بالجزء السفلي من تنورتها المثنية. وكانت تحمل كذلك منجلاً في غمده. كانت تخطو خطوات سريعة، وكأن أحداً يطاردها. وعندما وصلت خوليا إلى قمة التل، التفتت إلى الوراء. فلن يعود لشيء من هذا وجود بعد اليوم، ولن تسير مرة أخرى في هذه الدروب الضيّقة التي تحفّها أشجار المانغا. وخلف تلك الأجمة، على الجانب الآخر من العالم، تقبع مدن كبيرة كثيرة تتخللها آلاف الطرق والجادات المعبّدة الواسعة التي تحفّها صفوف من الأشجار المهيبة والبنايات الرائعة. لا بد أنها ستشتاق إلى أخواتها ولاسيما أمّها، تلك المرأة المحبّة التي كرّست نصف حياتها لرعاية أطفالها. لكن خوليا فضّلت أن تشتاق إليهن بقوة على أن ينتهي بها الأمر كما انتهى بأخواتها، عانسات، ساخطات، شاعرات بالمرارة، وعائشات على أمل أن تتحسن أوضاع الشموس، أو أن يمتن معها.

اشتد المطر غزارة وسرعة وعنفاً، وراح يضرب وجهها. استدارت خوليا لتسير في الدرب الذي طرقه غوردون هذا الصباح. لو كان بمقدورها أن تتكلّم، لصاحت ونادت اسم غوردون الآن. اصرخي اسمه، لكي تسمعيه يقول مرة أخرى: «أستطيع أن أعبّد لك درباً يا خوليا، لكنني لا أستطيع أن أساعدك في أن تجتازي الأجمة. يجب أن تقومي بذلك بنفسك. وعندما تكون لديك القوة والشجاعة للعبور إلى الطرف الآخر من العالم، ستصبحين مستعدّة للعيش فيه». إن غوردون رجل طيب، رجل جيد وصادق، اعترف بأنه أحسّ بمشاعر خاصة تجاه خوليا، نوع من الحبّ

الذي لا يمكن وصفه ـ حتى لكاتب مثله ـ رفض أن يعبّر عنه. لقد وعد خوليا بأن يمنح علاقتهما فرصة، وأن يساعدها على بدء حياة جديدة هناك.

قبل أن تصل إلى الدرب، نظرت خوليا إلى الوراء للمرّة الأخيرة: ففي وسط الأمطار الغزيرة، أصبحت قريتها باهتة، معتمة، مغبّشة، غير واضحة المعالم. وفي تلك اللحظة، أمام عينيها، بدأت ماريكيتا الجديدة تبهت وتتلاشى شيئاً فشيئاً حتى أصبح كل ما بوسع خوليا رؤيته هو برج الكنيسة الخاوية الذي سرعان ما اختفى هو أيضاً.

استدارت، لكنها بدلاً من أن تتبع الدرب الذي سار فيه غوردون، ابتعدت عنه، واتجهت يميناً، حتى وجدت نفسها في مواجهة الأجمة، الأجمة التي تغطيها أشجار وشجيرات كثيفة حجبت وسدت طريقها إلى حياة جديدة منذ سلالم عديدة. أخرجت منجلها من غمده وتحسّست حدّته على ظاهر يدها، ثمّ رفعت النصل الطويل عالياً فوق رأسها، فوق كتفها اليمنى، وأخذت تشقّ طريقها بين النباتات الكثيفة بعزيمة، تشق طريقها أمامها.

جيرمان أوغستو تشامورو، ١٩ سنة
جندي من الجيش الوطني الكولمبي

كنت مختبئاً وراء شجرة عندما رأيت أحد الثوّار قادماً نحوي. كان متين البنية، وأطول قامة مني، وكانت العضلات تكسو جسده. كان يسير ببطء، وينظر في كلا الاتجاهين، مرة وأخرى، وكأنه يمرّن رقبته. ظننت أنه يوم سعدي لأن الرجل وقف أمامي مباشرة. كان كلّ ما عليّ فعله هو الضغط على الزناد، وسيقلّ عدد الثوّار ثائراً آخر. انتظرت، مع أنني كنت أريد أن أتأكّد من أن هذه ليست خدعة قذرة أعدّها الثوّار، وأنه وحده فعلاً. فجأة، أجهش الرجل في البكاء. هكذا من دون سبب. ألقى هذا الرجل الضخم القوي رشاشه من طراز غاليل على الأرض، وجلس مسنداً ظهره إلى الشجرة، ودفن وجهه بين يديه، وراح يبكي من خلال أصابعه مثل امرأة. رحت أراقبه، بهدوء، وأنا أتساءل هل ضلّ طريقه عن رفاقه أم أنه يبحث عن مكان آمن يبكي فيه (يمكن أن نفعل ذلك نحن الرجال بين الحين والآخر).

انتظرت لحظات طويلة ثم صحت، «ارفع يديك». رفع المقاتل يديه عالياً. اقتربت منه بحذر. بدا عليه الخوف. «إنك تبكي»، قلت بقسوة، وكأنني أتهمه بشيء منكر. «لماذا؟»لم يجب المقاتل. رجعت خطوة إلى

الوراء وخفضت بندقيتي. «لماذا تبكي؟» سألته بإلحاح، وفجأة خفت صوتي وأصبح ضعيفاً. قال إن أمّه ماتت. ماتت منذ ثلاثة أشهر، لكنه لم يعرف ذلك إلا صباح هذا اليوم. «إنك تكذب» قلت، موجهاً إليه سلاحي. هزّ رأسه وطلب مني السماح له بأن يمدّ يده إلى جيبه، وقال توجد رسالة فيه أرسلتها إليه أخته. قلت: «حسناً». ألقى ورقة مطوية عند قدميّ. التقطتها وقرأتها. قلت له: «أنا آسف». ثمّ أخبرته أنني لم ألتق بأمّي مطلقاً، وأنها تركتني على مقعد كنيسة طويل عندما كان عمري ثلاثة أيام. قال إن الشيء نفسه حدث مع أبيه، وبدأ يحكي لي القصّة وكأننا كنّا صديقين قديمين. وسرعان ما وجدت نفسي أجلس بجانبه على الأرض، تحت الشجرة، أنصت إلى حكايته، وأحكي له حكايتي. ضحكنا على نفسينا، على الحرب، على الحياة، على سلاحينا اللذين نسيناهما للحظة فوق العشب.

وفجأة، سمعنا صوت خطوات تقترب. حملنا سلاحينا. تسلّقت الشجرة، وتبعني بسرعة. عندما أصبحنا فوق الشجرة أدركنا أنّنا لم نكن وحدنا، وأن رجلاً آخر كان مختبئاً فوق الشجرة، جندي من المليشيا. طوال هذا الوقت كان مختبئاً فوق الشجرة في بدلته الخضراء وقبعته العريضة يراقبنا ويستمع إلى حكاياتنا. ابتسم لنا، أنزل بندقيته ووضع يده اليمنى على قلبه دلالة على السلام. علينا أن نثق بتلك الابتسامة، بتلك اليد، بتلك الإشارة. لم يكن ثمة شيء يمكننا فعله.

لبثنا نحن الثلاثة هادئين، حابسين أنفاسنا، ورأينا أربعة رجال في زيّهم الأخضر يزحفون فوق العشب تحتنا. هل هم جنود من الجيش؟ من الثوّار؟ من الميليشيا؟ لم نعرف على الإطلاق، وتركناهم يمرون بسلام.

من فوق، كان كلّ ما رأيناه، أربعة رجال، رجال مثلنا، هاربين، يبحثون عن أماكن آمنة يكونون فيها.

الفصل الرابع عشر

الرجال الذين طلبوا منحهم فرصة ثانية

ماريكيتا الجديدة، ١٣
إليوسا، سلّم ١٩٩٣

بدأت خيوط الفجر تبزغ رويداً رويداً فوق الوادي الصغير، وكان القمر لا يزال مضيئاً في السماء. وفي البيت رقم واحد، الذي يحتل الشارع كله، حيث ينتصب مبنى البلدية ومخفر الشرطة، كان ينام خمسة عشر من النسوة الأزواج بهدوء وسكينة في حجرهن الصغيرة. وفجأة، في أقرب حجرة إلى الباب، استيقظت فيرجيلينا سافيدرا، مجفلة.

«مانوليا، نادت شريكتها بصوت رقيق تردد صداه في فضاء الغرفة الخاوية التي لا تحتوي إلا سزيراً كبيراً مصنوعاً من ألواح خشبية، تعلوه مرتبة مصنوعة يدوياً، ومحشوة بالقطن والقش.

«ماذا؟» ردت مانوليا والنعاس يغالب جفنيها.

«هل سمعتِ شيئاً في الخارج؟»

«لم أسمع شيئاً».

توجهت فيرجيلينا إلى النافذة ومدت رأسها إلى الخارج، ثم همست قائلة: «أرى شخوصاً تتحرك في الساحة».

«لا بد أنها كلاب».

«وأسمع أصواتاً».

«أنا لا أسمع إلا صوتك. عودي إلى فراشك».

«أصوات رجال».

خائفة، انتصبت مانوليا في جلستها بسرعة. ومعاً، يدها بيد فيرجيلينا، راحتا تصيخان السمع للهمهمات الغامضة التي تحملها الريح.

في غضون ذلك، في البيت رقم اثنان قبالة بيتهما، حيث يقبع المستوصف ودكان الحلاق القديم، كانت إحدى وثلاثون امرأة تغطّ في النوم، بالإضافة إلى سانتياغو مارين.

والبيت رقم اثنان عبارة عن غرفة طويلة ضخمة غير مفصولة بشيء سوى حواجز ناجمة عن قطع أثاث قليلة. وخلف المبنى، كانت هناك ثلاثة صفوف من الأراجيح المعلّقة بالتوازي تبعد الواحدة منها عن الأخرى مسافة بضعة أقدام. وكانت جميع هذه الأراجيح معلّقة من خطّافات أُدخلت في عواميد منتصبة صلبة. وتساعد هذه العواميد كذلك في تثبيت هيكل البيت، كما تُستخدم الخطّافات لتعليق السلال أو الحقائب التي تحتوي على ممتلكات القرويات الشخصية: أساور، قلائد، قطع قماش تستخدم في فترات الانتقال، ألبسة (إن كان لها وجود)، وصور، وأشياء أخرى متبقية تذكّر القرويات بأحبائهن الذين غادروهن.

أما البيت رقم اثنان، فتقطنه صبايا القرية، وهنّ جميعاً عازبات ومشاكسات، بالإضافة إلى سانتياغو مارين وأمّه آراسيلي، المشرفة على المطبخ. وقد أُعدّ مهجع البيت في الجزء الخلفي، لكي لا تُسمع ثرثرة الصبايا التي لا تتوقف صادرة من البيتين الآخرين. ربما لهذا السبب، في صباح ١٣ إلويسا ١٩٩٣، لم يسمع أو يرى أحد في البيت رقم اثنان الرجال العائدين.

وبعد قليل، في البيت رقم ثلاثة الواقع قبالة الكنيسة، أيقظت كليوتيد غوارنيزو أوبالدينا النائمة في الأرجوحة إلى جانبها. دمدمت أوبالدينا بكلمات غير مفهومة، واستدارت إلى جانبها. «إنه واجبك تجاه القرية. هيا استيقظي فوراً»، قالت كليوتيلد موبّخة.

«حسناً، حسناً، إني قادمة»، أجابت أوبالدينا. تثاءبت وحكّت رأسها. كانت هناك ثماني صور صغيرة مؤطرة متماثلة معلّقة على الحائط أمامها. إنها صور عائلة أوبالدينا: أبناء زوجها السبعة بالإضافة إلى زوجها، الذين اختطفهم الثوّار الشيوعيون. اقتربت من الصورة الأولى وأطلقت تنهيدة. في الصورة، يظهر أصغر أبناء زوجها، كامبو إلياس ريستريبو الابن، يبتسم وهو يقطع قطعة كاتو حزينة المظهر. همست، «يا طفلي الحلو، استمع إليّ. لا تنم قبل أن تردد الصلوات الهندية التي علّمتك إياها». وتحرّكت ببطء على طول الجدار، وهي تتمتم بنصائحها الأمومية لكلّ صورة من الصور السبع الأولى: «تذكّر أن تنظف أسنانك»؛ «تناول جميع خضرواتك»؛ «لا تقضم أظافرك»؛ «نم ساعات كافية»؛ «ابتسم دائماً»؛ «اعتن بإخوتك». وعندما وقفت أمام الصورة الأخيرة، صورة زوجها، قالت: «ارقد بسلام».

«أسرعي»، صاحت كليوتيلد من الطرف الآخر من الرتل وقالت: «إنك تجعلينني أبدو في حالة سيئة». كانت كليوتيلد قد كبرت الآن ووهن جسمها كثيراً، ولم يعد بمقدورها قرع جرس الكنيسة. أما ساعتها البيولوجية، فكانت لا تزال سليمة، لذلك انحصر عملها الحالي في الطلب من إحداهن، أياً كانت، قرع الجرس في الوقت المناسب طوال فترة الشمس. أما اليوم، وللصباح الثالث على التوالي، فقد اختارت كليوتيلد أوبالدينا للقيام بهذه المهمة لإيقاظ نساء القرية والاستعداد للعمل.

لوهلة، فكّرت أوبالدينا بأن تعترض على معاملة كليوتيد العجوز المجحفة لها. لماذا لا تختار امرأة أخرى لقرع جرس الصباح؟ «إني قادمة» قالت بهدوء، وألقت عليها معطف الخيش وحملت مصباحاً. عندما بدأت أوبالدينا تسير بين صفَّيْ الأراجيح المليئة بالنساء النائمات، شعرت فجأة بالاشتياق إلى بيتها، أو على الأقل، إلى غرفة نومها. وقرر أن تخبر جميع أهالي القرية، في الاجتماع القادم، بحاجتها المتزايدة إلى الخصوصية وإلى العزلة. وقد تسمع ردّ النساء: «وما فائدة البيت التعاوني إذا عاش قاطنوه في حجرات منفردة؟ فالخصوصية غير مبررة إلا للأزواج». لو سارت الأمور بينها وبين مارياسي أوسبينا على ما يرام، لأقامتا في غرفة خاصّة في البيت رقم واحد. لكن بعد فشل أوبالدينا مرّتين في محاولاتها لمضاجعة مارياسي، قرّرت أنها لا تستطيع أن تحبّ امرأة أخرى، ليس بمعنى أن إلويسا وحبيبتها «تيكتيكو» تحبّ إحداهما الأخرى.

ذرعت البيت الذي يشبه الكهف، وفتحت الباب الأمامي واسعاً. انتصبت أربع قامات في الشارع كالأشباح، فذعرت. رفعت المصباح في الهواء بيد مرتعشة، وصاحت، «من هناك؟»

«صباح الخير، سينيورا»، أجابت القامة المنتصبة إلى اليسار بصوت ذكوري أجش، وخلعت ما بدا لها قبعة دلالة على الاحترام، «إني آسف لإزعاجك في هذا الوقت المبكر، لكن ـ».

«إن كنتم من الثوّار أو من قوات الجيش، فقد جئتم إلى المكان الخطأ»، قاطعته، وأضافت، «لا مكان للرجال هنا». وعلى الفور أسفت لقولها الكلمات الأخيرة. فمن المؤكد أن عبارة قرية النساء تبدو هدفاً سهلاً للمجرمين وقطاع الطرق.

«إننا لسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء، يا سينيورا. إننا رجال طيبون».

«كم عدد «إننا»؟ أين يختبئ الآخرون؟» وراحت تتطلع إليهم، وهي ترمش برموشها.

«إننا نحن فقط»، أعلن الصوت ذاته، «أربعتنا فقط».

«آه»، دمدمت بارتياب، وهي لا تزال تتطلع حولها، «ماذا تريدون جميعكم؟»

«لقد ضللنا طريقنا يا سينيورا. إننا في طريقنا إلى ماريكيتا. هل تعرفين في أيّ اتجاه هي؟»

إجابة الرجل أخافتها، وبدأ قلبها يخفق بسرعة. «لا»، قالت غريزياً، معتقدة أنه لا بد أن ذلك الرجل الشرّير، الخوري رافاييل، قد أرسلهم، «من أنت على كل حال؟»

«اسمي آنخيل ألبرتو تاماكا»، أجاب الرجل نفسه، وهو لا يكاد وجهه يظهر. بدا الاسم مألوفاً لأوبالدينا، لكنها قبل أن تتمكن من تحديد مكانه، تكلّم رجل آخر بصوت أكثر شباباً ورخامة.

«ديفيد بيريز»، قال وهو يلمس طرف قبعته بيده.

«خاسينتو خيمينز الابن هنا»، قال الرجل الثالث، ورفع يده في الهواء، مشيراً إلى المكان الذي يقف فيه.

«وأنا كامبو إلياس ريستريبو، خادمك المتواضع»، قال الرجل الأخير، مخفضاً رأسه الذي تغطيه قبعة.

عندما سمعت أوبالدينا اسم الرجل الأخير، سرت صدمة كهربائية في أنحاء جسمها. وراحتا تحدّقان بعينيها كي تراه بشكل أوضح، إلا أن كلّ ما تمكنت من تبينّه في ضوء المصباح الباهت، كان شيئاً من خياله. قالت لنفسها إن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقياً. لا بد أن هذه محض صدفة، خطأٌ. بدأت تسير الهوينى في الشارع، ورفعت المصباح عالياً، راجية أن

تتعرف على الشخوص الأربعة التي يجلّلها ضباب الفجر. ما إن ازدادت اقتراباً، حتى اتخذ الرجال أشكالاً إنسانية محددة. فقد ظهرت ذراع يكسوها الغبار هنا، وساق هناك، ثمّ صدور ووجوه نصف مضيئة لرجال يشبهون رجالاً كانت أوبالدينا تعرفهم ذات يوم. تحرّكت قليلاً إلى اليمين باتجاه الرجل الأخير، تريد أن تراه بوضوح. كان يكبر الآخرين سناً، وكان محني الظهر، وذا لحية بيضاء، وكانت شفته السفلى ناتئة، عيناه تحتجبان تحت حاجبين كثيفين. ومع أنه كان يخفض قبعته فوق جبهته، كانت هناك ندبة بشكل المدّ فوق حاجبه الأيسر. إنها ندبة قديمة، تعرفها أوبالدينا، خلّفتها قطعة من الحجر أصابته أثناء عراك في الشارع عندما كان صغيراً. كانت قد سمعت القصّة مرات ومرات حكاها لها الرجل الواقف أمامها الآن، الذي طعن في السن، وأصبح شبه محطم، وهو زوجها.

سقط المصباح من يدها وتهشم. كان جسمها كلّه يرتعش وكأنه يرتعش من شدة البرد، وبدأت تسير إلى الوراء، على نحو أخرق، متعثرة بأشياء غير مرئية، وكان وقع خطواتها الثقيلة يُسمع في سكون الفجر. عندما وصلت إلى البيت، استندت إلى باب المدخل وقالت بصوت منخفض، بصوت متضرّع: «أرجوكم اذهبوا من هنا».

اضطرب الرجال الأربعة من سلوكها، ولم يستجب أحد منهم لطلبها.

«أرجوكم اذهبوا»، قالت ثانية.

لكنهم لبثوا ساكنين واجمين.

«اذهبوا»، كررت ذلك عدة مرات، وفي كل مرة، كانت ترفع صوتها أكثر، ثم تحوّلت توسلاتها إلى صرخة تصم الآذان أيقظت فيها القرية كلها في الوقت المحدّد.

*

تتفق معظم القرويات في ماريكيتا الجديدة على أن إلويسا كانت أكثرهن فرحاً وبهجة خلال فترة الثلاث عشرة درجة في السلّم. كان موسم الأمطار قد انتهى، لكن الفصل الجاف لم يكن قد بدأ بعد تماماً. كانت درجات الحرارة معتدلة ولطيفة، وكانت أوراق الأشجار لا تزال خضراء نضرة. وفي الصباح، كان الهواء ندياً، وكانت رائحة العشب والأزهار البرية العطرة تفوح في أرجاء القرية. وخلال درجة إلويسا، كان معظم طهي الطعام في ماريكيتا الجديدة يجري خارج المطبخ. فعند شروق الشمس، بعد أن تُقرع المجموعة الأولى من أجراس الكنيسة، كانت تُشعل ثلاث حطبات كبيرة في وسط الساحة. وكانت ثلاث طاهيات ـ واحدة من كلّ بيت ـ ومساعداتهن يُخرجن عجينة الذرة الصفراء، والبيض، والبصل المفروم والبندورة، ويكدّسن القدور والمقالي فوق النار، ويصنعن القهوة، ويعددن ويشوين الأرباس، ويحضّرن العجة. ثم تُقرع مجموعتان تتألف كل مجموعة منها من خمس دقّات، فتبدأ القرويات بتناول طعام فطورهن. وتجلس الثلاث والتسعون قروية القرفصاء حول القدور، ويُقدم لهن طعام الفطور في قدور فخارية يدوية الصنع، فاخرة. وتتناول بعضهن الطعام بأيديهن، أو يرفعن صحونهن إلى شفاههن؛ وتستخدم أخريات أدوات طعام خشبية. ويرتل بعضهن الآخر الصلاة لآلهتهن، وتروي أخريات الحلم الذي رأينه في الليلة الماضية. بعضهن ينصتن، وبعضهن الآخر يضحكن. يقرع جرس الكنيسة ثانية، وتبدأ القرويات بالتوجّه إلى مواقع عملهن المخصصة لهن.

*

في ١٣ إلويسا ١٩٩٣، لم تُوقد نيران الطهي الثلاث حتى أصبحت الشمس في كبد السماء، وتضاءلت حماسة النساء بعد عودة الرجال الأربعة.

فور سماع صيحات أوبالدينا المسعورة، اندفعت القرويات خارجات من بيوتهن. كان تاماكا وبيريز وخيمينز وريستريبو أول من سمع الصيحات العالية، ثمّ رأوا النساء ينبثقن من جميع زاويا الساحة، عاريات، يلوّحن بعصي ثقيلة ورماح صيد السمك. وقف الرجال متلاصقين، كلّ منهم باتجاه مختلف، ورأوا مجموعة مختلفة من المخلوقات البرّية، ووقفوا أخيراً مصعوقين في وسط دائرة ضخمة شكّلتها حولهم النساء الهمجيات. وخيّل لتاماكا وبيريز أنهما يقفان وسط قبيلة من الهنود الحمر الغاضبين، وخُيّل لخيمينز أنه يهلوس بسبب إحساسه بالإعياء والضعف. أما ريستريبو فكان مشدوهاً إلى حد أنه لم يعد يستطيع أن يفكّر.

بدأت القرويات يدرن حول الدخلاء الغرباء، يتفحصن وجوههم بهدوء وحذر شديدين وكأن هؤلاء الرجال ينتمون إلى جنس مختلف لم تقع أعينهن عليه من قبل. فجأة، عندما وقعت عينا سيسيليا خوارايا على آنخيل تاماكا، أسقطت رمحها، ورفعت يديها إلى وجهها على نحو مؤثر.

«آنخيل»، صاحت بصوت مرتفع، وتقدمت بضعة خطوات نحوه. فقد عرفته من أول نظرة بالرغم من التجويف الغائر في المكان الذي كانت توجد فيه عين آنخيل اليمنى، التي جعلت الآن ذلك الجانب من وجهه، يبدو كأنه جمجمة. وقد صلع رأسه الآن، ماعدا بضعة خيوط من الشعر المجعد بشكل سيء على جانبي رأسه. وكان يرتدي ثياباً حقيرة، رثة، وسخة، ومبلّلة بمزيج من العرق والندى الليلي. «آنخيل ألبرتو»، صاحت ثانية، لتتأكد من أن جميع النساء الحاضرات يسمعن الأخبار الجيدة: بأنه بعد كل هذه السلالم، عاد معلّم ماريكيتا السابق، ابنها، من الحرب. «أنا أمّك، ألم تعرفني؟»

هزّ رأسه ورجع خطوات إلى الوراء. من هي هذه المرأة المجنونة التي تدّعي أنها أمّه؟ من هنّ تلك النساء الهنديات الحمراوات العاريات المتحلّقات حوله؟ لماذا ينظرن إليه بدهشة؟ أين كان؟

«أنا أمّك، يا آنخيل»، كرّرت سيسيليا غوارايا.

تفحّص آنخيل وجه المرأة بدقة، وفجأة ألقى بذراعيه حولها وأجهش في البكاء، وقال: «ماما أنا آسف»، وبدأت الدموع تنهمر من عينه الواحدة بغزارة، وهو يردد، «آسف جداً». لم تبك سيسيليا، لم تنبس بكلمة، بل ضمته إليها بقوّة وراحت تهزّه وهو يبكي: فقد أمضى ابنها المسكين نصف حياته وهو يناضل في سبيل قضية ميئوس منها، وكان كلّ ما يمكنه أن يثبته في ذلك هو محجر عينه اليمنى الخاوي.

اقتربت القرويات الآن من الرجال بحرص شديد.

«خاسينتو خيمينيز، هل هذا أنت؟» قالت مارسيلا بعد أن ألقت نظرة أقرب على ابن قاضي ماريكيتا السابق. قالت: «أنا مارسيلا. مارسيلا لوبيز»، وضربت على صدرها عدة مرات براحة كفها، ثمّ طبعت قبّلة على شفتيه، وكأن قبلاتها هي كلّ ما يمكن للرجل المشدوه أن يتذكّرها به. وعندما عرف خيمينز أخيراً أنّه في قريته، والفتاة التي تقبّله هي خطيبته حقاً، دفعته غريزته الأولى إلى تغطّيه جسدها العاري بقميصه. فلم يشأ أن يرى الرجال الثلاثة الآخرون ثديَيْ فتاته، ومنحنيات جسدها الرشيقة. قبلت القميص بسرور لكنها رفضت أن تزرره. وقد أزعج ذلك خيمينز فتخاصم الخطيبان لأول مرة.

اعترى مارسيلا شعور بالاستياء عندما اكتشفت أنّ خطيبها لم يتغيّر إلا جسدياً: فقد ازداد طولاً، ونحف وجهه، وبدا جسمه أقوى في القميص

القطني عديم الأكمام الذي يرتديه، وخفّ شعره وبدأ ينحسر، وأظهر جلده عواقب التعرض كثيراً لأشعة الشمس الاستوائية العنيدة. لكن طبيعة خاسينتو ظلت كما هي: فقد بقي حادّ المزاج، غيوراً، محباً للتملك.

تعرّفت القرويات الآن على الرجلين الآخرين: ديفيد بيريز، حفيد خوستينا بيريز العجوز، وكامبو إلياس ريستريبو، زوج أوبالدينا وأحد أغنى رجال ماريكيتا. وعلى الفور، تسلمت روزالبا زمام المبادرة، وقالت: «أهلاً بكم في ماريكيتا الجديدة. أنا روزالبا أرملة باتينيو. هل تتذكّرونني؟ كان زوجي سارجنت الشرطة نابليون باتينيا». وعرّفت بضع نساء أخريات على أنفسهن، لكن معظمهن آثرن الصمت. لم يفعل الرجال شيئاً سوى هزّ رؤوسهم، وهم يحاولون المطابقة بين الأجساد العارية الضخمة الواقفة أمامهم وبين صور النساء التي ارتسمت في مخيلاتهم.

بعد أن عرّفت القرويات الرجال على أنفسهن ثانية، بدأن يشعرن بالارتياح بين الزائرين، ثم جلسن على الأرض لسماع بعض القصص المؤثّرة والتجارب التي مرّ بها الرجال، ورحن يطرحن عليهم أسئلة، فيجيب الرجال عليها. وحزن خيمينز عندما علم أنّ أمّه وأختيه غادرتا ماريكيتا فور اختفاء الرجال. وأحسّ بيريز بالسعادة لأنّ جدته خوستينا، أرملة بيريز، لا تزال حية ترزق مع أنها شاخت، وأصيبت بالشلل بسبب التهاب المفاصل، واختلّ عقلها. وقد بلغ ديفيد بيريز التاسعة والعشرين من عمره وأصبح وسيماً: طويلاً وذا عينين كبيرتين، وذا بشرة حنطية. وقد منحه وجهه الطويل وشعره الأسود المجعد الطويل المنسدل إلى الوراء، مظهراً أنيقاً، مما جعله مميزاً عن الرجال الثلاثة الآخرين.

في منتصف النهار، قُدمت للرجال وجبة طعام شهية من جذور

الخضراوات المسلوقة مع الرزّ واللحم. جلس خاسينتو خيمينز الابن بجانب خطيبته العنيدة، وكان لا يزال رافضاً أن يكلّمها، وجلس ديفيد بيريز بجانب جدته المجنونة، التي كان يجب أن يطعمها بيده بسبب تصلب أصابعها. وجلس آنخيل تاماكا إلى جانب أمّه، وقد ضم ركبتيه إلى صدره الصغير، وتسمّرت عينه الحزينة اليسرى على الأرض، فقد كان مضطرباً لعري أمّه، فقد بدا جسمها مضخّماً في الحرارة ـ منتفخاً، مترهلاً، لزجاً. أما سيسيليا، التي لم تكد تنبس بكلمة في الماضي، فقد أصبحت ثرثارة الآن، ومع كلّ جملة تقولها، كان فم آنخيل يتدلى أكثر: «. . . وهكذا وضع الخوري رافاييل جدولاً سخيفاً لمضاجعة جميع الصبايا في القرية. . . وسمّم الفتيان الأربعة جميعهم باسم الرب. . . واستنبطت المرأتان فكرة الزمن الأنثى، و. . . جلس آنخيل هناك بهدوء، وقد خلا وجهه من أي تعابير، وراح يفكر: ماذا حدث لماريكيتا التي أعرفها؟». . . . عندما أدركنا أننا أنا وفرانسيسكا نحبّ بعضنا الآخر، قرّرنا أن. . . «ماذا جرى لأمّي؟»

وجد كامبو إلياس ريستريبو نفسه، الذي كان جالساً بين روزالبا والممرضة راميريز، محاطاً بالروائح اللاذعة التي تنبعث من جسدي المرأتين. كان يعرف أن رائحته لا تشبه رائحة الأزهار الطازجة، لكنه قطع مسافة كبيرة على قدميه تحت لهيب الشمس، وتسلق تلالاً شديدة الوعورة، ومشى فوق الأشواك وبين الشجيرات الكثيفة. أما هؤلاء النسوة فقد بدأن يومهن للتو، فما بال رائحتهن تشبه رائحة الخيول.

كان ريستريبو غاضباً. فقد حبست زوجته نفسها في البيت منذ لحظة وصوله، ورفضت رفضاً قاطعاً جميع النداءات والتوسلات التي تطلب منها أن تخرج وتلتقي به. فقد كان يحمل لها خبراً حزيناً مفاده أن ابن زوجها الأصغر، كامبو إلياس ريستريبو الابن، قد غرق منذ بضعة سنوات، عندما

علقت الطوافة التي هرب فيها هو وصديقه من الثوّار في دوّامة في النهر وانقلبت. لم تكن أوبالدينا حاضرة عندما نقل الخبر المفجع إلى القرويات. وخيّل إلى ريستريبو الآن بأن امرأة أخرى قد نقلت الخبر إلى أوبالدينا، فحمّلته مسؤولية هذه المأساة. ربما يتعين عليه أن يتسلل إلى داخل البيت لمواجهتها بالحقيقية، أو ربما كان عليه أن ينتظر، يتركها فترة من الزمن تحزن، ثم يطالبها باستئناف واجباتها نحوه كزوجة.

*

كانت أوبالدينا مستلقية في أرجوحتها في البيت رقم ثلاثة. فقد سمعت بالخبر المزعج عن ابن زوجها، وراحت تحدّق في صورة الصبي المعلقة على الحائط، تبكي بصمت. لماذا ابنها الجميل وليس زوجها؟

كان زواج أوبالدينا صورياً. فقد كانت تعمل خادمة عند ريستريبو عندما ماتت زوجة كامبو إلياس. خدعها وأقنعها بالزواج منه لكي تصبح مربية وخادمة وطاهية. أدركت أوبالدينا ذلك في وقت مبكّر من زواجهما، لكنها بدلاً من أن تبكي وتحرق قلبها، كرّست نفسها لخدمة أولاده السبعة، الذين كبروا وكانوا يحبونها كأنها أمّهم الحقيقية. أما كامبو إلياس، فقد كرّس نفسه للفتيات الاثنتي عشرة في ماخور لا كازا دي إميليا، حيث كان يمضي فيه معظم لياليه. وفي الحقيقة، وجده الثوّار هناك، في المبغى، في تلك الشمس المشؤومة عندما خطفوا الرجال.

أما الآن، بعد مضي كل هذه السلالم، لم يكن عليها أن تتعامل مع موت ابن زوجها فقط، بل مع عودة زوجها.

أمضى الرجال الأربعة ليلتهم الأولى في كنيسة ماريكيتا الجديدة السابقة. وقدمت لهم روزالبا وشريكتها إلويسا أراجيح وبطانيات وخرقاً ودلاء للماء

ومصباحاً. وطلبتا من الرجال أن يأخذوا قطعة مشتعلة من الحطب من النار التي كانت لا تزال متقدة في الساحة، وأن يضعوها تحت أراجيحهم قبل النوم ليحافظوا على الدفء طوال الليل. ما إن غادرت المرأتان، حتى بدأ الرجال يتحدثون بحرية عن انطباعاتهم الأولى عن ماريكيتا الجديدة.

«بحقّ الله، صحيح أنّني لم أكن أتوقّع أن تتمكن مجموعة من النساء من إدارة شؤون القرية، لكنني لم أكن أتوقّع أيضاً أن يحوّلن ماريكيتا إلى خرابة ويعدن عقارب الساعة إلى الوراء»، قال ريستريبو بازدراء، وأضاف، «إنهن كالهمجيات. أمامنا الكثير من العمل إذا أردنا أن نجعل هذه القرية صالحة للعيش».

«لست مهووساً بكلّ هذه التغييرات»، قال ديفيد بيريز، «لكنني لا أظن أنها على تلك الدرجة من السوء. من المؤكد أنهن يعشن حياة بسيطة، لكن ـ».

«حياة بسيطة؟» قاطعه خيمينيز، «إنهن يتجولن عاريات! وهل رأيتهن وهن يشبكن أيديهن ويسيل لعابهن على بعضهن البعض؟ تلك السحاقيات اللعينات! إنني أتفق مع ريستريبو: أمامنا الكثير لنعلّم تلك النساء».

«إنكم أغبياء إذا ظننتم أننا نستطيع أن نعلّمهمن أيّ شيء»، قال آنخيل تاماكا، «إنهن يعشن من دوننا. من نحن حتى نعود بعد ستّ عشرة سنة ونطالبهن بتغيير أسلوبهن في الحياة؟»

«من نحن؟» قاطعه خيمينيز، «إننا الرجال الوحيدون الذين بقوا أحياء في هذه القرية اللعينة. هذا هو الواقع! إن ماريكيتا قريتنا، ويجب أن نتسلم زمام الأمور ثانية».

«لا مكان آخر نذهب إليه يا خيمينيز»، قال بيريز، «إنهم يعتبروننا مجرمين أينما رحلنا في هذه البلاد. يجب أن نحاول أن نتأقلم لنتمكن من العيش هنا».

«لقد بذلت جهداً كبيراً لتتأقلم نفسك مع الثوّار المنايك»، ردّ خيمينز غاضباً، «ولا أسمح لأية امرأة أن تقول لي ماذا يجب أن أفعل. إني أفضّل قبول عفو الحكومة. على الأقل بهذه الطريقة يمكنني أن أنظّف سجلّي وأعيش في مكان تحترم فيه النساء الرجال ويطعنهم».

«هيا اذهب واقبل العفو»، قال تاماكا، وقد بدت على وجهه ابتسامة متكلفة، «اذهب إلى بوغوتا ليحشروك في ملجأ قذر. دعهم ينظّفون سجلّك ثم يرمون بك في الشارع حتى تُقتل أو تموت جوعاً. هل تظن حقاً أن أحداً سيؤجّرك غرفة في المدينة؟ أو يوظفك للعمل عنده؟ أو حتى يصادقك؟ فما إن يكتشفوا أنك كنت منذ بضعة أشهر تنسف الجسور وتفجّر خطوط أنابيب النفط، وتقتل الهنود والمزارعين المؤيدين للقوات الحكومية، حتى يقولوا إنك لا تساوي أكثر من خراء كلب».

«المهم أننا وصلنا إلى هنا»، قاطع كامبو إلياس ريستريبو، «والآن ماذا سنفعل؟»

أعقب سؤال ريستريبو فترة طويلة من التأمل الصامت دام حتى صباح اليوم التالي.

في غضون ذلك، اجتمعت القرويات وراء البيت رقم اثنان، ليقدمن دعمهن المعنوي لأوبالدينا، ويتبادلن انطباعاتهن الأولى حول عودة الرجال.

«أرفض رفضاً باتاً أن ألتقي بهذا الرجل»، قالت أوبالدينا، «فقد كان زوجاً وأباً سيئاً. إنه لا يستحقّني ولا يستحقّ أياً من أبنائه»، وأخذت تنشج.

«لكنك لم تكلميه يا أوبالدينا»، قالت أرملة موراليس بصوت تبجيلي، خافت، «لعله أصبح رجلاً مختلفاً الآن بعد أن فقد أحد أبنائه». كانت دونا فيكتوريا تتحدث من تجربتها الخاصة. فقد غيّرها ذهاب ابنتها خوليا بشكل

غير متوقّع، وشعرت باشتياق شديد لخوليا، وكانت تبكي في كلّ ليلة وكأنها سمعت النبأ للتو، وراحت تردد أن غياب خوليا جعلها أمّاً أفضل تجاه بناتها الثلاث الأخريات.

«حسناً، لقد أصبحت أنا أيضاً امرأة مختلفة»، ردّت أوبالدينا بتحد.

«إن القضية الرئيسية هي إلى متى سيبقى الرجال هنا»، قالت الآنسة غوارنيزو العجوز.

«لا»، قالت أوبالدينا، «إن القضية الرئيسية هي إلى متى سنسمح لهم بالبقاء هنا».

«ربما كنت تريدين أن يذهب زوجك يا أوبالدينا، لكنني أريد أن يكون ابني قريباً مني»، قالت سيسيليا معترضة، ثمّ، التفتت إلى مارسيلا لوبيز، وقالت: «ألا تريدين أن يمكث خطيبك؟»

«انتظري، أرجوك»، قالت روزالبا قبل أن تتاح لمارسيلا فرصة الإجابة، وأضافت، «لا يوجد سبب يدعو إلى مناقشة هذا الأمر الآن. لا نعرف هل سيمكث الرجال هنا. يجب أن نريهم كيف أصبحنا الآن، وأنه أصبح لدينا نظامنا وقوانينا الخاصة بنا. فمن الممكن أن لا يرغبوا في البقاء هنا».

اقترحت سيسيليا أن يُمنح الرجال درجة كاملة للإطلاع على القرية، وقالت الممرضة راميريز عشرة شموس، بينما طالبت أوبالدينا بخمس شموس فقط. لكنّ سانتياغو مارين الهادئ بطبعه، «الأرملة الأخرى»، هو الذي فضّ الاجتماع بعد أن أقنع المجموعة كلها بأن ثلاث شموس ـ واحدة لكلّ أسرة ـ تكفي لكي يتعرف الرجال على القرية. وقال في حال وجود مصلحة متبادلة، يستطيع الطرفان أن يتفاوضا من أجل تمديد فترة الإقامة.

*

لم يكن في مجتمع ماريكيتا الجديدة زعيم أو مجلس، بل كانت القرارات الرئيسية تتخذ بالإجماع، في عملية تشاركية شاملة تتيح أن يكون صوت لكل فرد من أهالي القرية الثلاثة والتسعين. أما القرارات الأصغر من شمس إلى شمس، فتتخذها المشرفة للمنطقة بأسرها. فعلى سبيل المثال، يوجد لكلّ بيت مشرفة ومساعدة لإعداد الطعام، تطهيان الوجبات الثلاث وتحرصان على أن تحصل جميع القاطنات في البيت على الطعام الذي يحتجنه. وتقوم المشرفة على المستودع بتوزيع إمدادات الطعام على كلّ مطبخ بالتساوي، وتقوم كذلك بدرس الحنطة أو فصل القش عن الحبّ، وتجفيف أيّ فائض من اللحم والسمك، وتخزين جميع أنواع الطعام في جرار كبيرة من الصلصال. أما المشرفة على المزرعة فتشرف على حصاد المحاصيل وجلبها إلى المخزن. كما تشرف على المزرعة العمومية، وعلى زراعة المحاصيل وحصادها. وبمشاركة أهالي القرية، تقرّر ما هي الحيوانات التي يجب تربيتها، وما هي النباتات التي يجب زراعتها. وتتسلم القرويات بالتناوب منصب المشرفة، وجميع المهام والأعمال الرتيبة الصغيرة. ويوزّع الصوف والقطن على النساء العجائز، لغزله ونسجه.

وتتصرّف كلّ امرأة على نحو منفرد، لكن إذا كان لدى أية امرأة (أو سانتياغو مارين) مشكلة، فإنها تُشجّع على طرح المسألة على نساء القرية بغية التوصل إلى حلّ بإجماع الآراء.

*

استيقظ الرجال الأربعة الذين كانوا لا يزالون يستيقظون حسب توقيت معسكر الثوّار، قبل شروق الشمس بقليل. واستخدموا الخرق والماء الموجود في الدلاء لغسل وجوههم وتنظيف أجسامهم، وبعد أن ارتدوا

نفس الثياب التي تفوح منها روائح كريهة، والتي كانوا يرتدونها خلال هربهم من المعسكر، وجلسوا على درجات الكنيسة، راحوا يراقبون بصمت القرية التي بدأت تأخذ شيئاً فشيئاً أشكالاً وألواناً متميّزة عندما بدأت الشمس تضيء بأشعتها كلّ شيء.

كانت الساحة لا تزال مظللة قليلاً عندما فُتح باب البيت المقابل للمكان الذي يجلس فيه الرجال، وخرجت امرأة. كانت متلفعة بقطعة قماش طويلة، بيضاء، عديمة الشكل، مما جعلها تبدو من بعيد وكأنها شبح، ومثل الشبح بدأت تتقدم ببطء عبر الساحة باتجاه الكنيسة. عندما اقتربت من الرجال، أطرقت برأسها بسرعة وراحت تغذّ خطاها، ودلفت إلى الكنيسة من المدخل الخلفي. نظر الرجال الأربعة بعضهم إلى بعض وهزوا أكتافهم بلا مبالاة، ولم يتمكن أحدهم من تفسير سلوكها الغريب. دقّت المرأة جرس الكنيسة وعادت لتظهر بعد ذلك مباشرة. نهض ريستريبو وتبعها، ظناً منه أنها زوجته. بدأت تسرع أكثر، لكن ريستريبو كان أسرع منها ولحق بها. أمسكها بقوة كيلا تفلت من قبضته، وشدّ بفظاظة قطعة القماش ونزعها عنها. إلا أن المرأة التي وقفت أمامه عارية تماماً، لم تكن زوجته، بل أرملة موراليس، التي أخذت تصيح بشكل هستيري طالبة النجدة.

خبّت النساء من البيوت الثلاثة كلها لنجدة الأرملة التي لحق بها العار. لففنها بسرعة بقطعة القماش البيضاء وأخذنها بسرعة إلى البيت رقم واحد، أقرب بيت إلى موقع الحادثة.

بعد قليل، بدأ جرس الكنيسة يدقّ من دون توقف، داعياً إلى عقد اجتماع طارئ. فُتحت أبواب البيوت الثلاثة على مصاريعها، مفسحة المجال لتدفق ثلاثة جيوش من النساء العاريات اللواتي توجهن بثبات وإصرار وهدوء مطلق

صوب الرجال. دفع هذا المشهد المخيف غير المتوقّع الرجال إلى النهوض على الفور فوقفوا متلاصقين. وقفوا منتصبين بهدوء تام، وكأن أحداً طلب منهم، الوقوف باستعداد، وأخذوا يراقبون بقلق النساء اللاتي أخذن يقتربن منهم حتى توقّفن أخيراً أمامهم، على مسافة ياردات قليلة.

«أرجوكنّ، دعوني أشرح لكنّ ما جرى منذ قليل»، أسرع ريستريبو يقول، وقد بدا متوتراً، عصبياً، وهو ينظر إلى حشد النساء، باحثاً عن أوبالدينا التي لم تتغيّر كثيراً.

«لا داعٍ لتوضيح أيّ شيء، يا سيد ريستريبو»، أجابت روزالبا بثقة، وهي تقف في الصف الأمامي. إننا نعرف تماماً ما جرى، وما هي الأسباب التي دفعتك إلى عمل ذلك. من الآن فصاعداً، لن نتسامح مع أيّ غريب يقوم بتعرية إحدى نسائنا، مهما كان السبب. وكما ترون، لم يعد للقرية التي كنتم تعيشون فيها أيّ وجود. إنكم الآن في ماريكيتا الجديدة، المجتمع النسائي المستقل الذي يتّصف بـ. . . خصائص اقتصادية وثقافية واجتماعية خاصة، وتجمعه صلات وثيقة بالطبيعة». لم تذكر هذا التعريف منذ أمد بعيد، عندما كانت تحاول أن توضح لنفسها ما آلت إليه قريتهن. لكن تلك كانت أول مرة تقولها بصوت مسموع.

خيّل إليّها أنها بدت عظيمة ومميّزة، وأنه لن تتاح لها فرصة أفضل من هذه لتعرض رأيها. وقالت: «في الواقع إننا لن ندرس حتى مسألة قبول أي واحد منكم في قريتنا إذا لم نتأكد تماماً من أنه قادر على التكيّف مع العيش في قريتنا والعمل وفق أساليبنا ومثلنا العليا وأنظمتنا». كانت تنقّل عينيها من رجل إلى رجل أثناء كلامها، وتبذل جهداً لكي تنظر إليهم بالتساوي بقدر الإمكان. كانت امرأة عادلة. «لماذا لا نبدأ بك، يا سيد خيمينيز؟ أخبرنا ما الذي جاء بك إلى هنا، وما الذي تريده منا».

تقدم خاسينتو خيمينز الابن نصف خطوة إلى الأمام. كان أطول الرجال الأربعة قامة وأكثرهم امتلاء بالعضلات. نظر إلى رفاقه أولاً، ثم إلى القرويات، وقرّر أخيراً أن يوجّه كلامه إلى رأس هندباء كانت ريح الصباح قد حملته من حديقة بيت إحداهن، فقبع بالقرب من قدمَيْ روزالبا الحافيتين.

«لا أريد شيئاً منكن»، بدأ حديثه، «فقد عدت لأبدأ حياة جديدة، ولا أحتاج في ذلك إلى إذن من أحد. سأعيد بناء بيت أبي السابق في أسرع وقت ممكن، ثمّ سأتزوّج مارسيلا، وسننتقل إلى بيتي». رجع نصف خطوة إلى الوراء، وانضم إلى رفاقه.

أمعنت روزالبا في ما قاله الرجل، ثمّ قالت، «سيد خيمينيز، هل صحيح أنك لا توافق على عري مارسيلا؟»

«طبعاً»، ردّ بغضب، «إن ما تفعلنه هو شأن كلّ واحدة منكنّ. حتى يمكنكنّ أن تقفن جميعكن على أثدائكنّ إن شئتنّ، لكنني لا أسمح بأن يرى أحد غيري زوجتي عارية»، وعقد ذراعيه بتحد. توجهت القرويات بعيونهن إلى روزالبا، ينتظرنّ ردها. في تلك اللحظة بالذات، تقدمت مارسيلا إلى الأمام، وأسندت يديها على ردفيها، وكانت قد خلعت القميص الذي كان خيمينز قد أعطاه لها في الشمس السابقة.

«إنك لم تتغيّر أبداً يا خاسينتو»، قالت باحتقار، «إنك لا تزال متعجرفاً ومدّعياً كما كنت دائماً. أما أنا فقد تغيّرتُ كثيراً منذ أن ذهبت. لا يمكنك أن تتخيّل الأشياء التي عانيتها حتى أصبح بإمكاني أن أقف اليوم هكذا، وجها لوجه أمامك، ولا أشعر بالخجل، أو يعتريني أي شعور بالذنب أو الخوف». تضرّج وجهها احمراراً، وأضافت، «وإني أفضّل أن أظل عانساً

طوال حياتي على أن أكون زوجتك للحظة واحدة». وألقت بالقميص عند قدميه وكأنه خاتم خطوبتهما، وعادت وانضمت إلى بقية النسوة، تلاحقها نظرات خيمينز الغاضبة.

بابتسامة متعجرفة، دعت روزالبا الرجل التالي. فقال ديفيد بيريز، بنبرة ألطف من نبرة خيمينيز، فتمنى أن يستعيد قطعة الأرض الصغيرة التي كان يملكها أجداده، وأضاف، «وأريد أن أعيد بناء بيتنا لي ولجدتي. لقد قدمتنّ لها جميعكن رعاية جيدة، وأودّ شكركن على ذلك. لكنني بعد أن عدت، فإنني مستعد لتحمّل مسؤولياتي». واعترف بأنه يشعر بعدم الارتياح إزاء بعض التغييرات التي حدثت في ماريكيتا، وأضاف، «لا أعرف هل سأتمكن من التكيّف مع جميع خصائصكن الخاصة، لكنني مستعد لمحاولة. أرجو أن تراعين أننا وصلنا البارحة فقط، وأن ذلك يستغرق وقتاً»، وقال إنه يرغب في إنشاء أسرة، وسأل هل توجد امرأة تريد أن تتزوج رجلاً يتسم بالشجاعة والحنان؟

لم تبد أية امرأة الرغبة في الزواج حالياً. لكن النساء استقبلن كلام ديفيد بحرارة.

ثم تقدم كامبو إلياس ريستريبو خطوة إلى الأمام قبل أن تنادي روزالبا اسمه.

«ماذا تريد أن تقول يا سيد ريستريبو؟» قالت روزالبا.

«كما تعرفن جميعكنّ»، بدأ يقول، «كنت أملك عدداً من البيوت في القرية وعدة هكتارات من الأرض. حسناً، لقد عدت الآن، وأظن من العدل أن تعيدها لي أية امرأة تعمل فيها أو تستخدمها الآن. وأعد بأنني لن أطلب منكن إيجاراً عن الفترة السابقة». ضحك وحده على نكتته، ثمّ

واصل كلامه، «وشأن الرفيقين خيمينز وبيريز، أريد كذلك أن أعيد بناء بيتي و. . . كما تعرفن، سآخذ زوجتي معي، لأنها لا تزال زوجتي، أليس كذلك؟ أم أنكنّ، أيتها السيدات، ستقلن لي إن أوبالدينا قد أصبحت أيضاً. . . كما تعرفن. . .»، حدّقت فيه النساء باحتقار.

«لماذا لا تسألها أنت بنفسك، يا سيد ريستريبو؟» اقترحت روزالبا بنبرة ساخرة، وأشارت إلى امرأة هندية ضئيلة تقف في الصفّ الأول طوال هذا الوقت، ظهرها مشدود باستقامة، ويداها معقودتان تحت سرتها مباشرة.

نظر ريستريبو إلى المرأة وقطّب حاجبه. ثم نظر إلى روزالبا بارتباك، ثمّ نظر إلى المرأة التي كان من المفترض أن تكون زوجته. كانت تقف على ساقين رشيقتين، مثل تمثال مصبوب من البرونز. وكانت تحيط بوجهها الصغير المستدير ضفيرتان شائبتان، وكانت عيناها بنيتين مائلتين تحت جفنين كثيفين، ولها أنف هندي عريض، وشفتان مكتنزتان. قال ريستريبو لنفسه إن ثدييها يبدوان خجولين، لكنهما صلبان جميلان بالنسبة لعمرها.

«أوبالدينا؟» سأل بشك.

أومأت برأسها.

«إنك تبدين. . . مختلفة»، قال متلعثماً، «جيدة. إنك تبدين في حالة جيدة».

«هل تعرف أن هذه هي المرة الأولى التي تنظر فيها إليّ حقاً في حياتك، يا كامبو إلياس؟» قالت أوبالدينا، «أوه، نسيت، يا دون كامبو إلياس. أرجو أن تغفر لي لأنني لم أبد لك الاحترام اللائق». وضحكت بسخرية.

وقف بهدوء، يتذكّر. فقد تزوّج أوبالدينا لأنه كان يريدها أن تصبح أمّاً لرعاية أولاده السبعة، الذين كانوا يعتبرون أوبالدينا فرداً من أفراد أسرتهم. لكن علاقتهما بقيت علاقة الخادمة والسيد لم تتغيّر كثيراً بعد زواجهما.

ولم ينظر ريستريبو ولا مرة إلى أوبالدينا نظرة مختلفة عن نظرة ربّ العمل. وفي المرات القليلة التي ضاجعها فيها، كان إما سكراناً أو متعباً لا يستطيع الذهاب إلى المبغى، ولم يشعر بالاشتياق إليها طوال هذه السنوات. وفي المناسبات النادرة التي كان يفكّر فيها بأوبالدينا، كان يتصوّر خادمة تضع مئزراً، تطهو أو تنظف بصمت، مطرقة برأسها دائماً. لكن الزوجة التي أساء معاملتها تخلّصت الآن من مئزرها منذ أمد بعيد. أما اليوم، عندما نظر إليها اليوم، رأى امرأة جذّابة، ناضجة، لدنة، يعتريها شعور بأنه خدعها، غشها، وأساء معاملتها، وأصبحت ترفضه حقاً. ولن يغيّر أي شيء يقوله أو يفعله الآن ما فعله في الماضي.

«أليس لديك شيء تريد قوله؟» سألت أوبالدينا، بعد أن قطعت سلسلة ذكريات الرجل.

لم يستطع ريستريبو أن يفكّر بأيّة كلمات يمكن أن تعبّر عن الطريقة التي بدأ يشعر بها. هزّ رأسه.

«إنها أفضل بهذه الطريقة»، قالت.

رجع إلى الوراء، وأطرق رأسه.

بعد قليل، دعي آنخيل تامارا ليحدّث القرويات سبب مجيئه. عندما تقدم الرجل المحطّم، تساءلت روزالبا ماذا يريد هذا الرجل منهنّ، علماً أنه الشخص الوحيد الذي تطوّع للالتحاق بالثوّار. فليس له بيت يعيد بناءه، أو أرض يطالب باستعادتها. ربما عمله كمعلّم سابق؟ لكن ماذا يمكنه أن يعلّمهن؟ فضائل الاشتراكية؟ التي يعشنها الآن.

«كلّ ما أطلبه منكنّ أن تمنحنني فرصة ثانية»، قال آنخيل بتواضع للنساء المتجمهرات دون أن ينظر إلى أية منهن بالتحديد.

«فرصة ثانية؟» سألت روزالبا، «لفعل ماذا؟»

«لأكون إنساناً» أجاب.

هزّت القرويات رؤوسهن بدماثة: بدا أن استرحام آنخيل حقيقياً. إنه يستحقّ فرصة ثانية. تأثرت أمبارو مارين كثيراً بطلبه، بصوته الرجولي، بتهذيبه، بالسحنة الحزينة المرتسمة على وجهه. كيف يستطيع رجل أن يعبّر عن مشاعره بهذه الطريقة الحسّاسة بكلمات قليلة يقولها وعين واحدة تومض؟

قبل أن ينفضّ الاجتماع، أبلغت روزالبا الرجال الأربعة بما سيجري. وقالت: «كان يأتينا زوّار في الماضي، أغلبهم مسافرون عابرون، وعائلات مشرّدة في طريقها إلى المدينة، إلا أنه لم يخطر ببال أحد أن يبقى. إن هذا الأمر برمته جديد علينا، ومن الطبيعي أن نقرر بالإجماع هل سنقبلكم في مجتمعنا بعد أن نجري بعض المداولات، وعندما نتوصّل إلى إجماع في الآراء سنخبركم الرد».

«الرد على ماذا؟» صاح خيمينيز، «فلم نسأل أسئلة كثيرة ولم نقدم أيّ طلب. أليس كذلك؟ لقد أتينا هنا لكي نبقى، وإننا لا نعير أي اهتمام بإجتماعكنّ. لا بد أنكنّ نسيتن أن ماريكيتا هي قريتنا نحن أيضاً».

«سيد خيمينيز»، قالت روزالبا بهدوء، «تطلع حولك وقل لي هل هذه القرية هي نفسها التي تدّعي أنك كنت تعيش فيها؟».

لم ينظر إلى أي مكان، بل ركّز نظرته على عينيها، وبدأت شفتاه ترتجفان غضباً، «لدينا أملاك هنا، ولن نذهب إلى أيّ مكان آخر»، ونظر إلى الرجال الثلاثة الآخرين ليستمد الدعم منهم.

«إننا أناس مسالمون هنا، يا سيد خيمينيز، لكن أرجو أن لا تخطئ، فإننا سنفعل كل ما بوسعنا للدفاع عن قريتنا وعن مبادئنا من الدخلاء الوقحين من أمثالك». كان صوت روزالبا يشي بنوع من التهديد في كلامها.

ضحك ساخراً وقال: «أريد أن أرى ذلك. حفنة من النساء الضعيفات يحاربن أربعة رجال من المحاربين الأشاوس مثلنا. أتعرفين كم شخصاً ذبحنا؟ مئات! بل آلاف! وحفنة نساء منكن لن تزيد كثيراً على سجلاتنا الجنائية».

«تكلّم عن نفسك، يا خيمينيز»، قال آنخيل تاماكا فجأة، «لم نعد نقاتل. لقد ظننت أنك لم تعد تقاتل أيضاً». تنحّى جانباً، وانفصل عن الثلاثة الآخرين. نظر ديفيد بيريز إلى ريستريبو أولاً، ثمّ إلى خيمينز، وأخيراً هزّ كتفيه، وانضم إلى تاماكا.

«أنتما الاثنان منيكان»، قال خاسينتو لتاماكا وبيريز، «فبعد كل هذا الخراء الذي عانيناه للهروب من قبضة الثوّار، تدعان الآن حفنة من النساء يحاكمنكما وكأنكما مجرمان». هزّ رأسه عدة مرات، ثمّ خاطب ريستريبو قائلاً: «هل انقلبت عليّ أنا أيضاً؟»

وضع ريستريبو يده على كتف خيمينز، وقال: «يجب أن أنال فرصتي هنا يا بني» قال تحت أنفاسه، «فقد شخت ولا أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد في أي مكان آخر».

«لا تدعهن يخدعنك» همس له خيمينز، «إنك تعرف كيف هنّ النساء. إنهنّ ينتقمن منا لأننا ابتعدنا عنهن طوال هذه الفترة، وكأن الأمر في يدنا».

لكن ريستريبو قرّ قراره. أطرق برأسه وانضم إلى الاثنين الآخرين. وقف خاسينتو هناك، وحيداً، يحدّق في رفاقه. اغرورقت عيناه بالدموع، وتراخت قسمات وجهه. لكن عندما خيّل للجميع أنه على وشك الاستسلام والانضمام إلى الثلاثة الآخرين، صاح فيهم، «يمكنكم الذهاب إلى الجحيم، أيها الخونة التافهون! امكثوا هنا، تعفنّوا في هذه الحفرة

المنيوكة مع تلك السحاقيات البربريات. سيكون هذا سجنكم». بدأت الدموع تنهمر على وجهه، لكنه ظل يصيح، وقد غصّ صوته بالانفعال، وتابع قائلاً: «أنا؟ سأنظّف سجلّي، وسأصبح مواطناً محترماً، وسأصبح أفضل حالاً منكم أيها الخونة». عندما أنهى كلامه، سار في الشارع إلى الخلف وهو يرى وجوههم تصبح ضبابية وتصغر أكثر وأكثر، وبدأت تتلاشى أخيراً، وهو ينشج ويصيح، مراراً وتكراراً «خونة»، وكانت صيحاته المسعورة تختلط بنعيق الغربان التي كانت تحلّق في تلك اللحظة في سماء القرية.

*

وراء البيوت العمومية الكبيرة الثلاثة في ماريكيتا الجديدة، قبعت بقايا القرية القديمة: بيوت لا أسقف لها، بيوت مستطيلة بلا أسقف مشيّدة من الطين، لأن كلّ ما كان يجعل منها بيوتاً ـ الأبواب، زجاج النوافذ وإطاراتها، وحتى الأرضيات ـ قد أُزيلت واستُخدمت في تشييد المساكن الجديدة. وابتليت هذه المباني المستطيلة الخاوية من الداخل بأعشاب ضارة عدوانية نمت بأشكال مشوّهة وبأحجام ضخمة، وكأنها تشويهات من الطبيعة. لكن ما إن أنهت النساء المجدّات تشييد البيوت الرئيسية الثلاثة، حتى أدرن عيونهن نحو خرائب القرية القديمة، وقرّرن هدم جميع الجدران الداخلية لجميع البيوت السابقة، وتحويلها إلى حدائق مغلقة منتجة.

وإذا ما أتيحت لك الفرصة، في إحدى الشموس، لرؤية ماريكيتا الجديد من فوق هضبة، فإنك ستشعر وكأنك تقف فوق لحاف ضخم مرقّع بعدد كبير من قصاصات الأقمشة ذات الظلال المختلفة من اللون الأخضر.

*

كانت الشمس تتوسط السماء عندما أُوقدت النار في وسط الساحة، وأُعدّ طعام الفطور، وما إن أنهت القرويات طعامهن، حتى استدعين إلى الكنيسة.

لبث الرجال الثلاثة واقفين في الساحة، بانتظار البتّ في مصيرهم. وظلت كلمة «خونة» تتردد في أذني تاماكا، وتذكّر كيف أن الهرب من معسكر الثوّار كان فكرة خيمينيز. فقد ناقش خيمينز خطته مع تاماكا أولاً، ثمّ مع بيريز، وأخيراً مع ريستريبو. وأقسموا هم الأربعة على أن يبقوا معاً ويبقوا أوفياء لخطتهم، وناقشوها سراً منذ أكثر من سنة، وبحثوا كلّ خطوة للهرب، والعواقب الخطيرة المترتبة على ذلك فيما لو اكتشفت خطتهم. ودبَّر خيمينز الأمر مع فلاح محليّ، وذات يوم، قبل شروق الشمس، اجتمع أربعتهم في كوخ ذلك الفلاح وبدّلوا ثيابهم وارتدوا ثياباً مدنية، وتناولوا الطعام الذي أعدّته لهم زوجة الفلاح، وأخذوا معهم شيئاً من الطعام يقيم أودهم أثناء الطريق، ثم تحركوا باتجاه الشاطئ الصخري للنهر الكبير الذي قادهم في نهاية الأمر إلى مقصدهم النهائي.

وخُيِّل إلى آنخيل أنه ربما كان بيريز وريستريبو حزينين أيضاً لأنهما خيّبا أمل خيمينيز. لعلهما إذا رأيا الأمور المدهشة التي حققتها القرويات في قريتهم (التي وصفتها له أمّه بالتفصيل)، فإن ثلاثتهم سيشعرون بالأمان في قرارهم. فاقترح، «دعونا نتمشّى في أرجاء القرية».

أثناء التجول في أرجاء ماريكيتا الجديدة، أحسّ آنخيل بأنه مثل صبي صغير في مدينة الملاهي. فقد راح يشير إلى كلّ حديقة زاهية على جانبي الشارع بحماس شديد ويصيح، «انظروا، يوكا». «انظروا هناك، قرع». واستمر هكذا، وكأن عينه الوحيدة قد اكتسبت فجأة قوّة تستطيع أن ترى

أشياء لا يستطيع الرجال الآخرون رؤيتها بعيونهم. وأبدى ريستريبو إعجابه الشديد بقناة جر المياه في القرية: قناة اصطناعية بنيت بمهارة في المكان الذي كان يقبع فيه ماخور لا كازا دي إميليا، تزوّد الآن البيوت العمومية الثلاثة حالياً بالمياه الجارية، والحمّام العمومي، ومكان صغير للغسيل. ومن البراعة حقاً أنه حتى الماء الرمادي كان يستخدم للمراحيض التي أقيمت فوق ركائز مرفوعة فوق الماء الجاري. وقد بهر الحمّام العمومي المسقوف بيريز: عشر مقصورات منفردة للاستحمام، ومراحيض أقيمت فوق رصيف كان مكان السوق سابقاً. وقد صنع الهيكل كله من خشب جميل معالج بالراتنج. وزاروا المستوصف، ومخزن الحبوب، ومزرعة الحيوانات، ثمّ ساروا في حقول الذرة الصفراء والرزّ والبنّ فوق سفوح التلال التي نهضت وراء القرية.

وعندما أنهوا جولتهم، عادوا إلى الساحة، واستلقوا تحت ظلّ شجرة مانغا. كانوا متعبين، وداعبت الشمس أجفانهم، لكن إحساسهم بالقلق لم يمكنهم من أن يغمض لهم جفن.

داخل الكنيسة، كانت القرويات الجالسات في دائرة كبيرة، يسعين جاهدات للتوصّل إلى إجماع في الرأي. «لا يمكننا مناقشة كل رجل على حدة»، قالت كليوتيلد، رئيسة الجلسة، «حتى نتفق جميعنا على أن نبقي أفراداً ذكوراً في قريتنا». في الماضي، كان يتم التصويت على جميع القرارات في القرية، التي كانت تجعل العملية تتم بسرعة، لكنها كانت تخلّف دائماً مجموعة من القرويات غير راضيات. وكانت كليوتيلد قد شرحت فكرة التوصل إلى إجماع في الآراء مؤخراً، «ينبغي ألا ينحصر هدفنا في عدّ الأصوات، بل في التوصل إلى قرار جماعي نستطيع أن

نتعايش معه جميعاً عن طريق الحوار المتحضر»، كانت تقول بتلك النبرة الفلسفية التي اكتسبتها مع تقدمها بالعمر. ومن السخرية أن توصية كليوتيلد طرحت للتصويت، ووافقت عليها أغلبية كبيرة بسرعة.

أما الآن فقد طالبت أغلبية النساء بوجود ذكور في القرية، مقابل امرأتين ظلتا تعارضان الفكرة: وهما أوبالدينا وأركيدا موراليس.

«قد تكون هذه فرصتنا الأخيرة ليصبح لدينا أحفاد ونحافظ على مجتمعنا»، قالت روزالبا للمعارضات. وذكّرت أوبالدينا أنها كانت قد رفضت منذ عهد بعيد الفكرة التي اقترحتها روزالبا بأن يضاجع مستر إسميس عدداً من النساء لأنه أبيض البشرة، وأضافت، «أما هؤلاء الرجال فهم من لونك يا أوبالدينا. فكّري بالأمر. ليس من الضروري أن يكون كامبو إلياس».

وتوسلت سيسيليا لأوركيدا موراليس أن توافق. «أرجوكِ يا أوركيديا، لا تحرميني من فرصة وجود ابني معي»، قالت وهي تجهش بالبكاء. واتخذت فرانسيسكا، شريكة سيسيليا، استراتيجية أشدّ عدوانية مع المرأة العنيدة، وقالت: «ضعي نصب عينيك بأنك قد تحتاجين إلى موافقتنا إذا أردت أن نقبل بإعادة أختكِ خوليا».

وافقت أوبالدينا في نهاية الأمر. أما أوركيدا فقد قالت إنها لن توافق بأية حال من الأحوال على أن يعيش في قريتهن، وطلبت من القرويات التوقف عن محاولة إقناعها بالموافقة، فإما أن تنهي الاجتماع أو يغيّرن الموضوع. كانت أوركيدا إحدى أكبر العوانس سناً في القرية، وبالطبع، أقلهن جاذبية.

لكن عندما بدا أن قراراً يعارض إقامة الرجال في ماريكيتا على وشك أن يتخذ، اقترح الأرملة الأخرى، مرة أخرى، حلاً أدخل السرور إلى نفوس المجموعة كلها بعد دراسته: «لماذا لا نساعد الرجال على إقامة قرية جديدة

في مكان قريب، حيث يمكن للنساء اللاتي يرغبن في العيش معهم أن يفعلن ذلك؟ ويمكننا أن نشترط عليهم أن يقبلوا شروطنا». قوبلت الفكرة بصمت غامض عميق قد يكون إما دهشة محضة أو شكاً صرفاً.

«وما هي شروطنا؟» أرادت أوبالدينا أن تعرف.

«يجب أن نحددها»، قالت الأرملة الأخرى.

«من يريد أن يعيش معهم على أية حال؟» قالت أوركيدا موراليس.

«حسناً، دعونا نكتشف ذلك»، أجاب الأرملة الأخرى، «هل توجد امرأة واحدة هنا تريد أن تعيش وتعمل في مجتمع مختلط من الذكور والإناث بنفس الشروط والظروف التي نعيشها؟»

وسرعان ما وجدت كلّ امرأة في الغرفة نفسها تتخيّل القرية الأخت لهن. فقد تخيّلت أمبارو مارين نفسها وهي تعيش هناك، متزوّجة بسعادة من آنخيل تاماكا، وحاملة بطفل منه. أما بيلار فيليغاس، فقد ذهبت شأواً أبعد من ذلك: إذ تصوّرت نفسها هي وديفيد بيريز محاطين بسبعة أطفال أنجباهما، ورسمت هذه الفكرة ابتسامة على وجهها. وتصوّرت سيسيليا نفسها هي وفرانسيسكا، تحمل كلّ منهما سلة من الأزهار، تمشيان يداً بيد إلى القرية المجاورة لزيارة ابنها آنخيل وزوجته. وتخيّلت روزالبا أنها هي نفسها المشرفة على المخزن، تقايض الفائض من مخزون الحبوب لديها، مع المشرف على المخزن في «ماريكيتا الجديدة الأخرى». وحاولت فيرجيلينا سافيدرا، في تدريب برئ، أن تتصوّر نفسها تعيش هناك، وتشارك في سريرها رجلاً عارياً بدلاً من مانوليا، لكن الصورة الوحيدة التي خطرت لها هي صورة الخوري رافاييل وهو يمتطيها. وسرعان ما نفضت من رأسها هذه الصورة، وبشعور بالذنب، أمسكت يد مانوليا ورفعتها إلى شفتيها وقبلتها بصوت أحدث فرقعة. حتى أوركيدا موراليس أطلقت العنان لمخيلتها،

وتخيّلت نفسها تعيش في القرية الجديدة، تمنع اتخاذ قرار بالإجماع يسمح للرجال بالتعرّي.

«أنا أقبل»، أعلنت أمبارو مارين فجأة بصوتها الخفيض.

«وأنا أيضاً»، قالت بيلار فيليغاس، وسبابتها مرفوعة عالياً في الهواء.

«وأنا أيضاً»، صاحت كوبا سانشيز من الجانب الآخر من الغرفة. وحصلت فكرة سانتياغو على الإجماع في الجولة الأولى، وعلى كلّ اقتراح يرتبط بها، ونوقشت جميعها بحماسة شديدة خلال فترة بعد الظهر. وقبل نهاية الشمس، دُعي الرجال الثلاثة إلى الكنيسة لسماع القرار الذي اتخذته القرويات.

ابتسم آنخيل تاماكا، وقد غمرته السعادة؛ وهزّ ديفيد بيريز كتفيه باستسلام؛ وقطّب كامبو إلياس ريستريبو جبينه بارتياب تام تجاه سانتياغو عندما أُعلن القرار الأخير بالإجماع. قال سانتياغو إن الشروط قد حُدِّدت في عقد يجب على كل رجل منهم التوقيع عليه في نهاية الاجتماع.

«ما هي الشروط؟» سأل ريستريبو.

«حسناً»، أسرعت روزالبا للإجابة، «رقم واحد: المساواة بين الأفراد وبين الجنسين».

«وما هي الشروط الأخرى؟»

«يجب أن يتبع المجتمع الجديد نفس النظام الإداري الموجود لدينا. لا يملك أي فرد شيئاً».

«لكن ماذا عن ممتلكاتي؟ يجب أن أحصل على تعويض على الأقل. لقد كدحت طوال عمري، وأصبحت مسناً الآن ـ»

«سيكون مصدر رزقك مكفولاً حتى يوم مماتك، يا سيد ريستريبو. هذا هو تعويضك».

«همم...»

وشرح سانتياغو المشروع بالتفصيل، وأجاب على جميع الأسئلة التي طرحها الرجال، وأعطاهم جدولاً مؤقتاً (لم يفهموه تماماً، لأنه كان وفق التوقيت الأنثوي). واسترخى حاجب ريستريبو قليلاً، بل حتى ارتسمت ابتسامة على وجه بيريز. واتفق الرجال والقرويات على تسوية خلافاتهم، والعمل على بناء القرية الجديدة بأسرع ما يمكن.

وفي صباح اليوم التالي، ذهب الرجال الثلاثة، كل منهم برفقة امرأة في جولات استطلاعية لتحديد موقع القرية الجديدة: وقدم آنخيل تاماكا ذراعه لأمبارو مارين، واتجها شمالاً. وأخذت بيلار فيليغاس ديفيد بيريز من يده واتجها غرباً. وسأل كامبو إلياس ريستريبو ساندرا فيليغاس ـ بعد أن قالت أوبالدينا لا ثلاث مرات ـ واتجها شرقاً. واستغرق العثور على موقع ملائم ـ بقعة أبرد قريبة من النهر، مكسوة بالعشب، تتناثر فيها الأشجار، حتى تصل إلى الغابة. ووافق الجميع على الموقع في فترة شمس واحدة. وفي صباح اليوم التالي، توجهت القرويات مع الرجال إلى الأرض الجديدة، يحملون مناجلهم وسكاكينهم فجزّوا الأعشاب الضارة، ونظفوا الحدائق، لكنهم لم يقتلعوا شجرة واحدة.

وبعد شمسين اثنتين، بدأ فريق من البنائين يتألف من اثنتي عشر امرأة قوية والرجال الثلاثة تشييد القرية الجديدة: مجتمع ماريكيتا الأحدث.

*

كان مجتمع ماريكيتا الأحدث قطعة فنية استغرق بناؤها سلّماً ونصف السلم. وضم بيتين مشتركين؛ وغرفة طعام عمومية تقدم فيها وجبتا طعام في كلّ شمس؛ وباحة صغيرة فيها أشجار صغيرة؛ وأربعة مقاعد مصنوعة

من جذوع أشجار كبيرة؛ وقناة جر مياه مكتفية ذاتياً؛ وحمّام عمومي كبير؛ ومخزن للحبوب؛ ومزرعة عمومية؛ ومزرعة حيوانات صغيرة فيها ستّ دجاجات، وديكان روميان، وثمانية أرانب، وديك صغير متمرد يصيح بشكل عشوائي طوال النهار.

وشُيِّدت البيوت قبالة بعضها بعضاً، وكانت تبدو من الخارج مثل معابد مستطيلة ذات سقوف طويلة. وأطلق على البيت المقسّم إلى غرف اسم «بيت الشمس»، وأطلق على البيت غير المقسّم إلى غرف اسم «بيت القمر». وبلغ طول كلّ بيت ١٣٠ قدماً وعرضه ٣٠ قدماً، وصنعت هياكل البيوت من أعمدة من الخشب والخيزران وطليت بالدهان؛ وغطيت الجدران بلحاء الأشجار؛ وصنعت السقوف الشديدة الانحدار من سعف النخيل. وفي الداخل، كان كلّ سطح عبارة عن حديقة معلّقة: أزهار السحلبية الأرجوانية اللون، وزهر الربيع الأصفر، والزنبق الأبيض، وزهر البنفسج، تتدلى من الأعلى في أصص فخارية. وكان لكلّ مبنى بابان: الباب الأمامي المفضي إلى الباحة، والباب الخلفي المفضي إلى الدروب الممتدة إلى النهر، وإلى الغابة، وإلى القرية الشقيقة: ماريكيتا الجديدة، التي لا تكاد تبعد أكثر من ميل.

*

وفي صباح ٧ مارياس ٧ من السلّم ١٩٩٢، زفتّ آنخيل تاماكا البشرى أن شريكته، أمبارو مارين، في المخاض. وقرعت إلويسا الجرس، وسُمعت صيحات البهجة في أرجاء القرية. وفي الوادي الصغير، توقّفت القرويات عما كنّ يفعلنه وتجمهرن في الساحة، ورحن يغنين ويرقصن ويهنئ بعضهن بعضا. وهرعت روزالبا وسيسيليا إلى المخزن وملأتا سلتين بأكبر البرتقالات

لديهن، وأفضل أنوع البابايا، وأكثر ثمار المانغا احمراراً، وأفضل شرائح اللحم المقدد. وأخذتا سلتيهما، وانطلقتا برفقة جميع القرويات إلى ماريكيتا الأحدث.

وعاشت أمبارو مارين وآنخيل تاماكا في «بيت الشمس». وحتى ذلك الصباح، كانت أمبارو تشرف على وجبات طعام القرية خلال درجتين متتاليتين، وكان آنخيل يشرف على مزرعة الحيوانات، وكانا يشاركان زوجين آخرين في البيت، هما بيلار فيليغاس ودافيد بيريز، اللذين وافقا مؤخّراً على الانتقال معاً بعد أن غازل كل منهما طوال عشرات الدرجات، وانتقلت مانوليا موراليس وفيرجيلينا سافيدرا، على سبيل التغيير، من ماريكيتا الجديدة قبل درجتين اثنتين، بعد وفاة جدة فيرجيلنا.

وفي الجهة المقابلة، كان يقيم في «بيت القمر»، ستّة أشخاص هم: كامبو إلياس ريستريبو، المشرف على الصيانة، الذي كان يرى زوجته أوبالدينا مرة واحدة كل درجة، منتظراً سماع شيء لطيف منها، لكنه كان متفائلاً بأن يتمكن ذات يوم من كسب ودّها ثانية؛ وكوبا وفيوليتا سانشيز، اللتان ساعدتا في تشييد القرية الجديدة، واللتان أصبحتا مسؤولتين عن تنظيفها؛ وساندرا فيليغاس ومارسيلا لوبيز، اللتان كانتا صديقتين عزيزتين، وراحتا تشرفان على رعاية المزرعة العمومية، وحقل الخضراوات والبستان بمساعدة بيلار وديفيد ومانوليا وفيرجيلينا. وكانت تقيم معهم جدة ديفيد، أرملة بيريز، التي كانت تمضي أيامها جالسة في الهواء الطلق في كرسي هزاز، تدمدم صلواتها بصورة آلية. وكانت تنسى لماذا صلّت ومن أجل من.

*

عندما كانت النساء يسرن في الدرب الصغير عبر الغابة، رحن ينقبن في ذاكرتهن أسماء للطفل الجديد، يقترحنه على آنخيل وأمبارو.

«إن كانت بنتاً، يجب تسميتها على اسم جدّتها»، قالت سيسيليا لآراسيلي، الآنسة العجوز، التي أصيبت بخرف تقريباً «كليوتيلد».

«لا»، أجابت سيسيليا، «إن كانت بنتاً، فيجب أن تُسمى باسم ماريكيتا، لأنها ستكون أول طفلة تُنجب في ماريكيتا الجديدة وفي ماريكيتا الأحدث».

«أوافق»، قالت آراسيلي.

صمتت روزالبا التي لم تنظر حتى الآن في إمكانية أن يكون الطفل القادم بنتاً. ومنذ أن علمت أنّ أمبارو مارين حبلى، قرّرت أنه لا بد أن يكون المولود صبياً. يجب أن يكون صبياً لكي تبقى قريتهم وتستمر. ولم تكن تفهم كيف يمكن للقرويات أن لا يكنّ عقلانيات، وأن يطلقن على الطفل الجديد اسم جدّيه أو أبيه أو عمّه أو ابن عمه أو أيّ رجل آخر. وهذا لا يهم ما دام أنه اسم ذكر، لأن الطفل سيكون صبياً. وعند منعطف الطريق، قبل الانحدار المؤدي إلى القرية الجديدة مباشرة، قالت روزالبا أخيراً: «ماذا لو كان صبياً؟»

«آنخيل!» أجابت سيسيليا على الفور، «يجب أن يُسمى آنخيل مثل اسم أبيه وجدّه».

«ماذا عن غوردن؟» قالت روزالبا، «مثل مستر إسميس».

«غوردن تاماكا؟» قالت فرانسيسكا بصوت عال، «إنه اسم مثير للضحك». ضحكت النساء بشكل هستيري، وسرعان ما بدأن يرددن الأسماء التي يقترحنها بصوت مرتفع، وهي أسماء أبنائهن وأزواجهن وآبائهن والرجال الآخرين اللذين غادروهن، فأردن تخليد ذكراهم.

«ماذا عن بابلو؟»، قالت الأرملة الأخرى. كانت هذه هي المرة الأولى، التي يذكر فيها سانتياغو، علناً، اسم حبيبه منذ أن مات. توقّفت النساء ولبثن صامتات، كما لو أنّ ذاكرة بابلو قد استدعت لحظة من الصمت. إلا أن روزالبا كانت مستغرقة في التفكير بأسماء الذكور إلى حد أنها لم تسمع اسم بابلو يُلفظ. واصلت سيرها والسلة تتدلى من ذراعها، ولم تتوقف حتى وصلت إلى الجزء الذي بدأت فيه قرية ماريكيتا الأحدث تظهر أمامها. وقفت هناك، وبدأ القلق يعتريها بانتظار الأخبار المرتقبة عن جنس الرضيع، وراحت تحدّق بحنان في المشهد الطبيعي الجميل للجبال العالية والسهول المترامية الأطراف المكسوة بالأشجار والأعشاب، وسفوح الجبال والوديان الوعرة، والمراعي الشاسعة ذات الأعشاب الطويلة والأزهار البرّية، والحقول المحروثة، والحدائق، والقرية الصغيرة النائمة تحت لفح الحرارة الشديدة. ثمّ رأت آنخيل من بعيد: كان يثب بحماسة كبيرة، ملوّحاً بيديه في الهواء. لقد وُلد الطفل، وهو صبي. ضغطت روزالبا السلة بقوة على جسمها بكلتا يديها، وحبست أنفاسها لفترة قصيرة حتى سمعت صيحات آنخيل، «إنه صبي! إنه صبي!» راح يصيح، وصدى كلماته يتردد في أرجاء الوادي.

في تلك اللحظة بالذات، تلاشت جميع الجبال العالية من أمام عينيّ روزالبا. الامتدادات الواسعة من الأشجار والنباتات البرّية، وسفوح الجبال والوديان العذراء، اختفت جميعها، كما لو كان ذلك بفعل ساحر. وكان الأفق المفتوح الصافي يقبع بين ماريكيتا الأحدث وباقي العالم. راحت روزالبا تحدّق بإمعان في المشهد الرائع، تستمتع ببساطتها وسعتها الاستثنائية. كانت تدرك أنها مجرد رؤية، وأن التحول الفعلي لم يكن في المشهد البعيد، بل في نفسها، وفي كيفية رؤية العالم الآن. لقد منحها

الكون عينين جديدتين، بدأت تستخدمهما لاكتشاف فلسفات الحياة الجديدة والعمل والاستقلال، ومشاهد طبيعية جديدة من الانسجام والنظام، أينما نظرت. وفهمت الآن أنّ ماريكيتا الأحدث لن تكون مجرد امتداد من الأرض في الوادي الصغير، بل ستكون كذلك امتداداً لفلسفات القرية، ومفهومهن الأنثوي للزمن، ومشاعرهن القوية بالعدالة والحرية، وأنها تدل على بداية نظام مشاعي في الحكم، يتوسع في نهاية الأمر عبر التضاريس الجبلية في البلد، في أرجاء التلال ذات القمم المستوية، وسهوله وغاباته وصحاريه وأشباه جزره، حتى نهاية الزمن.

أخذت روزالبا تكفكف الدموع التي بدأت تنهمر من عينيها عندما لحقت بها مجموعة النساء. سمعن أيضاً صيحات آنخيل، وبدأن يهرعن الآن للقائه، يطلقن هتافات تحية للصبي الجديد ووالديه، وبأن تعيش قريتنا ماريكيتا إلى الأبد. أخذت روزالبا يد إلويسا في يدها، ومعاً راحتا تتبعان ببطء المجموعة أسفل المنحدر باتجاه ماريكيتا الجديدة، يغمرهما شعور بالرضى.

فقد مُنح جنسهن فرصة ثانية على الأرض.

المحتويات

هذا الكتاب

[في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٩٢ ، يقتحم الثوّار ماريكيتا، وهي قرية كولومبية جبلية نائية، ويرغمون رجالها على الالتحاق بصفوفهم، ويقتلون على الفور كل من يقاومهم او يرفض الاستجابة لطلبهم، ولا يبقى في القرية إلا الأرامل والعوانسن بالإضافة إلى قسيس القرية وفتى أبيض البشرة، يتنكّر في هيئة فتاة. وتغوص القرية في حالة من الفوضى وتمتلئ شوارعها بالأوساخ، وتعاني نساؤها من شح الطعام. وتتصور روزالبا أرملة باتينو، زوجة سارجنت الشرطة السابق، مستقبلاً جديداً لقرية الأرامل هذه. وبعد أن تنصّب نفسها قاضية للقرية، تعد بسّن قوانين جديدة، وفرض النظام، واستعادة الاقتصاد المنهار ـ وتمضي في إقامة قرية طوباوية تفوق أي مجتمع مثالي يمكن أن يتخيّله أيّ ثوري. وتصبح كليوتيد غوارنيزو، التي تصل إلى القرية بحثاً عن مكان تمضي فيه بقية حياتها، معلّمة المدرسة. وترثي دونا إميليا خسارة زبائن المبغى الذي تقوم بإدارته. وفي الوقت نفسه، تشكّل مانوليا موراليس مجموعة من الفتيات اللاتي يشعرن بالحنين إلى الرجال، ويقمن ما يشبه «مبغى سحرياً»، حيث تغوي النساء الوحيدات الرجال القادمين من القرى المجاورة قبل وصولهم إلى مبغى دونا إميليا. وبعد أن تؤدي عاصفة قوية إلى إزالة الدرب الترابي الوحيد المؤدي إلى القرية، لم يعد لنساء القرية أي سبيل للتواصل مع العالم الخارجي؛ وتقترح القاضية روزالبا «حملة الإنجاب»، حيث يقوم قسيس القرية بمضاجعة ٢٩ امرأة (يتبين فيما بعد أنه عقيم). وتعقب كل حكاية ترويها النساء، شهادات عن الفظائع التي يرتكبها الرجال المقاتلون. والرواية مشحونة بجرعات عالية من الواقعية السحرية التي اشتهر بها كتاب أمريكا اللاتينية، ومفعمة بالمواقف الساخرة والإنسانية.]

